تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

المجلد الخامس

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

تفسير
مقتنيات الدرر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير

مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

المجلد الخامس

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتصحيح

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

الحائري الطهراني، السيد ميرعلي (١٢٧٠ ـ ١٣٥٣ هـ)
تفسير مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر
العنوان والمؤلف: تفسير مقتنيات الدرر / تاليف السيد ميرعلي الحائري الطهراني
تحقيق: محمدوحيد الطبسي الحائري / مراجعة وتدقيق: محمدتقي الهاشمي /
تصحيح: حسين طه نيا
الناشر: قم، دارالكتاب الإسلامي، ٢٠١٢م ـ ١٣٩١ هـ. ش
المجموعة: (١ ـ ١٢ مجلد) لغة الكتابة: اللغة العربية
الموضوع: تفاسير شيعية ـ القرن ١٤ هـ
تسلسل: ١٣٨٨ ٧م ٢٣ح ٩٧ BP
تسلسل ديويي: ٢٩٧/١٧٩
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية: ١٨٢٧٥٨٦

با مشاركت و حمايت معاونت امور فرهنگى
وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى چاپ و منتشر گرديد

الكتاب .... تفسير مقتنيات الدرر (ج ٥)
المؤلف........................ السيد مير علي الحائري الطهراني
الناشر .... مؤسسة دارالكتاب الإسلامي
الطبعة........................ الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م
المطبعة .... ستاره
عدد المطبوع........................(٢٠٠٠) دوره
الترقيم الدولي للمجموعة .... ٩ ـ ٢٧٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
الترقيم الدولي (ج ٥) .... ٣ ـ ٢٨١ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
السعر........................٩٠٠/٠٠٠ ريال

قم ـ ميدان المعلم ـ شارع سمية ـ رقم ٢٢ ـ رقم المبنى ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤ فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

تتمة

سُورَةُ الأَعْرَافِ

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾

ذكر سبحانه في هذه القصّة من الشرح ما لم يذكر بهذا التفصيل في سائر القصص لأنّ معجزات موسى أقوى وأبسط وجهل أمّته كان أعظم.

وضمير ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ يجوز أن يرجع إلى الأنبياء أو إلى أممهم الّذين تقدّم ذكرهم بإهلاكهم.

قال ابن عبّاس: أوّل آياته العصا، ثمّ اليد، ضرب بالعصا باب فرعون فنزع منها فشاب رأسه فاستحيا فخضب بالسواد فوراً فهو أوّل من خضب، وكان للعصا مآرب قال الله: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قال ابن عبّاس: إنّه كان يضرب بها الأرض فتنبت، ثمّ هي تحارب السباع الّتي تقصد غنمه، تشتعل بالليل كالشمعة وتصير كالحبل الطويل فينزح به الماء من البئر العميقة.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ بالآيات الّتي جاءتهم لأنّ الظلم وضع الشيء في غير موضعه وهؤلاء بعد رؤية الآيات عوضاً أن يقرّوا بنبوّته أنكروا ووضعوا الإنكار مكان الإقرار ﴿فَٱنظُرْ﴾ بعين عقلك ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ كيف فعلنا بهم؟

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

وبعد أن بعث موسى أتى فرعون وقال له: ﴿إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وواجب عليّ أن لا أقول على الله إلّا الحقّ. والعرب تستعمل «على» بمعنى الباء كما تستعمل الباء بمعنى «على» كقوله: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾ أي: على كلّ صراط. ولمّا قرّر رسالته فرّع وشرع لفرعون تبليغ رسالته قال: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلق عنهم، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقّة مثل نقل التراب وضرب اللبن فعند هذا الكلام قال فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ﴾ وأحضر عندي آيتك ليصحّ دعواك في الرسالة.

وكان فرعون استعبد بني إسرائيل بعد انقراض الأسباط، فأفقدهم الله بموسى، وكان بين اليوم الّذي دخل يوسف مصر واليوم الّذي دخل موسى أربعمائة عام وألفاً.

فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾

الفاء فاء الجواب أي: فكان جواب موسى لفرعون إلقاء العصا. و«إذا» ظرف مكان ويسمّى ظرف المفاجأة، وهي بخلاف «إذا» الّتي ظرف زمان، وظرف المكان في موضع نصب. و«العصا» عود كالقضيب يابس وأصله الامتناع بيبسه، وليست المعصية مشتقّة من العصا لأنّ العصا من بنات الواو

والمعصية من بنات الياء. والثعبان الحيّة العظيمة الضخمة الطويلة أعظم الحيّات وهو الذكر، وأمّا مقدارها فغير مذكور في القرآن لكن نقل عن المفسّرين في صفتها أشياء: فعن ابن عبّاس أنّها ملأت ثلاثة وثمانين ذراعاً فشدّت على فرعون لتبتلعه فوثب فرعون عن سريره هاربا، وأحدث وانهزم الناس ومات منهم خمسة وعشرون ألفاً. وقال غيره: كان بين لحييها أربعون ذراعاً وضع لحيها الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر فصاح فرعون ـ وكان اسمه الوليد ابن مصعب، وقيل: قابوس، وفرعون لقبه ـ و«ثعبان» مشتقّ من ثعبت الماء إذا فجرته و«المثعب» موضع انفجار الماء فسمّي الثعبان لأنّه تجري كعنق الماء عند الانفجار فصاح فرعون: يا موسى خذها فأنا اؤمن بك، فلمّا أخذها موسى عادت عصا كما كانت. وأمّا تفصيل العصا فقيل: إنّه أعطاه ملك حين توجّه إلى مدين. وقيل: إنّه عصا آدم من أسّ الجنّة حين اهبط، وكان تدور في أولاد آدم حتّى انتهت النبوّة إلى شعيب فكان ميراثاً له مع أربعين عصا كانت لآبائه فلمّا استأجر شعيب موسى أمره بدخول بيت فيه العصيّ وقال له: «**خذ عصا من تلك العصيّ**» فوقع تلك العصا بيده فاستردّه شعيب وقال: «**خذ غيرها**»، حتّى فعل ذلك ثلاث مرّات في كلّ مرّة تقع يده عليها دون غيرها فتركها بيده في المرّة الرابعة.

فلمّا خرج من عنده متوجّهاً إلى مصر رأى في الطريق ناراً نحو الشجرة فناداه اللّه أن يا موسى: «**إنّي أنا الله**». وأمره بإلقائها كما تقدّم بيانه في غير هذا الموضع.

وكان الأنبياء يتّخذون العصا تجنّباً من الخيلاء قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**تعصّوا فإنّها من سنن إخواني المسلمين**»[1]، عن أمير المؤمنين قال: «**قال النبيّ صلى الله عليه وآله: من خرج في سفر ومعه عصا من لوز وتلا هذه الآية: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ ـ إلى**

١ـ انظر: الفقيه، ج ٢، ص ٢٧٠ ومجمع البيان، جلد ٤، ص ٣٢٤

قوله ـ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾[1] آمنه الله من كلّ لصّ وضارّ ومن كلّ ذات حمة حتّى يرجع إلى أهله، وكان معه من المعقّبات يستغفرون له حتّى يرجع ويضعها».[2]
وقيل: أوّل من أخذ العصا في الخطبة قسّ بن ساعدة الأياديّ.

قال له فرعون: هل لك آية اخرى؟ قال موسى: «**نعم**» فأدخل موسى يده في جيبه ثمّ أظهرها ـ و«النزع» إزالة الشيء عن مكانه المتمكّن فيه كنزع الرداء عن الإنسان ـ فلمّا أخرج يده من جيبه ومن تحت إبطه فإذا هي بيضاء. قال ابن عبّاس: وكان لها نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض غلب شعاعه شعاع الشمس، ثمّ أعاد اليد إلى إبطه فعادت إلى لونها الأوّل.

فإن قيل: إنّ الله وصف أنّ العصا صارت حيّة عظيمة وقال في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجانّ الحيّة الصغيرة واختلف الوصفان؟

فالجواب أنّ الآيتين ليستا عن قصّة واحدة بل الحالتان مختلفتان، والحالة الّتي يصفه الجانّ كانت في ابتداء النبوّة عند الشجرة، وهذه عند لقاء موسى فرعون ويمكن أنّ وجه التشبيه بالجانّ لسرعة حركتها وخفّتها مع أنّها في جسم الثعبان. قال الأشراف من قوم فرعون: إنّ موسى كثير العلم بالسحر ويريد أن يستميل قلوب بني إسرائيل إليه ويتقوّى بهم ويخرجكم من ملككم فماذا رأيكم تأمرون به؟ قيل: هذا الخطاب من الأشراف إلى فرعون وضمير الجمع لتفخيم الملوك.

قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

١ـ سورة القصص: ٢١ ـ ٢٩.

٢ـ انظر: من لايحضرالفقيه، ج ٢، ص ٢٧٠ ووسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٧٤ وبحار، ج ٧٣، ص ٢٣٠.

قرأ نافع والكسائيّ بغير همزة وكسر الهاء، وقرأ عاصم وحمزة بالهمزة وضمّ الهاء قال الواحديّ: «أرجه» مهموز وغير مهموز لغتان أي: أخّره وأخّر حكمه وحكم أخيه، وقال الكلبيّ: أي: احبسه، وهذا قول ضعيف لأنّ الإرجاء في اللّغة التأخير لا الحبس.

﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ والبلدان الّتي حولك ﴿حَاشِرِينَ﴾ جامعين للسحرة فيجمعون من يعلمونه منهم، و«الياء» إذا كانت غير أصليّة همّزت في الجمع كقبائل وإذا كانت أصليّة لم تهمز في الجمع كمعايش وقيل: المراد من «حاشرين» أصحاب الشرط أرسلهم في جمع السحرة، وكان السحرة اثنين وسبعين رجلاً، عن ابن عبّاس.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ليعارضوا موسى فجاؤوا من مدائن الصعيد وكان رئيسهم رجلاً مجوسيّاً من أهل نينوا بلدة يونس عليه السلام، وهي قريبة من الموصل، وهذا بعيد لأنّ المجوس أتباع زردشت، وزردشت إنّما جاء بعد موسى.

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾ وقالوا لفرعون: هل لنا أجر إن غلبنا موسى عليه السلام؟ قال فرعون: لكم أجر وبعد الأجر أنّكم تصيرون عندي من المقرّبين.

وهذه الآية دليل على أنّ السحر ليس له حقيقة أصليّة وأنّ الساحر لا يقدر أن يقلّب الأعيان. وإلّا لما احتاجوا إلى الأجر وما طلبوه، ولو أنّهم كانوا قادرين على قلب الأعيان فلم يجعلون السحر كسبهم؟ ولم يقلّبوا التراب ذهباً؟ ولم لم يقلّبوا ملك فرعون إلى أنفسهم ويصيرون ملوك العالم؟.

قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا

صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

قال علماء النحو في باب إمّا وأمّا: إذا كنت آمراً أو ناهياً أو مخبراً فهي مفتوحة، وإذا كنت مشترطاً أو شاكّاً أو مخيّراً فهي مكسورة تقول في المفتوحة: أمّا الله فاعبدوه وأمّا الخمر فلا تشربوها، وفي المكسورة فتقول إذا كنت مشترطا: فإمّا تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم، وتقول في الشكّ: لا أدري من قام إمّا زيد أو عمرو، وتقول في التخيّر: لي بالكوفة دار فإمّا أن أسكنها وإمّا أن أبيعها.

قال السحرة لموسى: اختر أن تلقي أو نلقي، فرزقهم الإيمان ببركة رعاية الأدب. ويتبيّن من الكلام أنّ القوم كان رغبتهم في الإلقاء ابتداء لأنّهم ذكروا الضمير المتّصل وأكّدوه بالمنفصل. فلمّا رأى موسى رغبتهم في الإلقاء قال: «ألقوا ما أنتم ملقون» فلو قيل: إنّ أمر موسى إيّاهم بالإلقاء مع أنّ هذا الفعل معارضة للمعجزة وهو حرام لأنّ موسى علم أنّهم يفعلون وإنّما التخيّر في التقديم والتأخير، وأنّه عليه السلام يريد إبطالهم ما يكون بالسحر وما كان يتحقّق هذا الإبطال إلّا بالإلقاء فأذن لهم بالتقديم ثقة بما وعده الله وهو كمن يريد سماع شبهة منهم ليجيب عنها فكذا هاهنا، وكان عملهم مجرّد التمويه ولو كان له حقيقة ثابته لما قيل: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: سحروا قلوب الناس فقلّبوا الأعين عن صحّة إدراكها وقد أتوا بالحبال والعصيّ ولطخوها بالزيبق وجعلوا الزيبق في دواخل العصيّ فلمّا أثّر تسخين الشمس فيها كقمر ابن المقفّع تحرّكت والتوى بعضها ببعض والناس تخيّلوا أنّها تتحرّك باختيارها وقدرتها.

﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ قيل: السين زائدة، قال الزجّاج: ليست بزائدة بل إنّ

السحرة بعثوا جماعة من الناس ينادون عند إلقاء ذلك: أيّها الناس احذروا وهذا هو الاسترهاب ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ قيل: إنّهم كانوا بضعة وثلاثين ألفاً، واختلفت الروايات حتّى روي إلى سبعين ألفاً.

ولمّا ألقوا أوحى الله إلى موسى أو ألهمه: ﴿أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾ فيه حذف وإضمار والتقدير: فألقاها. وتلقف قرئ مشدّدة، واللّقف الأخذ السريع إذا أخذته فأكلته أو ابتلعته. فصارت العصا ثعباناً وابتلعت ما ألقوا، و«ما» موصولة أي: الّذي أفكوه لأنّ ما ألقوه وأفكوه كذب لا حقيقة، فلقفت الحيّة إفكهم تسمية للمأفوك بالإفك قيل: المأفوك كان حمل ثلاثمائة بعير فقال السحرة: لو كان ما صنع سحراً مثل ما صنعنا لبقيت حبالنا وعصيّنا ولم تفقد، وذلك إنّما حصل بقدرة الله لا السحر.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ﴾ ورجعوا صاغرين وذليلين فاستدلّوا بهذا الأمر على أنّ موسى نبيّ صادق فلأجل علمهم واستدلالهم خرجوا عن عطلة الكفر ودخلوا في هداية الإيمان. ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ ولم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين وآمنوا في حال السجود فسجدوا شكراً لله على هدايتهم أوّلا لنعمة الإيمان، ثمّ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال فرعون: إيّاي يعنون لأنيّ ربّيت موسى! قالوا وهارون فزالت الشبهة.

قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ (١٢٤) قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ (١٢٦)

قرئ «ء أمنتم» بهمزتين على سبيل الاستفهام.

لمّا رأى فرعون أنّهم أقرّوا بنبوّة موسى عند اجتماع الخلق العظيم فألقى في الحال شبهتين إلى أسماع الناس:

الأولى: أنّ هذا لمكر مكرتموه، وأنّكم تواطأتم مع موسى أنّه إذا كان كذا وكذا فنحن نؤمن بك.

والثانية: أنّهم تواطؤوا مع موسى لأجل إخراج القوم من المدينة وإبطال ملكهم فيصيرون ملوكاً. وعن محمّد بن جرير عن السدّيّ في حديث عن ابن عبّاس وابن مسعود وغير هما أنّ موسى وأمير السحرة التقيا فقال موسى: «**أ رأيتك إن غلبتك أ تؤمن بي؟**» قال الساحر: لآتينّ غداً بسحر لا يغلبه سحر، لئن غلبتني لأومننّ بك، وفرعون ينظر إليهما ويسمع قولهما، فهذا قول فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ فهدّدهم فرعون بالوعيد فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وما اقتصر على هذا الوعيد المجمل فقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقطع اليد والرجل من خلاف هو أن يقطعهما من جهتين مختلفتين إمّا من اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو من اليد اليسرى والرجل اليمنى.

وهل هذا الوعيد حصل أم لا؟ قال ابن عبّاس: حصل لقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يدلّ على أنّه قد نزل بهم بلاء شديد. وقال بعض: ما حصل. وقالوا لفرعون: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: صبّ علينا كلّ الصبر لأنّ الإفراغ صبّ جميع ما في الإناء وتوفّنا على حالة الإسلام والتسليم لدينك.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

روي أنّه لمّا أسلم السحرة وآمنوا آمن من بني إسرائيل ستّمائة ألف نفس فقال الأمراء من أصحاب فرعون: أ تذر موسى وقومه ليظهروا مخالفتك بعبادة غيرك؟ وكان فرعون يستعبد الناس وهو بنفسه يعبد الأصنام. قال السدّيّ يعبد ما يستحسن من البقر. وقيل: إنّه كان يأمر بعبادة البقر ولذلك أخرج السامريّ لهم عجلاً جسداً له خوار لكن قال مجاهد: فرعون يُعبد ولا يعبد.

قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الّذين فيهم النجدة والقوّة ونستبقي بناتهم ونساءهم إذ لا يكون فيهنّ النجدة والقوّة وقد انقطع طمعه عن موسى لما رأى من علوّ قدرته وقوّته فانتقل إلى عذاب المستضعفين ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾. فشرع ثانياً بقتل بني إسرائيل فشكى بنو إسرائيل إلى موسى فأمرهم بالاستعانة بالله والصبر على دينكم وعلى أذى فرعون ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: بني إسرائيل لموسى: قد أوذينا قبل مجيئك بالنبوّة بقتل أولادنا، وأوذينا بعد مجيئك هذا اليوم بهذا القتل الثاني فجدّد موسى لهم بالوعد قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾ مكانهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيرى بوقوعه فيكم ليجازي عباده بالوقوع لا على ما يعلم.

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

اللّام للقسم أي: ولقد عاقبنا قوم فرعون بالجدب والقحط ونقصان من ثمراتهم، وإنّما أنزل عليهم هذه المضارّ ليتذكّروا وينقادوا ومع ذلك أقدموا على ما يزيد في عصيانهم. ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ أي: النعمة والثمار والخصب قالوا: هذه النعم لاستحقاقنا ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌ﴾ يريد القحط والمرض. والشدّة يتشأموا بموسى وقومه ألا إنّ طائرهم وشؤمهم لقضاء اللّه وحكمه ويقال للشؤم: طيرة وطائر، والعرب كانوا في عنافة الطير وزجرها رغبة ويزعمون التطيّر ببارحها ونعيق غربانها والأخذ بذات اليسار إذا أثاروها من أوكارها فقالوا: بارح وربّ الكعبة، وإذا أخذت ذات اليمين قالوا: سارح وربّ الكعبة وتفألوا بها فأبطل اللّه بقوله: ﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنّه بقضائه وأنّ طيرتهم باطلة.

قال النبيّ ﷺ: **«لا طيرة»**[١] وكان النبيّ ﷺ يتفأل ولا يتطيّر[٢]، والفال الكلمة الحسنة كقول الرجل من غير قصد في كلامه: يا سالم فيتفأل به للمريض أو المسافر بالسلامة.

وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

حكى سبحانه من جهالاتهم بأنّهم لم يميّزوا المعجزة من السحر، وجعلوا انقلاب العصا ثعباناً من باب السحر فقالوا: ﴿مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ﴾ وكلمة «مهما» أصلها ماما، وما الأولى ما الجزاء والثانية تأكيد للجزاء كما يراد في «كيفما» ثمّ أبدلوا من ألف ما الأولى هاء كراهة تكرار اللفظ فصار مهما، هذا

١ـ الفصول المهمة، ج ٣،ص ٣٤٠

٢ـ بحار الأنوار، ج ٦٠، ص ١٨

قول البصريّين، وقال الكوفيّون: ما الأولى أصلها «مه» بمعنى اكفف دخلت على ما الّتي للشرطيّة فصيّر المعنى اكفف فيكون المعنى أي شيء تأتي به فهو سحر ونحن لا نؤمن بها البتّة.

ولمّا قالوا هذا الكلام لموسى قال ابن عبّاس: وكان موسى عليه السلام رجلاً حديداً فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله دعاءه فأرسل الله عليهم الطوفان عقوبة لجرائمهم أي: الماء الّذي طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر وسيل. وقيل: الجدري. وقيل: الطاعون.

قال الصادق عليه السلام: **«الماء طاف بهم والطاعون وأرسل الطوفان من سبت إلى سبت ومن أسبوع إلى أسبوع ليلاً ونهاراً».**

فاستغاثوا وصرخوا إلى فرعون، فأرسل فرعون إلى موسى وقال: اكشف عنّا العذاب فقد صارت المصر بحراً واحداً لئن كشفت عنّا العذاب آمنّا بك، فأزال الله عنهم العذاب وأرسل الرياح فجفّفت الأرض وخرج من النبات ما لم يروا مثله قطّ. فقالوا: هذا الّذي جزعنا منه خير لنا لكنّا لم نشعر به فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بني إسرائيل فنكثوا العهد.

فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل النبات وعظم الأمر عليهم حتّى صارت عند طيرانها تغطي الشمس ووقع بعضها على بعض في الأرض ذراعاً فأكلت النبات فصرخ أهل مصر، فدعا موسى فأرسل الله ريحاً فألقته في البحر فنظر أهل مصر إلى أنّ بقيّة من زروعهم تكفيهم، فقالوا: هذا الّذي بقي يكفينا ولا نؤمن بك يا موسى، وبين كلّ عذاب وعذاب سنة.

فأرسل الله عليهم القمّل من سبت إلى سبت وهي السوس وقيل: صغار الجراد فلم يبق في أرضهم عود أخضر إلّا أكلته فصاحوا واستغاثوا لموسى وعاهدوا بالإيمان فأرسل الله عليها ريحاً حارة فأحرقتها، وأماتتها

واحتملتها الريح فألقتها في البحر فلم يؤمنوا.

فأرسل اللّه عليهم الضفادع فصرخوا إلى موسى وحلفوا بإلهه لئن رفعت عنّا هذا العذاب لنؤمن بك فدعا موسى فأمات اللّه الضفادع وأرسل عليها المطر والسيل فأزالها إلى البحر ثمّ أظهروا الكفر والفساد.

فأرسل اللّه عليهم الدم فجرت أنهارهم دماً فكان للقبطيّ دماً وللإسرائيليّ يراه ماء فإذا شربه الإسرائيليّ كان ماء والقبطيّ كان دماً، وكان القبطيّ يقول للإسرائيليّ: خذ الماء في فيك وصبّه في فمي فكان إذا صبّه في فم القبطيّ تحوّل دماً، وإنّ فرعون اعتراه العطش حتّى أنّه اضطرّ إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها تصير في فمه دماً، فمكثوا سبعة أيّام يشربون الدم وقيل: الدّم الّذي سلّط اللّه عليهم الرعاف.

فأتوا موسى فقالوا: ادع لنا ربّك أن يكشف عنّا هذا الدم فنؤمن ونرسل بني إسرائيل معك، لأنّ فرعون كان قد حبس بني إسرائيل عنده، فلمّا رفع اللّه عنهم الدمّ لم يؤمنوا ولم يخلّوا عن بني إسرائيل.

ومكث موسى فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات بين برهة من الزمان «مفصّلات» فصّل بين بعضها وبعضها، فاستكبروا مع ذلك وصاروا قوماً مجرمين أو كان بمعناه.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾

اختلفوا في المراد من الرجز فقال بعضهم: المراد الأنواع الخمسة المذكورة. قال سعيد بن جبير: المراد الطّاعون الّذي أصابهم في يوم واحد فمات منهم سبعون ألف قبطيّ فتركوا بغير دفن فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا

عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي: المعاهدة الّتي بيننا بأن إذا آمنّا رفع العذاب عنّا.

وقيل: الباء للقسم وجوابه: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ وقيل: معنى قوله: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما تقدّم لك أنّك إن تدعوه به فيجيبك كما أجابك في تلك المرات.

قال الصادق عليه السلام: «**إنّه قد أصابهم فلج أحمر ولم يروه قبل ذلك فماتوا فيه**».[1]

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ ﴾ إلى وقت معيّن هم بالغوه لا مطلقاً وبالكلّيّة فاجؤوا النكث والخلف.

فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾

لمّا كشفنا عنهم العذاب من قبل مرات وكرات ولم يمتنعوا عن كفرهم ثمّ بلغوا الأجل الموقّت انتقمنا، والانتقام سلب النعمة بالعذاب. و«اليمّ» البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمّم لأنّ المستقين به يقصدونه وكانوا عن هذه النقمة غافلين. والضمير عائدة ومرجعه إلى النقمة الّتي دلّ عليها قوله «انتقمنا» أو إلى الآيات، والمراد عن الغفلة عدم الاعتناء.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

المراد بالاستضعاف اتّخاذ فرعون بني إسرائيل عبيداً وقتل أبنائهم وأخذ الجزية منهم. ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ﴾ قيل: مشارق أرض الشام ومصر لأنّها هي الّتي كانت تحت تصرّف فرعون وهي الّتي بوركت بالخصب والنعمة. وقيل: المراد جملة الأرض وذلك لأنّه خرج من جملة بني إسرائيل داود وسليمان وقد ملك الأرض. و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ تأنيث الأحسن صفة للكلمة، المراد

١ـ انظر: مجمع البيان، جلد ٤، ص ٣٤٣؛ وبحار، ج ١٣، ص ٨٣.

إنجاز الوعد الّذي تقدّم بإهلاك عدوّهم واستخلافهم في الأرض، وذلك بسبب صبرهم على البلاء. ومن قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله له بالفرج. ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ﴾ يريد معروشات فرعون من الجنّات وبنائه المشيّد كصرح هامان.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٣٩)﴾

ولمّا ضرب موسى عصاه على البحر وفلقه وجعله الله يبساً، وجاوز بنو إسرائيل البحر شاهدوا قوماً ملازمين على أصنام يعبدونها. يقال: عكف أي: لزم شيئاً، والمعتكف ملازم المسجد.

قال قتادة: كان أولئك القوم من لخم وكانوا نزولاً بالرّيف وكانت الأصنام تماثيل بقر، وذلك أوّل بيان قصّة العجل ومنشؤه.

فلمّا رأوا تلك التماثيل قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وطلبوا من موسى أن يعيّن لهم تمثالاً يتقرّبون بعبادته إلى الله وهذا القول هو الّذي حكاه عن عبدة الأوثان حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ ومن المعلوم أنّ هذا القول ما صدر من جميع بني إسرائيل لأنّه كان مع موسى السبعون المختارون وكان فيهم من يرتفع شأنه عن مثل هذا السؤال الباطل، فأجابهم موسى أنّكم قوم جاهلون.

ثمّ بيّن لهم موسى أنّ هؤلاء العاكفين على عبادة الأصنام متبّرون وهالكون، من تفتّت التبر والذّهب المتكسّر وأنّ عملهم باطل.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٠)﴾

قال موسى على سبيل التعجّب والإنكار: أغير الله أطلب لكم إلهاً، وبعض جعلوا «إلهاً» حالاً و«غيراً» مفعولاً به، وبعض بالعكس. وهو فضّلكم على أهل زمانكم وأنتم اختصصتم بهذه الآيات على تمام أهل عالمكم.

وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

وتفسير هذه الآية مرّ في سورة البقرة لا حاجة إلى الإطالة. والغرض في بيان نعم الله على بني إسرائيل فكيف يليق مع هذه النعم عبادة غيره؟

وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

قرئ «ووعدنا». روي أنّ موسى وهو بمصر وعد بني إسرائيل أن إذا أهلك الله عدوّهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلمّا هلك فرعون سأل موسى ربّه الكتاب، فهذه الآية بيان كيفيّة نزول التوراة.

فإن قيل: وما الحكمة هاهنا في ذكر الثلاثين ثمّ إتمامها بعشر؟

وأيضا لو قيل: إنّ قوله: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يتبيّن أنّه كلام عارٍ عن الفائدة لأنّ كلّ أحد يعلم أنّ الثلاثين مع العشر يكون أربعين؟

فالجواب أنّه أمر تعالى موسى بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة وأن يعمل فيها ما يقرّبه إلى الله فبعد أن أتمّ الثلاثين أنزلت التوراة في العشرة البواقي، وكلّمه وناجاه في العشرة الرابعة فتمّت النعمة بهذا الترتيب فهذه هي الفائدة في تفصيل الأربعين بهذا البيان.

ويمكن أن يكون موسى أتى الطور عند تمام الثلاثين فلمّا أعلمه الله

خبر قومه مع السامريّ رجع فوراً إلى قومه، ثمّ عاد إلى الميقات في عشرة أخرى، فتمّ أربعون ليلة.

ويمكن أن يكون الوعد الأوّل لموسى وحده وحضره، والوعد الثاني حضر المختارون معه ليسمعوا كلام اللّه فصار الموعد اثنان لاختلاف حال الحاضرين.

قال الرازيّ في «المفاتيح» والعلّامة أبو السعود في تفسيره: إنّه تعالى أمر موسى بصوم ثلاثين يوماً فلمّا أتمّ الثلاثين أنكر خلوف فمه فتسوّك فقالت الملائكة: كنّا نشمّ عن فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأوحى اللّه إليه أنّ خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ثمّ أمره أن يزيد عليها عشرة أيّام ذي الحجّة لهذا السبب. وعن الجواب الثاني أجابوا أنّه تعالى: قال: ﴿أَرْبَعِينَ﴾ إزالة لتوهّم أنّ ذلك العشر من الثلاثين لأنّه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين كأنّه كان عشرين ثمّ أتمّه بعشر فصار ثلاثين فأزال هذا الإبهام.

﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نصب على الحال أي: تمّ بالغاً هذا العدد. ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم ﴿وَأَصْلِحْ﴾ ما يجب أن يصلح لهم، ومن دعاك إلى الفساد فلا تطعهم. فإن قيل: إنّ هارون كان نبيّا والنبيّ لا يفعل إلّا الصلاح فالمقصود التأكيد. و«الميقات» يمكن أن يكون ظرف زمان، ويمكن أن يكون ظرف مكان كما استعمل في مواقيت الإحرام، فإنّها ظروف للأمكنة المخصوصة لأهل الآفاق.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

دلّت الآية على أنّه سبحانه كلّم موسى في الميقات وهاهنا بيانات عالية

من العلوم الالهيّة، ومن المعلوم أنّه سبحانه ما كلّمه بلسانه فإنّه منزّه من أن يكون له لسان وفم يتكلّم به، بل إنّ اللّه أحدث الكلام في الشجرة وجعل الكلام منبعثاً منها فسمع كلامه من جميع الأطراف من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام.

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي: من غير واسطة سفير من الملائكة كما يكلّم الملائكة من غير سفير.

واختلفوا في أنّه تعالى كلّم موسى وحده أو كلّمه مع أقوام آخرين؟ وظاهر الآية يدلّ على الأوّل. وقال جماعة منهم القاضي عبد الجبّار: بل السبعون المختارون سمعوا أيضا لأنّ الغرض من إحضارهم أن يخبروا قوم موسى ويشهدوا عمّا يجري هناك. ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ في «العيون» عن الرضاعليه السلام أنّه سئل كيف يجوز أن يكون موسى لا يعلم أنّ اللّه لا يجوز عليه الرؤية حتّى يسأله هذا السؤال؟ فقال عليه السلام: «**إنّ كليم الله علم أنّ الله سبحانه منزّه عن أن يرى بالأبصار ولكنّه لمّا كلّمه الله وقرّبه نجياً رجع إلى قومه فأخبرهم بذلك، فقالوا: لن نؤمن لك حتّى نسمع كلامه كما سمعته. وكان القوم سبعمائة ألف فاختار منهم سبعين ألف ثمّ اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربّه فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم في سفح الجبل، وصعد موسى إلى الطور وسأل الله أن يكلّمه ويسمعهم كلامه فكلّمه الله وسمعوا كلامه من جميع الجهات، فقالوا: لن نؤمن بأنّ الّذي سمعناه كلام الله حتّى نرى الله عياناً! فلمّا قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عليهم صاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم فماتوا. فقال موسى: يا ربّ ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا: إنّك ذهبت بهم فقتلتهم لأنّك لم تك صادقاً فيما ادّعيت؟ فأحياهم الله وبعثهم معه. فقالوا: إنّك لو سألت الله أن يراك تنظر إليه لأجابك كما أجابك في الكلام فقال موسى: يا قوم إنّ الله لا يرى**

بالأبصار ولا كيفيّة له وإنّما يعرف بآياته، فقالوا: لن نؤمن حتّى تسأله فقال موسى: يا ربّ إنّك سمعت ما قاله بنو إسرائيل، فأوحى الله إليه: يا موسى سل ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ ـ وهو لا يهوي ـ ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ بآية من آياته ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ وقرئ دكّاء فمعنى دكّاً أي: رميماً متفتتاً ودكّاء أي: صار ربوة عالية أو معنى الدكّ: مدقوقاً وصار تراباً مع الأرض استوى ووقع موسى مغشياً عليه، فلمّا أفاق من غشيته قال: منزّه عن الأبصار أنت يا ربّ ورجعت إلى معرفتك عن سؤال قومي وجهلهم».[(١)]

وفي «تفسير العيّاشي» عن الصادقعليه السلام أنّ موسى بن عمران لمّا سأل ربّه النّظر إليه وعده الله أن يقعد في موضع ثمّ أمر الملائكة أن تمرّ عليه موكباً موكباً بالبرق والرعد والصواعق فكلّما مرّ به موكب من المواكب ارتعدت فرائصه فيرفع رأسه فيسأل أ فيكم إلخ؟ ثمّ قالت الملائكة: سألت أمراً عظيماً يا ابن عمران.[(٢)]

وعنه وعن الباقرعليه السلام: **«لمّا سأل موسى ربّه النظر قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ قال: فصعد موسى الجبل وفتحت له أبواب السماء وأقبلت الملائكة أفواجاً في أيديهم العمد وفي رأسها النور يمرّون به فوجاً بعد فوج يقولون: يا ابن عمران أثبت فقد سألت أمراً عظيماً، فلم يزل موسى واقفاً حتّى تجلّى ربّنا جلّ جلاله فجعل الجبل دكّاً وخرّ موسى صعقاً، فلمّا أفاق قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾»**.[(٣)]

١ـ عيون أخبار الرضاعليه السلام، ج ٢، ص ١٧٨؛ ورواه الفيض في تفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٢٣.

٢ـ التفسير الأصفي، ج ١،ص ٤٠٠. وبحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٢٩.

٣ـ بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٢٢٨؛ مسند الإمام الرضاعليه السلام، ج ٢، ص ١٢٩.

وفي رواية أنّ النار أحاطت بموسى لئلّا يهرب هول ما رأى، فلمّا أن ردّ اللّه روحه أفاق فقال: سبحانك.[1] القميّ في قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾، قال: فرفع اللّه الحجاب ونظر إلى الجبل فساخ الجبل فهو يهوي إلى الساعة، ونزلت الملائكة وفتحت أبواب السماء فأوحى اللّه إلى الملائكة أن أدركوا موسى لا يهرب، فأحاطت الملائكة بموسى وقالوا: أثبت يا ابن عمران فقد سألت اللّه أمراً عظيماً فلمّا نظر موسى أنّ الجبل قد ساخ والملائكة قد نزلت وقع على وجهه من خشية اللّه وهول ما رأى فردّ اللّه إليه روحه وأفاق وقال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: أنا أوّل من آمن بأنّك لا ترى.

وفي «البصائر» عن الصادق عليه السلام: **«إنّ الكرّوبين قوم من شيعتنا من الخلق الأوّل جعلهم خلف العرش لو قسّم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم»** ثمّ قال عليه السلام: **«إنّ موسى لمّا سأل ربّه ما سأل أمر الله واحداً من الكرّوبين فتجلّى للجبل وجعله دكّاً»**.[2]

وقيل في الآية وجه آخر وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ﴾ أي: عرّفني نفسك تعريفاً جليّاً واضحاً بإظهار آية من بعض الآيات الّتي تضطرّ الخلق إلى معرفتك حتّى أعرفك معرفة ضروريّة كأنّي أنظر إليك، فقال سبحانه: لن تطيق معرفتي على هذا الطريق ولن تحتمل قوّتك تلك الآية فإنّي أورد على الجبل آية من تلك الآيات فإن احتمل لتجلّيه واستقرّ فسوف تثبت أنت لها.

وتحقيق القول في الرؤية ما أفاده مولى العالمين أمير المؤمنين حيث

١ـ التفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٧، ورواه المجلسي في البحار، ج ١٣، ص ٢٢٩، والتفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٣٥.

٢ـ بصائر الدرجات، للصفار، ص ٨٩ والتفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٣٥، وبحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٣٤٢.

قال: لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس ولا يدرك بالحواسّ ولا يشبه بالنّاس، موصوف بالآيات، معروف بالعلامات[١]، فقال: أنا لم أعبد ربّاً لم أره[٢] تعالى اللّه عمّا يصفه المشبّهون والملحدون علوّاً كبيراً. وهذه الأخبار مرويّة عن أئمّتنا بطريق الخاصّة.

وأمّا ما رواه العامّة فالاختلاف في المسألة كثير فزعمت الحنابلة والحشويّة أنّ الكلام المركّب من الحروف والأصوات قديم، وهذا القول أخسّ من أن يلتفت إليه العاقل كما قال الرازيّ في المفاتيح قال: لأنّه تعالى إمّا أن يتكلّم بهذه الحروف على الجمع أو على التعاقب والتوالي.

والأوّل باطل لأنّ هذه الكلمات المسموعة المفهومة إنّما تكون مفهومة إذا كانت حروفها متوالية وأمّا إذا كانت توجد دفعة واحدة فذاك لا يكون مفيداً البتّة. والثاني يوجب كونها حادثة لأنّ الحروف إذا كانت متوالية فعند مجيء الثاني ينقضي الأوّل فالأوّل حادث لأنّ كلّ ما ثبت عدمه امتنع قدمه، والثاني أيضاً حادث لأنّ كلّ ما كان وجوده متأخّراً عن وجود غيره فهو حادث.

فإذا ثبت هذا البيان فللناس قولان: الأوّل: أنّ محلّ تلك الحروف والأصوات الحادثة هو ذات اللّه، وهو قول الكراميّة. الثاني: أنّ محلّها جسم مبائن لذات اللّه كالشجرة وأمثالها، وهو قول المعتزلة.

والقول الثاني قول أكثر أهل السنّة وهو أنّ كلام اللّه صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات يقولون: إنّه قديم أزلي.

والقائلون بهذا القول اختلفوا في الشيء الّذي سمعه موسى فقالت الأشاعرة: إنّ موسى سمع تلك الصفة الأزليّة وقالوا: وكما لا يتعذّر رؤية ذاته

١ـ الكافي، ج ١، ص ٩٧؛ والتوحيد، للصدوق، ص ١٠٨.

٢ـ انظر: كافي، ج ١، ص٩٨؛ والتوحيد، للصدوق، ص ١٠٢ و١٠٩ و٢٢٨.

مع أنّ ذاته ليست جسماً ولا عرضاً فكذلك لا يبعد سماع كلامه، مع أنّ كلامه لا يكون حرفاً، ولا صوتاً. والحقّ أنّ هذا التفصيل والبيان ما أقر به إلى الشعوذة! لأنّ العقل لا يتصوّر أن يسمع الإنسان كلاماً ويفهم منه معنى ولا يكون الكلام صوتاً ولا حرفاً. وقال أبو منصور الماتريديّ: إنّ الّذي سمعه موسى أصوات مقطّعة وحروف مؤلّفة قائمة بالشجرة فالصفة الأزليّة الّتي ليست بحرف ولا صوت ما سمعه موسى عليه السلام البتّة وهذا القول يمكن أن يتصوّره الإنسان، وليس خارجاً عن قوّة التصوّر.

وقد قيل في سؤال موسى الرؤية قول آخر: وهو أنّ موسى ما عرف أنّ الرؤية غير جائزة على اللّه. قالوا: ومع الجهل بهذا المعنى قد يكون المرء عارفاً بربّه وبعد له وتوحيده ولم يبعد أن يكون العلم بامتناع الرؤية وجوازها موقوفاً على السمع ولم يسمع موسى بعد.

وقال أبو بكر الأصمّ: إنّ مقصود موسى من سؤال الرؤية أن يذكر تعالى من الدلائل السمعيّة ما يدلّ على امتناع رؤيته حتّى يتأكّد الدليل العقليّ بالدليل السمعيّ، وتعاضد الدلائل أمر مطلوب للعقلاء.

وأقول: إنّ من الدلائل على امتناع الرؤية مطلقاً لا في الدنيا ولا في الآخرة لا لنبيّ مرسل ولا لمؤمن صالح هو أنّ النبيّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعظم الأنبياء وأكرم الخلق أجمعين إذا لم يطق أن يرى جبرئيل بصورته الأصليّة حين نزول الوحي مع هذا الأمر المهمّ وهو يتصوّر بغير صورته كدحية الكلبيّ وغيره فكيف يتمكّن البشر أن يرى اللّه أو يرى موسى أو يرون الملائكة؟ تعالى اللّه عن ذلك علوّاً كبيراً. على أنّ في القرآن ما يدلّ على امتناع الرؤية كقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾[1] وقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ يدلّ على أنّ موسى لا

١ـ سورة الأنعام: ١٠٣.

يرى الله لا في الدنيا ولا في الآخرة.

فإن قيل: من أين ثبت معنى التأبيد من كلمة لن؟ فالجواب أنّ قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يتناول الأوقات كلّها بدليل صحّة الاستثناء ومقتضى الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل تحت اللفظ ونحن نرى أنّ كلمة «لن» متى استعملت أريد منها تأبيد النفي فإنّ قولنا «لا أفعل» و«لن أفعل» بين معناهما فرق بعيد وليس الفرق إلّا التأبيد كقوله: ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾.[1]

ثمّ إن كانت الرؤية ممكنة وجائزة فلم خرّ عند سؤالها صعقاً، ولمّا أفاق قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ والمراد من هذه الكلمة تنزيه الله عمّا لا يليق؟ والّذي تقدّم ذكره هو الرؤية وتنزيه الله إنّما يكون عن النقائص فوجب كون الرؤية من النقائص وذلك محال على الله في الدنيا وفي الآخرة، وبهذه الدلائل القطعيّة وجب صرف بعض الآيات الدالّة على الرؤية إلى التأويل مثل قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2] وأمثالها.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

هذه الآية تسلية لخاطر موسى أن منعه الله من الرؤية، كأنّه يقول: إذا طلبت لقومك الرؤية ومنعتك فقد أعطيتك من النعم العظيمة الّتي خصصتك بها، فاشتغل بشكرها، وهي أنّي اتّخذتك صفوة على الناس ومنتخباً برسالاتي، وقرئ «برسالتي» ويجوز إفراده لأنّه مصدر في موضع الجمع «وبكلامي» أي: أنت كليمي. فإن قيل: كيف اختصاصه مع أنّ كثيراً من الناس ساواه في الرسالة؟

الجواب أنّ الاختصاص وقع بمجموع الأمرين وهو الرسالة والكلام

١ـ سورة الحج: ٧٣.

٢ـ سورة القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

بغير واسطة الملائكة، وهذان الأمران مجموعاً لم يتّفق لغيره إلى زمانه. فخذها واشتغل لشكرها والقيام بلوازمها علماً وعملاً.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)﴾

قال الزمخشريّ عن المفسّرين: إنّ موسى خرّ صعقاً يوم عرفة، وأعطاه الله التوراة يوم النحر.

وذكروا في عدد الألواح وفي جوهرها أنّها كانت عشرة ألواح. وقيل: سبعة وأنّها من زمرّدة جاء بها جبرئيل: وقيل: من زبرجدة وياقوتة حمراء. وقيل: من خشب. قال وهب: كانت من صخرة صمّاء.

وأمّا كيفيّة الكتابة فقال ابن جريح: كتبها جبرئيل بالقلم الّذي كتب به الذكر واستمدّ من نهر النور ولكن ليس في الآية ما يدلّ على كيفيّة الألواح وكيفيّة الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قويّ وجب القول به.

والمراد بقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كلّ ما يحتاج به موسى وقومه في دينهم من الحلال والحرام، والمحاسن والمقابح. ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بيان للجملة السابقة. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وهاهنا سؤال وهو أنّه تعالى لمّا تعبّد بكلّ ما في التوراة وجب كون الكلّ مأموراً به وقوله: ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ يقتضي أنّ فيه ما ليس بأحسن وأنّه لا يجوز لهم الأخذ به، وذلك متناقض فذكروا وجوهاً: الأوّل أنّ تلك التكاليف منها ما هو حسن ومنها ما هو أحسن: كالقصاص والعفو، قال الله: فمرهم يأخذوا بأحسنها وهو العفو، ويحمل الأحسن على الندب والحسن على الإباحة فيزول التناقض.

الوجه الثاني قال: يأخذوا بأحسنها أي: لحسنها كقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ

أَكۡبَرُ﴾(١) أي: كبير. قال الفرزدق:

إنّ الّذي رفع السماء بنى لـه بيتـاً دعائمـه أعـزّ وأطـول

﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ قال ابن عبّاس: المراد التهديد والوعيد كي لا يخالفوا التوراة ويكونوا من الفسّاق ويستوجبوا بالمخالفة دارهم. قال قتادة: المراد: سأدخلكم الشام وأراكم منازل الكافرين الّذين كانوا متوطّنين بها من الجبابرة لتعتبروا بها وما صاروا إليه من النكال. قال الكلبيّ: دار الفاسقين هي المساكن الّتي كانوا يمرّون عليها إذا سافروا مثل منازل عاد وثمود والقرون الهالكة. وقيل: المراد الوعد والبشارة بأنّه تعالى سيورثهم أرض أعدائهم وديارهم كما أورثهم.

سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾

النظم: لمّا تقدّم ذكر المعجزات لموسى وما طلب فرعون من إبطال معجزات موسى بالسحر بيّن في هذه الآية بأنّه يمتنع عن إيصال آياتي المكذّبون والمتكبّرون كفرعون وأمثاله ولا يظهر المعجزات إلّا على يد نبيّ.

وقيل: إنّها خطاب لموسى عن إتمام ما وعده في إهلاك أعدائه وصرفهم عن الاعتراض له أي: خذ التوراة واعمل أنت وقومك آمناً على قوّة ولا تخف من عدوّ لك، وقد صرفت المعارضة عن آياتي الّتي جعلتها حجّة لك وسوف أصرف.

١ـ سورة العنكبوت: ٤٥.

وقيل: الآيتان اعتراض بين قصّة موسى، والخطاب لمحمّد ﷺ أنّه يصرف المنكرين عن نبوتك كما صرف فرعون عن موسى.

والأشاعرة احتجّوا بهذه الآية على أنّه تعالى يمنع عن الإيمان بظاهر الآية وهذا قول فاسد لأنّه من المعلوم أنّ العقوبة على الكفر بعد خلق الكفر فيهم لا يجوز ولو صرفهم عن الإيمان وصدّهم عنه كيف يمكن ويجوز أن يقول مع ذلك: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] وفي موضع آخر يقول: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾[2] وفي موضع قال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا﴾[3]؟ فثبت أنّ حمل الآية على هذا الوجه غير ممكن بل المراد والمعنىّ إعلام النبيّ بمنع أعدائه من إيذائه وأمره بالقيام بما يلزمه في تبليغ النبوّة والرسالة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.[4]

وقال الجبّائيّ: معنى الآية: سأصرف هؤلاء المتكبّرين عن نيل ما في آياتي من العزّ والكرامة المعدّة للأنبياء والمؤمنين عقوبة على كفرهم وكبرهم عليّ. ثمّ من الآيات آيات لا يمكن الانتفاع بها إلّا بعد سبق الإيمان فإذا تكبّروا وكفروا فقد صيّروا أنفسهم بحيث لا يمكنهم الانتفاع بها فحينئذ يصرفهم عنها، وأنّ الله إذا علم من حال بعضهم أنّه لا يؤمن بتلك الآيات ويستخفّ بها صحّ من الله أن يصرفه عنها. ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لأنّ إظهار الكبر على الغير قد يكون بالحقّ لأنّ للمحقّ في أدلّة الدين أن تتكبّر على الكافر والمبطل. ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ أي: سبيل استقامة الدين والصواب في

١ـ سورة الانشقاق: ٢٠.

٢ـ سورة المدثر: ٤٩.

٣ـ سورة الكهف: ٥٥.

٤ـ سورة المائدة: ٦٧.

العلم والعمل لا يقبلوه ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾ والضلالة أعرضوا عن سبيل الهداية وتمرّنوا على سبيل الضلالة حتّى صاروا بمنزلة الغافل عنها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

ولأجل أن لا يتوهّم متوهّم أنّ بعض المكذّبين بسبب أعمال البرّ الّتي يصدر عنهم لا يعذّبون بيّن سبحانه في هذه الآية أنّ المكذّبين أجمع يجازون سواء تكبّروا أو تواضعوا أو كانوا قليلي الإحسان أو كثيريه لمّا كذّبوا نبيّهم وجحدوا المعاد فأعمالهم بسبب الجحود والتكذيب محبطة.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ استفهام بالصورة والمراد التوبيخ والإنكار.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

بيان قصّة السامريّ. قرئ «حليّهم» بكسر الحاء واللّام وبفتح الحاء وسكون اللام وبضمّ الحاء وكسر اللام. والاتّخاذ اجتباء الشيء لأمر من الأمور فهؤلاء اتّخذوا العجل المصوغ من الذهب والفضّة لأن يعبدوه. والخوار الصراخ وصوت غليظ.

ومختصر القصّة أنّ بني إسرائيل كان لهم عيد يتزيّنون فيه، فاستعاروا من قوم فرعون حليّهم ـ والحليّ اسم لما يتزيّن به لذلك اليوم ـ فلمّا أغرق اللّه فرعون والقبط بقيت تلك الحليّ في أيدي بني إسرائيل فجمع السامريّ تلك الحليّ وكان رجلاً مطاعاً فيهم. ذا قدر وشرف وكانوا قد سألوا موسى قبل أن يجعل لهم إلها يعبدونه. فصاغ السامريّ عجلاً من تلك الحليّ.

قيل: قد أخذ السامريّ كفّاً من تراب حافر فرس جبرئيل فألقاه في جوف ذلك العجل المجسّد بلا روح فانقلب لحماً ودماً، وظهرت منه الخوار مرّة واحدة (وقرئ جوار بالجيم) فقال السامريّ: هذا إلهكم وإله موسى.

وقال أكثر المفسّرين من المعتزلة: إنّه لا يمكن هذا الأمر بل جعل السامريّ ذلك العجل مجوّفاً ووضع في جوفه أنابيب على شكل مخصوص وكان قد وضع ذلك التمثال على مهبّ الريح فكانت الريح تدخل في جوف الأنابيب ويظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل. وقال آخرون: إنّه جعل ذلك التمثال أجوف وجعل تحت التمثال في الموضع الّذي ينصب فيه العجل رجلاً ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس له فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار كما صنع بعده ابن المقفّع شبيه هذا التمويه في الخشب على ما قيل.

فأرجف أنّ موسى عليه السلام قد مات لمّا لم يرجع بعد الثلاثين فأمرهم السامريّ بعبادة العجل فأطاعوه ولم يطيعوا هارون، وعبدوه كلّهم إلّا هارون، لأنّ موسى قال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ وذلك يدلّ على أنّ من كان عابداً لها ما كان أهلاً للدّعاء وقيل قد بقي في بني إسرائيل من ثبت على إيمانه والدليل عليه قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[1]

والحاصل أنه سبحانه لمّا حكى عنهم هذا المذهب احتجّ على فساده بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ ولا يمكنه أن يهديهم إلى الصواب فكيف يصلح للإلهيّة؟ وهم بسبب عبادة العجل كانوا لأنفسهم ظالمين.

وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

١ـ سورة الاعراف: ١٥٩.

وقرئ «سقط» على البناء للفاعل، هذه العبارة بطريق الاستعارة والتمثيل أي: ندموا على ما فعلوا لأنّ النادم المتحسّر يسقط يده زلّة وحسرة فتصير يده مسقوطا فيها.

قال الواحدي: إنّ هذه الاستعارة مأخوذ من السقيط وهو ما يغشى الأرض بالغدوات وقت الشتاء شبه الثلج أي: وقع في يده السقيط وهو يذوب فوراً بأدنى حرارة ولا يبقى، فمن وقع في يده السقيط لم يحصل له منه شيء، فصار هذا مثلاً لكلّ من عمل عملاً وخسر في عاقبته والنادم يقال له: سقط في يده ويتحيّر في أمره والآلة الأصليّة في الأعمال في أكثر الأمور هي فتسقط اليد عن العمل ورأوا أنّهم قد ضلّوا أي: تبيّن ضلالهم كأنّهم أبصروه.

قال القاضي: تقدير الآية: لمّا رأوا قد ضلّوا سقط في أيديهم لأنّ الندم إنّما يقع بعد المعرفة فلمّا تبيّن لهم ضلالتهم أظهروا الانقطاع إلى الله فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا...﴾ وهذا الندم والاستغفار إنّما حصل بعد رجوع موسى من الميقات.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

أخبر سبحانه عمّا فعله بعد رجوعه من الميقات ورأى عكوف قومه على عبادة العجل. قيل: لم يكن موسى عالماً بعمل قومه من عبادة العجل، الصحيح أنّه كان عالماً وقد أخبره الله بوقوع الواقعة في الميقات وقال له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ في سورة طه. يقال: رجل أسيف أي حزين،

والأسف الغضب الّذي فيه تأسّف على فوت ما سلف. قال الواحديّ: الغضب والأسف معناهما متقاربان، وإذا جاءك ما تكره ممّن هو دونك أسفت وإذا جاءك ممّن هو فوقك حزنت، فسمّي إحدى الحالتين غضباً والأخرى حزناً.

فرجع موسى من الميقات غضباناً على قومه لأجل عبادتهم العجل حزيناً قال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ والتقدير: بئس خلافة خلفتموني، والمخصوص بالذمّ هو الفاعل مضمر يفسّره «ما خلفتموني» والخطاب قيل: لعبدة العجل، وقيل: لوجوه بني إسرائيل هارون والمؤمنين معه.

فلو قيل: أيّ معنى لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِيَ﴾ بعد قوله: ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾؟ فالجواب: من بعد ما رأيتم من الآيات والشواهد.

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ والفرق بين العجلة والسرعة أنّ العجلة التقدّم بالشيء قبل وقته، ولذا صارت مذمومة، والسرعة عمل الشيء في أوّل وقته، ولذا غير مذمومة وقد يستعمل العجلة بمعنى السرعة وهي غير مذمومة كقوله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.[1] روي أنّ التوراة كانت سبعة أسباع فلمّا ألقى الألواح تكسّرت فرفع منها ستّة أسباع وبقي سبع. وفي البصائر عن أمير المؤمنين: تكسّر منها شيء وتفرّق ورفع منها شيء وبقي لهم شيء. وعن الباقر عليه السلام: **«إنّ صخرة باليمن التقمت ممّا ذهبت وتكسّرت من التوراة حين ألقاها موسى فلمّا بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله حمله إليه وهي عندنا»**.[2]

والطاعنون في عصمة الأنبياء تشبّثوا بهذه الآية أنّه عليه السلام ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه على سبيل الإهانة. وليس الأمر كذلك، وإلقاء الألواح من شدّة غيرته على دين الله وبيان قبح عمل العبادة لغير الله وأمّا جرّ رأس أخيه

١ـ سورة طه: ٨٤.

٢ـ انظر: تفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٣٩.

ليساره ويستكشف منه كيفيّة الواقعة ليعالج الأمر.

وقرئ «ابن أمّ» بكسر الميم ليدلّ على الإضافة إلى تاء المتكلّم. وقرئ «ابن أمّ» بفتح الميم المبنيّ وجعلا اسماً واحداً كخمسة عشر وحضر موت، أو على تقدير «أمّا» على تقدير حذف الألف المبدلة من تاء الإضافة.

واعتذر هارون بأنّ القوم جعلوني ضعيفاً، وما قدرت عليهم فلا تشمت بي أعداءك وأعدائي ولا تجعلني شريكاً مع القوم الظالمين الّذين عبدوا العجل فعند هذا قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ حين أظهر براءته وهذه حالة الانقطاع إلى اللّه وعادة الأنبياء هكذا، لا أنّه وقع منه أمر قبيح يحتاج إلى الاستغفار. وكان هارون أخاه من أبيه وامّه وإنّما نسب إلى الأمّ لأنّ حقّ الأمّ أولى بالمراعاة وفي مثل هذه المقامات وقوع النسبة إلى الأمّ أكثر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)﴾

شرح حال من عبد العجل والمفعول الثاني من «اتّخذ» محذوف أي: اتّخذ العجل إلهاً ويدلّ على المحذوف. ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ وهم الّذين باشروا عبادة العجل قال فيهم: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

فإن قيل: إنّ أولئك الأقوام تاب اللّه عليهم بسبب أنّهم قتلوا أنفسهم في معرض التوبة وإذا تابوا كيف يمكن أن يقال في حقّهم: إنّه سينالهم غضب من ربّهم؟ الجواب أنّ ذلك الغضب إنّما حصل في الدنيا لا في الآخرة بأمرهم بقتل أنفسهم وبسبب الضلالة أصابتهم ذلّة في الحياة الدنيا.

فإن قيل: إنّ السين للاستقبال فالجواب أنّ هذا الكلام صدر حين أخبر سبحانه موسى بافتتان قومه في الميقات، والغضب وقع بعد ذلك فصحّ

الكلام. ويمكن أنّ المراد أن سينال أبناءهم غضب وذلّة الدين في زمن النبيّ ﷺ والعرب يعيّر الأبناء بقبائح الآباء كما يفعل في المناقب.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ وكلّ مفتر في دين الله فجزاؤه غضب وذلّة. قال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلّا ويجد ذلّة وقرأ هذه الآية.

وأمّا قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ يدلّ على أنّ التوبة من السيّئات بأسرها وحصول الإيمان بعد التوبة مقبولة فلو كان أمر لا يقبل التوبة فذلك بدليل منفصل.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

أي: لمّا سكن، أو استعارة كأنّ الغضب قواه وأمره على فعل فلمّا سكت عن الأمر وزال الغضب أخذ موسى الألواح. قال عكرمة: إنّ المعنى سكت موسى عن الغضب وفيه قلب كقولهم: أدخلت القلنسوة في رأسي ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ معنى النسخ النقل والتحويل فإذا كتبت كتاباً عن كتاب حرفاً بحرف قلت: نسخت ذلك الكتاب.

قال ابن عبّاس: لمّا ألقى موسى الألواح تكسّرت فصام أربعين يوماً فأعاد الله الألواح وفيها عين ما في الأولى، وعلى هذا القول يكون المعنى: وفيها نسخ منها، وعلى قول من قال: لم تتكسّر وكانت بأعيانها موجودة بعد أن ألقاها لا شكّ أنّها كانت مكتوبة من اللوح المحفوظ، فهي أيضاً منسوخة ومستنسخة من اللوح، وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ هدى من الضلالة، ورحمة بدل العذاب ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ وخائفون من ربّهم.

ووجوه فائدة اللام في ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ مع أنّ تقدير المعنى: للّذين يرهبون ربّهم لأنّ تأخّر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً، فدخلت اللام للتقوية كما في

قوله: ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.[١]

الثاني: لام الأجل لأنّ المعنى: لأجل ربّهم يرهبون لا للرياء والسمعة.

الثالث: أنّه قد يزاد حرف الجرّ في المفعول وإن كان الفعل متعدّياً: نحو ألقى يده وألقى بيده وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[٢] فعلى هذا اللام تأكيد: كقوله: ردف لكم ومثل قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.[٣]

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

اختار الشيء إذا أخذ خيره. المعنى: من قومه، حذفت «من» واتّصل بالفعل فنصب يقال: اخترت من الرجال زيداً، واخترت الرجال زيداً.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ﴾ من ﴿قَوْمَهُۥ﴾ المعمّرين ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ من اثني عشر سبطاً من كلّ سبط ستّة نفر فقال موسى: ليتخلّف منكم رجلان فتشاجروا فقال موسى: إنّ لمن يقعد منكم مثلي أجر من يخرج فقعد كالب ويوشع. وقيل: إنّه لم يوجد إلّا ستّين شيخاً فأوحى الله إليه أن يختار من الشبّان عشرة فاختارهم فأصبحوا شيوخاً فأمرهم أن يصوموا ويطهّروا ثيابهم. ثمّ خرج بهم إلى الميقات.

وهنا مسألة: وهي أنّه هل هذا الاختيار والانتخاب هو للخروج إلى الميقات الّذي كلّم الله موسى فيه وسأل موسى الرؤية أو هو خروج إلى

١ـ سورة يوسف: ٤٣.

٢ـ سورة العلق: ١٤.

٣ـ سورة آل عمران: ٧٣.

موضع آخر؟ للمفسّرين أقوال: الأوّل: أنه لميقات الكلام والرؤية وأنّه عليه السلام خرج بهؤلاء السبعين إلى طور سيناء، ولمّا دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتّى أحاط بالجبل كلّه، ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم: ادنوا فدنوا حتّى إذا دخلوا الغمام وقعوا سجّداً فسمعوا صوتاً خلفه، وهو يتكلّم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل، ثمّ انكشف الغمام فأقبلوا إليه وطلبوا الرؤية، فأخذتهم الصاعقة وهي المراد من الرجفة المذكورة في الآية.

والقول الثاني: أنّ المراد من الميقات هذا غير ميقات الكلام وطلب الرؤية بل ميقات آخر، وذلك لمّا وقع عبادة العجل اختار موسى قومه سبعين رجلاً ليعتذروا عن عبادة العجل.

قال ابن عبّاس: إنّ السبعين الّذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ كانوا قبل السبعين الّذين أخذتهم الرجفة، وإنّما أمر اللّه موسى أن يختار من قومه سبعين فاختار وبرز بهم ليدعوا ربّهم فكان في ما دعوا أن قالوا: اللّهم أعطنا ما لم تعط أحداً قبلنا ولا تعطيه أحداً بعدنا فكره اللّه ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة.

قال أمير المؤمنين: إنّما أخذتهم الرجفة من أجل دعواهم على موسى قتل هارون وذلك أنّ موسى وهارون وشبر وشبير ابناه انطلقوا إلى سفح جبل فنام هارون، فتوفّاه اللّه فلمّا مات دفنه موسى فلمّا رجع إلى بني إسرائيل قالوا له: أين هارون؟ قال: توفّاه اللّه.

فقالوا: بل أنت قتلته وحسدته على أخلاقه ولينه فقتلته، قال موسى: فاختاروا من شئتم فاختاروا منهم سبعين رجلاً وذهب بهم إلى القبر فقال موسى: يا هارون أقتلت أم ميّت؟

فقال هارون: ما قتلني أحد ولكنّي توفّاني اللّه فأخذتهم الرجفة

وصعقوا. وقيل: ماتوا فأحياهم الله وجعلهم أنبياء.[1]

ثمّ في الآية دلالة اخرى على أنّ هذا الميقات غير ميقات طلب الرؤية والكلام لأنّ في ميقات الكلام وهو الأوّل لم يظهر منهم سوى طلب الرؤية، فلو كانت الرجفة المذكورة في هذه الآية إنّما حصلت بسبب قولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ لوجب أن يقول موسى: أ تهلكنا بما يقوله السفهاء منّا، بل قال: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ علم أنّ هذه الرجفة إنّما حصلت بسبب الفعل وهو عبادة العجل لا طلب الرؤية.

ثمّ إنّ اللّه ذكر في ميقات الكلام والرؤية أنّ موسى خرّ صعقاً، وأنّ الجبل اندكّ، وأمّا الميقات المذكور في هذه الآية أنّ القوم أخذتهم الرجفة، ولم يذكر أنّ موسى اعتراه أمر شديد، بل يدلّ على أنّه ما أصابه أمر، حيث قال: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ فاختصاص كلّ واحد من هذين الميقاتين بهذه الكيفيّة يفيد أنّ أحدهما غير الآخر.

﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ قيل: استفهام بمعنى الجحد أي: إنّك لا تفعل كذا وقيل: استفهام استعطاف أي لا تهلكنا.

وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الضمير راجع إلى الفتنة كما تقول: إن هو إلّا زيد، والمعنى أنّ تلك الفتنة والامتحان لم يكن إلّا امتحانك، وأظهرت الرجفة وكلّفتهم بالصبر عليها. ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾ فسّر الأشاعرة على مسلكهم الجبر أي: أضللت بها قوماً فافتتنوا، وعصمت قوماً فثبتوا على الحقّ، وأيّدوا مذهبهم الباطل بظاهر الآية، تعالى اللّه عن ذلك فإنّ العقل السليم يأبى بأنّ اللّه يجبر طائفة بالضلالة وطائفة بالإيمان فيعاقبهم بالضلالة ويثيبهم بالإيمان، وكيف يعاقب على الكفر وهو جاعله؟ فهذا العبد المجبور المضطرّ المجعول فيه

١ـ انظر: جامع البيان للطبري، ج ٩ ص ٩٩.

الكفر على سبيل القهر كيف يجوز عقابه؟ وأين العدل وهذا الأمر الشنيع؟

قالت المعتزلة: المراد بالإضلال الإهلاك أي: تهلك من تشاء بهذه الرجفة وتصرفها عمّن تشاء، كما فسّر ابن عبّاس وجماعة فقالوا: المراد أنّ هي عذابك وقد سمّى الله العذاب فتنة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[١] أي: يعذّبون فيكون معنى الآية: ليس هذا الإهلاك إلّا عذابك لهم بما فعلوه من المعصية وعبادة العجل وعدم منعهم الشديد عن المعصية.

قال سعيد بن جبير وجماعة: المراد من الفتنة التشديد في التعبّد والتكليف كقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾[٢] وعنى بذلك الأمراض والشدائد، قال: ما قال: تضلّ بها من تشاء من عبادك عن الدين، بل قال: تضلّ بها أي بالرجفة، ومن المعلوم أنّ الرجفة لا يضلّ الله بها فإنّ الرجفة عذاب والعذاب لا يصير سبباً للإضلال بل الضلالة موجبة للعذاب والعذاب موجب للإهلاك.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ فطلب موسى لهم وله الغفران ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ فإنّ كلّ من سواه إذا تجاوز عن الذنب إمّا طلباً للثناء الجميل أو الأجر، ولكن غفرانك يا إلهي محض التفضّل والكرم.

وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

وقرئ من أساء بالسين المهملة. بقيّة دعاء موسى.

﴿وَٱكْتُبْ﴾ أي: أوجب وإنّما لم يقل: وأوجب أو واجعل لأنّ الكتابة

١ـ سورة الذاريات: ١٣.

٢ـ سورة التوبه: ١٢٦.

أثبت ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: النعمة والتوفيق للأعمال الصالحة ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ حسنة أي: المغفرة والجنّة ﴿إِنَّا هُدْنَا﴾ ورجعنا وتبنا ﴿إِلَيْكَ﴾ والهود الرجوع. ﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لموسى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ أو أساء ممّن عصاني واستحقّ عقوبتي، وإنّما علّقه بالمشيئة لجواز الغفران ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وإنّ رحمته في الدنيا وسعت للبرّ والفاجر، وفي الآخرة للمتّقين خاصّة أي: إنّ رحمتي تسع كلّ شيء إن دخلوها، بحيث لو دخلوها لو سعتهم إلّا أنّ فيهم من لا يدخلها لضلاله.

في الحديث قيل: إنّ النبيّ ﷺ قام في الصلاة فقال أعرابيّ وهو في الصلاة: اللّهم ارحمني ومحمّداً ولا ترحم أحداً معنا فلمّا سلّم النبيّ ﷺ قال للأعرابيّ: «**لقد تحجّرت واسعاً**». يريد[1] رحمة الله أورده البخاريّ في الصحيح.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك والمعاصي ويجتنبون الكبائر ويخرجون زكاة أموالهم، لأنّه أشقّ الفرائض، وبهذا خصّ بالذكر. وقيل: معناه: يزكّون أنفسهم عن لوث المعاصي ويصدّقون بآياتنا وحججنا، قال ابن عبّاس: لمّا نزلت: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال إبليس: وأنا من ذلك الشيء فنزعها الله عن إبليس بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ...﴾.

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

١ـ الخلاف للشيخ الطوسي، ج ١، ص ٤٩٤، صحيح ابن خزيمة، ج ٢، ص ٣٩.

لمّا بيّن أنّ من يكتب له الرحمة لابدّ أن يكون موصوفاً بالتقوى وإيتاء الزكاة أتبعه بأنّ أعظم الآيات وأقوى الإيمان اتّباع محمّد، بل لا يحصل الإيمان إلّا باتّباعه وشرائعه، الّذي وجدوا صفته في التوراة، وبنو إسرائيل كانوا محكومون في التوراة بأن يواطئوا أنفسهم أنّ كذا إنسان متى ظهر وظهرت شرائعه أن يؤمنوا به، إذا كانوا في زمانه. ووصفه بصفات تسع كما في الآية: الأولى: كونه رسولاً واختصّه اللّه برسالته إلى الخلق لتبليغ الأحكام. الثانية: كونه نبيّاً ورفيع القدر عند اللّه. الثالثة: كونه أمّيّاً، قيل: معناه أنّه لا يكتب ولا يقرء والصحيح: المراد نسبته إلى أمّ القرى وهي مكّة لأنّها بالنسبة أمّ الأرض.

في العلل: عن الجوادعليه السلام أنّه سئل عن ذلك فقال: ما يقول النّاس؟ فقيل له: يزعمون أنّه لم يحسن القراءة والكتابة فقالعليه السلام: **«كذبوا عليهم لعنة الله أنّى يكون كذلك؟ والله يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1] فكيف كان يعلّمهم ما لا يحسن؟ والله لقد كان رسول الله يقرء ويكتب باثنين وسبعين لغة».**[2]

الرابعة: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ وهذا يدلّ على أنّ وصفه وصحة نبوّته مكتوب في التوراة والإنجيل، لأنّ ذلك لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفّرات لليهود والنصارى لأنّ الإصرار على الكذب والبهتان في مثل هذا الأمر العظيم ممّا تبيّن فساده، والعاقل لا يسعى في نقض غرضه.

وفي «المجالس» عن أمير المؤمنين في حديث قال يهوديّ لرسول اللهصلى الله عليه وآله: إنّي قرأت نعتك في التوراة محمّد بن عبد اللّه مولده بمكّة ومهاجرته بطيّبة

١ـ سورة الجمعه: ٢.

٢ـ معاني الأخبار للصدوق، ص ٥٤؛ والاختصاص للمفيد، ص ٢٦٣، وبحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٣٢.

ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب[1] ولا مترنّن بالفحش ولا قول بذيء، وأنا أشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله، هذا مالي فاحكم فيه بما أنزل.[2]

وفي «الكافي» عن الباقر: «**لمّا أنزلت التوراة على موسى بشّر بمحمّد فلم تزل الأنبياء تبشّر به حتّى بعث الله المسيح فبشر بمحمّد. فذلك قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ وهو قول الله تعالى مخبراً عن عيسى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾**»[3] وفي «الكافي» مرفوعاً: «**إنّ موسى ناجاه ربّه فقال له في مناجاته: أوصيك يا موسى وصيّة الشّفيق المشفق بابن البتول عيسى بن مريم ومن بعده بصاحب الجمل الأحمر الطيّب الطاهر المطهّر فمثله في كتابك أنّه مهيمن على الكتب كلّها، وأنّه راكع ساجد راغب راهب، إخوانه المساكين وأنصاره قوم آخرون**».[4]

الخامسة: أمرهم بالمعروف، قوله: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ يجوز أن يكون استينافاً ويجوز أن يكون المعنى: يجدونه أنّه يأمر بالمعروف إذ جاء بكلّ ما هو حسن في العالم وينزل من عند الله. السادسة: ﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فيشمل ما هو قبيح، منها عبادة الأوثان. السابعة: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المستلذة إلّا ما خرج بالدليل فهذا أصل في الإباحة. الثامنة: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ كالميتة والدم والفسوق المستقذرات وما يوجب الضرر على النفس. التاسعة: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾ وقرئ «آصارهم» على الجمع و«الإصر» الثقل الّذي يمنع صاحبه ويحبسه عن الحراك لثقله، والمراد أنّ شريعته سمحة فإنّ شريعة موسى كانت شديدة. وهذه صفات تسع، وقد وجدوا الصفات وصدّق بعضهم، والمنهمكون في

١ـ الشديد الصياح.

٢ـ الأمالي، للصدوق، ص ٥٥٢؛ وبحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢١٦.

٣ـ سورة الصف: ٦؛ والتفسير الصافي، ج ٢، ٢٤٣.

٤ـ تفسير الصافي، ج ٢، ٢٤٣.

الدنيا والرياسة منهم أنكروا وغيّروا العلامات.

قال الطبرسيّ: مكتوب في التوراة في السفر الخامس: يا موسى إنّي سأقيم لهم نبيّاً من إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فيه فيقول لهم كلّ ما أوصيه به. وفي الإنجيل بشارة بالفارقليط في مواضع منها: نعطيكم بالفارقليط آخر ما يكون معكم آخر الدهر كلّه.

وفي الإنجيل أيضاً قول المسيح للحواريّين: أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحقّ الّذي لا يتكلّم من قبل نفسه، إنّه نذيركم بجميع الخلق، يخبركم بالأمور المرجعة ويمدحني ويشهد بي. وفيه أيضاً: إذا جاء خير أهل العالم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه، وأصل التعزير معناه المنع، ومنه التعزير، وهو الضرب دون الحدّ لأنّه منع عن معاودة القبيح ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أي: مع نبوّته لأنّ نبوّته ظهرت مع ظهور القرآن، هؤلاء الجماعة ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ النّاجون.

روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لأصحابه: «**أيّ الخلق أعجب إيماناً؟**» قالوا: الملائكة، فقال: «**الملائكة عند ربّهم فما لهم لا يؤمنون؟**» قالوا: فالنبيّون، «**قال: فالنبيّون يوحى إليهم فما لهم لا يؤمنون؟**» قالوا: فنحن يا رسول الله، قال: «**وأنا فيكم فما لكم لا تؤمنون؟**»

إنّما هم قوم يكونون بعدكم يجدون كتاباً في ورق فيؤمنون به فهذا معنى قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾[1] والمراد من «مع» أي مع نبوّته وإلّا فالقرآن انزل مع جبرئيل.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ

١ـ تفسير مجمع البيان، جلد ٤، ص ٣٧٤.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

لمّا وعد الله في الآية السابقة لمّا قال: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ بيّن في هذه الآية أنّ من شرط حصول الرحمة والتقوى اتّباع الرسول. قل يا محمّد لجميع الناس: إنّكم مأمورون باتّباعي، وأنا رسول الله إليكم جميعاً للتأكيد وإزالة لشبهة طائفة من اليهود وهم أتباع عيسى الإصبهانيّ يقال لهم العيسويّة كان يقول: إنّ محمّداً صادق لكنّه مبعوث على العرب لا إلى بني إسرائيل. وهذا الكلام منهم بديهيّ البطلان لأنّ الّذي عندهم مقبول الرسالة على العرب بزعمهم لا يمكن أن يكذب وهو يقول في كتابه: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ فإمّا أن يكون لا يقبلون نبوّته مطلقاً، وإمّا أن يكون يصدّقونه بما يقول.

وتمسّك جمع من العلماء من أنّ أحداً غيره من الأنبياء ما كان مبعوثاً إلى جميع الخلق لقوله ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد قبلي: أرسلت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرت بالرعب على عدوّي يرعب منّي مسيرة شهر، وأطعمت الغنيمة دون من قبلي، وقيل لي: سل تعطه فاختبأتها شفاعة لأمّتي**».(١)

ولو كان نبيّ رسالته عامّة على قول مثل نوح حين نزل من السّفينة فإنّ جميع الناس ذلك اليوم هم الّذين معه في السفينة، على أنّ رسالة محمّد على الخلق أجمعين من الملك والجنّ، بل الجمادات مأمورة بتصديق نبوّته ﷺ في عالم الجماديّة، وما كان موسى رسولاً على الملائكة والجنّ فإذا لا يساويه أحد من الأنبياء في الاختصاص.

١ـ انظر: كنزالعمال، ج ١١، ص ٤٣٨.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ومن المعلوم أنّ دعوى النبوّة لا تظهر فائدتها ولا تتمّ إلّا بإثبات أنّ للعالم إلهاً حيّاً قادراً عالماً فذلك قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأنّ أجسام السماوات تدلّ على افتقارها إلى الصانع المختار، وهذا هو الأصل الأوّل.

وأصل ثان: هو أنّ إله العالم واحد منزّه عن الشريك لأنّ بتقدير أن يكون للعالم إلاهان وأرسل أحد الإلهين رسولاً إلى الخلق فلعلّ هذا الإنسان الّذي يدعوه الرسالة إلى طاعته واتّباعه ما كان مخلوقاً للإله الّذي أرسل هذا الرسول بل هو مخلوق للإله الآخر، وعلى هذا التقدير هل يطيع هذا الإنسان لهذا الرسول أم يخالفه؟ أمّا إجابة الطاعة له ظلم لأنّه مخلوق الإله الثاني وهو يجب عليه إطاعة ربّه وخالقه فلابدّ أن يخالفه فهذا الرسول رسالته لغو وتصرّف في ملك الغير، ثمّ يتحقّق الفساد بين العالم لأنّ الإله الأوّل مثلاً يحكم ويأمر والإله الثاني يحكم ويأمر فإن كان حكم الثاني عين حكم الأوّل فحكم الثاني لغو، وإن كان حكم الثاني نقيض حكم الأوّل فيقع الخلف بين التكليفين والمكلّفين وما نعني بالفساد إلّا هذا فثبت أنّ الإله واحد.

والأصل الثالث إثبات أنّه قادر على الحشر والبعث وأنّه لابدّ من وقوعه لأنّ بتقدير أن لا يثبت ذلك كان الاشتغال بالطاعة والاحتراز عن المعصية عبثاً ولغواً وإلى هذا الأصل إشارة بقوله: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ لأنه لمّا أحيا أوّلاً ثبت كونه قادراً على الإحياء ثانياً، ولمّا كان الإحياء الأوّل لغرض إيصال الخير إلى المخلوق وهو إنعام عظيم ويجب على المخلوق شكر النعمة فيطالبه بشكر النعمة ووظائف العبوديّة لحصول ذلك الغرض وقابليّة العبوديّة فحينئذ يحسن منه أن يرسل رسولاً يبيّن لهم طريق أداء شكره وما يصلح به أمورهم لئلّا يقع الهرج والمرج فعيّن الرسول بقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وكلماته أي: شواهد ربوبيّته وصدق

رسالة رسوله من المعجزات والكمالات الّتي ظهرت على يده.

فمن كمالاته ومعجزاته أنّهﷺ لم يتعلّم من أستاذ ولم يشتغل بمطالعة كتاب ولم يتّفق له مدارسة العلماء: لأنّ مكّة أهلها يومئذ أمّيين وما غابﷺ عن مكّة غيبة طويلة يمكن أن يتحصّل فيها علماً جزئيّاً فضلاً عن علوم كثيرة، ففتح اللّه عليه باب العلم بالقرآن المشتمل على علوم الأوّلين والآخرين فكان ظهور هذا الأمر من أعظم المعجزات لذاته الشريفةﷺ. وأنّه يرى من خلفه كما يرى من قدّامه وتنام عينه ولا ينام قلبه وهذه من خواصّ ذاته الشريفة، ونوع آخر مثل انشقاق القمر ونبوع الماء من بين أصابعه.

ومثل هذه الأمور تسمّى بكلمات اللّه ألا ترى أنّ عيسى‌عليه السلام لمّا كان حدوثه أمراً غريباً مخالفاً للمعتاد سمّاه اللّه كلمة؟ وهو المراد في الآية ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ كما قالوا: نحن كلمات اللّه العليا.

ثمّ بيّن سبحانه طريق التكليف فقال: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ ومعنى المتابعة الإتيان بمثل ما أتى المتبوع به سواء كان في طريق الفعل أو في طريق الترك، وظاهر الأمر للوجوب فثبت وجوب متابعته في كلّ أمر ونهي إلّا ما خصّه الدليل مثل امور خاصّة فمتابعته أصل من أصول الإيمان وقانون كلّي في معرفة التكليف والأحكام وبقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1]. واتّبعوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فاتّباعه متلازم بصريح الآية.

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

لمّا ذكر في الآية أنّ المهتدين من اتّبع النبيّ الأمّيّ ذكر في هذه الآية أنّ من قوم موسى‌عليه السلام أيضاً من اتّبع الحقّ وهدي، وبيّن أنّهم جماعة لأنّ لفظ الامّة ينبئ عن الكثرة.

١ـ سورة النجم: ٣و٤.

قيل: هم اليهود الّذين كانوا في زمن محمّد ﷺ وأسلموا مثل ابن صوريا وعبد اللّه ابن سلام. واعترض على هذا القول بأنّهم كانوا قليلين في العداد، ولفظ الامّة تقتضي الكثرة.

ويمكن الجواب عنه بأنّه لمّا كانوا مختلفين في الدين جاز إطلاق لفظ الامّة عليهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[1].

وقيل: إنّهم قوم مشوا على الدين الحقّ الّذي جاء به موسى وما حرّفوا في زمن تفرّق بني إسرائيل والتزموا بالعمل بالتوراة حتّى جاء عيسى.

وقال السدّيّ وجماعة من المفسّرين كابن عبّاس والربيع وعطاء والضحّاك وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام قالوا: إنّهم قوم من وراء الصين وبينهم وبين الصين واد جار من الرمل لم يغيّروا ولم يبدّلوا[2]، وذلك أنّه إنّ بني إسرائيل لمّا كفروا وقتلوا الأنبياء والأسباط فبقي سبط من جملة الاثني عشر ما صنعوا مثل ما صنع بنو إسرائيل، وسألوا اللّه أن ينقذهم منهم ففتح اللّه لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتّى خرجوا من وراء الصين فهم حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا.

ثمّ اختلف المفسّرون فمنهم من قال: إنّهم متمسّكون بشريعة موسى إلى الآن، ومنهم من قال: إنّهم على دين محمّد ﷺ الآن، وذلك أنّ جبرئيل انطلق بالنبيّ ﷺ ليلة المعراج إليهم فقرأ عليهم من القرآن عشر سور نزلت بمكّة فآمنوا به وصدّقوه وأمرهم أن يقيموا ويتركوا السبت، وأمرهم بالصلاة والزكاة، ولم يكن فريضة نزلت غير هما ففعلوا وقبلوا. قال ابن عبّاس: وذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا

١ـ سورة النحل: ١٢١ ـ ١٢٠.

٢ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٧٦؛ وبحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٣١٦.

بِكُمْ لَفِيفًا ﴾(١) يعني عيسى بن مريم يخرجون معه.

وروى أصحابنا أنّهم يخرجون مع قائم آل محمّد ﷺ وروي أنّ ذا القرنين رآهم وقال لهم: لو أمرت بالمقام ليسرّني أن أقيم بين أظهركم.(٢)

ومن قوم موسى جماعة يدعون الناس إلى الحقّ وبالحقّ يحكمون ويعدلون في حكمهم.

في الحديث عن أبي حمزة الثماليّ والحكم بن ظهير أنّ موسى لمّا أخذ الألواح قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة هي خير أمّة أخرجت للنّاس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمّتي قال اللّه: تلك أمّة أحمد. قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة هي الآخرون في الخلق السابقون إلى الجنّة فاجعلهم أمّتي قال اللّه: تلك أمّة أحمد. قال: إنّي أجد في الألواح أمّة كتبهم في صدورهم يقرءونها فاجعلهم أمّتي قال: تلك أمّة أحمد. قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة يؤمنون بالكتاب الأوّل وبالكتاب الآخر ويقاتلون الأعور الكذّاب فاجعلهم أمّتي قال: تلك أمّة أحمد. قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة إذا همّ أحدهم بحسنة ثمّ لم يعملها كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له عشرة، وإن همّ أحدهم بسيّئة ولم يعملها لم يكتب عليه وإن عملها كتبت عليه سيّئة فاجعلهم أمّتي قال: تلك أمّة أحمد.

قال: ربّ إنّي أجد في الألواح أمّة هم الشافعون المشفّعون فاجعلهم أمّتي قال اللّه: تلك أمّة أحمد. قال موسى: اجعلني من أمّة محمّد ﷺ لأشكر هذه النعمة.(٣)

١ـ سورة الإسراء: ١٤.

٢ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٧٧؛ وبحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٣١٧.

٣ـ تفسير أبي حمزه ثمالي، ص ١٧٧ وبحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٣١٧.

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

شرح نوعين من أحوال بني إسرائيل:

أحدهما: جعلهم اثني عشر سبطاً أي: صيّرناهم اثنتي عشرة فرقة، لأنّهم كانوا من اثني عشر رجلاً من أولاد يعقوب، فميّز سبحانه لئلّا يتحاسدوا فيقع فيهم الفساد. وجعلنا كلّ قبيلة سبطاً، ووضع «أسباطاً» موضع «قبيلة». فلو قيل: إنّ مميّز ما بعد عشرة يكون مفرداً فما وجه مجيئه جمعاً؟

فالجواب أنّ «أسباطاً» ليس تمييزاً بل بدل من اثنتي عشرة أو صفة لموصوف محذوف وهو الفرقة. وإنّما قال: «اثنتي عشرة» بالتأنيث مع أنّ السبط مذكّر فباعتبار معنى الأمم.

والنوع الثاني: من شرح بني إسرائيل قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ...﴾ هذه القصّة قد تقدّم ذكرها في سورة البقرة لا حاجة إلى الإطالة، وفعلنا لهم هذا التقطيع ليعلم كلّ سبط مشربهم ومسقاهم كي لا يتشاجروا بينهم. و«الانبجاس» خروج الماء بقلّة والانفجار بكثرة.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ عن حرّ الشمس في التيه، وكان ينزل عليهم بالليل عمود من نار يسرون ويعيشون بضوئه.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ﴾ والسماني وكان ينزل عليهم المنّ وهو الترنجبين أو منّ السماء مثل ما ينزل الثلج، من الفجر إلى الطلوع، لكلّ إنسان صاع وتبعث الجنوب عليهم السماني فيدع الرجل منه ما يكفيه ليومه وليلته،

وقلنا لهم: ﴿كُلُوا﴾ من مستلذّات الرزق فكفروا بتلك النعم الجليلة وظلموا أنفسهم، وما ظلمونا بكفرانهم. وعدم قبول الإطاعة إمّا لأنّهم ادّخروا من طعامهم مع أنّ اللّه كان منعهم من الادّخار، أو لأنّهم سألوا اللّه غير ذلك من الطعام كالبقل والقثّاء وغيره أو أقدموا على الأكل في وقت منعهم اللّه الأكل في ذلك الوقت.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

واذكر وبيّن على الجماعة يا محمّد وقت قولنا لهم: ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ والقرية بيت المقدس، اتّخذوها موطناً على سبيل الإقامة. وقيل: المراد بالقرية قرية أريحا ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ ومن نواحيها من أين ما أردتم من غير أن يزاحمكم أحد ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: يكون مسألتكم حطّة لذنوبنا أي: يكون قولكم الاستغفار. و«حطّة» فعلة من الحطّ كالجلسة.

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي: باب القرية متطامنين متذلّلين ساجدين شكراً على إخراجكم من التيه، وقيل: المراد من الباب باب القبّة الّتي يصلّون إليها، ودخل ذراريهم وهم ما دخلوها في حياة موسى. فإذا فعلتم كذلك ﴿نَّغْفِرْ﴾ وقرئ «تغفر» بالتاء على البناء للمجهول. وقرئ «خطيئتكم» على الإفراد و﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالمغفرة ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم بما أمروا بالاستغفار وأعرضوا عن هذه الكلمة ووضعوا موضعها قولاً آخر ممّا لا خير فيه. روي أنّهم دخلوها زاحفين على أستاههم وقالوا مكان «حطّة»: حنطة، وقيل: قالوا بالنبطيّ: «حطّاً شمقاثاً» أي: حنطة حمراء، استهزاء بكلام اللّه أو نبيّه.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أثر ما فعلوا أي: غير متأخر عذاباً من السماء وهو الطاعون. روي أنّه مات في ساعة واحدة منهم سبعون ألفاً أو أربعة وعشرون ألفاً بسبب كفرهم وظلمهم.

وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

واسأل يا محمّد اليهود المعاصرين وهم ذراري السابقين سؤال تقريع وتوبيخ لهم ببيان كفرهم. وفائدة هذا السؤال أنّ هذا الأمر من علومهم الّتي لا يقف عليها الّا من مارس في كتبهم، وهو ﷺ قد أحاط علمه بما تضمّن كتبهم، وهو ﷺ ما تلقّى من كتبهم وبمعزل عنهم وعن كتبهم بل يوحي اللّه إليه و«القرية» قيل: هي إيلة بين مدين والطور، وقيل: هي طبرية ﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي على شاطئ البحر واقعة إذ يعدون ويتعدّون حدود اللّه بالصيد، وهم ممنوعون عن الصيد في يوم السبت وينهون عن الاشتغال من الأمور بغير العبادة و«الحيتان» جمع حوت، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، كنون ونينان لفظاً ومعنى. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: دانية ظاهرة قريبة من الساحل ويوم الّذي ليس عليهم حكم لا يأتي الحيتان قريبة لهم حتّى يصيدون بالسهولة ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ مثل هذا الامتحان نختبرهم بسبب فسقهم الدائم.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

﴿وَإِذۡ قَالَتۡ﴾ عطف على قوله إذ يعدون أي: اذكر وقت قول جماعة من صلحائهم الّذين ركبوا الصعب في موعظة أولئك الصيّادين حتّى يئسوا من قبولهم لأقوام آخرين من الصلحاء الّذين ما تركوا الموعظة ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ﴾ أي: هؤلاء متمادين في الكفر ولا ينفع الوعظ، واللّه سبحانه مطهّر الأرض ختماً على كفرهم لأنّهم علموا أنّ الوعظ لا يفيدهم.

قالوا في جوابهم: ﴿مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ قرئ «معذرة» بالنصب أي: لنعذر معذرة وأمّا من رفع أي: هذه معذرة إلى اللّه أي: إذا طولبنا بإقامة النهي عن المنكر قلنا: قد فعلنا فنكون بذلك مقبولين العذر فعلى هذا التقرير صاروا ثلاث فرق: فرقة صائدة مذنبة، وفرقة واعظة وفرقة ناهية للواعظة.

ولفظ الآية يدلّ على أنّ الفرقة المذنبة هلكت، والفرقة الناهية نجت وأمّا الفرقة الّتي قالوا: لم تعظون؟ فقد اختلف المفسّرون في أنّهم من أيّ الفريقين؟ فنقل عن ابن عبّاس أن هلكت الفرقتان ونجت الناهية. وقيل: نجت الفرقتان وهلكت الثالثة. وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام: **«أنّهم ثلاثة أصناف نجى منهم صنف وهو الصنف الناهية، وهلك صنفان: الساكتة والصائدة»**.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ فلمّا نسوا هؤلاء المذنبون وعظ الواعظين أنجينا المنكرين لعمل المذنبين وأخذنا الظالمين بعذاب شديد بسبب تماديهم واستمرارهم على المعصية والخروج عن الطاعة ولعلّه سبحانه عذّبهم بعذاب شديد فلم يقلعوا عمّا كانوا عليه فمسخهم.

فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

لمّا بغوا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ﴾ قيل: المراد الأمر التكوينيّ لا القوليّ. وقيل: الأمر القوليّ قال الزجّاج: أمروا بأن يكونوا قردة بقول سمع ليكون أبلغ في القدرة. وقيل: بترتيب المسخ على العنف للإيذان

بأنّه ليس لخصوصيّة الحوت بل للاستمرار على المخالفة.

وابتداء الصيد أنّ رجلاً منهم أخذ حوتاً يوم السبت وربط في ذنبه خيطاً إلى خشبة في الساحل، ثمّ شواه يوم الأحد فوجد جاره ريح السمك فتطلّع على تنوّره، فقال له: إنّي أراك ستعذّب، فلمّا لم يره عذّب أخذ في السبت القابل حوتين، فلمّا رأوا أنّ العذاب لا يعاجلهم استمرّوا على ذلك فصادوا وأكلوا وملحوا وباعوا فصاروا نحوا من سبعين ألفاً فلعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون وقالوا: نحن لا نساكنكم وقسّموا القرية بجدار بينهم وبين المعتدين، فمسخهم اللّه قردة. أكلوا أوخم أكلة ما أثقلها ضرباً في الدنيا وأطولها عذاباً في الآخرة! أقول: وما حوت أخذه قوم فأكلوه أعظم عند اللّه من قتل مسلم ولكنّ اللّه جعل موعداً والساعة أدهى وأمرّ.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

إذن نادى وصاح وأعلم و﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى أذن أي: حكم وأعلم واللام في ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ جواب للقسم لأنّ قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ جار مجرى القسم في كونه جازماً للوقوع، أي: واذكر يا محمّد إذ حكم: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ الضمير يقتضي بحسب الظاهر أن يرجع إلى جماعة العاتين لكن لمّا علم أنّهم هلكوا ومسخوا قيل: المراد ذرّيّتهم ونسلهم فألحق الذلّ بالبقيّة.

والصحيح كما عليه الأكثرون: المراد اليهود الّذين أدركهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ودعاهم إلى شريعته ولم يقبلوا وبقوا على اليهوديّة وأداء الجزية والقتل في خيبر وقريظة والنضير فإنّ العذاب والذلّ لزمهم.

وحاصل المعنى أن اذكر لهم يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وقت إيجابه سبحانه على نفسه أن يسلّط على اليهود البتّة ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ ويطلب لهم ﴿سُوءَ

﴿الْعَذَابِ﴾ وقد بعث الله عليهم بعد داود بختنصّر فخرّب ديارهم وقتل رجالهم وسبى ذراريهم، وضرب الجزية على من بقي منهم وكانوا يؤدّون الجزية إلى المجوس حتى بعث الله محمّداً ﷺ ففعل معهم ما فعل، فلا تزال الذلّة فيهم ولا يكون لهم سلطان وسلطة إلى يوم القيامة ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن يستوجب بكفر وإن كان العقاب مؤخّراً لأنّ ما هو آت قريب وسريع ﴿وَإِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن رجع عن المعصية ودخل في الإيمان بالله وبرسله.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)﴾

أي: فرّقناهم تفريقاً شديداً في الأرض اليهود كما أنّه نشاهد لا أرض مسكونة إلّا ومنهم فيها جماعة، ثمّ قال: ﴿مِنْهُمُ﴾ أي: من اليهود ﴿الصَّالِحُونَ﴾ الّذين تبعوا موسى لأنّه كان فيهم جماعة يهدون بالحقّ، قال ابن عبّاس: المراد الّذين صدّقوا برسالة محمّد. وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ المراد من أقام على اليهوديّة. فإن قيل: يحتمل أن يكون المراد من قوله: ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ من يكون صالحاً إلّا أنّ صلاحه كان دون صلاح الأوّلين؟ قلنا: قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يدلّ على أنّ المراد بذلك من ثبت على الكفر والتهوّد. ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أي: عاملناهم معاملة المختبر بالنعم والخصب والعافية وبالجدب والقحط والشدائد لكي يرجعوا ويتوبوا.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦٩ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٧٠﴾

قال بعض أهل العربيّة: إنّ «الخلف والخلَف» يذكر في الصالح والردي وبعض يقولون: بفتح اللام يستعمل في الصالح، وبسكون اللام للرديء. المعنى: فخلف من بعد المذكورين من اليهود بدل سوء في عصر رسول الله ﷺ ورثوا التوراة من أسلافهم يقرءونها ويقفون على ما فيها يأخذون حطام الأدنى من الدنيا الدنيء، والمراد به ما يأخذونه من الرشا في الحكومات وعلى تحريف الكتاب ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ولا يؤاخذنا الله بذلك.

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ والمراد إصرارهم على هذا الأمر القبيح وعدم اكتفائهم بمرة متى ما أشرفوا على عرض وشيء من مال الدنيا أخذوه حلالاً كان أو حراماً. ثمّ وبّخهم الله بقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: التوراة، وقد حكموا في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ ولا يغيّرونها لأجل أخذ الرشوة ﴿وَدَرَسُوا۟﴾ وقرءوا وحفظوا ما في التوراة وما هم بناسين وجاهلين به، ثمّ قال: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المخالفة، والشهوة الخبيثة المحقّرة أفلا تفتهمون؟ وضمير الالتفات تشديد في التوبيخ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ ويعملون به ولا يتجاوزون حكمه ولم يحرّفوه ولم يكتموه ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإنّما أفردت الصلاة بالذكر لعلوّ مرتبتها. فإنّا لا نضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧١﴾

«النتق» قلع الشيء من موضعه والرمي به أي: قلعناه من أصله وجعلناه فوقهم كأنّه ظلّة سقيفة وعلموا وأيقنوا أنه إن خالفوا يقع عليهم فرفع الله

الطور على رؤوس مقدار عسكرهم، وكان فرسخاً في فرسخ وقيل لهم: إن قبلتم أحكام التوراة فبها وإلّا ليقعنّ عليكم. فلمّا نظروا إلى الجبل خرّ كلّ واحد منهم على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى، وكانوا يقولون: هي السجدة الّتي رفعت منّا العذاب.

﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: قلنا لهم: خذوا واعملوا ما آتيناكم من التوراة بقوّة وعزم وثبات على احتمال مشاقّه وتكاليفه ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تحترزون المعصية، وقيل: المعنى محتمل أن يكون: خذوا ما آتيناكم من هذه الآية العظيمة بقوّة إن كنتم تطيقونه فادفعوا عن أنفسكم وذلك كقوله: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾[1]

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

واذكر لهم يا محمّد إذ أخرج ربّك من ظهور بني آدم ذرّيّتهم. ولفظ «الذرّيّة» كالبشر يقع على الواحد والجمع.

واختلف العلماء من العامّة والخاصّة في معنى الإخراج والإشهاد على وجوه: أحدها أنّ اللّه أخرج ذرّيّة آدم من صلبه كهيئة الذرّ فعرضهم على آدم، وقال: إنّي آخذ على ذرّيّتك ميثاقهم أن يعبدوني ولا يشركوا بي شيئا وعليّ أرزاقهم. ثمّ قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾ شهدنا أنّك ربّنا فقال للملائكة: اشهدوا فقالوا: شهدناه. والوجه الثاني: أنّ اللّه جعلهم عقلاء فهماء يسمعون

ـــــــــــــــ

١ـ سورة الرحمن: ٣٣.

خطابه ويفهمونه ثمّ ردّهم إلى صلب آدم والناس محبوسون بأجمعهم حتّى يخرج كلّ من أخرجه في ذلك الوقت فكلّ من ثبت على الإسلام وهو على الفطرة الأولى ومن كفر فقد تغيّر عن الفطرة الأولى.

وروى المحقّقون هذا التأويل وقالوا: إنّه ممّا يشهد ظاهر القرآن بخلافه لأنّه تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل: من آدم وقال: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل: من ظهره وقال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولم يقل «ذريّته».

والقول الثاني: أنّ المراد بالآية أنّ اللّه أخرج بني آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام أمّهاتهم، ثمّ رقاهم درجة درجة علقة، ثمّ مضغة ثمّ أنشأ كلّاً منهم بشراً سويّاً حيّاً مكلّفاً وأراهم آثار صنعه ومكّنهم من معرفة دلائل التوحيد حتّى كأنّه أشهدهم وقال لهم: أ لست بربّكم؟ فقالوا: بلى فعلى هذا يكون معنى «أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ» أي: دلّهم بخلقه على توحيده، وجعل في عقولهم ما يدلّ على وحدانيّته فكأنّه بمنزلة المشهد بهم على أنفسهم وإن لم يكن هناك شهادة صورة حقيقة. نظير قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1] وإن لم يكن منه سبحانه قول ولا منهما جواب ومثله قوله تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾[2] ومعلوم أنّ الكفّار لم يعترفوا بألسنتهم لكنّه لمّا ظهر منهم ظهوراً لا يتمكّنون من إنكاره ودفعه فكأنهم اعترفوا به، ومثله في الشعر كثير: (وقالت له العينان سمعاً وطاعة).

وكقول القائل: جوارحي تشهد بنعمتك. وكما روي عن بعض الخطباء من قوله: سل الأرض من شقّ أنهارك وغرس أشجارك وأينع ثمارك إن لم يجبك خواراً أجابتك اعتباراً.

١ـ سورة فصلت: ١١.

٢ـ سورة التوبه: ١٧.

والقول الثالث: أنّه تعالى إنّما عنى بذلك جماعة من ذرّيّة آدم خلقهم وأكمل عقولهم وقرّرهم على ألسن رسله بمعرفته فأقرّوا وأشهدهم على أنفسهم به لئلّا يقولوا يوم القيامة: إنّا كنّا عن هذا غافلين أو يقولوا: إنّما أشرك آباؤنا من قبل فقلّدناهم في ذلك وعلى هذا القول الثالث يكون هذا الأمر في قوم خاصّ من بني آدم وهذا اختيار الجبّائيّ والقاضي عبد الجبّار.

وقوله: ﴿شَهِدْنَآ﴾ قيل: حكاية عن قول الملائكة أنّهم يقولون: «شهدنا» وهذا القول في غاية الضعف وخلاف ما عليه المفسّرون لأنّ سوق الآية من قوله ﴿شَهِدْنَآ﴾ أنّ هذا القول من قول من قال: «بلى» على أنّ الملائكة لم يجر لهم ذكر في الآية. وقوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لئلّا يقولوا: أ فتهلكنا بما فعل آباؤنا من الشرك وتقديره: إنّا لا نهلككم بما فعلوه وإنّما نهلككم بفعلكم أنتم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: كما بيّنّا تلك الآيات كذلك نميّزها ونفصّلها للعباد ليتمكّنوا من الاستدلال بها ليرجعوا من الباطل إلى الحقّ.

قال الفيض في الصافي في معنى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ يعني: نشر حقائقهم بين يدي علمه فاستنطق الحقائق بألسنة قابليّات جواهرها واستعداد ألسن ذرّاتها فركّب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بالربوبيّة حتّى صار بمنزلة الإشهاد على طريق التمثيل نظير ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فكانوا بتلك القوّة العقليّة يسمعون الخطاب كما يسمعون الخطاب في الدنيا بالقوّة البدنيّة، ولا يبعد أنّ ذلك النطق باللسان الملكوتيّ في العالم المثاليّ الّذي دون عالم العقل. وقول الفيض قريب من القول الثاني.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى

ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

أمر اللّه سبحانه بأن يقرأ على الناس خبراً آخر من قصّة بني إسرائيل. قال ابن عبّاس ومجاهد وابن مسعود: نزلت هذه الآية في بلعم بن باعورا لأنّ موسى عليه السلام قصد بلده الّذي هو فيه وغزا أهله وكانوا كفّاراً فطلبوا منه أن يدعو على موسى وقومه وكان مجاب الدعوة وعنده اسم اللّه الأعظم فامتنع منه فما زالوا يطلبون منه حتّى دعا عليه فاستجيب له ووقع موسى وقومه في الشدّة بدعائه فقال موسى: يا ربّ بأيّ ذنب وقعنا في الشدائد؟

فقال: بدعاء بلعم بن باعورا فقال موسى: كما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه. ثمّ دعا موسى أن ينزع اللّه منه اسمه الأعظم والإيمان فسلخه اللّه ممّا كان عليه ونزع عنه المعرفة بسوء فعله فخرجت في صورة كحمامة بيضاء.

قال سعيد بن المسيّب وزيد بن أسلم وعبد اللّه بن عمر وأبو روق وأبو حمزة الثماليّ وجماعة من المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت في اميّة ابن أبي الصلت وكان قد قرأ الكتب وعلم أنّ اللّه يرسل في ذلك الوقت رسولاً ورجاً أن يكون هو فلمّا أرسل اللّه محمّداً حسده، ثمّ مات كافراً ولم يؤمن باللّه، وهو الّذي قال فيه النبيّ: آمن شعره وكفر قلبه.

وقيل: نزلت في أبي عامر الراهب الّذي سمّاه النبيّ صلى الله عليه وآله بالفاسق كان يترهّب في الجاهليّة فلمّا جاء الإسلام خرج إلى الشام وأمر المنافقين باتّخاذ مسجد ضرار وأتى قيصر واستنجده على النبيّ صلى الله عليه وآله فمات هناك طريداً وحيداً وقيل: نزلت في منافقي أهل الكتاب كانوا يعرفون النبيّ صلى الله عليه وآله وقيل: هو عامّ

فيمن عرض عليه الهدى فأعرض عنه. ﴿فَانسَلَخَ﴾ أي: فارق بالكليّة عمّا كان عليه وعرى. وذكر الآية لتحذير الناس عن مثل حالته. ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾ بأن نحول بينه وبين الكفر قهراً وجبراً إلّا أنّ ذلك ينافي التكليف بينه وبين الكفر ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ومال إلى الدنيا ومستلذّاتها من الضياع والأمتعة، لأنّ الدنيا تطلق على الأرض لأنّ كلّ الأمتعة تحصل من الأرض في الدنيا، واتّبع هوى نفسه ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ شبّهه الله بالكلب ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ واللهث هو أنّ الكلب إذا ناله الإعياء عند شدّة العدو وشدّة الحرّ فإنّه يدلع لسانه من العطش والتعب إن تطرده يلهث وإن تتركه أيضاً يلهث لأنّ هذه الطبيعة صارت له عادة، إن وعظته فهو ضالّ وإن تركته فهو ضالّ وهذا مثل المكذّبين بآيات الله لأنّهم كذّبوا محمّداً ولم يهتدوا لمّا جاءهم ونصحهم وهم مشركوا قريش. فاقصص وبيّن لهم لعلّ بعضهم يتّعظون.

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

بعد تمثيلهم الجماعة بالكلب تقدير الآية: ساء مثلاً مثل القوم. انتصب ﴿مَثَلًا﴾ على التمييز و﴿سَاءَ﴾ لازم متعدّ، تقول: ساء الشيء وتقول: ساءه و﴿الْقَوْمُ﴾ يمكن أن يكون مبتدءاً وجملة ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ خبره ويمكن أن يكون ﴿الْقَوْمُ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف لأنّك لمّا قلت: ساء مثلاً قيل لك: من هو؟ قلت: القوم الموصوفون بالتكذيب وبظلم أنفسهم.

مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

أي: من يهديه الله إلى الثواب والجنّة فهو المهتدي طريق الرشد فيما كلّفه الله بيّن الله أنّه تعالى لا يهدي إلى الجنة في الآخرة إلّا من كان يأتي بما كلّف ومن يضلله عن طريق الجنّة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وحاصل المعنى:

من يهده الله فقبل وتمسّك بهداه فهو المهتدي، ومن يضلل بأن لم يقبل فهو الخاسر، وذلك بسبب عدم قبوله وسوء اختياره فاخرج من الألطاف والهداية بهذا السبب فأبقاه بينه وبين ما اختاره ولم يمنعه عن الكفر عن البلخيّ وجماعة من المفسّرين وهذا معنى الإضلال لا كما فسّر الأشاعرة.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

لمّا بيّن أمر الكفّار. وضرب لهم الأمثال عقّبه بمصير مآلهم فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ فقال: ولقد خلقناهم فكان عاقبتهم المصير إلى النار بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان واللّام في قوله: «لجهنّم» لام العاقبة نحو قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1] والمراد من أهل الآية كلّ من علم الله أنّه لا يؤمن ويصير إلى النار. ومن المعلوم أنّ كثيراً من الآيات دالّة على أنّه سبحانه أراد من الكلّ الطّاعة والخير والصلاح قال الله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[2] وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[3] وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[4] وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾[5] وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

١ـ سورة القصص: ٨.

٢ـ سورة الفتح: ٨و ٩.

٣ـ سورة النساء: ٦٤.

٤ـ سورة الحديد: ٩.

٥ـ سورة الفرقان: ٥٠.

﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾[1] وقال: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[3] وأمثال هذه الآيات كثيرة.

قالت المعتزلة: ونحن نعلم بالضرورة أنّه لا يجوز التناقض في القرآن وهذا أحد الدلائل على أنّه لا يمكن حمل الآية في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ﴾ على ظاهرها.

والدليل الثاني: قال في هذه الآية: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٌ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٌ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ وهو تعالى ذكر ذلك في معرض الذمّ لهم، ولو كانوا مخلوقين للنّار لما كانوا قادرين على الإيمان فحينئذ يقبح ذمّهم على ترك الإيمان.

الوجه الثالث: من الدليل وهو أنّه لو كان خلقهم للنّار لما كان له نعمة على أحد من الكفّار أصلاً لأنّ منافع الدنيا بالقياس إلى عذاب الآخرة كالقطرة في البحر وكان كمن دفع إلى إنسان حلواً مسموماً فإنّه لا يكون منعماً عليه فكذا هاهنا، مع أنّ القرآن مشحون من بيان كثرة نعم اللّه على كلّ الخلق علمنا أنّ الأمر ليس كما ذكروه الأشاعرة في تفسير الآية، واستدلّوا بها وأمثالها على صحّة مذهب الجبر، على أنّ المدح والذمّ والثواب والعقاب والترغيب والترهيب يبطل هذا المذهب الّذي ينصرونه ثمّ إنّه لو خلقهم للنّار لوجب أن يخلقهم ابتداء في النّار لأنّه لا فائدة في أن يستدرجهم إلى النار بخلق الكفر فيهم فثبت بهذه الوجوه أنّه لا يمكن حمل الآية على ظاهرها بل إنّما اللّام في الآية لام العاقبة لا لام الأجل. وله نظائر كثيرة في القرآن كما ذكرنا قبيل ذلك، وقد جاء في الشعر أيضاً نحو قولهم:

١ـ سورة الحديد: ٢٥.

٢ـ سورة إبراهيم: ١٠.

٣ـ سورة الذاريات: ٥٦.

وللموت تغذو الوالدات يسخالها كما لخراب الدهر تبنى المساكن[١]

وقال الآخر:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها[٢]

قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحقّ لأنّهم لا يتدبّرون بيّناته ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ رشدهم ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ويعرضون عن استماعها، والمراد أنّه سلب عنهم إدراكاتهم بسبب غفلتهم عن حججي وآياتي، وبسبب شهوات أنفسهم.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

ودع الّذين يعدلون بأسماء اللّه غير الأسماء فيسمّون بها أصنامهم بالتحريف والزيادة والنقصان فاشتقّوا اللات من اللّه، والعزّى من العزيز، ومناة من المنّان، ويصفون اللّه بما لا يليق وما لا يجوز. ويشمل هذا قول النصارى بتسمية المسيح ابن اللّه واليهود بتسمية العزير ابن اللّه. سيجزون هؤلاء بعملهم.

ونظم الآية أنّه لمّا وصف الغافلين بورود جهنّم أمر وبيّن ما يوجب التخلّص عن عذاب اللّه فليدعون اللّه بأسمائه، فإنّ الجماد لا يخاطب بالألوهيّة فانّ الإنسان إذا وجّه قلبه ولسانه إلى ذكر خالقه وإطاعة أوامره ودعاه كما هو سمّى نفسه تخلّص عن الدركات، وتباعد عن حضيض الشهوات واستشعر بمعرفة خالقه.

والمراد من الأسماء الحسنى نعوت الجلال وهي محصورة في نوعين:

١ـ رسائل المرتضي، الشريف المترضي، ج ٣، ص ١٩٥.

٢ـ ومنه ايضاً: لدوا للموت وابنوا للخراب: ونهج البلاغه، ج ٤، ص ٣.

عدم افتقاره إلى غيره وثبوت افتقار غيره إليه، ويشتقّ من هذين النوعين أسماء لا نهاية لها لأنّ الاسم إمّا اسم الذات فهو المسمّى بالاسم الأعظم، وإمّا اسم لصفة خارجة عن الذات قائمة بها فكونه تعالى موصوفاً بصفة فاعليّته لما ينبغي وغير فاعل لما لا ينبغي تحقّق الثوابت والسلوب فيحصل بسبب هذا النوعين من الاعتبارات أسماء لا نهاية لها لأنّ مقدوراته غير متناهية. وهذا بحر لا ساحل له فلا نهاية لمعرفة أسماء اللّه الحسنى وهذا معنى قوله ﷺ: **«ما عرفناك حقّ معرفتك»**.[1]

«الحسنى» تأنيث الأحسن أي: ادعوا اللّه بأحسن الأسماء وأجلّها. واللحد والإلحاد الانحراف. وقرئ «يلحدون» من الثلاثي أي: يميلون في شأن الأسماء عن الحقّ إلى الباطل إمّا بأن يسمّوه تعالى بما لا يليق وما لا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسداً قال أبو عبد اللّه عليه السلام: **«نحن واللّه الأسماء الحسنى فادعوه بها»**.[2]

وتقديم الخبر في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ﴾ يدلّ على الحصر في «الكافي» عن الرضا عليه السلام: **«إنّ الخالق لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه، وأنّى يوصف الّذي يعجز الحواسّ أن تدركه والأوهام والخواطر أن تناله وتحدّه؟ جلّ عما يصفه الواصفون وتعالى عمّا ينعته الناعتون»**[3] الحديث. العيّاشيّ عن الرضا عليه السلام قال: **«إذا نزلت بكم شدّة فاستعينوا بنا»**.[4]

فالأسماء توقيفيّ فمتى ثبت أنّه ما ورد من الشارع لا يجوز أن يسمّى تعالى به والأسماء الحسنى منها ما يرجع إلى صفات ذاته كالعالم والقادر والإله

١ـ بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٩٢ وعوالي اللئالي، ج ٤، ١٣٢.

٢ـ انظر: الكافي ج ١، ص ١٤٤؛ وبحار الأنوار، ج ٩١، ص ٦٠.

٣ـ كافي، جلد ١، ص ١٣٨.

٤ـ بحار الأنوار، جلد ٥٠، ص ١٧٨.

والحيّ والقديم، ومنها ما هي صفات فعله كالخالق والرازق والمحيي والمميت.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١﴾

لمّا قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ كذلك يقول: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾ وعصبة يدعون الناس إلى دينه وهو الحقّ وبالحقّ يحكمون.

واعلم أنّه لمّا ذكر سبحانه في قصّة موسى قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ وأعاد الله سبحانه في هذه الآية حمله أكثر المفسّرين على أنّ المراد منه أمّة محمّد ﷺ، عن قتادة وابن جريح. عن النبي ﷺ أنّه قال: «**إنّها هذه الامّة**».[1] قال ابن عبّاس: يريد المهاجرين والأنصار، ومن المعلوم أنّ المراد بعضهم، قال الجبّائيّ هذه الآية تدلّ على أنّه لا يخلو زمان عمّن يقوم بالحقّ ويعمل به ويهدي إليه. روى العيّاشيّ بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**والّذي نفسي بيده ليفترقنّ هذه الامّة على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النار إلّا فرقة واحدة وممّن خلقنا أمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون فهذه الّتي تنجو**».[2] وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام أنهما قالا: «**نحن هم**».[3]

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ١٨٣ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٤ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦﴾

١ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٤٢.

٢ـ بحار الأنوار، جلد ٢٤، ص ١٤٤؛ وبحار الأنوار، جلد ١٠٨، ٣٣١.

٣ـ انظر: جوامع الجامع، ج ١، ص ٢٧٢.

وقرئ «ونذرهم» بالنون.

النظم: لمّا ذكر الله في الآية السابقة المؤمنين بمحمّدﷺ ذكر حال المكذّبين به وبآياته فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الّتي هي القرآن والمعجزات الدالّة على صدق النبيﷺ وكفروا بها ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي: نقرّبهم إلى عذاب الآخرة درجة إلى أن يقعوا فيه وأصله من الدرجة. وقيل: معناه: سنطويهم في الهلاك ونرفعهم من وجه الأرض فيكون معناه مأخوذاً من الدرج بمعنى الطيّ. وقيل معناه: كلّما جدّدوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة وجعل الاستدراج جزاء على كفرهم.

وما فسّره المجبّرة غلط فاسد فإنّه كيف يخلق فيهم الكفر ويخلق فيه كفراً آخر ويكون الكفر فعله وهو يعاقب بفعل نفسه؟! قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ معناه: وأبقيهم في الدنيا مع إصرارهم على الكفر، وأمهلهم ولا أعاجلهم بالعقوبة لأنّهم لا يفوتونني ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ وعذابي غليظ محكم. وسمّاه كيداً لنزوله من حيث لا يشعرون. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ الجنّة حالة من الجنون كالجلسة. ودخل كلمة «من» لإفادة أنّه ليس به نوع من أنواع الجنون، وذلك بأنّ النبيﷺ قام ليلاً على الصفا يدعو فخذاً فخذاً من قريش يقول: «**يا بني فلان يا بني فلان**» وكان يدعوهم إلى توحيد الله ويخوّفهم من عذاب الله وواظب طول ليلته إلى الصباح فقال بعضهم لبعض: إنّ صاحبكم هذا لمجنون. وقيل: إنّهﷺ عند نزول الوحي تغشاه حالة عجيبة يتغيّر وجهه ويصفرّ لونه ويعرض له حالة شبيهة بالغشي فالجهّال كانوا يقولون: إنّ به جنوناً فالله يقول: إنّهم لا يتأمّلون أنّ هذا النبيّ الحسن الخلق، مرضيّ الطريقة، طيّب العشرة، نقيّ السيرة، مواظباً على المكارم كيف يتصوّرون في حالة الجنون؟ ولمّا كان شأنه الدعوة إلى الدين كان نذيراً مبيناً لهم أمرهم.

ولمّا كان أمر النبوّة متفرّعاً على تقدير دلائل التوحيد عقّبه بذكر ما يدلّ على التوحيد قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

ثمّ قال: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ المقصود أنّ دلائل التوحيد غير مقصورة على السماوات والأرض، بل كلّ ذرّة من ذرّات الوجود من عالم الأجسام والأرواح شاهد معرفته وبرهان باهر ودليل قاهر. وذلك لأنّ وقوع كلّ ذرّة من الذرّات بحيّز معيّن مع أنّ الأحياز غير متناهية كما أنّ الأجسام غير متناهية يدلّ على وجود محيّز ومخصّص وهو اللّه.

ولمّا قرّر هذه الدقيقة أردفه بما يوجب الترغيب في الإتيان بالنظر والتفكّر فقال: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡ﴾ وتقديره: وإنّه عسى، والضمير ضمير الشأن والمعنى: لعلّ آجالهم قربت فهلكوا على الكفر وإذا كان هذا الاحتمال قائماً فيوجب على العاقل المسارعة إلى هذه الفكرة وتخليص النفس من هذا الخوف الشديد.

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ﴾ بعد هذا القرآن وهذه الدلائل ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؟ والآية تدلّ على حدوث القرآن، ولفظ الحديث يفيد من جهة اللّغة ومن جهة الاصطلاح والعادة حدوثه عن قرب يقال: إنّ هذا الشيء حديث وليس بعتيق فيجعلون الحديث ضدّ العتيق الّذي طال زمانه وزمان وجوده.

﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ عاد إلى ذكر المكذّبين الضالّين. المعنى: من اختار الضلالة على الهدى بسوء اختياره وأبقاه اللّه على ضلالته وخلّى بينه وبين اختياره فلا هادي له، ويدعهم في عمههم وتحيّرهم. والعمه في القلب كالعمى في البصر. وإذا قرئ بالنّون فجملة مستأنفة.

يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧)

النظم: لمّا قال سبحانه ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ ترغيباً في مسارعة التوبة قال بعده: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ ليتحقّق أنّ وقت الساعة مكتوم عن الخلق فيصير ذلك حاملاً للمكلّفين على أداء الواجبات وقيل: إنّ قوماً من اليهود جاءوا إلى النبيّ ﷺ وقالوا: يا محمّد أخبرنا عن الساعة متى هي إن كنت نبيّاً؟ فنزلت الآية وقيل: إنّ قريشاً سألوا هذا السؤال. قال صاحب «الكشّاف»: الساعة من الأسماء الغالبة للقيامة كالنجم للثريّا وسمّيت القيامة بالساعة لأنّ حساب الخلق يقضى في ساعة واحدة أو لوقوعها بغتة.

«أيّان» معناه الاستفهام عن زمان المستقبل بمعنى متى وأصله أيّ أن. و«أرسى» أي: اثبت ولا يستعمل إلّا في الشيء الثقيل و«أيّان» خبر مقدّم و«مرساها» مبتدأ مؤخّر. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ ولا يعلمه غيره، وقوله: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ بيان لاستمرار تلك الحالة إلى حين قيامها وإقناط كلّي للكلّ في عدم العلم بوقتها لاقتضاء الحكمة التشريعيّة كإخفاء الأجل قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ثقلت وقوع القيامة على السماوات والأرض لأجل أنّ عند مجيئها شقّقت السماوات وتكوّرت الشمس والقمر وانتثرت النجوم وتبدّل الأرض غير الأرض وتندكّ الجبال وتفنى البحار، وثقيل هذا اليوم على أهل السماوات فضلاً على أهل الأرض، لأنّ فيه فناءهم، وثقيل على القلوب من الخوف وقيل معنى ثقلت: خفيت واقعتها. ثمّ قال سبحانه: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ على حين غفلة من الخلق قال النبيّ ﷺ: **«يفجأ الناس والرجل يسقي ماشيته ويصلح موضعه ويقوم بسلعته في السوق والرجل يطفئ نيرانه ويرفعه».**[1] قال ﷺ **«والّذي نفسي بيده لتقومنّ الساعة والرجل ليرفع اللقمة إلى فيه حتى تحول**

١ـ جامع البيان، ج ٩ ص ١٨٧.

الساعة بينه وبين ذلك».

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ المراد يعني: أنك أكثرت في المسألة عنها وتتبّعت وعلمت وقتها. وهو من الإحفاء وهو الإلحاح في السؤال ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﷺ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أمره سبحانه بإعادة الجواب الأوّل تأكيداً للحكم بعدم العلم وتمهيداً للتعريض بجهلهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لعلّة اختصاص هذا العلم به تعالى.

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

النظم: روي أنّ أهل مكّة قالوا: يا محمّد أ لا يخبرك ربّك بالرخص والغلاء حتى تشتري فتربح؟ وبالأرض الّتي تجدب لترتحل إلى الأرض الخصبة؟ فنزلت الآية وقيل: إنّ النبيّ ﷺ لمّا رجع من غزوة بني المصطلق وجاءت ريح في الطريق نفرت الإبل والدوابّ منها فأخبر النبيّ ﷺ بموت رفاعة بالمدينة وكان فيه غيظ المنافقين وقال: «**انظروا أين ناقتي؟**» فقال عبد الله بن أبيّ: ألا تعجبون من حال هذا الرجل يخبر بموت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته؟ فقال ﷺ: «**إنّ ناساً من المنافقين قالوا كيت وكيت وناقتي في هذا الشعب قد تعلّق زمامها بشجرة**» فوجدوها على ما قال رسول الله ﷺ فانزل الآية.[1]

أي: ما بيدي واختياري من أمر إلّا بإذن الله ولا أعلم إلّا بتعليمه إيّاي وما أنا إلّا نذير لكم من عذاب الله وبشير لكم برضوان الله لقوم آمن بالله وصدّق بنبوّتي وما أقدر على شيء إلّا ما أقدرني الله عليه.

١ـ انظر: الخرائج والجرائح، جلد ١، ص ١٠٢ بحار، ج ١٧، ص ٢٣٠.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

لمّا تقدّم ذكر الله ذكر عقبيه التوحيد وإبطال الشرك فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ الخطاب لبني آدم ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ أي: آدم ﴿وَجَعَلَ﴾ من جنسها أو من جسدها على قول: و«جعل» بمعنى خبر أو إنشاء ﴿زَوۡجَهَا﴾ أي: حوّاء ليستأنس بها فلمّا أصابها وجامعها ـ والغشيان إتيان الرجل المرأة وقد غشاها إذا علاها، وذلك لأنّه إذا علاها فقد صار كالغاشية لها ويجلّلها وهو يشبه التغطّي ـ ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾ يريد حمل النطفة لأنّها في أوّل الأمر خفيفة ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾ أي: استمرّت بالماء والحمل على سبيل الخفّة أي: تقوم وتقعد وتمشي من غير ثقل وقرئ «فمرت به» بالتخفيف وقرئ «فمارت به» أي: ارتابت بالحمل.

﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ ودنت ولادتها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: آدم وحوّاء: ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ سويّا مثلنا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمائك.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الله ﴿صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ واختلف في ضمير «جعلا» في تفسير عليّ بن إبراهيم القميّ والعيّاشيّ عن الباقر عليه السلام: **«الضمير راجع إلى آدم وحوّاء: أي: كان شركهما شرك طاعة لا شرك عبادة»**.(١)

قيل: لمّا آتاهما الولد الصالح عزماً على أن يجعلاه وقفاً على طاعة الله وعبوديّته ثمّ بدا لهما في ذلك فتارة ينتفعون به في مصالح الدنيا ومنافعها وتارة بخدمة الله وعبادته وهذا العمل وإن كان منّا قربة وطاعة إلّا أنّ حسنات الأبرار

١ـ تفسير القمي، ج ١، ص ٢٥٣.، تفسير العياشي، ج ٢، ص ٤٣؛ وبحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٥١.

سيّئات المقرّبين فلهذا قال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذا أحد الأقوال.

وقيل: إنّه يرجع الضمير إلى أولاد هذا الصالح الّذي آتاهما والمراد بعض ذرّيّة هذا النسل الصالح، وإنّما ثنّي لأنّ حوّاء كانت تلد في كلّ بطن ذكراً وأنثى فحاصل المعنى أنّ هذا النسل الّذين هم ذكروا أنثى جعلا للّه شركاء فالمراد من الجاعلين الّذين اتّخذ الآلهة من الأوثان من أولاد آدم، ولذلك أتى بضمير الجمع في قوله «يشركون» وباعتبار الذكوريّة والإناثيّة أو باعتبار أنّهم من أصلين عبر بالتثنية.

وقد روى بعض العامّة في تفسير هذه الآية ما لا يليق بالأنبياء وهو أن حوّاء لمّا ثقلت بالحمل أتاها إبليس في صورة وقال: ما هذا يا حوّاء إنّي أظنّ أن يكون كلباً أو بهيمة وما يدريك أن يخرج من دبرك فيقتلك أو من بطنك فخافت حوّاء وذكرت ذلك لآدم فلم يزالا في همّ من ذلك ثمّ أتاها إبليس وقال: إن سألت اللّه أن يجعله صالحاً سويّاً مثلك ويسهل خروجه من بطنك فسمّيه بعبد الحارث وكان اسم إبليس الحارث عند الملائكة فلمّا آتاهما اللّه ولداً سويّاً جعلاً له شركاء أي: جعل آدم وحوّاء شريكاً له والمراد بالشريك الحارث.

قال الرازيّ: وهذا القول فاسد لوجوه: الأوّل: أنّه تعالى قال بعده: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وذلك يدلّ على أنّ الّذين أتوا بالشرك جماعة.

الثاني: أنّه تعالى قال بعده: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ وهذا يدلّ على أنّ المقصود من هذه الآية الردّ على من جعل الأصنام شركاء للّه وما جرى لإبليس ذكر في الآية.

الثالث: لو كان المراد من الشركاء إبليس لقال: يشركون من لا يخلق فإنّ الغالب أن يذكر العاقل بصيغة «من» لا بصيغة «ما».

الرابع: أنّ آدم كان أشدّ عداوة لإبليس وأعرف بعداوة إبليس له وكان

عالماً بجميع الأسماء، فلابدّ وأن يعلم أن اسم إبليس الحارث فمع تلك العداوة الشديدة والعلم الكامل كيف سمّى ولده بعبد الحارث؟ وأنّ آدم بسبب الزلّة الّتي وقعت منه وحصول التجربة كيف لم يتنبّه لهذا مع أنّه كان نبيّاً؟ ومع علمه بالأسماء حيث يقول: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1].

ثمّ بتقدير أنّ آدم سمّاه بعبد الحارث فلا يخلو أنّه إمّا أن جعل هذا اللّفظ علماً له أو جعله صفة له فإن كان الأوّل لم يكن هذا شركاً باللّه لأنّ أسماء الأعلام لا يفيد في المسمّيات فائدة فلم يلزم من التسمية بهذا اللفظ حصول الشرك وإن كان الثاني كان هذا قولاً بأن آدم اعتقد أنّ للّه شريكاً في الإيجاد والتكوين وذلك موجب للقول بتكفير آدم فثبت فساد هذا القول.

وفي «العيون» عن الرضا عليه السلام: **«ثمّ إنّ حوّاء ولدت لآدم خمسمائة بطن في كلّ بطن ذكراً وأنثى وأنّ آدم وحوّاء دعواه وعاهداه ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فلمّا آتاهما صالحاً من النسل خلقاً سويّاً بريئاً من العيب والزمانة كان ما آتاهما صنفان ذكراً وأنثى فالصنفان جعلا شركاء لله فيما آتاهما ولم يشكرا الله كشكر أبويهما. قال الله ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ فقال المأمون: أشهد انك ابن رسول الله»**[2]

وفي قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ قال بعض: يقتضي ظاهر الآية كون حوّاء مخلوقة من نفس آدم ويقولون: خلقها من ضلع من أضلاع آدم، ويقولون: الحكمة فيه أنّ الجنس إلى الجنس أميل والجنسيّة علّة الضمّ.

قال الرازيّ: هذا الكلام مشكل لأنه تعالى لمّا كان قادراً على أن يخلق آدم ابتداء فما الّذي حملنا على أن نقول أنّه خلق حوّاء من جزء من أجزاء آدم؟ ولم لا يقولوا: إنّه تعالى خلق حوّاء أيضاً ابتداء؟ لأنّ الّذي يقدر على

١ـ سورة البقرة: ٣١.

٢ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٧٥، والتفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٥٩.

خلق إنسان من عظم واحدة يقدر على خلقه ابتداء بقي أنّه إذا لم نقل بذلك فما المراد من كلمة «من» في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ نقول: الإشارة إلى الشيء تارة يكون بحسب شخصه واخرى بحسب نوعه قال ﷺ: «**هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة الّا به**» وليس المراد ذلك الفرد المعيّن بل المراد ذلك النوع والمراد: خلق من نوع الإنسان زوجته.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

هذه الآية من أقوى الدلائل على أنّه ليس المراد بقوله: «فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» ما ذكروه من قصة إبليس إذ لو كانت قصّة إبليس صحيحة لكانت هذه الآية أجنبيّة عنها بالكلّيّة بل المراد من الآية السابقة الردّ على عبدة الأوثان قوله ﴿يُشْرِكُونَ﴾ المراد أنّ الأصنام لا يصلح للالهيّة أي: أ يعبدون ما لا يقدر على أن يخلق وهو مخلوق؟ وأفرد في قوله «يخلق» لأنّ لفظة «ما» يقع على الواحد والجمع وجمع سبحانه بقوله: ﴿يُخْلَقُونَ﴾ مراعاة لجانب المعنى وهي الأصنام.

فلو قيل: إنّ الجمع بالواو والنون للعاقل والأصنام لا تعقل؟ فالجواب أنّ المشركين بزعمهم أنّها تعقل فحكى الآية زعمهم السخيفة نظيره ﴿يَاأَيُّهَا

ﭐﻟﻨَّﻤۡﻞُ ﭐﺩۡﺧُﻠُﻮﺍْ ﻣَﺴَٰﻜِﻨَﻜُﻢۡ﴾[١] وحاصل الكلام أنّ المعبود يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضرر وهذه الأصنام ليست كذلك.

ثمّ أكّد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ﴾ وعطف الجملة الاسميّة على الفعليّة لثبوت الاستمرار في الجملة الاسميّة وحصول التجدّد والحدوث في الجملة الفعليّة أي: إذا تتضرّعون للأصنام لرفع المعضلات عنكم ساعة فساعة أو تكفون لا فرق في الأثر لأنّ المشركين كانوا اذا وقعوا في شديدة تضرّعوا إلى أصنامهم، وإذا لم تحدث حادثة سكتوا فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾ فلو قيل: إنّ الجماد كيف يحسن وصفها بالعباد فهذا المعنى ورد على وفق معتقدهم بأنّها عاقلة فاهمة فقال الله لهم على سبيل التهكّم: إن كان الأمر كذلك فهم أيضاً عباد أمثالكم وأنتم عبيد فلم جعلتم أنفسكم عبيداً لهم بل أنتم وهم فرضكم سواء فلم جعلتموهم آلهة وأربابا ثمّ قال: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ﴾ بزعمكم ﴿صَٰدِقِينَ ﴾. ثمّ شرح عجز الأصنام بقوله تعالى: ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ بيان نوع آخر من تقرير قباحة عبدة الأصنام فذكر قوى أربعة تنبئ عن القوّة والحياة والإدراك وكلّها مسلوبة، وحاصل الآية أنّ المعبود أعجز من العابد فكيف يليق ذلك بالأشرف أن يعبد الأخس؟ وكانوا يخوّفون الرسول بآلهتهم بأنّها تفعل كيت فقال سبحانه تعالى: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمّدﷺ لا تمهلوني وأعجلوا في كيدي مع آلهتكم ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ وكيدون بحذف الياء بسبب أنّ الفواصل تشبه القوافي

١ـ سورة النمل: ١٨.

فيحذفوها ويبقوها على الأصل.

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

والمعنى أن ناصري الله الّذي نزل القرآن ويؤيّدني بنصره كما أنزل القرآن عليّ وهو ينصر المطيعين له المجتنبين معاصيه تارة بالدفع عنهم واخرى بالحجّة والّذين تدعونه من غير الله لا يستطيعون نصرتكم ولا نصرة أنفسهم ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ قيل: المعنى: وإن دعوتهم هؤلاء الّذين تعبدونهم من الأصنام إلى المنافع والرشد ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ فضلاً عن المساعدة وهذا القول أبلغ في نفي الاتّباع.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع ترى الأصنام يشبهون الناظرين إليك ويخيّل إليك أنّهم يبصرون لمّا أنّهم صنعوا لها أعيناً مركّبة من الجواهر المضيئة المتلألئة وصوّروها بصورة من يقلّب والحال أنّها لا تبصر وحينئذ الرؤية بمعنى الحسبان واردة. وقيل: المعنى وإن دعوتم المشركين إلى الدين لا يسمعوا دعاءكم ينظرون إليك.

ضمير الجمع راجع إلى المشركين الّذين هم عمي القلب ولفظ «وليّي» بثلاث ياءات ياء فعيل وهي ساكنة والثانية لام الفعل وهي مكسورة قد أدغمت الأولى منها فصارت مشدّدة والثالثة ياء الإضافة وقرئ وليّ الله بياء مشدّدة وحذف ياء الّتي هي لام الفعل ثمّ أدغمت ياء فعيل في ياء الإضافة فقيل وليّ الله وهذه الفتحة فتحة ياء الإضافة والباقون جازوا اجتماع ثلث ياءات.

قيل: إنّ رجلاً من الصالحين ما كان يدّخر لأولاده شيئاً مع أنّه كان من

الأغنياء فقيل له في ذلك فقال: ولدي إن كان من الصالحين فوليّه الله بموجب هذه الآية ومن كان وليّه الله فلا حاجة له في مالي وإن كان من المجرمين فقد قال الله ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾[1] ومن ردّ الله لم أشتغل بإصلاح مهمّاته.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

لمّا بين أنّه يتولّى الصالحين بيّن في هذه الآية الصلاح وحقيقته فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال أهل اللغة: «العفو» الفضل وما أتى من غير كلفة إذا عرفت هذا فالحقوق مطلقاً إمّا أن يجوز فيها المسامحة والمساهلة وإمّا لا يجوز: أمّا الفرد الأوّل فهو المراد بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ ويدخل فيه ترك التشدّد في كلّ ما يتعلّق بالحقوق الماليّة، ويدخل فيه التخلّق مع الناس بترك الغلظة والمعاشرة بالخلق الطيّب، ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى دين الحقّ باللطف والرفق.

والقسم الثاني وهو الّذي لا يجوز فيه المساهلة فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف وهو كلّ خصلة حميدة بيّنها الشارع وتعرف صوابها العقول السليمة فعلّم رسوله في هذه الآية بمحاسن الأفعال ومكارم الخصال.

روي أنّه لمّا نزلت هذه الآية سأل رسول الله جبرئيل عن ذلك فقال جبرئيل: «لا أدري حتّى أسأل العالم» ثمّ أتاه فقال: «**يا محمّد ﷺ إنّ الله يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك**»[2] ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ وهو كلّ ما حسن في الشرع والعقل ولم يكن منكراً ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ بعد قيام الحجّة عليهم إذا قابلوك بالسفه صيانة على قدرك ولمّا نزلت هذه الآية قال: «**يا ربّ كيف والغضب**» فنزل قوله:

١ـ سورة القصص: ١٧.

٢ـ تفسير مجمع البيان ج ٤ ص ٤١٥ وانظر: بحار الأنوار، ج٧٢، ص ٢٤٣.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾

نزغ الشيطان عبارة من وساوسه ونخشه[1] في القلب بما يسوّل للإنسان من المعاصي ونزغت بين القوم إذا أفسدت ما بينهم وقيل: «النزغ» الإزعاج وهو الحركة إلى الشرّ وأكثر ما يكون عند الغضب.

ولمّا كان من المعلوم أنّ عند إقدام السفيه على السفاهة يهيّج الغضب فعند ذلك يجد الشيطان مجالاً فينزغ ويحرك الإنسان على ما لا ينبغي فقال سبحانه دواء هذا الداء بقوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ وهو أن يتفكّر الإنسان عظم نعمته وشديد عقابه وهو التذكّر يدعوه إلى الإعراض عن مقتضى الطبع والغضب وبهذا النصّ ثبت أنّ لهذه الاستعاذة أثراً في دفع نزغ الشيطان فالمواظبة على هذا الأمر لازمة في أكثر الأحوال ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ بدعائك ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢﴾

وصف سبحانه حال المتّقين من نزغ الشيطان فقال: إنّه ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ من طاف به الخيال وألمّ به وأحاط كأنّها تطوف وتدور حولهم لتوقعهم بالمهلكة ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ بالاستعاذة واستعاذوا به تعالى وتوكّلوا عليه ﴿فَإِذَا هُم﴾ بسبب ذلك التذكّر والاستعاذة ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾ واقع الخطاء ومكائد اللعين ومعنى «إذا» هاهنا للمفاجأة.

وقوله: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ﴾ الضمير إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأوّل: أي: إخوان الشياطين من الإنس يعينون شياطين الجنّ في إغواء الناس في

١ـ نخشه: حثه على أمر.

الإضلال ثمّ لا يكفون ولا يقصرون عن الضلال والإضلال. والقول الثاني: أنّ الضمير راجع إلى الكفرة وشياطينهم يكونون مدداً لهم في الإغواء فإن لكلّ كافر أخاً من الشيطان ولأنّ للمؤمن ايضاً شيطاناً لكنّه ليس بأخ له.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

بيان نوع آخر من ضلالات الكافرين وهو أنّهم كانوا يطلبون آيات ومعجزات على سبيل الاقتراح والتعنت مثل قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾[١] وأمثاله فقال: وإذا لم تأت بآية الّتي هم اقترحوها قالوا: هلا اقترحت على إلهك إن كنت صادقاً في أنّ الله يقبل دعاءك فعند هذا أمر نبيّه أن يذكر لهم الجواب الشافي بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وليس لي أن اقترح على ربي في الأمور بل إنّما أنتظر الوحي فكلّ شيء أمرني وأكرمني به قلته وإلّا فالواجب السكوت ثمّ بيّن أنّ عدم الإتيان بما يقترحون لا يقدح في الغرض لأنّ هذا القرآن معجزة بالغة في تصحيح أمر النبوّة فكان طلب الزيادة من باب التعنّت لأنّ القرآن سبب لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوّة والمعاد تسمية للسبب باسم المسبّب وبه الكفاية لأنّه سبب الهدى والبصيرة لمن آمن به والقرآن في حقّ الّذين بلغوا في معارفه غاية إلى حيث صاروا كالمشاهدين فهم أصحاب عين اليقين، والّذين ما بلغوا إلى ذلك الحدّ ولكنّهم وصلوا إلى درجات المستدلّين بدلائل التوحيد والنبوّة فهم أصحاب علم اليقين. فالقرآن في حقّ الطائفة الأولى بصائر وفي حقّ القسم الثاني هدى وهداية، وفي حقّ عامة من أمن به

١ـ سورة الإسراء: ٩٠.

رحمة ولمّا كانت الفرق الثلاثة من المؤمنين لا جرم خصّهم بذكر الإيمان لأنّهم المنتفعون به دون الكفّار.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ أفعال النبيّ وأحواله تابع للوحي والقرآن وأنّه لا يجوز العمل بالرأي والقياس.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾

لمّا بيّن شأن القرآن بقوله: ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أردفه بقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ والإنصات السكوت والكفّ عن الكلام، وفيه أقوال واختلاف في وجوب الأمر بالاستماع وندبه وكذا في وقت القراءة فقيل: حكم الإنصات والاستماع في وقت الصلاة خاصّة خلف الإمام الّذي يؤتمّ به إذا سمعت قراءته، وهذا القول عن ابن عبّاس وابن مسعود وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب ومجاهد والزهريّ، وروي ذلك عن الباقر عليه السلام.

قالوا: وكان المسلمون يتكلّمون في صلاتهم ويسلّم بعضهم على بعض، وإذا دخل داخل فقال لهم: كم صلّيتم؟ أجابوه فنهوا عن ذلك وأمروا بالاستماع، وقيل: إنّه في الخطبة أمروا بالإنصات والاستماع إلى الإمام يوم الجمعة وقيل: إنّه في الخطبة وفي الصلاة أيضا.

وقال الشيخ أبو جعفر الطوسيّ: أقوى الأقوال القول الأوّل. وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: يجب الإنصات للقرآن في الصلاة وغيرها[1]، قال الشيخ: وذلك على وجه الاستحباب. وفي الآية قول آخر وهو أنّ قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ خطاب للكفّار يمكن أن يكون أمر الله الكفّار بالاستماع والإنصات إذا قرأ النبيّ القرآن في حالة الصلاة أو غيرها حتّى يقفوا

١ـ وسائل الشيعة، (آل البيت) جلد ٦، ص ٢١٤؛ وسائل الشيعة، (الاسلاميه) ج ٤، ص ٨٦١؛ بحار الأنوار، جلد ٨٩، ص ٢٢١.

على ما فيه من البيان والمعنى والفصاحة ويحيطوا بما فيه من العلوم فيظهر لهم حينئذ كونه معجزاً دالّاً على صدق نبوّته وأمّا ما روي عن أئمتناعليهم السلام أنّ هذا الأمر محمول على الاستحباب.[1]

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾

الخطاب للنبيّصلى الله عليه وآله، والمراد به عامّ، وقيل: الخطاب لمستمع القرآن أي: اذكر ربّك في نفسك بالكلام من التسبيح والتهليل والتحميد. روى زرارة عن أحدهماعليهما السلام قال: «**معناه إذا كنت خلف الإمام تأتمّ به فأنصت وسبّح في نفسك**»[2] وقيل: اذكره في نفسك بصفاته العليا وأسمائه الحسنى تضرّعاً بالذلّة والخوف وأظهر ذلّتك له بالخوف لأنّه أقرب إلى الإجابة وإنّما خصّ الذكر في النفس لأنّه أبعد من الرياء ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: ارفعوا أصواتكم قليلاً ولا تجهروا بها جهاراً بليغاً ليكون عدلاً بين ذلك كما قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾[3] وقيل أمر للإمام أن يرفع صوته في الصلاة بالقراءة مقدار ما يسمعه من خلفه ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: بالغدوات والعشيّات. خصّ هذين الوقتين لأنهما حال الفراغ من طلب المعاش ليكون القلب أفرغ والبال أجمع ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن هذا الأمر.

ثمّ ذكر سبحانه ما يبعث إلى الذكر فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم

١ـ بحار الأنوار، ج ٨٥، ص ٢٢.

٢ـ مختلف الشيعة، جلد ٣، ص ٧٧؛ وجواهر الكلام، ج ١٣، ص ١٨٩؛ والكافي، ج ٣، ص ٣٧٧؛ وبحار، ج ٨٥، ص ١٠٨.

٣ـ سورة الإسراء: ١١٠.

الملائكة مع علوّ أمرهم يعبدون اللّه أي: إنّكم إذا استكبرتم عن العبادة فمن هو أعظم حالاً منكم لا يستكبرون وقال: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ تعريفاً وشأناً للملائكة بإضافتهم إلى نفسه ولم يرد قرب المكان وقيل: معناه أنّهم في المكان الّذي شرّفه اللّه أو لقربهم من رحمته يسبّحونه وينزّهونه عمّا لا يليق وله يخضعون ويسجدون ويصلّون وذكر اللّه جلية وخفية حسن. العيّاشيّ عن أحدهما: لا يكتب الملك إلّا ما يسمع قال اللّه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[1] فلا يعلم ثواب ذلك الذكر في نفس الرجل غير اللّه لعظمته، قال أمير المؤمنين: من ذكر اللّه في السرّ فقد ذكر اللّه كثيرا إنّ المنافقين كانوا يذكرون اللّه علانية ولا يذكرونه سرّا فقال اللّه: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2] العيّاشيّ عنه عليه السلام في هذه الآية قال تقول عند المسائل: لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت ويميت ويحيي وهو حيّ لا يموت وهو على كلّ شيء قدير قيل: بيده الخير؟ قال عليه السلام: **«إنّ بيده الخير ولكن قل كما أقول لك عشر مرّات، وقل: أعوذ بالله السميع العليم عشر مرّات حين تطلع الشمس، وحين تغرب»**.[3] في الحديث **«إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول: يا ويله امر هذا بالسجود فسجد له الجنه وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار»**.[4]

في «ثواب الأعمال» عن الصادق **«من قرأ سورة الأعراف في كلّ شهر كان يوم القيامة من الّذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فإن قرأها في كلّ جمعة كان ممّن لا يحاسب يوم القيامة»**[5]، واعلم أنّ اللّه أمر بالذكر مقيّداً بقيود: القيد الأوّل في

١ـ سورة اعراف: ٢٠٥.

٢ـ سورة النساء: ١٤٢؛ ومن لايحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤٠٩؛ وبحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٦٠.

٣ـ كافي، ج ٢، ص ٥٢٧

٤ـ تفسير الصافي، ج ٢، ص ٢٦٤.

٥ـ تفسير صافي، ج ٢، ص ٢٦٤.

نفسك، والمراد كون الذاكر عارفاً بمعاني الأذكار الّتي يقوله بلسانه مستحضراً ومعتقداً بصفات الكمال والعزّ والعظمة فإنّ الذكر باللسان إذا كان القلب عارياً عنه كان عديم الأثر أو قليل الفائدة، واللسان يكون حاكياً عن القلب. أ ما ترى إذا قال الرجل: بعت واشتريت مع أنّه لا يعرف معناه ولا يقصده فإنّه لا ينعقد البيع والشرى؟ وكذا هاهنا، أما ترى أنّ أصحاب القلوب إذا أرادوا أن يأمروا واحداً بعمل وذكر أمروه بالتصفية مدّة ثمّ بعد استكمال المدّة وحصول التصفية يقرء عليه الأسماء التسعة ويقول لذلك الطالب السالك: اعتبر حالك وحال قلبك عند سماع هذه الأسماء، فكلّ اسم وجدت قلبك عند سماعه قوي تأثيره فاعرف أنّه يفتح لك أبواب السعادات بالمواظبة على ذكر ذلك الاسم بعينه، وهذا القيد معتبر في الذكر لأنّه به يظهر عزّة الربوبيّة وذلّة العبوديّة وهو الأصل في كلّ عبادة.

القيد الثاني: ويكون الدعاء في حال الضراعة والخوف، المراد خوف التقصير في العمل وخوف الذنوب وخوف الخاتمة وخوف بعضهم من السابقة لقوله: «جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» وأما قراءة بعضهم و«خفية» فالإخفاء للمبتدي لصون الطاعات عن الرياء وفي حقّ المنتهي القصور قال: من عرف الله كلّ لسانه.

القيد الثالث: أن يكون الذكر متوسّطاً بين الجهر والإخفات. والقيد الرابع: الإصباح والإمساء والمراد الدوام والمواظبة ويؤيّد هذا المعنى أنّه تعالى قال: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[1] قال ابن عبّاس: لو حصل لابن آدم حالة رابعة سوى هذه الأحوال أمر الله بالذكر عندها.

تمّت سورة الأعراف بحمد الله وتليها سورة الأنفال إن شاء الله.

١ـ سورة آل عمران: ١٩١.

سُورَةُ الأَنفَالِ

هي خمس وسبعون آية وهي مدنية: عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له وشاهد يوم القيامة أنّه بريء من النفاق وأعطي من الأجر بعدد كلّ منافق ومنافقة في الدنيا عشر حسنات ومحي عنه عشر سيّئات ورفع له عشر درجات، وكان العرش وحملته يصلّون عليه أيّام حياته في الدنيا»[1] وعن أحدهما عليهما السلام: «من قرأ الأنفال وسورة براءة في كلّ شهر لم يدخله نفاق أبداً وكان من شيعة عليّ حقّاً ويأكل يوم القيامة من موائد الجنّة معهم حتّى يفرغ الناس من الحساب وفي قراءة الأنفال جدع الأنوف».[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ عمّن لم يسبق ذكرهم، وحسن ذلك هاهنا لأنّ حال نزول الآية كان السائلون معيّنون حاضرون من الصحابة فانصرف إليهم.

والنفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل وسمّيت الغنائم أنفالاً لأنّها

١ـ تفسير جوامع الجامع، جلد ٢، ص ٣ وبحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٢٧٧.

٢ـ مجمع البيان، جلد ٤، ص ٤٢٢.

عطيّة وفضل عطيّة من اللّه لرسوله.

في «التهذيب» عن الباقر والصادق عليهما السلام: **«الفيء والأنفال ما كان من أرض خربة أو بطون أودية أو أرض لم يكن فيها مهراقة دم أو قوم صولحوا وأعطوا بأيديهم ولم تفتح بالسيف فهو يكون من الفيء والأنفال. فهذه لله ورسوله فما كان لله فهو لرسوله يضعه حيث يشاء وهو للإمام بعد الرسول».**[1] وفي «الكافي» عن الصادق: **«الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب أو قوم صالحوا أو أعطوا بيدهم»**[2] إلخ. وعنه في عدّة أخبار: **«من مات وليس له وارث فماله من الأنفال»،**[3] وعنه عليه السلام: **«نحن قوم فرض الله طاعتنا لنا الأنفال ولنا صفو المال».**[4] وفي الجوامع عن الصادق: **«الأنفال كلّ ما أخذ من دار الحرب بغير قتال وكلّ أرض انجلى عنها أهلها بغير قتال والأرضون الموات والآجام وبطون الأودية وقطائع الملوك وميراث من لا وارث له فهي لله ورسوله ولمن قام بنصّه ومن مات وليس له مولى فما له من الأنفال».**[5]

وقال: نزلت الآية يوم بدر وكان أصحاب الرسول ثلاث فرق: فصنف كانوا عند خيمة الرسول وصنف أغاروا على النهب وفرقة طلبت العدوّ وأسروا وغنموا فلمّا جمعوا الغنائم والأسارى تكلّمت الأنصار في الأسارى فأنزل اللّه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[6] فلمّا أباح اللّه لهم الأسارى والغنائم تكلّم سعد بن معاذ وكان ممّن أقام بالخيمة عند النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول اللّه ما منعنا أن نطلب العدوّ زهادة في الجهاد

١ـ انظر: التهذيب الاحكام، ج ٤، ص ١٣٢؛ وبحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٠٩.

٢ـ كافي، ج ١، ص ٥٣٩، وسائل الشيعة (الاسلاميه)، ج ٦، ص ٣٦٤.

٣ـ نورالثقلين، ج ٢،ص ١١٨.

٤ـ بصائر الدرجات، ص ٢٢٢، كافي، ج ١، ص ٥٤٦.

٥ـ جوامع الجامع، ج ٢، ص ٤، وبحار الأنوار، ج٩، ص ٢١٠.

٦ـ سورة انفال: ٦١.

ولا جبناً من العدوّ ولكنّا خفنا أن يرى موضعك فيميل عليك خيل المشركين، وقد أقام بالخيمة وجوه المهاجرين والأنصار والناس كثير والغنائم قليلة، ومتى تعطي هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وخاف أن يقسّم رسول اللّه الغنائم وأسلاب القتلى بين من قتل ولا يعطي على من تخلّف على الخيمة شيئا فاختلفوا فيما بينهم حتّى سألوا النبيّ فقالوا: لمن هذه الغنائم؟ فأنزل اللّه هذه الآية وخصّها اللّه لرسوله فرجع الناس، وليس لهم في الغنيمة شيء ثمّ أنزل اللّه بعد ذلك: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم؛ الآية﴾[١] فقسّمه رسول اللّه بينهم فقال سعد بن وقّاص: يا رسول اللّه أ تعطى فارس ما تعطى الضعيف؟ فقال النبيّ ﷺ: «ثكلتك أمّك وهل تنصرون إلّا بضعفائكم؟» قال: ولم يخمّس رسول اللّه ببدر وقسّم بين أصحابه ثمّ استقبل بأخذ الخمس بعد البدر.[٢]

يعلم من الآية أنّه قد وقعت مشاجرة في كيفيّة القسمة في الغنائم بين الأصحاب لأنّ قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وكذلك قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٣] قال ابن عبّاس في بعض الروايات: المراد من الأنفال ما شذّ من المشركين إلى المسلمين من غير قتال من دابّة أو عبد أو متاع فهو إلى النبيّ يضعه حيث يشاء. فما صحّ من الأخبار المنقولة عن أئمتنا في معنى الأنفال فهو الصحيح وقضى به. ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ والمراد المضمرات في الصدور وما وقع من الأقوال المكدّرة بين الطرفين، ويسمّى ذات البين. عليكم بإصلاحها كي لا تبقى العداوة بينكم ثمّ أكّد سبحانه بقبول الأمر وطاعة الرسول ونهاهم عن مخالفته بقوله: ﴿إِن كُنتُم

١ـ سورة انفال: ٤١.

٢ـ انظر: نور الثقلين، ج ٢،ص ١١٩؛ وتفسير قمي، ج ١، ص ٢٥٥.

٣ـ سورة انفال: ١.

مُّؤْمِنِينَ ﴾. واحتجّ من قال: ترك الطاعة يوجب زوال الإيمان بهذه الآية وتقريره أنّ المعلّق بكلمة «إن» على شيء عدم عند عدم ذلك وموجود عند وجود ذلك الشيء وهاهنا الإيمان معلّق على الطاعة بكلمة «إن» فيلزم عدم الإيمان عند عدم الطاعة.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

لمّا ذكر في الآية السابقة أنّ الإيمان مستلزم للطاعة شرح في هذه الآية علائم المؤمنين بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي: إنّما يكون المؤمن مؤمناً إذا كان خائفاً من الله والخوف على قسمين: خوف العقاب وخوف العظمة والجلال أمّا خوف العقاب للعصاة وأمّا خوف الجلال فينبغي أن لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين سواء كان ملكاً مقرّباً أو نبيّاً مرسلاً لأنّ المحتاج إذا حضر عند الملك الغنيّ يهابه ويخافه ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ويفوّضون أمورهم إليه فيما يخافون ويرجون. فبعد أن تقرّر هذا امر بالتوطين على النفس في رعاية العمل من آثار العبوديّة والإيمان ورأس الطاعات الصلاة وبذل المال في مرضات الله فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في مرضات الله.

ثمّ أخبر سبحانه إخبار حقّ أنّ الموصوفين بهذه الصفات ﴿لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ في الجنّة وقوله: لهم درجات يفيد أنّ سعادة أهل الإيمان في الجنّة متفاوتة كما أنّ درجات الإيمان متفاوتة والموصوف بهذه الآية من الكاملين في الإيمان فحينئذ كلمة الحصر في قوله

لحصر كمال الإيمان لا لحصر وجوده فلا تدلّ الآية على أنّ من كان دونهم في المنزلة خارج عن الإيمان وايضاً إثبات هذه الصفات لا يلزم منه أن لا يكون عليه تكليف آخر من سائر الواجبات كالحجّ والجهاد.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

أي: حالهم هذه في كراهة ما حكم اللّه في الأنفال مثل حالهم في كراهة خروجك من بيتك للحرب ولمّا حكم اللّه في الأنفال في الآية بأنّها للرسول يصنع فيها ما يشاء أمسك المسلمون عن الطلب وفي أنفس بعضهم شيء من الكراهة، وحين خرجﷺ إلى قتال بدر كانوا كارهين لتلك المقاتلة فشرح اللّه أنّ تلك الكراهة مثل خروجك من المدينة للقتال يوم بدر وهو قتال حقّ، أو كما أنّ حكم الأنفال حقّ كذلك حكم القتال والخروج حقّ. روي أنّ عير قريش أقبلت من الشام والمراد بالعير القافلة الراجعة وفيها أموال التجارة لقريش وكان مع العير أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص وأقوام آخرون فأخبر جبرئيل رسول اللّه فأخبر الرسول المسلمين فأعجبهم تلقّي العير لكثرة المال وقلّة القوم فلمّا أزمعوا على الخروج وبلغ أهل مكّة خروجهم نادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكّة النجا النجا على كلّ صعب وذلول إن أخذ محمّدﷺ عيركم لن تفلحوا ابداً وقد رأت اخت العبّاس بن عبد المطلب رؤيا فقالت لأخيها: إنّي رأيت كأنّ ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثمّ حلّق لها فلم يبق بيت من بيوت مكّة إلّا أصابه حجر من تلك الصخرة فقال أبو جهل ما يرضى رجالهم بالنبوّة حتّى ادّعا نساؤهم النبوّة فخرج أبو جهل بصناديد أهل مكّة هم النفير، وفي المثل السائر لا في العير ولا في النفير فقيل له: العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكّة

فقال: لا والله لا يكون ذلك أبداً ننحر الجزور ونشرب الخمور وتغني القينات ببدر فتتسامع العرب بخروجنا وأنّ محمّداً لم يصب العير إلى بدر بالقوم.(١)

وبدر كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوماً في السنة فنزل جبرئيل، وقال: «**يا محمّد إنّ الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير من قريش**» واستشار النبيﷺ أصحابه وقال: «**العير أحبّ إليكم أم النفير؟**»، قالوا: بل العير أحبّ إلينا من لقاء العدوّ فتغيّر وجه رسول اللهﷺ وقال: «**إنّ العير مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل**» فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير ودع النفير والعدوّ. فقام عند غضب النبيﷺ بعض الصحابة وقال سعد بن عبادة: امض يا رسول الله إلى ما أمرك الله فإنّا معك حيثما أردت لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾(٢) ولكنّا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت منا عين تطرف فضحك رسول اللهﷺ ثمّ قال: «**سيروا على بركة الله وكأني أنظر إلى مصارع القوم**».

كانت كراهية القوم لبعضهم لا لكلّهم لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ والمراد من قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ هو الّذي جادلوا فيه رسول الله، تلقّي النفير لإيثارهم وميلهم إلى العير وقوله: ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ المراد إعلام رسول الله بأنّهم ينصرون وما كانوا يقولون لرسول الله ما كان خروجنا إلّا للعير وهلّا قلت لنا: اخرجوا إلى الأعداء لنتأهّب للقتال؟ فهذا كان جدالهم ثمّ إنّه تعالى شبّه حالهم من فرط الفزع بحال من يجرّ إلى القتل ويساق إلى الموت وهو شاهد لأسبابه ناظراً إلى موجباته.

١ـ تفسيرجوامع الجامع، ج ٢، ص ٦

٢ـ سورة المائده: ٢٤.

﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ كناية عن الجزم والقطع لأنّه من نظر إلى شيء يعلم به وكان سبب خوفهم أموراً: منها قلّة العدد وأنّهم كانوا رجّالة روي أنّه ما كان فيهم إلّا فارسان وقلّة السلاح.

وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾

واذكر وقت الّذي يعدكم الله والمراد بالطائفتين العير والنفير، والمراد بغير ذات الشوكة العير وبذات الشوكة الحدّة والقوّة، مستعارة من الشوك لحدّته وشوك القنا سنانه ومنه قولهم: شاكي السلاح أي: تودّون الطائفة الّتي لا قوّة لها ولا تريدون الطائفة القويّة ولكنّ الله أراد التوجّه إلى الطائفة القويّة.

﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فإن قيل: الحقّ حقّ لذاته والباطل باطل لذاته، فامتنع تحصيله لأنّه حاصل فالمراد إبانة الحقّ وإظهار كون الحقّ حقّاً والباطل باطلاً. والمعتزلة تمسّكوا بهذه الآية بأنّ الله لا يريد تحقيق الباطل وإبطال الحقّ بصريح الآية. وذلك يبطل قول من يقول: إنّه لا باطل ولا كفر إلّا والله مريد له. قوله بكلماته أي: بتقويته للرّسول في الغزوة وقيل: بالأئمّة وحاصل المعنى أنتم تريدون المال وتريدون أن لا تصلون إلى مكروه والله يريد إعلاء دينه وما يحصل لكم الفوز في الآخرة.

لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾

يفعل ما يفعل وليس بتكرار لأنّ الأوّل بيان مراد الله وتفاوت ما بين مراده ومرادهم، والثاني لبيان حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة لنصرة الحقّ ولذا قال بعده ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ وهو الشرك ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ذلك.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

العامل في «إذ» قيل: ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ وقيل: بفعل محذوف تقديره: واذكر.

سبب النزول: قيل: إنّ النبيّ ﷺ لمّا نظر إلى كثرة المشركين وقلّة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال: «**اللّهم أنجز لي ما وعدتني اللّهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**» فما زال يهتف ربّه مادّاً يديه حتّى سقط رداؤه عن منكبيه[1] فأنزل اللّه الآية. المعنى: واذكروا إذ تستجيرون بربّكم يوم بدر من أعدائكم لقلّتكم والفرق بين المستنصر والمستغيث أنّ المستنصر طالب الظفر والمستغيث طالب الخلاص.

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فأغاثكم وأجابكم بانّي مرسل إليكم مدداً ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ متابعين بعضهم في اثر بعض وما جعل اللّه الإمداد بالملائكة إلّا بشارة للمسلمين بالنصر وتشجيعاً لقلوبهم بكثرة السواد لهم لأن في مقاتلة الملائكة مع الكفّار خلاف، قيل: ما قاتلت ولكن كثر السواد وزيد الرعب في قلوب الكفّار وإلّا ملك واحد كاف في هلاكهم كما فعل جبرئيل بقوم لوط فأهلكهم بريشة من جناحه. وقيل: قاتلت. وأمّا ما قاله سبحانه في آل عمران بثلاثة آلاف وبخمسة آلاف فإنّها للبشارة و﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ليست بالقلّة والكثرة بل هي من عند اللّه الغالب الحكيم في أفعاله يجريها على ما يقتضيه الحكمة.

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم

١ـ بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢٢١؛ ومجمع البيان، جلد ٤، ص ٤٣٧.

بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ
ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ
سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ
وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن
يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾

النعاس أوّل النوم، وهذه إظهار نعمة اخرى من قوله: إذ يعدكم اللّه إحدى الطائفتين ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ﴾ بالتشديد ويغشيكم بالتخفيف بالبابين أي: أذكروا إذ جعل اللّه النوم غاشياً لكم ومحيطاً بكم لأجل الأمن من الخوف من العدوّ فإنّ الخوف مسهر والأمن منيم والامنة الدعة الّتي تنافي المخافة.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم﴾ وذلك لان المسلمين قد سبقهم الكفّار إلى الماء، وأنتم تصلّون مع الجنابة والحدث وتسوخ أقدامكم في الرمل فمطرهم اللّه حتّى اغتسلوا به من الجنابة وتطهّروا من الحدث وتبلّدت به أرضهم وأوحلت أرض عدوّهم وذهب عنكم رجز الشيطان من الاحتلام والوسوسة ولتقوى قلوبكم وبثبت أقدامكم في الحرب بتبلّد أرضكم.

وبيان وسوسة الشيطان أنّه وسوس إليهم أنّكم أصحاب محمّد تزعمون أنّكم على الحقّ وأنّكم تصلّون على غير الوضوء بالجنابة وقد عطشتم ولو كنتم على الحقّ ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلّا أن يجهدكم العطش فقتلوا من أرادوا قتله وساقوا بقيّتكم إلى مكّة فحزنوا حزناً شديداً وخافوا خوفاً شديداً فأنزل اللّه المطر فمطروا حتّى جرى الوادي فطابت نفوسهم فاغتسلوا وشربوا وصلّوا وتبلّدت أرضهم.

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وفي التعرض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من التعظيم والتشريف ما لا يخفى. المعنى: اذكر يا

محمّد ﷺ وقت إيحائه إلى الملائكة أي: مع الملائكة حال ما أرسلهم ردءاً للمسلمين أو المراد أنّه تعالى أوحى إلى الملائكة أنّي مع المؤمنين فانصروهم وثبّتوهم. واختلفوا في كيفيّة هذا التثبيت قيل: إنّ الملائكة عرّفوا الرسول أنّ اللّه ناصر المؤمنين والرسول عرّفهم فذلك هو التثبيت في هذا الباب. وقيل: إنّ الشيطان كما يمكنه الوسوسة إلى الإنسان فكذلك الملك يمكنه الإلهام إليه فهذا هو التثبيت في هذا الباب. وقيل: إنّ الملائكة كانوا يشتبهون بصور رجال من معارف المؤمنين وكانوا يمدّونهم بالنصر والفتح.

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وهذا نوع من النعم الّتي أنعم اللّه البدريّين لأنّ أمير النفس هو القلب فلمّا بيّن اللّه أنّه ربط قلوب المؤمنين بإزالة الخوف ذكر أنّه تعالى ألقى الخوف في قلوب الكافرين ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ ولمّا وقع للمسلمين موجبات النصر فعند هذا أمرهم بمحاربة الكفّار. وما فوق العنق الرأس فكان أمر بإزالة الرأس من الجسد يريد الهام والجمجمة قيل: هذا الأمر للمؤمنين وقيل: للملائكة على قول من قال: إنّ الملائكة قاتلت.

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي الأطراف واليدين والرجلين والحاصل أن اضربوا كل عضو تمكّنتم منه بسبب أنهم جانبوا وصاروا في شقّ غير شقّ المسلمين ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: هذا الّذي نزل بهم في ذلك اليوم شيء قليل بالنسبة إلى ما أعدّه اللّه لهم من عذاب الآخرة.

ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

التقدير: الأمر ذلكم و«لكم» خبر مبتدأ محذوف وتقدير المعنى: أنّ العذاب على قسمين، معجّل ومؤجّل فذلك القتل والأسر والنهب عذاب معجّل كذوق طعم الشيء للاختبار، وهذا العذاب بالنسبة إلى عذاب النار في

الآخرة وما أعدّ اللّه للكافرين من شدائد العذاب كذوق القليل بالنسبة.

ومجمل قصّة بدر أنّه لمّا أصبح النبيّ ﷺ يوم بدر عبّأ أصحابه فكان في عسكره فرسان فرس للزبير بن العوّام وفرس للمقداد بن أسود الكنديّ وكان في عسكر قريش أربعمائة فرس وقيل: مائتا فرس فلمّا نظرت قريش إلى قلّة أصحاب النبيّ ﷺ قال أبو جهل: ما هم إلّا أكلة لو بعثنا عليهم عبيدنا لأخذوهم أخذا بابد فقال عتبة: أ ترون لهم كميناً أو مدداً؟

فبعثوا عمر بن وهب وكان فارساً بطلاً، فجال بفرسه حتى طاف على عسكر رسول اللّه ثمّ رجع فقال: ليس لهم مدد ثم صعد الوادي وصوّت وقال لأبي جهل: ما لهم كمين ولا مدد ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع أما ترونهم خرساً لا يتكلّمون تلمّظ الأفاعي ما لهم ملجأ غير سيوفهم وما أراهم يولّون حتّى يقتلوا ولا يقتلون حتّى يقتلوا بعددهم فارتؤوا برأيكم فقال له أبو جهل: كذبت وجبنت.

ثمّ بعث النبيّ ﷺ إلى قريش وقال: **«يا معشر قريش إنّي أكره أن ابدأ بكم فخلّوني والعرب فان أك صادقاً فأنتم أعلى بي عيناً وإن أك كاذباً كفاكم ذئبان العرب أمري فارجعوا»**. فقال عتبة: ما أفلح قوم قط ردّوا هذا. ثمّ ركب جملاً له أحمر فنظر إليه النبيّ يجول في العسكر وينهى عن القتال فقال ﷺ: **«ان يك عند أحد خير فعند صاحب هذا الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا»** وأقبل عتبة يقول: يا معشر قريش اجتمعوا واسمعوا ثمّ خطبهم فقال: يمن مع رحب ورحب مع يمن يا معشر قريش أطيعوني اليوم وارجعوا إلى مكّة واشربوا الخمور فإنّ محمّداً ﷺ له إلّ وذمّة وهو ابن عمّكم فارجعوا ولا تردّوا رأيي. فلمّا سمعه أبو جهل ذلك قال: إنّ عتبة أطول الناس لساناً وأبلغهم في الكلام، ولئن رجعت قريش بقوله ليكوننّ سيّد القريش إلى آخر الدهر. ثمّ قال: يا عتبة

نظرت إلى سيوف بني عبد المطلب وجبنت وتأمر الناس بالرجوع وقد رأينا ثارنا بأعيننا ـ لأنّهم كانوا يطالبون بدم ابن الحضرميّ وقد عقله عتبة ـ فنزل عن جمله بعد هذا الكلام وحمل على أبي جهل على فرس وأخذ بشعره وعرقب فرسه وقال: أ مثلي يجبن؟ وستعلم قريش اليوم أينا الألأم والأجبن وأيّنا المفسد لقومه؛ ثمّ قال:

هذا جناي وخياري فيه   وكلّ جان يده في فيه

ثمّ أخذ بشعره ويجرّه فاجتمع الناس إليه فقالوا: يا أبا الوليد تنهى عن شيء تكون أوّله فخلّصو أبا جهل من يده.

فنظر عتبة إلى أخيه شيبة ونظر إلى ابنه الوليد فقال: قم يا بنيّ فقام ولبس درعه وطلبوا له بيضة تسع رأسه فلم يجدوا لعظم هامته فاعتمّ بعمامتين ثمّ أخذ سيفه وتقدم هو وأخوه وابنه ونادى يا محمّد أخرج إلينا أكفاءنا من قريش.

فبرز إليه ثلاثة نفر من الأنصار عوذ ومعوذ وعوف بني عفراء فقال عتبة من أنتم انتسبوا لنعرفكم؟ فقالوا: نحن بنو عفراء أنصار اللّه وأنصار رسوله فقال: ارجعوا فإنّا لسنا إيّاكم نريد وإنّما نريد الأكفاء من قريش فبعث إليهم رسول اللّه أن ارجعوا فرجعوا وكره أن يكون أوّل الكره بالأنصار.

ثمّ نظر رسول اللّه إلى عبيدة بن الحارث بن عبد المطّلب وكان له سبعون سنة فقال له: «**يا عبيدة قم**». فقام بين يديه بالسيف ثمّ نظر إلى حمزة بن عبد المطّلب فقال له: «**قم يا عمّ**» ثم نظر إلى عليّ عليه السلام أمير المؤمنين فقال له: «**قم يا عليّ**» وكان أصغر القوم «**فاطلبوا بحقّكم الّذي جعله الله لكم فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها وتريد أن تطفئ نور الله ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره**».[1]

١ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٤٠.

ثمّ قال رسول اللّه: «**يا عبيدة عليك بعتبة وقال لحمزة: عليك بشيبة وقال لعليّ** عليه السلام **عليك بالوليد بن عتبة**» فمرّوا حتّى انتهوا إلى القوم فقال عتبة: من أنتم انتسبوا لنعرفكم؟ فقال: أنا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فقال كفو كريم ثمّ قال: من هذان؟ فقال حمزة بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب فقال: كفوان كريمان لعن اللّه من أوقفنا وإيّاكم هذا الموقف فقال شيبة لحمزة من أنت؟ فقال: أنا حمزة أسد اللّه وأسد رسوله فقال له شيبة: لقد لقيت أسد الحلفاء فانظر كيف يكون صولتك يا أسد اللّه؟[1] فحمل عبيدة على عتبة فضربه على رأسه ضربة فلق هامته وضرب عتبة عبيدة على ساقه فقطعها وسقطا جميعاً وحمل حمزة على شيبة فتضاربا بالسيف حتّى انثلم سيفهما وكل واحد منهما يتّقي بدرقته وحمل عليّ عليه السلام على الوليد بن عتبة خال معاوية فضربه على عاتقه فاخرج السيف عن إبطه قال عليّ عليه السلام: «**فأخذ يمينه المقطوعة بيساره فضرب بها هامتي فظننت أنّ السماء وقعت على الأرض**» ثمّ اعتنق حمزة وشيبة فقال المسلمون: يا عليّ أما ترى الكلب قد قهر عمّك فحمل عليّ عليه ثم قال: «**يا عمّ طأطأ رأسك**» وكان حمزة عليه السلام أطول من شيبة فأدخل حمزة رأسه في صدره فضربه عليّ على رأسه فطار نصف رأسه.[2]

وحمل عبيدة بين حمزة وعليّ حتّى أتيا رسول اللّه فنظر النبيّ صلى الله عليه وآله إلى عبيدة فاستعبر صلى الله عليه وآله فقال عبيدة: يا رسول اللّه أ لست شهيداً؟ قال: «**بلى أنت أوّل شهيد من أهل بيتي**». فقال عبيدة: أما لو أنّ عمّك كان حيّاً لعلم أنّي أولى بما قال منه قال صلى الله عليه وآله و«**أيّ أعمامي تعني؟**» قال: أبا طالب حيث يقول:

ونسلمه حتّى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

فقال رسول اللّه: «**أما ترى ابنه كالليث الضاري بين يدي الله ورسوله وابنه الآخر في جهاد الله بأرض الحبشة**» فقال عبيدة: أسخطت عليّ في هذه الحالة؟ فقال: «**ما سخطت عليك ولكن ذكرت عمّي فانقبضت لذلك**».

ثمّ قال أبو جهل لقريش: لا تعجلوا ولا تبطروا كما عجل وبطر أبناء ربيعة، عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزراً وعليكم بقريش فخذوهم أخذا حتّى ندخلهم مكّة نعرّفهم ضلالتهم الّتي كانوا عليها وكان فئة من قريش أسلموا بمكّة فاجلاهم آباؤهم فخرجوا مع قريش إلى بدر وهم على الشكّ والنفاق منهم أبو قبيس بن الفاكهة وقيس بن وليد بن المغيرة والحارث بن ربيعة وابن اميّة بن خلف والعاص بن منبه فلما نظروا إلى قلّة أصحاب محمّدﷺ قالوا: مساكين هؤلاء غرّهم محمّدﷺ دينهم فيقتلون الساعة فأنزل اللّه على رسوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وجاء إبليس إلى قريش في صورة سراقة بن مالك فقال لهم: أنا جار لكم ادفعوا إليّ رايتكم فدفعوها إليه وجاء بشياطينه يهول بهم على أصحاب رسول اللّهﷺ، فأقبلت قريش يقدمها إبليس معه الراية فنظر رسول اللّه إليه فقال رسول اللّه لأصحابه: «**غضّوا أبصاركم وعضّوا على النواجذ ولا تسلّوا سيفاً حتّى آذن لكم**» ثمّ رفع يده إلى السماء فقال: «**يا ربّ إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**» ثمّ أصابه الغشي ثمّ برىء عنه وهو يسلت العرق عن وجهه ويقول: «**هذا جبرائيل قد أتاكم بألف من الملائكة مردفين**» قال: فنظرنا إلى سحابة سوداء فيها برق لائح قد وقعت على عسكر رسول اللّه وقائل يقول: أقدم حيزوم أقدم حيزوم وسمعنا قعقعة السلاح من الجوّ.

١ـ سورة الأنفال: ٤٩.

ونظر إبليس إلى جبرئيل فتراجع ورمى باللواء فأخذ منبّه بن الحجّاج وقال: ويلك يا سراقة فركله إبليس ركلة في صدره وقال: إنّي بريء منكم إنّي أرى ما لا ترون وحمل جبرئيل على إبليس فطلبه حتى غاص في البحر وقال: ربّ أنجز لي ما وعدتني من البقاء إلى الوقت المعلوم وفي رواية أنّ إبليس التفت الى جبرئيل وهو في الهزيمة فقال: يا هذا بدا لكم فيما أعطيتمونا؟ فقيل لأبي عبد الله أ ترى كان يخاف أن يقتله؟ فقال: **«لا ولكنه كان يضربه ضربة يشينه إلى يوم القيامة»** وانزل الله ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ...﴾ خرج أبو جهل من بين صفّين وقال: إن محمّداًﷺ قطعنا الرحم وأتانا بما لا نعرفه.

ثمّ أخذ رسول اللهﷺ كفّاً من حصى فرمى به في وجوه قريش وقال: **«شاهت الوجوه فبعث الله رياحاً فضرب في وجوه قريش فكانت الهزيمة»**. ثمّ قال رسول الله: **«اللّهم لا يفلتن فرعون هذه الامّة أبو جهل بن هشام»**. فقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون والتقى عمرو بن الجموح مع أبي جهل فضرب عمرو أبا جهل على فخذه وضرب أبو جهل عمروا على يده فأبانها من العضد فتعلّقت بجلده فاتّكى عمرو على يده برجله حتّى انقطعت الجلدة.

قال عبد الله بن مسعود انتهيت إلى أبي جهل وهو يتشحّط بدمه فقلت: الحمد للّه الّذي أخزاك فرفع رأسه فقال: إنّما أخزى الله عبد ابن امّ معبد لمن الدين ويلك؟ قلت: للّه ولرسوله وإنّي قاتلك ووضعت رجلي على عنقه وصدره فقال: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم أما إنّه ليس شيء أشدّ من قتلك إيّاي في هذا اليوم هلّا يولّي قتلي رجل من المطّلبيّين أو رجل من الأحلاف فانقلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته وأخذت رأسه وجئت به إلى رسول الله فقلت: يا رسول الله البشرى هذا رأس أبي جهل بن هشام

فسجد ﷺ شكرا لله. وأسر أبو بشر الأنصارى العبّاس بن عبد المطّلب وعقيل بن أبي طالب وجاء بهما إلى رسول الله ﷺ فقال النبيّ ﷺ لأبي: «بشر هل أعانك عليهما أحد قال نعم رجل عليه ثياب مضيء» فقال النبيّ ﷺ ذلك من الملائكة فقال النبيّ للعباس: «افد بنفسك وابن أخيك» فقال يا رسول الله قد كنت أسلمت ولكنّ القوم استكرهوني فقال النبيّ: «الله أعلم بإسلامك إن يكن كما تقول فالله يجزيك عليه فأمّا ظاهر أمرك فقد كنت علينا».

ثمّ قال: «يا عبّاس إنّكم خاصمتم الله فخصمكم الله افد بنفسك وابن أخيك» وكان العبّاس أخذ معه أربعين أوقية من ذهب وأخذها رسول الله فلمّا قال رسول الله: «افد بنفسك» قال العبّاس للنبيّ: أحسبها في فدائي، فقال ﷺ: «لا ذاك شيء أعطانا الله عنك افد نفسك وابن أخيك» فقال العبّاس: ليس لي مال غير الّذي ذهب منّي قال: «بلى المال الّذي خلفته عند أمّ الفضل بمكّة وقلت لها: إن حدث عليّ حدث فاقسموه بينكم»، فقال العباس تتركني وأنا أسأل الناس بكفّي فأنزل الله على رسوله في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1] ثمّ قال الله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾[2]

ثمّ قال رسول الله لعقيل: «قد قتل الله أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعه وشيبة بن ربيعة ومنبّه وبنيه ابني الحجّاج ونوفل بن خويلد وأسر سهيل بن عمرو والنضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط وفلان وفلان» فقال عقيل: إذا لا تنازعوا في تهامة فإن كنت قد أثخنت القوم وإلّا فاركب أكتافهم فتبسّم رسول الله.

وكان القتلى ببدر سبعين والأسرى سبعين، قتل عليّ ﷺ سبعة وعشرين

١ـ سورة الأنفال: ٧٠.

٢ـ سورة الأنفال: ٧١.

ولم يأسر أحداً فجمعوا الأسرى وقرنوهم في الحبال وجمعوا الغنائم وقتل من أصحاب رسول اللّه تسعة رجال فيهم سعد بن خيثمة وكان من النقباء ثمّ رحل رسول اللّه ونزل الأثيل عند غروب الشمس وهو من بدر على ستّة أميال.

فنظر رسول اللّه ﷺ إلى عقبة بن أبي معيط وإلى النضر بن الحارث في قران واحد فقال النضر لعقبة: يا عقبة أنا وأنت مقتولان. قال عقبة: نعم، لأنّ محمّداً ﷺ نظر إلينا نظرة رأيت فيها القتل فقال النبي ﷺ: «**يا عليّ علي بالنضر وعقبة**» وكان النضر رجلاً جميلاً عليه شعر فجاء علي عليه السلام فأخذه بشعره فجرّه إلى رسول اللّه فقال النضر: يا محمّد أسألك بالرحم الّذي بيني وبينك إلّا أجريتني كرجل من قريش إن قتلتهم قتلتني وإن فاديتهم فاديتني وإن أطلقتهم اطلقتني فقال رسول اللّه: «**لا رحم بيني وبينك قطع الله الرحم بالإسلام قدّمه يا عليّ فاضرب عنقه**». فقال عقبة يا محمّد ألم تقل لا تصبر قريش أي: لا يقتلون صبراً قال: «**وأنت من قريش؟ إنّما أنت علج من أهل صفورية ولأنت في الميلاد أكبر من أبيك الّذي تدعى له قدّمه يا عليّ واضرب عنقه فضرب عنقه**».

فلمّا قتل رسول اللّه النضر وعقبة خافت قريش أن يقتل الأسارى كلهم فقاموا إلى رسول اللّه ﷺ وقالوا: لقد قتلنا سبعين وأسرنا سبعين وهم قومك وأساراك هبهم لنا يا رسول اللّه وخذ منهم الفداء وأطلقهم فأنزل اللّه عليهم: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.(1)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٤٠ ـ ٤٤٣.

«الزحف» للصبيّ أن يزحف على أسته قبل أن يقوم، شبّه سبحانه الطائفتين اللّتين تذهب كلّ واحدة منهما إلى صاحبها للقتال قبل التداني للضراب بزحف الصبيّ قال ثعلب: الزحف المشي قليلاً قليلاً إلى الشيء ومنه الزحاف في العروض والشعر فيسقط ممّا بين حرفين حرف واحد فيزحف أحدهما إلى الآخر.

﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ متزاحفين خطاب لأهل بدر أو هو عامّ أي: إذا لقيتم الكفّار معدّين لقتالكم وتواقفتم للقتال مع الكفّار فلا تنهزموا وتجعلوا ظهوركم إليهم بالفرار ومن يجعل ظهره إليهم ووجهه إلى جهة الانهزام...

والمراد بقوله: «يومئذ» لم يرد النهار واللّيل بل المراد الوقت إلّا أن يكون تولّيكم لحركة من موقف إلى موقف أحسن وأسلط منه أو تكونون تضمّون إلى جماعة من المسلمين يريدون العود إلى القتال فتتحيّزون بهم للاستعانة على القتال فالمتولّي والمتدبّر عن القتال غير هاتين الصورتين المستثنيتين فقد وقع في محلّ غضب الله ومرجعه إلى جهنّم وبئس المحلّ جهنّم.

قال بعض المفسّرين: هذا الحكم خاصّ لأهل بدر وبعض قال: عامّ في جميع الأوقات لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والحاصل أنّ الانهزام محرّم إلّا في حالتين:

إحداهما: أن يكون يخيّل إلى عدوّه أنّه منهزم ثمّ ينعطف عليه وهو أحد أبواب الحرب، والثانية: أنّ المتحيّز إذا كان كالمنفرد وفي الكفّار كثرة وغلب على ظنّه أنّه لو ثبت قتل من غير فائدة وإن يحيّز إلى جمع كان راجياً للخلاص والغلبة. «والتحيّز» أصله من الحوز وهو الجمع.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

النظم: اختلف بعض أهل بدر فقال: هذا أنا قتلت، وقال الآخر: أنا قتلت فأنزل الله أنّ هذه الكسرة ما حصلت منكم وإنّما حصلت بنصرتي لكم.

روي أنّه لمّا طلعت قريش بخيلائها قال النبيّ ﷺ: **«اللهم إني أسألك ما وعدتني»**. فنزل جبرئيل وقال: **«خذ قبضة من التراب فارمهم بها»** فقال لعليّ عليه السلام: **«أعطني قبضة من التراب من حصاة الوادي»** فأعطاه عليّ فرمى النبيّ ﷺ في وجوههم وقال: **«شاهت الوجوه»** فلم يبق مشرك إلّا شغل بعينه فانهزموا.[1] قال صاحب «الكشّاف»: «الفاء» في «فلم تقتلوهم» جواب لشرط محذوف تقديره: إن زعمتم وافتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم. ثمّ قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ القبضة الّتي رميتها ولكنّ الله في الحقيقة رمى لأنّ رميك لا يبلغ أثره إلى هذا المبلغ الّذي لا يبقى عين من عيون المشركين إلّا وقذت فصورة صدرت منك وأثرها من الله فلهذا المعنى صحّ الإبقاء والإثبات.

﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وليمنّ الله النعمة على المؤمنين ليشكروا والبلاء هاهنا اطلق للنعمة، ويقال للنعمة: بلاء كما يقال للمضرّة: بلاء لأنّ أصل البلاء الاختبار وذلك يكون من النعمة ليحصل الشكر ويكون من النقمة ليحصل الصبر. والبلاء الحسن في هذه الآية النّصر والظفر وضمير «منه» راجع إلى النصر أو إلى الله إنّ الله سميع بأقوالكم عليم بأحوال قلوبكم.

وقيل: إنّ هذه الآية نزلت يوم خيبر، روي أنّه ﷺ أخذ قوسا وهو على باب خيبر فرمى سهماً فأقبل السهم حتّى قتل ابن أبي الحقيق وهو على فرسه فنزلت الآية: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾[2] وقيل نزلت يوم احد في قتل أبيّ بن خلف، وذلك أنّه أتى النبيّ بعظم رميم وقال: يا محمّد من يحيي هذا وهو

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٦٠؛ والاحتجاج، ج ١، ص ١٩٨.

٢ـ انظر: زاد المسير، ج ٣، ص ٢٢٦.

رميم؟ فقال ﷺ: «**يحييه الله ثمّ يميتك ثمّ يحييك ويدخلك النار**» فاسر يوم بدر فلمّا افتدى قال لرسول الله: إنّ عندي فرساً أعتلفها كلّ يوم فرقاً من ذرّة كي أقتلك عليها فقال ﷺ: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**»، فلمّا كان يوم احد أقبل الملعون يركض على ذلك الفرس حتّى دنا من النبيّ ﷺ فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه فقال ﷺ: «**استأخروا**» ورماه بحربة فكسّر ضلعاً من أضلاعه فحمل فمات ببعض الطريق ففي ذلك نزلت الآية.[1] والأصحّ أنّها نزلت في يوم بدر وإلّا لدخل في أثناء القصّة كلام أجنبيّ بلى لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)﴾

و﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، خبر لمبتدأ محذوف تقديره: الأمر ذلك وأنّ الله أوهن كيد الكافرين بغلبة المؤمنين على الكافرين وتفريق كلمتهم. ينبئ الله رسوله ويقول: إنّي قد أوهنت كيد عدوّك حتّى قتلت أبطالهم وأسرت أشرافهم.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ قيل: خطاب للمشركين، روي أنّ أبا جهل قال يوم بدر لمّا أراد الخروج من مكّة، والمشركون أخذوا أستار الكعبة وقالوا: اللّهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين. المعنى: إن تستفتحوا لإحدى الفئتين فقد جاء النصر لهم وقيل: إنّ الخطاب للمؤمنين.

روي أنّه ﷺ لمّا رأى المشركين كثروا استغاث بالله وكذلك الصحابة

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٠٥؛ وبحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢٧.

فقال الله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ وحصل لكم ما أردتم ووعدتم به. ﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: إن تمتنعوا من الكفر وقتال الرسول فهو خير لكم ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ بالقتال والكفر ﴿نَعُدْ﴾ أي: ننصرهم أيها الكفّار ولن تفيدكم جماعتكم شيئاً وإن كثرت ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والغلبة وعلى قول من قال: إنّ الخطاب للمؤمنين فمعناه: إن تنتهوا أيها المسلمون عمّا كان منكم في الغنائم وفي الأسارى من مخالفة الرسول فهو خير لكم، وإن تعيدوا إلى ذلك الصنع نعود إلى ترك نصرتكم فحينئذ ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)﴾

لمّا ذكر في الآية السابقة بقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ أكّد في هذه الآية وأمرهم بإطاعته وإطاعة رسوله فخاطب الّذين من شأنهم الإيمان بإطاعته وبإطاعة رسوله في الأمور، وفي الجهاد بقرينة قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ بأن تعرضوا عن قبول أمره ومعاونته في الجهاد. ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ دعوته.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ كالمنافقين وهم ما قبلوا لأنّ السماع قد يكون السامع قابلاً وقد يكون منكراً. و«سمع» بمعنى قبل كقوله: «سمع الله لمن حمده» أي: قبل الله من حامده قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ﴾ الشرّ نقيض الخير أي: إنّ شرّ من دبّ وتحرك على وجه الأرض هؤلاء المشركون الّذين لم ينتفعوا بما يسمعون من الحقّ ولا يقرّون ولا يتكلّمون به ولا يتعقّلون فصاروا بمنزلة الدوابّ فهم صمّ وبكم بجهلهم، شبّههم الله

بجهلهم وعدم تدبّر هم بالدابّة وقيل: إنّه تعالى لم يذكرهم في معرض التشبيه بل وصفهم بالوصف الّذي يليق بهم على جهة الذمّ. ثمّ قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا﴾ أي: إنّ كلّ ما كان حاصلاً فإنّه يجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه بمعنى أنّ القبول لا يوجد فيهم، فالإسماع لا يحصل لهم، وذلك لأنّهم سألوا الرسول أن يحيي لهم قصّي بن كلاب وغيره من أمواتهم ليخبروهم بصحّة نبوّته فبيّن سبحانه أنّه إذا أحياهم حتّى يسمعوا كلامه لتولّوا عن قبول الحقّ ولأعرضوا عنه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

الاستجابة هاهنا بمعنى الإجابة قال الشاعر: (فلم يستجبه عند ذاك مجيب).

كرّر في هذه الآية الأمر بإجابة الرسول وإطاعته فيما يأمركم به إذا دعاكم إلى أمر يوجب حياتكم «ولما». هاهنا بمعنى «إلى» وما يوجب الحياة هو الإيمان. وقيل: المراد الجهاد والشهادة لأنّكم إمّا تقتلون أو تقتلون فإن قتلتم فإنّ الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون وإن قتلتم فيقوى ويعظم أمر الدين والقرآن وهو حياة القلوب، والقرآن سبب العلم والعلم حياة فجاز أن يسمّى سبب الحياة بالحياة. ويوصل القرآن إلى الحياة الباقية الطيّبة، قال الله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾.[1] قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ وفسّروا الأشاعرة هذه الآية بظاهرها وهو غلط محض قالوا: إنّ الله يحول بين المرء الكافر وطاعته وبين المرء المؤمن ومعصيته فالسعيد من أسعده الله والشقيّ من أضلّه الله، تعالى عن ذلك، قالوا: فإذا أراد الكافر أن

١ـ سورة العنكبوت: ٦٤.

يؤمن والله لا يريد إيمانه حال بينه وبين قلبه، وإذا أراد المؤمن أن يكفر والله لا يريد كفره حال بينه وبين كفره، وهذا المعنى والتفسير باطل بالبداهة وبيانه: قال الجبّائيّ: إنّ من حال الله بينه وبين الإيمان فهو عاجز عن الإتيان والقبول بالإيمان، وأمر العاجز لغو وسفه ولو جاز ذلك لجاز أن يأمرنا الله بالصعود إلى السماء وقد أجمعوا على أنّ المؤمن لا يؤمر بالصلاة نائماً، وقد قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] والّذي يأمر في المظاهر بقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[2] وأسقط فرض الصوم عمّن لا يستطيعه، فكيف يحول ويمنع الكافر عن الإيمان ويأمر به؟ فما أقرب هذا القول من الشعوذة! بل المعنى أنّه إذا أمركم الله ورسوله بأمر فأطيعوه ولا تؤخّروه لأنّ الله قد يكون يحول بينه وبين الطاعة والانتفاع بسبب الموت فيدرككم فتمتنعون عن الإيمان أو التوبة أو الامتثال فبادروا الإجابة قبل أن يأتيكم الحائل فلا تغترّوا بالبقاء فإنّ ذلك غير موثوق به. وإطلاق لفظ القلب على الأمانيّ تسمية المظروف باسم الظرف وهذا شائع: كقولك: سال الوادي. وإنّ الشأن والقصّة الحشر والجمع إليه.

وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

كما حذّر سبحانه الناس بحيلولة امور بينه وبين ما يتمنّاه كذلك حذّره من بعض الفتن فقال: واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصّة بل تتعدّى إليكم وتصل إلى الصالح والطالح أي: يعمّكم كالمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع.

١ـ سورة البقرة: ٢٨٦.

٢ـ سورة المجادلة: ٥.

العيّاشيّ عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «**أصابت الناس فتنة بعد ما قبض رسول الله حتّى تركوا عليّاً وبايعوا غيره وهي الفتنة الّتي فتنوا بها، وقد أمرهم النبيّ صلى الله عليه وآله باتّباع عليّ والأوصياء بعده**».[1] وقرئ «لتصيبنّ».[2]

قال ابن عبّاس: لمّا نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**من ظلم عليّاً بعد وفاتي فكأنّما جحد نبوّتي ونبوّة الأنبياء قبلي**».[3] القمّيّ في تفسيره والرّازيّ في «المفاتيح» عن الحسن: نزلت في عليّ وطلحة والزّبير لمّا حاربا عليّاً يوم الجمل خاصّة.

فإن قيل: كيف يليق برحمة الرحيم أن يوصل العذاب إلى من لا يذنب؟ قلنا: الله تعالى قد ينزل الفقر والموت والعمى والبلاء بعبده وإن لم يكن عاصياً، إلّا أنّه يشتمل على نوع من أنواع الصلاح، إمّا لتخفيف العذاب أو لرفع الدرجة أو مصالح اخرى لا يعلمها إلّا هو وإذا جاز ذلك جاز هنا.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)

الخطاب للمهاجرين، شرح لهم نعمه لأنّهم بعد ظهور أمر النبيّ صلى الله عليه وآله صاروا في غاية الرفعة والقوّة وكانوا قبل في غاية القلّة والذلّة، بسبب هذه النعمة يوجب عليهم الشكر وكثرة الطاعة وترك المخالفة لأنّهم في أوّل الأمر كانوا إذا خرجوا من بلدهم خافوا أن يتخطّفهم العرب، ثمّ قلبت تلك الأحوال بالقوّة والسعادات، أوّلها أنّه آواهم ونقلهم من مكّة إلى المدينة فصاروا آمنين من مشركي العرب، ثمّ نصرهم ببدر، والثالث رزقهم من الطيّبات وهو أنّه

١ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٥٣؛ وبحار، ج ٦٧، ص ٢٣٥.

٢ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٥٠.

٣ـ انظر: الصراط المستقيم، ج ١، ص ١٦؛ وبحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٣٠.

احلّ لهم الغنائم بعد أن كانت محرّمة على من كان قبل هذه الامّة فهذه النعم الجليلة يقتضي الشكر ولا يليق بكم أن تشتغلوا بالخصومات بسبب الأنفال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

اختلفوا في المراد بتلك الخيانة، وسبب النزول في الآية: قال عطاء: سمعت جابر بن عبد الله يقول: إنّ أبا سفيان خرج من مكّة فأتى جبرئيل وأخبر النبيﷺ أنّ أبا سفيان في مكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا، قال: فكتب إلى أبي سفيان رجل من المنافقين: إنّ محمّداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله هذه الآية.[1] وقيل: إنّ المنافقين يسمعون النبيَ من الشيء فيفشونه، حتّى يبلغ المشركين.

وقال الزهريّ والكلبيّ: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاريّ وذلك أنّ رسول الله حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا الصلح على ما صالح عليه إخوانهم بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاً من بلاد الشّام، فأبى رسول الله أن يعطيهم ذلك إلّا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأنّ عياله وماله كانت عندهم، فبعثه رسول الله فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة؟ أ ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه: إنّه الذّبح فلا تفعلوا فأتاه جبرئيل وأخبره بذلك، قال أبو لبابة: فو الله ما زالت قدماي من مكانهما حتّى عرفت أنّي خنت الله ورسوله، فنزلت الآية فشدّ نفسه على سارية من

١ـ مجمع البيان، جلد ٤، ص ٤٥٥.

سواري المسجد فمكث سبعة أيّام لا يذوق طعاماً حتّى خرّ مغشيّاً عليه، ثمّ تاب اللّه عليه وتصدّق بثلث ماله بحكم النبيّ صلى الله عليه وآله منع الناس مطلق الخيانة في الدين والدنيا.

قال القاضي: الأقرب أنّ خيانة اللّه غير خيانة الرسول، وخيانة الرسول غير خيانة الأمانة لأنّ العطف يقتضي المغايرة، أمرهم اللّه أن لا يخونوا الغنائم، وجعل ذلك خيانته وخيانة لرسوله لأنّه القيّم بقسمها وتصرّفها فمن خانها خان الرسول. ويشمل كلّ أمانة لأنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب. و«الخون» معناه النّقص كما أنّ الوفاء معناه التمام.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: يحصل الخيانة منكم عن تعمّد لا عن سهو. والمعنى: أنتم تعلمون بعقولكم قبح الخيانة من الذّم والعقاب واعلموا أنّ أولادكم وأموالكم بليّة عليكم ابتلاكم اللّه بها فإنّ حبّ أبي لبابة وأمواله حمله على ما فعله لأنها كانت في أيدي اليهود، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين في قوله: «**لا يقولنّ أحدكم: اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة لأنه ليس أحد إلّا وهو مشتمل على فتنة ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلّات الفتن**».[1]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

لمّا حذّر عن الفتنة بالأولاد والأموال رغّب في التقوى الّتي يوجب ترك الميل والهوى في محبّة الدّنيا فقال: يا أيّها المؤمنون الّذين بصراط الإيمان ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باتّقاء معاصيه أي: الكبائر وتؤدّوا فرائضه ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ نوراً في قلوبكم تفرّقون به بين الباطل والحقّ ومخرجاً في الدّنيا والآخرة ﴿وَيُكَفِّرْ

١ـ وسائل الشيعة، ج ٤، ص ١١٦٩؛ وبحار، ج ٥، ص ٢١٥.

عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ التي عملتموها وصغائركم، أو عامّ من الصغائر والكبائر.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على خلقه بما أنعم عليهم فإذا ابتدأ بالفضل من غير استحقاق فإذا استحقّوا بطاعتهم فذلك بطريق أولى.

والمراد من التكفير سترها ومن المغفرة إزالتها، ومن المعلوم أنّ التقوى يوجب انشراح الصدر وزوال الظلمة عن القلب وذلك يوجب معرفة الباطل عن الحقّ وهو الفرقان.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾

نزلت في قصّة دار النّدوة وذلك أنّ نفراً من قريش اجتمعوا فيها، وهي دار قصيّ بن كلاب، وتؤامروا في أمر النّبيّ فقال عروة بن هشام: نتربّص به ريب المنون، وقال أبو البختري: أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه فقال أبو جهل: ما هذا الرّأي، ولكن اقتلوه بأن يجتمع عليه من كلّ بطن غلام فيضربوه بأسيافهم ضربة رجل واحد فيرضى بنو هاشم حينئذ بالدّية.

العيّاشيّ عن أحدهما عليهما السلام: **«إنّ إبليس صوّب لهم هذا الرّأي، وتصوّر لهم بصورة شيخ نجديّ، لكنّ القاضي أنكر هذا القول، وقال: لا يتمكّن إبليس إلى هذا الحدّ من السّلطة. فاتّفقوا على هذا الرأي وأعدّوا الرّجال والسّلاح فنزل جبرئيل وأخبر رسول الله فخرج إلى الغار وأمر عليّاً فبات على فراشه فلمّا أصبحوا وفتّشوا عن الفراش وجدوا عليّاً، وقد ردّ الله كيدهم ومكرهم فأرسلوا في طلبه واقتفوا أثره فلمّا بلغوا الجبل ومرّوا بالغار رأوا على باب الغار نسج العنكبوت فقالوا: لو كان هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه»**.

المعنى: واذكر يا محمّد صلى الله عليه وآله إذ أرادوا إهلاكك وهم مشركو العرب، منهم عتبة وشيبة أبناء ربيعة والنّضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وربيعة

الأسود وحكيم بن حزام وامية بن خلف وغيرهم ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ في الوثاق والحبس في بيت، وقرئ «ليبيتوك» أو المعنى: ليثخنوك من الجرح بحيث لا تقدر على الحركة بحيث تثبت في مكان قال الشاعر:

فقلت ويحك ماذا في صحيفتكم   قالوا الخليفة أمسى مثبتاً وجعاً

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة أو يخرجوك على بعير، ويطردونه حتى يذهب في وجهه ويدبرون في إهلاكك ويدبر الله في أمرهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وهذا من باب المقابلة في الكلام مثل: وجزاء سيئة سيئة لأنه لا يمكر إلّا ما هو حقّ وصواب، وهو إنزال المكروه بمن يستحقّه، أو المعنى: خير المجازين على المكر. النظم: اتّصلت الآية بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

بقيّة شرح هؤلاء المشركين المكذّبين بأنهم ما قنعوا بالمكر من نفس محمّد ﷺ بل مكروا في كتاب محمّد ﷺ. روي أنّ النّضر بن الحارث خرج إلى الحيرة تاجراً، واشترى حكايات كليلة ودمنة، وكان يقعد مع المستهزئين ــ وهو منهم ــ فيقرأ عليهم قصص كليلة ودمنة، وكان يقول ما تقول محمّد مثل هذه المقالات.[1]

١ــ انظر: تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٩٥.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ الّتي من حقّها أن تخرّ لها الجبال الصمّ ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ وأدركنا بآذاننا ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا﴾ مثلها قاله اللّعين النضر بن الحارث، وإسناده إلى الكلّ لأنّه كان رأسهم ويأخذ بالراية، ولو استطاعوا شيئاً من ذلك فما الّذي كان يمنعهم أن يأتوا بمثله، وقد تحدّوا عشر سنين؟ وقورعوا بالسّيف مع فرط استنكافهم وميلهم بالغلبة وقد عجزوا، وهذا الملعون أسر يوم بدر، فقال النّبيّ لعليّ عليه السلام: «**عليّ بالنّضر**» فأمر عليّاً بقتله فقتله.[1] وقد سبق شرح قتله هذا.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ﴾ إلخ. المعنى: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لقريش: «**إنّ الله بعثني أن أقاتل من يعبد غيره، وأجزّ الملك إلى أهل الإسلام فأجيبوني إلى ما أدعوكم إليه تملكوا العرب وتدين لكم به العجم وتكونوا ملوكاً في الجنّة**». فقال أبو جهل: إن كان هذا هو الحقّ وهذا الّذي يقوله محمّد هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، حسداً لرسول الله[2]، ثمّ قال اللّعين: كنّا وبنو هاشم كفرسي رهان فنحمل إذا حملوا ونطعن إذا طعنوا ونوقد إذا أوقدوا فلمّا استوى بنا وبهم الركب، قال قائل منهم: منّا نبيّ، ولا نرضى بذلك أن يكون في بني هاشم ولا يكون في بني مخزوم، ثمّ قال: غفرانك اللّهم فأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ حين قال: غفرانك اللّهمّ فلمّا همّوا بقتل رسول الله وأخرجوه من مكّة قال الله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا﴾ يعني: قريشاً ﴿أَوْلِيَآءَهُ﴾ أولياء البيت ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ أنت يا محمّد صلى الله عليه وآله وأصحابك الصادقون

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٦٠، وتفسير القمي، ج ١، ص ٢٦٩؛ وبحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢٥٩.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج ٤ ص ٤٦١؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٥٩.

فعذّبهم اللّه يوم بدر فقتلوا.

في «الكافي» عن أبي بصير قال: بينما رسول اللّه جالس إذا أقبل أمير المؤمنين فقال له رسول اللّه: **«إنّ فيك شبها من عيسى بن مريم ولولا أن يقول النّاس من أمّتي ما قالت النّصارى في عيسى لقلت فيك قولا لا تمرّ بملإ من النّاس إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون البركة»**، قال: فغضب الأعرابيّان والمغيرة بن شعبة وعدّة من قريش معهم فقالوا: ما رضي لابن عمّه مثلا إلّا عيسى بن مريم فأنزل اللّه على نبيّه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم ـ أي: من بني هاشم ـ مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾[1] فغضب الحارث بن عمرو الفهريّ فقال: اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك من أنّ بني هاشم يتوارثون هرقلا بعد هرقل فأرسل علينا حجارة من السّماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت الآية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ (الآية) فقال النبيّ ﷺ **«يا ابن عمرو إما تبت وإما رحلت»**. فدعا براحلته فركبها فلمّا كان بظهر المدينة أتته جندلة فرضّت هامته. فقال رسول اللّه لمن حوله من المنافقين: **«انطلقوا إلى صاحبكم فقد أتاه ما استفتح به»**. قال اللّه: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.[2]

وفي «المجمع» عن الصّادق عن آبائه: **«لمّا نصب النّبيّ عليًّا يوم الغدير شاع ذلك في البلاد فقدم النّعمان بن الحارث الفهريّ فقال: أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلّا اللّه، وأنّك رسول اللّه، وأمرتنا بالجهاد والحجّ والصّوم والصّلاة والزّكاة فقبلناها، ثمّ لم ترض**

١ـ سورة الزخرف: ٥٧ ـ ٦٠.

٢ـ سورة إبراهيم: ١٨؛ والكافي، ج ٨ ص ٥٨؛ ومدينة المعاجز، ج ٢،ص ٣٦٧؛ ونظم درر السمطين للزرندي الحنفي، ص ٩٣؛ ونهج الإيمان، بن جبر، ص ١٢٠.

حتى نصبت لنا هذا الغلام وقلت: من كنت مولاه فعليّ مولاه فهذا أمر منك أم من الله. فقالﷺ**: والله الّذي لا إله إلّا هو إنّ هذا من الله فولّى نعمان وهو يقول: اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء: فرماه الله بحجر على رأسه فقتله. وأنزل الله:** ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[1] وفي «نهج البلاغة»: «**كان في الأرض أمانان من عذاب الله فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به. أمّا الأمان الّذي رفع فهو رسول الله، وأمّا الأمان الباقي فهو الاستغفار**» ثمّ تلا الآية.[2]

العيّاشيّ عن الصادق عليه السلام: «**كان رسول الله والاستغفار حصنين لكم من عذاب الله فمضى أكبر الحصنين وبقي الاستغفار، فأكثروا منه فإنّه ممحاة الذّنوب**».[3]

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

لمّا ذكر سبحانه أنّهم ليسوا أولياء البيت بل أولياء البيت المتّقون بيّن في هذه الآية أنّهم ليسوا من أهل الإيمان والصّلاة، لأنّ صلاتهم وعبادتهم مكاء يقال «مكا بفيه» أي: صفر كانوا يصفرون ويصفقون ويعارضون النّبيّ ويستهزئون به ويخلطون عليه طوافه، وإذا صلّى يقومون عن يمينه ويساره بالتّصفير والتّصفيق للإيذاء. فلو قيل: إنّ التصفير والتّصفيق ليس من جنس الصّلاة فكيف الاستثناء؟ قيل: على معتقدهم شباهة، أو المراد أنّ من كان المكاء صلاته فلا صلاة له كقولك: ما لفلان عيب إلّا السّخاء ومعلوم أنّ من

١ـ سورة المعارج: ١؛ والغدير ج ١، ص ٢٤١؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٦٦.

٢ـ نهج البلاغه، ج ٤، ص ١٩. (تحقيق الشيخ محمد عبده ـ طبعة بيروت)، بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٢٨٤.

٣ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٥٤؛ وبحار، ج ٩٠، ص ٢٧٩؛ وبرهان، ج ٢، ص ٧٩؛ والصافي، ج ٢، ص ٢٠٠.

كان السّخاء عيبه فلا عيب له. ثمّ قال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ بكفركم، إمّا عذاب السّيف أو عذاب النّار أو كليهما.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: كما أنّ الكفّار يخالفون الرّسول في الصّلاة والطّاعات البدنيّة كذلك يصرفون أموالهم في المخالفة معه لانحلال أمره. قال سعيد بن جبير ومجاهد: نزلت في أبي سفيان وإنفاقه المال في حرب محمّدﷺ فإنّ اللّعين كان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية ذهباً ـ والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً ـ بيّن سبحانه أنّ غرضهم من هذا الإنفاق صدّ النّاس من دين الله وسبيله، وسبيل الله اتّباع محمّدﷺ. قال سبحانه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ ويكون عليهم حسرة ولا يفيد لغرضهم، وعاقبتهم أنّهم مغلوبون والّذين بقوا منهم على الكفر إلى جهنّم يجمعون. وتقديم الخبر للحصر. ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ﴾ ليتميّز نفقة الكافرين من نفقة المؤمنين. والمعنى: ليتميّز المؤمن عن الكافر، والفريق الخبيث عن الفريق الطّيب ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فيضمّه ويجعله حتّى تراكموا كالسحاب المتراكم فيلقيها في جهنّم ويعذّبهم وهم الخاسرون.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿قُل﴾ لهم يا محمّدﷺ هذا القول: ﴿إِن يَنتَهُوا﴾ عن الكفر وعداوة

الرّسول ودخلوا الإسلام غفر اللّه لهم ما سلف من كفرهم، وإن عادوا وبقوا على كفرهم وأصرّوا، ويمكن أن يكون من العود القتال والمعارضة مع النّبيّ ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾ أحوال أمثالهم من الّذين تحزّبوا على الأنبياء وحاربوهم من الخذلان والهلاك كما جرى على قوم موسى وغيره والوعيد الّذي أوعدهم من العذاب الدائم.

وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

الخطاب للنّبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين وهو أنّ الأنصار لمّا بايعوا الرّسول في العقبة تآمرت قريش أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم فابتلي بعض المؤمنين وأصاب بعضهم جهد شديد من قريش، وأمر النّبيّ أن يخرجوا إلى الحبشة فأمر اللّه بقتالهم حتّى يزول هذه الفتنة ويكون الدّين كلّه للّه.

روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال «**لم يجيء تأويل هذه الآية، ولو قام قائمنا يأتي تأويلها، وليبلغنّ دين محمّد صلى الله عليه وآله ما بلغ اللّيل حتّى لا يكون مشرك على ظهر الأرض، كما قال سبحانه:** ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1]» والمقصود من أمر القتال رفع الفتنة من إيذاء الكفّار المؤمنين، وهذا الغرض قد حصل بالقتال قوله: فإن انتهوا عن الكفر بالإيمان والرجوع باللّه لا يخفى عليه شيء ويعلم ويرى. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وأعرضوا ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ صاحبكم وناصركم فثقوا به ولا تخافوا من معاداتهم وهو نعم الصّاحب والنّاصر.

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ

١ـ سورة النور: ٥٥؛ وانظر: معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام ج ٥، ص ١٥١.

﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

الغنيمة عند أهل السنّة ما دخلت في أيدي المسلمين من أموال الكفّار على سبيل القهر بالخيل والركاب، والفيء ما أخذ من غير قتال، وعندهم يجب في الغنيمة الموصوفة بهذا الوصف الخمس، وعندنا الخمس واجب في كلّ فائدة يحصّل الإنسان من المكاسب وأرباح التجارات وفي الكنوز والمعادن والغوص وغير ذلك ممّا هو مذكور في الكتب الفقهيّة.

ويقسّم الخمس ستّة أسهم: سهم لله وهو للرسول، وسهم للرسول وسهم الرسول يرثه الإمام المنصوب بنصّه، وسهم للإمام المنصوب فيكون للإمام ثلاثة أسهم من ستّة، والثّلاثة الأخيرة لأيتام آل الرّسول ومساكينهم وأبناء سبيلهم، وإنّما صارت للإمام وحده ثلاثة أسهم لأنّ الله ألزمه بما ألزم الرّسول من تربية الضّعفاء والفقراء ومؤونتهم وقضاء ديونهم وعملهم في الجهاد والحجّ ومصالح الإسلام، وذلك من قول الله لمّا أنزل عليه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1] وهو أب لهم فلمّا جعله أبا للمؤمنين لزمه ما يلزم الوالد للولد فقال عند ذلك: من ترك مالا ولم يكن له وارث يورثه ومن ترك دينا أو ضياعاً فعلى وليّ. وكلمة «ما» في «ما غنمتم» موصولة. وإنّما جعل الثّلاثة الأسهم الأخيرة للأيتام والمساكين وأبناء السّبيل من بني هاشم خاصّة لأنّ الله حرّم عليهم الصّدقات لكونها أوساخ النّاس وهم أجلّ خطراً. هذا عند الإماميّة: وأمّا عند الجماعة: ففيه أقوال: قيل ـ والقائل أبو العالية والرّبيع ـ: إنّه يقسّم على ستّة إلّا أنّ سهم الله للكعبة والباقي لمن ذكره الله عملا بظاهر الآية. والقول الثاني: يقسّم على خمسة أسهم وسهم الله والرّسول

١ـ سورة احزاب: ٦.

واحد ويصرف هذا السّهم إلى الكراع[1] والسّلاح وهو المرويّ عن ابن عبّاس وإبراهيم وقتادة وعطاء. والقول الثّالث: قال الرّازيّ في «المفاتيح»: وأمّا بعد وفاة الرّسول فعند الشّافعيّ أنّه يقسّم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين لعدّة الغزاة من الكراع والسّلاح. وسهم لذوي القربى من أغنيائهم وفقرائهم يقسّم بينهم للذّكر مثل حظّ الأنثيين، والباقي للفرق الثلاثة وهم اليتامى والمساكين وابن السّبيل.

وقال أبو حنيفة: إنّ بعد وفاة الرّسول سهمه ساقط بسبب موته وكذلك سهم ذوي القربى وإنّما يعطون لفقرهم فهم أسوة سائر الفقراء، ولا يعطى أغنياؤهم فيقسّم على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

وقال مالك: الأمر في المجلس مفوّض إلى رأي الإمام: إن رأى قسمه على هؤلاء يعمل وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعضهم.

واعلم أنّ القائلين بأنّ سهم الله ورسوله واحد يقولون: إنّ قوله: «لِلَّهِ» ليس المقصود إثبات نصيب لله فإنّ الأشياء كلّها ملك لله وإنّما المقصود افتتاح الكلام بذكر الله على سبيل التعظيم كما في قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾[2] واحتجّ القفال على صحّة قوله بقوله ﷺ لهم في غنائم خيبر: «**مالي ممّا أفاء الله عليكم إلّا الخمس**». وروى الحسن وقتادة أنّ سهم الله وسهم الرّسول وسهم ذي القربى للإمام من بعد الرّسول ينفقه على نفسه وعياله ومصالح المسلمين وهو مذهبنا. ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قالوا: إنّ هذه الأسهم الثلاثة لجميع النّاس وإنّه يقسّم على كلّ فريق منهم بقدر حاجتهم، ولكن عندنا الإماميّة يختصّ باليتامى والمساكين وابن السّبيل من بني هاشم.

١ـ يطلق علي الخيل والبغال والحمير.

٢ـ سورة الأنفال:١.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم﴾ إنّ هذه وجوه أقسام الغنيمة وطريق قسمتها إن كنتم مؤمنين آمنتم بالله، وعرفتم أنّ الله ناصركم.

وأنزلنا نصرنا على محمّد صل الله عليه وآله يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ جمع المسلمين وهم ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، وجمع الكافرين وهم قدر المتّفق عليه تسع مائة إلى ألف من شجعان قريش فهزموهم وعلمتم أنّ ظفركم كان بنا يوم الفرقان والمراد يوم بدر لأنّ الله فرّق بين المسلمين والمشركين بإعزاز المؤمنين وقمع المشركين وذلّهم، وكان يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

«العدوة» شفير الوادي وللوادي عدوتان وهما جانباه و«الدنيا» تأنيث الأدنى من دنوت و«القصوى» تأنيث الأقصى جانب مكّة، وما كان من النعوت على فعلى من بنات الواو فإنّ العرب تحوّله إلى الياء نحو الدّنيا والعليا استثقالاً للواو مع ضمّ الأوّل.

المعنى: إذا أنتم أقلّة أذلّة نازلين بشفير الوادي الأقرب إلى المدينة ﴿وَهُم﴾ أي: المشركون نازلين بالشفير الأبعد من المدينة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ والعير أي: أبو سفيان وأصحابه، في موضع ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قريب ساحل

البحر على ثلاثة أميال، وأنتم أيّها المسلمون في قلّة الماء والرمل فيها رؤوس أموالهم مع هذا كلّه كان الفتح لكم. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وأهل مكّة على القتال لخالف بعضكم بعضاً لكثرتهم وقلّتكم ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ينصركم ويخرج ويحصل هذا الأمر إلى الفعل، وصار الدمار على المشركين فهذا من عظيم المعجزات على صدق نبوّته ﷺ من وعده بالنصر وقد وقع. «واللّام» في ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ لام الغرض والأجل أي: لأنّ الّذي يهلك يهلك عن بيّنة وتتمّ عليه الحجّة وكذلك من يحيى يحيى بالبيّنة والمعرفة وهو ﴿لَسَمِيعٌ﴾ دعوتكم و﴿عَلِيمٌ﴾ بحاجتكم. ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا هو النّوع الثاني من النعم الّتي أنعم اللّه بها على أهل بدر. والعامل في قوله ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قيل: «أتاكم النصر» وقيل بفعل محذوف تقديره: واذكر يا محمّد إذ يريكهم اللّه في نومك بأنّ المشركين قليلون فأخبر النبي ﷺ رؤياه للأصحاب فأجرأ المسلمون على قتال الكفّار.

فإن قيل: رؤية الكثير قليلاً خلاف الواقع فكيف يجوز من اللّه؟ فالجواب أنّه أراه البعض دون البعض فحكم الرسول على أولئك الّذين رآهم بأنّهم قليلون، ثمّ إنّ الرؤيا تصوّر يتوهّم معه الرؤية، ولا يكون إدراكاً ولا علماً كما يتخيّل السراب ماء من غير قطع أنّه ماء، وهذا يجوز في الرؤيا. والرؤيا على أربعة أقسام: رؤيا من اللّه، ولها تأويل ورؤيا من وساوس الشيطان، ورؤيا من غلبة الأخلاط، ورؤيا من الأفكار، وكلّ هذه الثلاثة أضغاث أحلام.

هذا قول بعض المفسّرين وقال قليل من المفسّرين: معنى ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ أي: عينك تسمية للظرف باسم المظروف لأنّ العين موضع النّوم وقالوا: ليس المراد من الرّؤيا في النوم، وهذا قول الحسن والبلخيّ. ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا﴾ على ما كانوا عليه ﴿لَّفَشِلْتُمْ﴾ وجبنتم على قتالهم

وضعفتم ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ في أمر القتال فبعض منكم كان يقول نقاتلهم، وبعض أخر يخالفونهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ المسلمين عن اختلاف الكلمة بلطفه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ﴾ بما في قلوبكم.

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

ولمّا رأى النبيّ قلّة عدد المشركين وأخبر المسلمين أكّد هذا المعنى في اليقظة بأن رأى المسلمون عدد المشركين قليلين حتّى يجترئوا على القتال معهم، وكذلك رأى المشركون عدد المسلمين قليلين حتّى لا يتأهّبوا في الحرب من السلاح والكراع لأنهم لمّا استقلّوا المسلمين لم يبالغوا في التأهّب وهذه معجزة النبيّ ﷺ وذلك قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ وقد روي أنّ أبا جهل كان يقول: خذوهم بالأيدي أخذا ولا تقاتلوهم، وذلك الأمر حصل ليقضي الله أمرا كان مفعولاً بجهادكم وغلبتكم.[1]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

علّم الله البدريّين بعد فتحهم أنّه إذا التقوا جماعة من المحاربين الثبات بأن يوطّنوا أنفسهم على اللّقاء ولا يتولّون، ويذكرون الله كثيراً.

وفي تفسير هذا الذكر قولان: أحدهما: أن يكونوا بقلوبهم ذاكرين الله وبألسنتهم قال ابن عبّاس: أمر الله أولياءه بذكره في أشدّ الأحوال تنبيهاً على أنّ الإنسان ينبغي أن لا يخلّي قلبه ولسانه عن ذكر الله، ولو أنّ رجلاً أقبل من

۱ـ مجمع البيان جلد ٤ ص ٤٧٤ وبحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢٣٥.

المغرب إلى المشرق ينفق الأموال سخاء والآخر من المشرق إلى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله كان الذاكر أعظم أجراً.

والقول الثاني: أنّ المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر.

ثمّ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فالفلاح حاصل إذا كانت المقاتلة لسبيل دين الله لأنّه إن غلب العدوّ فاز بالثواب والغنيمة، وإن صار مغلوباً فاز بالشهادة والدّرجات العالية ثمّ قال مؤكّداً لذلك بقوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر الأمور لأنّ الجهاد ينفع مع التمسّك بسائر الطاعات. ثمّ قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ لأنّ الاختلاف والنزاع يوجب الوهن والضعف ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ والمراد بالرّيح الدّولة والشوكة، وهذه كناية مستعارة يقال: هبّت رياح بني فلان إذا دانت لهم الدولة، أو المراد بالرّيح حقيقة كما في الحديث، قال ﷺ: «**نصرت بالصّبا وأهلكت عاد بالدبور**» والقول الأوّل أقوى ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ وتثبّتوا في الأمور إنّه يحبّ من صبر على الشدائد.

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

قال المفسّرون: إنّ قريشاً لمّا خرجوا من مكّة لحفظ العير ووردوا الجحفة بعث الحفاف الكنانيّ ـ وكان صديقاً لأبي جهل ـ بهدايا إليه مع ابن له فلمّا أتاه قال: إنّ أبي ينعمك صباحاً ويقول: إن شئت أن أمدّك بالرّجال أمددتك، وإن شئت أن أزحف إليك بمن معي من قرابتي فعلت فقال أبو جهل: قل لأبيك: جزاك الله والرّحم خيراً إن كنّا نقاتل الله كما يزعم محمّد فو الله لا طاقة لنا به، وإن كنّا نقاتل الناس فو الله إنّ بنا على الناس لقوّة، والله ما نرجع عن قتال محمّد حتّى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور بالمضارب والقيان، فإنّ بدراً موسم من مواسم العرب وسوقاً من أسواقهم حتّى تسمع

العرب بهذه الواقعة. قال المفسّرون: فوردوا بدراً وشربوا كؤوس المنايا دون الخمور، وناحت عليهم النوائح عوض القيان! والله وصفهم بثلاثة أشياء: البطر وهو الطغيان في النعمة. والثاني قوله: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ والرئاء عبارة عن القصد إلى إظهار الجميل مع أنّ باطنه قبيح، ومعناه قريب من النفاق لأنّ النّفاق إظهار صورة معناها غيرها وباطنها غير ظاهرها. والثالث: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

فلو قيل: عطف الفعل على الاسم غير حسن؟ فجوابه إمّا الاسم بمعنى الفعل أي: يبطرون ويراءون، وإمّا الفعل بمعنى الاسم أي: صادّين ليكون العطف من جنس الكلمة وكانوا يمنعون الناس عن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، والله بعملهم محيط من الرياء وسوء القصد.

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عطف على حال المشركين الّذين خرجوا من ديارهم بطراً، وفي كيفيّة هذا التزيين وجهان. وقد أشرنا به قبل. قيل: إنّ الشيطان زيّن بالوسوسة، وقيل: تحوّل في صورة الإنسان بصورة سراقة بن مالك وكان سراقة الكنانيّ من أشرافهم فجاء وأخذ الراية ﴿وَقَالَ﴾ لقريش: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ من بني كنانة وذلك لأنّهم كانوا قبل ذلك قتلوا من بني كنانة واحدا فلم يأمنوا قريش أن يأتوهم من ورائهم فلمّا رأى إبليس نزول الملائكة، عرفهم وعرفوه ولّى اللّعين بطريق القهقرى ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فقال له الحارث: أتخذ لنا في هذه الحالة؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ ووقع في صدر الحارث وانهزم ولمّا

رجعوا إلى مكّة قالوا: هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال: واللّه ما علمت بمسيركم، حتّى بلغتني هزيمتكم.

وأنكر بعض أنّ الشيطان ليس له القدرة إلى هذا الحدّ بأن يتصوّر بصورة الإنسان. ولم يقدره اللّه بهذه القدرة. قال الشيخ المفيد أبو عبد اللّه محمّد بن محمّد بن النعمان قدس سرّه: يجوز أن يقدر اللّه الجنّ ومن جرى مجراهم على أن يتجمّلوا ببعض جواهرهم حتّى يتمكّن الناس من رؤيتهم، ويتشبّهوا بغيرهم من أنواع الحيوان، وقد استفاض هذا الخبر أنّ اللّعين تراءى لأهل بدر في صورة سراقة ولأهل الندوة في صورة شيخ نجديّ وجبرئيل ظهر لأصحاب الرّسول في صورة دحية الكلبيّ.

أقول: وقد يكون يقع بمثل هذه الموارد اتّفاقاً بتغيير اللّه صورهم للامتحان لكن لا على سبيل الكلّيّة بأن يقدر إبليس في كلّ حين من الأحيان هذا الأمر. وقيل: لمّا رأى اللّعين نزول الملائكة خاف أن يكون الوقت المعلوم قد حضر فخاف، وخوفه لأجل هذا الاحتمال.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يمكن أن يكون من بقيّة قول إبليس، ويحتمل أن ينقطع كلامه عند قوله: أخاف اللّه، ثمّ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)

إنّما لم يدخل الواو في ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ ودخلت في قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ﴾ لأنّ قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ﴾ عطف على ما قبله وهذه الآية كلام مبتدأ منقطع عن ما قبله، والعامل في «إذ»: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بيان الآية: أمّا المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج، وأمّا الّذين في قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا. ثمّ إنّ قريشاً لمّا

خرجوا لحرب رسول الله ﷺ قال أولئك: نخرج مع قومنا فإن كان محمّد ﷺ في كثرة خرجنا إليه وإن كان في قلّة أقمنا في قومنا قال محمّد بن إسحاق: قتل هؤلاء مع المشركين وهم جماعة منهم قيس بن الوليد بن المغيرة، وعليّ بن أميّة بن خلف والعاص بن منبّه بن الحجّاج، والحارث بن زمعة، وأبو قبيس بن فاكهة فلمّا رأوا قلّة المسلمين قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ أي: غرّ المسلمين دينهم حتّى خرجوا مع قلّتهم لأجل دينهم واغترّوا بقول محمّد ﷺ، ولم يحسنوا التدبير والنظر لأنفسهم فبيّن الله سوء عقيدتهم، فإنّ من سلّم أمره إلى الله فإنّ الله غالب على أمره وحكيم في أفعاله.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

لمّا شرح الله حال هؤلاء الكفّار في الدنيا شرح أحوال موتهم، والعذاب الّذي يصل إليهم. وقرئ «إذ تتوفّى» بالتاء على تأنيث الجماعة، وجواب «لو» محذوف، والتقدير: لرأيت أمراً هائلاً. ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ أي: ولو عاينت وشاهدت فإنّ «لو» تردّ المضارع إلى الماضي كما تردّ كلمة «إن» الماضي إلى المضارع، ويجوز أن يكون الفاعل في «يتوفّى»: «الله». «والملائكة» مرفوعة بالابتداء «ويضربون» خبره أي يقبضون أرواحهم أي: الذّوات الكافرة تستوفي من بدنه وجسده، قوله: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ قال ابن عبّاس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف وإذا ولّوا ضربوا أدبار المسلمين فلا جرم قابلهم الله بمثله وقت النّزع.

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: يبشّرهم ويقول لهم: «ذوقوا» ونظيره

في القرآن كثير كقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾[١] أي: ويقولان: ربّنا تقبّل منّا. قال ابن عبّاس: وتقول الملائكة لهم: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ لأنّه كان مع الملائكة مقامع، وكلّما ضربوا بها التهبت النار في الأجزاء والأبعاض فذلك قوله: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

ثمّ قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من أعمالكم وعقائدكم، يقال لهم هذا القول، والقائل إمّا اللّه أو الملائكة، أي: فعلنا ذلك بسبب تقديمكم الكفر على الإيمان، وإنّما عبّر باليد مع أنّ الإيمان والكفر أمر متعلّق بالقلب، لأنّ اليد مظهر القدرة وآلة كلّ أمر فحسن هذا المجاز فإنّ الإنسان جوهر واحد وهو الفعّال والدرّاك وهو المؤمن وهو الكافر وهو المطيع وهو العاصي، وهذه الأعضاء آلات له وأدوات له في الفعل فأضيف الفعل في الظاهر إليها لكنّ الجسم أي: الأدوات والجوهر أي: الإنسان مشتركان في النعيم والجحيم لأنّ ذلك الجوهر لا يتحقّق وجوده الخارجيّ إلّا بتحقّق وجود الآلات، والآلات لا تتمكّن من الورود في أمر من الأمور إلّا بإشارة ذلك الجوهر فهما مشتركان في العمل فحينئذ لا يجوز أن يعذّب أو يتنعّم أحدهما دون الآخر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ لعبيده وأنّهم أقدموا على أنفسهم فاستوجبوا العذاب.

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم

١ـ سورة البقرة: ١٢١.

بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

«كدأب» خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: دأبهم كدأب وعادة أتباع فرعون في الكفر وكدأب الكافرين من قبلهم بالرسل وبما انزل إليهم، أو المعنى أنّ عقوبة هؤلاء المشركين في زمانك كعقوبة تلك فأخذهم اللّه بسبب كفرهم فجوزي هؤلاء في بدر بالقتل والسّبي كما جوزي أولئك بالإغراق. ومعنى الدّأب العادة وإدامة العمل والمواظبة على أمر، والسّبب في ذلك بأنّ اللّه لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم لأنّه سبحانه أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع لأن يشتغلوا بما أريد منهم فإذا عكسوا الأمر وصرفوا هذه الأحوال إلى المعصية والكفر، فقد غيّروا نعمة اللّه على أنفسهم فلا جرم استحقّوا تبديل النعم بالنقم والمنح بالمحن. وذكروا في تكرار قوله: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وجوهاً كثيرة: أحدها أنّ الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأوّل والكلام الأوّل ذكر أخذهم وفي الثاني ذكر كيفيّة أخذهم بالإغراق، أو أنّه أريد بالأوّل ذكر ما نزل بهم من العقوبة حال الموت وبالثاني ما ينزل بهم في القبر والآخرة.

شبّه اللّه حال المنكرين لنبوّة محمّد من المشركين بقوم فرعون فإنّهم عذّبوا بجحودهم نبوّة موسى كذلك قومك عذّبوا يوم بدر وذلّوا فحال هؤلاء كحال أولئك في التكذيب والتبديل وورود العذاب في الدنيا والآخرة فانظر أيّها العاقل في اشتراكات وجه الشبه من الفريقين الخبيثين ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ وتشابه الفريقان في الظلم.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

النظم: لمّا وصف كلّ الكفّار بالظلم فردَ بمزيّة بعضهم في الشرّ والفساد

على البعض فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكمه وعلمه من حصلت له صفتان: الّذي يستمرّ على كفره مصراً عليه والّذين ينقضون عهد اللّه مرّة بعد مرّة. وأتى بصيغة الاستقبال لبيان أنّهم دائماً ناقضون العهد، والمراد بهم بنو قريظة فإنّهم نقضوا عهد الرسول، وأعانوا عليه المشركين بالسلاح يوم بدر، ثمّ قالوا: أخطأنا فعاهدهم رسول اللّه مرّة اخرى فنقضوه أيضاً يوم الخندق وهم لا يتّقون نقض العهد.

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

لمّا ذكر سبحانه الّذين ينقضون عهدهم في كل مرّة بيّن في هذه الآية حكمهم وما يجب أن يعاملوا بهم. ثقفنا به أي: ظفرنا به أي: إنّك إن ظفرت في الحرب بهولاء الناقضين فافعل بهم فعلاً يتفرّقون من مناصبتك تفرّقاً عنيفاً موجباً للاضطرار من النكاية والتعذيب ما يوجب أن تنكل ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: من وراءهم من الكفرة قال عطا: المعنى: ثخّن فيهم القتل حتّى يخافك غيرهم الّذين من وراء هؤلاء لأن يعتبروا بهم ولا يفعلون فعلهم ويتذكّرون.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين معك ﴿خِيَانَةً﴾ منهم ونكثاً بأمارات ظاهرة فانبذ إليهم عهدهم على طريق مستو ظاهر أي: أظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم خبراً ظاهراً مكشوفاً بيّناً أنك قطعت ما بينك وبينهم ولا تبادرهم الحرب، وهم على توهّم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ في العهود. وحاصل الآية المنع عن الخيانة ونقض العهد.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ

وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

لمّا اتّفق لأصحاب النبيّ في قصّة بدر بأن قصد الكفار بلا آلة ولا عدّة أمرهم اللّه أن يعدّوا للكفّار ما يمكنهم من الآلات والسلاح والقوّة، وقيل: المراد من القوّة الحصون.

لكنّ الظاهر أنّ ما هو آلة للغزو فهو من جملة القوّة وقوله ﷺ: القوّة هي الرمي لا ينافي كون غير الرمي قوّة مثل قوله: الحجّ عرفة والندم توبة لا ينفي اعتبار غيره، ولا شكّ أنّ ربط الخيل من أقوى آلات الجهاد. و«رباط» جمع «ربيط» كفصال جمع فصيل، والمراد الخيل المربوطة في سبيل اللّه وفسّر الخيل هنا بالإناث لتناسلها ونمائها قالت العرب: «إنّ الحصون الخيل لا مدر القرى» ولمّا علم العدوّ أنّ طرفه متأهّب للقتال ومستكمل الآلات فذلك يفيد خوفاً للعدوّ فقال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ الكفّار ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وربما يكون ذلك الخوف داعياً إلى الإيمان.

ثمّ قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي: ترهبون بالرباط والقوّة كفّار العرب ومشركيهم غير هؤلاء. واختلفوا في الآخرين، قيل: أهل فارس، وقيل: هم المنافقون لا يعلم المسلمون أنّهم أعداء اللّه وأعداؤهم واللّه يعلم بواطنهم وأنتم لا تعرفونهم لأنّهم يصلّون ويصومون ويختلطون بالمسلمين.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطاعته ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ ثوابه في الآخرة ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ولا ينقص منه شيء ويصلكم وافياً.

وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

لمّا بيّن ما يرهب به العدوّ بيّن أنّه من بعد الإرهاب إذا مالوا للصلح والسلم فالحكم قبول الصلح. وتأنيث المضمر باعتبار الفعلة والجنحة كقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1] أي: من بعد فعلتهم. قال الزمخشري: «السلم» تؤنّث تأنيث نقيضها وهي الحرب قيل: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾[2] وقوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[3] وقال بعض المفسّرين: الآية غير منسوخة والآية متضمّنة بالصلح إذا كان الصلاح فيه والمهادنة تكون بنظر الرسول والإمام. ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوّض الأمر في المعاقدة معهم إلى الله ليكون عوناً لك، إنّه سميع وعليم بما يضمره العباد.

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾

لمّا أمر في الآية السابقة بقبول الصلح إن صالحوا بيّن في هذه الآية أنّهم إذا أرادوا الصلح وقصدهم أن يخدعوك في الصلح وهم يتأهّبون للقتال فيتقوّون ويبدؤون بالقتال معكم من غير استعداد منكم فإنّ الّذي يتولّى كفايتك الله هو الّذي قوّاك بالنصر وأيّدك بالمؤمنين على أعدائك. والمراد بالمؤمنين الأنصار وهم الأوس والخزرج وأراد بتأليف القلوب ما كان بين الأوس والخزرج من المعاداة والقتال سنين متطاولة فإنّه لم يكن حيّان من العرب بينهما من العداوة مثل ما كان بين هذين الحيّين فألّف الله بينهم حتّى صاروا متوارثين متحابّين ببركة محمّد ﷺ. ولو أنفقت يا محمّد ما في الأرض جميعاً لم يمكنك جمع قلوبهم على الألفة وإزالة ضغائن الجاهليّة إنّه غالب في أمره حكيم في أفعاله.

١ـ سورة الاعراف: ١٥٢.

٢ـ سورة التوبة: ٥.

٣ـ سورة التوبة: ٢٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ
حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ
مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ
قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن
يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ
أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾

ولمّا وعده النصر في الآية السابقة على تقدير خدعة الكفّار وعده بالنصر في هذه مطلقاً في كلّ ما يحتاج إليه في الدين والدنيا بقوله: حسبك الله وحسب من اتّبعك من المؤمنين فهو كافنكم ومؤيّدكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ رغّب المؤمنين وشوّقهم على القتال بذكر مثوبات الجهاد ووعد النصر واغتنام الأموال ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ على القتال ﴿يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾ من العدوّ وكذلك إن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الكفّار. واللفظ لفظ الخبر والمراد به الأمر ويدلّ على الأمر به ما بعد الآية بقوله: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ﴾ لأنّ التخفيف لا يحصل إلّا بعد التكليف. ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ معناه أنّ ذلك النصر لكم بسبب أنّ الكفار لا يفقهون امر الله ولا يصدّقونه، وأنتم تصدّقونه وتفهمون ولمّا علم الله أنّ ذلك يشقّ عليهم بأنّ واحداً منهم يثبت في القتال على العشرة وكان قد أمرهم للامتحان فتغيّرت المصلحة في ذلك فقال ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ الحكم في الجهاد بوجوب قتال العشرة على الواحد، وثبات الواحد للعشرة، وعلم أنّ فيكم ضعف البصيرة والعزيمة لا ضعف البدن فإنّ الّذين أسلموا في الابتداء لم يكونوا كلّهم أقوياء البدن بل كان فيهم القويّ والضعيف، ولكن كانوا أقوياء في العزيمة واليقين.

ثمّ لمّا كثر المسلمون واختلط بهم من كان ضعيف اليقين والبصيرة نزل

قوله: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ روي أنهﷺ كان يبعث العشرة إلى وجه المائة، بعث حمزةعليه السلام في ثلاثين راكباً قبل بدر إلى قوم فلقيهم أبو جهل في ثلاثمائة راكباً وأرادوا قتالهم فمنعهم حمزة، وبعث رسول اللّه عبد اللّه بن أنيس إلى خالد بن صفوان الهذليّ وكان في جماعة فابتدر عبد اللّه وقال: يا رسول صفه لي فقالﷺ: **«إنك إذا رأيته ذكرت الشيطان ووجدت لذلك قشعريرة، وقد بلغني أنه جمع لي فاخرج إليه واقتله»** قال عبد اللّه: فخرجت نحوه فلمّا دنوت منه وجدت القشعريرة فقال لي: ممّن الرجل؟ قلت له: من العرب سمعت بك وتجمّعك ومشيت معه حتّى إذا تمكّنت منه قتلته بالسيف وأسرعت إلى الرسول وذكرت أنّي قتلته، فأعطانيﷺ عصا وقال: **«أمسكها فإنها آية بيني وبينك يوم القيامة»**.[1]

ثمّ هذا التكليف شقّ على المسلمين فأزاله اللّه بهذه الآية، قال عطا: عن ابن عبّاس لمّا نزل التكليف الأوّل ضجّ المهاجرون، وقالوا: يا ربّ نحن جياع وأعداؤنا شباع، ونحن في غربة وعدوّنا في أهليهم وقال الأنصار: شغلنا بعدوّنا وواسينا إخواننا فنزل التخفيف.

واحتجّ هشام بهذه الآية بأنّ اللّه لا يعلم الجزئيّات إلّا عند وقوعها، تعالى اللّه عن ذلك، بل معنى الآية أنّه تعالى قبل حدوث الشيء لا يعلمه حاصلاً واقعاً بل يعلم أنّه سيحدث وعند حدوثه ووقوعه فإنّه يعلمه حادثاً فيكون معنى الآية أنّ الآن حصل العلم بوقوعه وحصوله وكان قبل الحصول العلم بأنّه سيقع و«ضعف» بالضمّ والفتح لغتان صحيحتان.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ

١ـ انظر: عيون الاثر، ج ١، ص ٢٩٧.

﴿عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

المقصود من هذه الآية تعليم حكم آخر من أحكام الغزو والجهاد. قرئ «تكون» بالتاء والياء لأنّ الأسرى مذكر في المعنى ومؤنّث في اللفظ.

سبب النزول: روي أنّ النبيّ ﷺ أتي بسبعين أسيراً فيهم العبّاس عمّه وعقيل بن أبي طالب ولم يؤسر من أصحاب النبيّ[1] فجمعوا الأسارى وقرنوهم في الحبال، ولمّا أمسى رسول الله ﷺ والناس محبوسون أي: الأسارى محبوسون بالوثاق بات ﷺ ساهراً أوّل الليلة فقال له أصحابه: مالك لا تنام؟ فقال ﷺ: **«سمعت أنين العبّاس عمّي»** فأطلقوه فسكت فنام رسول الله ﷺ.[2]

وفي كتاب عليّ ابن إبراهيم: لمّا قتل رسول الله النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط خافت الأنصار أن يقتل الأسارى فقالوا: يا رسول الله قتلنا سبعين وهم قومك وأسرتك فخذ يا رسول الله من هؤلاء الفداء وقد كانوا أخذوا ما وجدوه من الغنائم في عسكر قريش، فنزلت الآية.[3]

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ﴾ وكان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم، وأقلّه ألف، فبعث قريش بالفداء أوّلاً فاوّلاً وقيل: كان الفداء عشرين أوقية من الفضّة، والأوقية أربعون درهماً أو ستّة دنانير وفداء العباس أربعون أوقية. قال محمّد بن سيرين: كان فداؤهم مائة أوقية. قال الباقر عليه السلام: **«كان الفداء يوم بدر كلّ رجل من المشركين بأربعين أوقية والأوقية أربعون مثقالاً إلّا العبّاس فإنّ فداءه كان مائة**

١ـ جوامع الجامع، ج ٢ ،ص ٣٧.

٢ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٩٤.

٣ـ تفسير القمي، ج ١، ص ٢٧٠.

أوقية، وكان قد أخذ منه حين أسر عشرون أوقية ذهباً، وقال النبيّ: ذاك غنيمة، فاد نفسك وابني أخيك عقيلاً ونوفلاً فقال العبّاس: ليس معي شيء. فقال ﷺ: أين الذهب الّذي سلّمته إلى أمّ الفضل وقلت: إن حدث حدث بي فهو لك وللفضل وقثم وعبد الله؟ فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: الله تعالى. قال: أشهد أنّك رسول الله ما اطّلع على هذا إلّا الله».[1]

وكان النبيّ يكره أخذ الفداء ولا يرضى إلّا القتل والأنصار لأجل الطمع كانوا يلحفون ويصرّون بأخذ الفداء طمعاً فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ أي ما ينبغي لنبيّ ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ ليفديهم ويأخذ منهم الفداء، أو يمنّ عليهم إلّا بعد أن بالغ في القتل والغلبة ليرتدع من يسمع ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ هذا خطاب للمؤمنين دون النبيّ لأنّهم كانوا راغبين في أخذ الفداء من الأسرى وعرض الدنيا مال الدنيا ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ﴾ لكم ﴿ٱلْءَاخِرَةَ﴾ والله غالب على أمره بما تقتضيه الحكمة. ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ أي: لولا ما مضى من حكم الله ان لا يعذّب قوماً حتّى يتبيّن لهم ما يحترزون وأنّه لم يتبيّن لكم أن لا تأخذوا الفدية، لعذّبكم بأخذ الفداء. هذا قول في معنى الآية، وقيل: لولا أن حكم الله لكم بإباحة الغنائم والفداء في أمّ الكتاب وهو اللوح المحفوظ ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ﴾ استحللتم قبل الإباحة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فإنّ الغنائم لم تحلّ قبلكم لأحد وهذا قول ابن عبّاس، وثالث الأقوال أنّ المعنى: لولا ما كتب الله في القرآن أو في اللوح أنّه لا يعذّبكم والنبيّ بين أظهركم لمسّكم العذاب بأخذ الفدية، وعدم إقدامكم على قتل المشركين و﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا

١ـ مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٩٥؛ وبحار، ج ١٩، ص ٢٤٢.

يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

لمّا أخذ الرسول الفداء من الأسارى وشقّ عليهم أخذ أموالهم منهم ذكر اللّه هذه الآية تسلية لبعضهم الّذين أسلموا، قال العبّاس بن عبد المطّلب: فأبدلني اللّه خيرا ممّا أفديت لي الآن عشرون عبدا وإنّ أدناهم ليضرب في عشرين ألف وأعطاني زمزم وما أحبّ أنّ لي بها جميع أموال مكّة وأنا أنتظر المغفرة من ربّي.

واختلف المفسّرون في أنّ هذه الآية نازلة في العبّاس خاصّة أو في جميع الأسارى وظاهر الآية عامّة في الأسارى لقوله: ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ بلفظ الجمع ويغفر لكم ويؤتكم خيراً فما الموجب للتخصيص؟

حاصل المعنى أنّه قل يا محمّد للأسرى الّذين في وثاقكم: إن يعلم اللّه أنّكم آمنتم وكسبتم الإيمان يعطيكم اللّه أحسن ممّا أخذ منكم في الدنيا وفي الآخرة. وقرئ بصيغة المعلوم والفاعل النبيّ ويغفر اللّه لكم وهو غفور لمعاصيكم رحيم بكم. ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾ ونقض العهد ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ روي أنّهﷺ لمّا أطلقهم من الأسر عهد معهم أن لا يعودوا إلى محاربته وإلى معاهدة المشركين فقال: وإن يريدوا خيانتك ونقض العهد فقد خانوا اللّه من قبل وأمكن اللّه رسوله منهم فإن عادوا كذلك يمكن اللّه رسوله من الناقضين وهو عليم بضمائرهم وحكيم في أفعاله.[1]

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن

١ـ انظر: جوامع الجامع، ج ٢، ص ٣٨.

﴿وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

المعنى أنّه تعالى قسّم المؤمنين في زمان الرسول إلى أربعة أقسام وذكر حكم كلّ واحد منهم والتقرير أنّهﷺ لمّا ظهرت نبوّته بمكّة ودعا الناس إلى التوحيد ثمّ انتقل من مكّة إلى المدينة فحين هاجر صار المؤمنون على قسمين، منهم من وافقه في الهجرة ومنهم من لم يوافقه بل بقي هناك.

أمّا القسم الأوّل فهم المهاجرون الأوّلون وكانوا يتوارثون بالهجرة وجعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام وكان الّذي آمن ولم يهاجر لم يرث من أجل عدم المهاجرة وعدم النصرة وكانوا يعملون بذلك حتّى أنزل الله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فنسخت هذه الآية بقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ فصار الميراث لذوي الأرحام المؤمنين ولا يتوارث أهل ملّتين. وصف القسم الأوّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وأمّا القسم الثاني فهم الأنصار لأنهﷺ لمّا هاجر إليهم فلولا أنّهم آووا ونصروا وبذلوا المال في خدمة الرسول لما تمّ المقصود لكن حال المهاجرين أعلى من حال الأنصار في الفضيلة لأنّهم تحمّلوا العناء أكثر من الأنصار من مفارقة الأهل والوطن ولسبقهم كما أنّ في الذكر قدّم المهاجرين على الأنصار،

ولمّا ذكر هذين القسمين في هذه الآية قال: أولئك ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

واختلفوا في المراد من الولاية في الآية فنقل الواحديّ عن ابن عبّاس وأغلب المفسّرين أنّ المراد هو الولاية في الميراث وقالوا: جعل اللّه سبب الإرث الهجرة والنصرة دون القرابة وكان القريب الّذي آمن ولم يهاجر لم يرث وقيل: المراد من الولاية التناصر والتعاون لا الميراث.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ إلى المدينة ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ أي: مالكم من ميراثهم من شيء حتّى يهاجروا فحينئذ بعد الهجرة يحصل بينكم التوارث قوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أي: فإن طلبوا منكم الّذين لم يهاجروا النصرة لهم على الكفّار فيجب عليكم معاونتهم وليس عليكم النصر لهم في غير أمر الدين ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي إلّا أن يطلبوا منكم القتال والنصرة على قوم من الكفّار والمشركين الّذين تعاهدتم معهم وأعطيتهم الأمان والعهد إلى مدة فحينئذ لا يجوز أن تنصروا المؤمنين عليهم لما فيه من نقض العهد. إنّ الّذين حملوا الآية في معنى الولاية على الإرث قالوا: نسخت بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ وقالوا: الدليل على أنّ معنى الولاية الإرث ولا يجوز أن يكون بمعنى النصرة لأنّه تعالى عطف عليه قوله: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ ولا شكّ أنّ ذلك عبارة عن الموالات في الدين والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فوجب أن يكون المراد بالولاية المذكورة أمراً مغايراً لمعنى النصرة واللّه عليم بأفعالكم «والولاية» قرئ بكسر الواو وفتحها فمن قرءها بالفتح جعلها من النصرة والنسب ومن قرءها بالكسر بمعنى السلطان.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: بعضهم أنصار بعض إذا كان الولاية بمعنى الايتراث أي: بعضهم يرثون بعضاً والآية تدلّ على أنّ الكافر

يرث الكافر مع اختلاف مللهم لأنّهم مع الاختلاف يصدق عليهم الكفر فالمجوسيّ يرث النصرانيّ والنصرانيّ يرث اليهوديّ.

ولمّا بيّن هذه الأحكام قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ووقوع هذه الفتنة من وجوه: الأوّل: أنّ المسلمين إذا اختلطوا بالكفّار ويتناصر ويتوارث بعض الكافرين بعض المؤمنين وبالعكس فهذه المخالطة موجبة لالتحاق المسلمين بالكافرين لكثرة الكافرين. الثاني: أنّ المسلمين إذا لم يتّفقوا ويتناصروا لا يتبيّن جمعهم في العدّة والعدد فيصير ذلك سبباً لجرأة الكفّار عليهم.

ثمّ عاد سبحانه إلى بيان تعظيم شأن القسم الأوّل والثاني وهذا التكرار لبيان علوّ درجتهم وشرفهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا﴾ وهم القسم الثاني، فأثنى على القسمين بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فعند الحصر بقوله «هم» والمبالغة بقوله: حقّاً ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وتنكير المغفرة يدلّ على الكمال أي: لهم مغفرة كاملة عن الذنوب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قيل: المراد طعام الجنّة لأنّه لا يستحيل طعام الجنّة بسوء واختلفوا في أنّ الهجرة هل حكمها باقية أم لا؟ قيل: لا لأنّه ﷺ قال: «**لا هجرة بعد الفتح**[1]» وقيل: إنّ هجرة الأعراب إلى الأمصار ليحصل الدين باقية إلى يوم القيامة والأقوى البقاء لأنّ من أسلم في دار الحرب أو دار الكفر، ثمّ هاجر إلى بلاد الإسلام كان مهاجراً أو أنّ البلدة كانت جماعتها مسلمة ثمّ ارتدّت بسبب فالمؤمن الّذي لم يرتدّ فيها إذا هجر عنها إلى بلد آخر مسلم فقد كان مهاجراً.

١ـ المبسوط للشيخ الطوسي، ج ٢، ص ٤؛ وبحار، ج٤١، ص ١٧٠؛ والسرائر، ج ٢، ص ١٤؛ وجامع المقاصد، ج ٣، ص ٣٧٤.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾ إيمانكم ﴿وَهَاجَرُوا۟﴾ بعد هجرتكم ﴿وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ أي: مؤمنين من جملتكم في وجوب موارثتهم وموالاتهم وإن تأخّر إيمانهم وهجرتهم وذو أرحامهم وقرابتهم أحقَ بميراثهم من غيرهم، قيل: إنّ هذه الآية أبطلت التوارث بالمؤاخاة وكان النبيﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار قوله: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في اللوح أو حكم الله وقيل: في القرآن. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ ويعلم مصالحكم.

تمّت السورة بعون الله.

سُورَةُ التَّوبَة

مدنيّة كلّها وقيل: سوى آيتين: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وآية بعدها.

هذه السورة لها أسامي: الأولى «براءة» سمّيت بذلك لأنّ هذه الكلمة مفتحها التوبة لكثرة لفظ التوبة فيها. «الفاضحة» لأنّها فضحت المنافقين. «المبعثرة» لأنّها تبحث عن أسرار المنافقين. «المقشقشة» وأيضاً يقال لسورتي «قل يا أيّها الكافرون» و«قل هو اللّه» المقشقشتان لأنّهما تبرء من آمن بها من الشرك والنفاق. يقال: تقشقش المريض إذا بريء من علّته، «البحوث» تبحث عن عقائدهم. «المدمدمة» أي: المهللة. «الحافرة» لأنّها حفرت عن قلوب المنافقين ما كانوا يسرّونه. «المثيرة» لأنّها أثارت قبائحهم، «العذاب» لأنّها نزلت بعذاب الكفّار، «المخزية» تخزي الكفار، «المنكّلة» بورود النكال عليهم.

وفي سبب ترك «التسمية» في أوّلها قراءة وكتابة أقوال: أحدها: أنّها ضمّت إلى الأنفال بالمقاربة فصارتا كسورة واحدة إذ الأولى في ذكر العهود والثانية في رفع العهود. والثاني: أنّه لم ينزّل باسم اللّه في أوّلها لأنّ بسم اللّه للأمان والرحمة ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف، عن عليّ عليه السلام[1] وغيره وذكروا وجوهاً أخر لا حاجة إلى الإطالة.

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٦؛ وجوامع الجامع، ج ٢، ص ٤٣.

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢﴾

﴿بَرَآءَةٞ﴾ واصلة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ براءة خبر لمبتدأ محذوف أي: هذه الآيات براءة. أو مبتدأ وخبره الظرف وجاء المبتدأ نكرة لأنّها موصوفة.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ أي: انقطاع للعصمة. ورفع للأمان وخروج من العهود إلى الّذين عاهدتم من المشركين والخطاب للنبيّ والمسلمين وحاصل المعنى: تبرّؤوا ممّن كان بينكم وبين المشركين عهد ولمّا ختم اللّه الأنفال بإيجاب البراءة لكلّ من آمن افتتح بهذه السورة بأنّه ورسوله بريئان منهم.

فإن قيل: كيف يجوز نقض العهد؟ بلى يجوز بثلاث أوجه: إمّا أن يكون العهد مشروطاً بالبقاء إلى أن يرفعه اللّه بوحي وقد حصل، وإمّا أن يكون قد ظهر من المشركين خيانة ونقض، وإمّا أن يكون العهد مؤجّلاً إلى مدّة فتنقضي وقد شرط النبيّ عليهم هذا الأمر والمشركون نقضوا العهد وقصدوا التطاول وقيل: إنّ المشركين نقضوا العهد إلّا أناساً منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فأمر اللّه نبيّه أن ينبذ إليهم عهدهم.

والمقصود من إظهار هذه البراءة للمشركين أن يعرفوا أنّهﷺ معهم على عزم القتال والحرب حتّى لا يجرى مجرى الغدر وخلف القول، كما أنّه وقع منهم الخلف في العهد ولهذا المعنى قال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: سيروا على وجه المهل وتصرّفوا في أموركم آمنين من السيف ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ فإذا انقضت المدة ولم تسلموا انقطعت العصمة عن دمائكم وأموالكم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾

وغير فائتين عن قدرة الله وأنتم في سلطانه وملكه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ومذلّهم ومخزيهم.

قيل: ابتداء هذه الأربعة يوم النحر إلى العاشر من ربيع الآخر، وهو المرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام، وقيل: من شوّال إلى آخر المحرّم، وأجمع المفسرون أنّه لما نزلت دفعها النبيّ صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر ثمّ استردّها ودفعها إلى عليّ بأمر من الله وسبب تفضيل عليّ قيل: إنّه صلى الله عليه وآله بعث أبا بكر وأمره أن يقرأ عشر آيات من أوّل السورة وأن ينبذ إلى كل ذي عهد عهده ثم بعث خلفه عليّاً ليأخذها ويقرأها على الناس، وذلك لأنّ جبرئيل نزل عليه وقال: لا يحملها إلّا أنت أو رجل من أهل بيتك فخرج عليّ على ناقة رسول الله العضباء حتّى أدرك أبا بكر بذي الحليفة فأخذها عنه فرجع أبو بكر، وقال: هل نزل فيّ شيء فقال صلى الله عليه وآله: «لا ولكن لا يؤدّي إلّا أنا أو رجل منّي». عن عروة بن الزبير وأبي سعيد الخدريّ وأبي هريرة.(1)

وروى الشعبيّ عن محرز بن أبي هريرة قال: كنت أنادي مع عليّ عليه السلام حين أذن المشركين فكان إذا صحل صوته فيما ينادي دعوت مكانه(2) وكان عليّ عليه السلام يقول: «لا يحجّ بعد عامنا هذا مشرك ولا يدخل البيت إلّا مؤمن ومن كانت بينه وبين رسول الله مدّة فإنّ أجله إلى أربعة أشهر».(3)

وروى عاصم بن حميد عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «خطب عليّ عليه السلام للناس واخترط سيفه فقال: لا يطوفنّ بالبيت عريان ولا يحجّنّ البيت مشرك ومن كانت له مدّة فهو إلى مدّته ومن لم يكن له مدّة فمدّته أربعة أشهر».(4)

١ـ مجمع البيان، ج ٥ ص ٨ و ٩

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ انظر: نفس المصدر بحار الأنوار، ج ٢١ ص ٢٦٧.

٤ـ انظر: كشف اللثام، ج ١، ص ٣٣٣؛ والحدائق الناظرة، ج ١٦، ص ٩٤، وبحار الأنوار، ج ٢١، ص ٢٦٧.

وروي أنه عليه السلام لما نادى فيهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ قال المشركون: نحن نتبرأ من عهدك وعهد ابن عمك.[1]

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

«الأذان» الإعلام وأصله النداء الّذي أوقعه المنادي في الإذن فحينئذ الأذان اسم يقوم مقام الإيذان وهو المصدر ومنه أذان الصلاة أي: إعلام من الله ورسوله صادر إلى الناس المؤمن والمشرك، وفيه معنى الأمر أي: يجب إعلام المشركين في يوم الحجّ الأكبر. وفيه اختلاف قيل: عرفة. وقيل: الحجّ الأكبر الّذي فيه الوقوف والحجّ الأصغر الّذي ليس فيه وقوف وهو العمرة. وقيل: الحجّ الأكبر يوم النحر وهو المرويّ عن أبي عبد الله[2]، وقيل: جميع أيام الحجّ، أو لأنّ في ذلك اليوم حجّ المشرك والمسلم ولم يحجّ بعدها مشرك، والإعلام بانّ الله بريء من عهد المشركين وحذف المضاف ورسوله بريء منه. فلو قيل: لا فرق بين قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وبين قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ فما الفائدة في هذا التكرار؟ فالجواب أنّ المقصود من الكلام الأول إخبار ثبوت البراءة، ومن الثاني الأمر بإعلام الناس هذا المعنى. أو البراءة الأولى براءة العهد والبراءة

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٠؛ وبحار، ج ٢١، ص ٢٦٧.

٢ـ منتهي المطالب علامة حلي، ج ٢، ص ٦٦٥؛ ودروس شهيد الأول، ج ١، ص ٤٨٧.

الثانية البراءة الّتي هي نقيض الموالات لأنّ في الأولى بدل براءة العهد وفي الثانية بدل البراءة من نوعهم أعمّ من أن يكونوا بصفة العهد بل مطلقاً يجب ترك الموالات.

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في هذه المدّة ورجعتم عن الشرك إلى توحيد الله فاستدركتم الخير من الله وتنجون عن عذاب الله. وإن بقيتم على الشرك فاعلموا أنكم لا تعجزونه عن تعذيبكم، وهذا الإمهال ليس من العجز بل هو لإتمام الحجّة. وأوعدهم بعذاب الآخره بقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولفظ البشارة للتهكّم وورد على سبيل الاستهزاء كما يقال: إكرامهم الشتم وتحيّتهم الضرب ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ وهم قوم من بني كنانة وبني ضمرة كما ذكرنا سابقا فإنّهم لم ينقصوا وكان بقي من أجلهم تسعة أشهر أمر الله بإتمامها لهم وأوفى لهم الرسول. فإنّهم لم يضرّوكم شيئاً، ولم يعاونوا عليكم أيّها المؤمنون أحدا من أعدائكم ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ﴾ إلى انقضاء مدّتهم الّتي وقعت المعاهدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ لنقض العهود.

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾

يقال: سلخت الشهر إذا خرجت منه وأهللت الشهر إذا دخلت فيه. قال الشاعر:

إذا ما سلخت الشهر أهللت مثله ... كفى قاتلاً سلخي الشهور وإهلالي

والسلخ اسم لانفصال الشيء عن مكانه المعيّن فلذلك إذا تمّ الشهر فقد

انفصل عن إحاطة ذلك الشهر به ودخل في شهر آخر.

فإذا تمّت الأشهر المحرّمة الأربعة أذن في أربعة أشياء: أوّلها فاقتلوهم على الإطلاق في أيّ زمان وأيّ مكان وفي الأشهر الحرم اختلاف قيل: ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم ورجب وقيل: هي الأشهر الأربعة الّتي جعل اللّه للمشركين مهلة بقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهي من يوم العاشر من ذي الحجّة إلى يوم العاشر من ربيع الآخر.

أوّلها: القتل في أيّ زمان ومكان في الحلّ والحرم. الثاني: وخذوهم بالأسر. والثالث: واحصروهم أي: امنعوهم واحبسوهم وأحيطوا بهم أن تحصنوا. والرابع: ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وطريق لهم إلى البيت أو إلى الصحراء أو إلى التجارة.

ثمّ قال سبحانه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ ودعوهم يتصرّفون في بلاد المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وقيل: معناه دعوهم يحجّوا إلى البيت معكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ واستدلّوا بهذه الآية على أنّ من ترك الصلاة متعمّداً يجب قتله لأنّ اللّه أوجب الامتناع من قتل المشركين بشرط أن يتوبوا ويقيموا الصلاة فإذا لم يقيموها وجب قتلهم فلو قيل: فالحكم في الزكاة كذلك ولا يحكم لتارك الزكاة بالقتل فأجابوا أنّ تارك الزكاة دخله التخصيص وفي الصلاة ليس كذلك.

وسّع اللّه عليهم بهذه الأمور الثلاثة، والتوبة إحدى الامور الثلاثة والتوبة عبارة عن تطهير القوّة النظريّة عن الضلالة والجهل، والصلاة والزكاة عبارة عن تطهير القوّة العمليّة واشغالها بهاتين العملين.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

المعنى: وإن طلب أحد من المشركين الّذين أمرتك بقتلهم الأمان من القتل بعد الأشهر الأربعة ليسمع دعوتك واحتجاجك عليه بالقرآن فأمنه وأجره وبيّن له ما تريد حتّى يسمع كلام الله. وإنّما خصّ كلام الله لأنّ معظم الدلالة فيه، ثمّ أبلغه مأمنه وبلده الّذي خرج منه فإن دخل في الإسلام فنعم وإن لم يدخل في الإسلام فلا تقتله فتكون قد غدرت به ولكن واصله إلى ديار قومه. وذلك الأمان لأجل أنّهم لا يعلمون الإيمان والدلائل فآمنهم لعلّهم يتدبّروا ويعلموا. وكلمة «أحد» مرفوع بفعل مقدّر تقديره: وإن استجارك أحد ولا يجوز الرفع بالابتداء لأنّ «إن» من عوامل الفعل ولا يدخل على الاسم قال الزجّاج: معنى الآية: إن طلب منك أحد من المشركين إن تجيره من القتل أن يسمع كلام الله وبيّناته فأجره.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

لمّا أمر الله نبذ العهد إلى المشركين بيّن أنّ العلّة ما ظهر منهم من الغدر والنكث فقال في هذه الآية على سبيل التعجّب أو الجحد: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ صحيح من الله ورسوله والحالة أنّهم نكثوا فحينئذ كيف يجوز أن يأمر الله نبيّه عن كفّ القتال عنهم؟ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ﴾ معهم ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإنّ لهم عهدا عند الله فإنّهم لم يضمروا الغدر بك قيل: هم بنو كنانة وبنو ضمرة، وقيل: هم أهل مكّة الّذين عاهدهم رسول الله يوم الحديبية فلم يستقيموا ونقضوا العهد بأن أعانوا بني بكر على خزاعة فضرب لهم النبيّ ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر يختارون أمرهم إمّا أن يسلموا،

وإمّا أن يلحقوا بأيّ بلاد شاؤوا فأسلموا قبل الأربعة وقيل: هم من قبائل بكر بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الدئل وهم الّذين دخلوا عهد قريش يوم الحديبية إلى المدّة الّتي كانت بين رسول الله وبين قريش، فلم يكن نقضها إلّا قريش فأمر النبيّ بإتمام العهد لمن لم يكن له نقض عهد وهذا القول أقرب للصواب لأنّ هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكّة.

﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ﴾ أي: ماداموا باقين على العهد فكونوا معهم مستقيمين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ للنكث والغدر.

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗ﴾ هاهنا حذف أي: كيف يكون لهم عهد؟ وكيف لا تقتلونهم وهم إن يظفروا بكم لا يراعون فيكم عهدا ولا قرابة؟

«الإلّ» قيل: اليمين، وقيل: العهد، وقيل: القرابة، وقيل: «الإلّ» من أسماء الله و«الذمّة» كلّ أمر لزمك بحيث لو ضيّعته لزمتك مذمّة ومنقصة.

﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وبألسنتهم كلاماً حلواً طيّباً والّذي في قلوبهم بالعكس ولا يضمرون إلّا الشرّ والإيذاء إن قدروا عليه ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ فلو قيل: إنّ الكفّار كلّهم فاسقون فما معنى أكثرهم؟ لأنّ الكافر قد يكون عدلاً في دينه وقد يكون خبيث النفس في دينه فالمراد أنّ هؤلاء فاسقون في كفرهم ودينهم.

ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٩)

أصل الاشتراء استبدال المتاع بالثمن، ونقيضه بيع الثمن بالمتاع.

المعنى: أعرضوا عن دين الله ومنعوا الناس عن دين الحقّ بشيء يسير نالوه، وهذه الآية نزلت في قوم من العرب، جمعهم أبو سفيان على طعامه

ليستميلهم على عداوة النبي ﷺ، ولمّا أكلوا الاكلة تركوا الحلف والعهد ونقضوا عهد النبي ﷺ بسبب تلك الأكلة وربّ اكلة أفسدت الدين والدنيا فبئس العمل عملهم.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)﴾

تأكيد لقباحة نقض عهدهم بأنّهم لا يحفظون عهود المؤمنين وأولئك المتعدّون عن حدود الله. والتكرار للتأكيد والتعجّب من قباحة فعلهم، وقيل: المراد اليهود ولو كان المراد اليهود لم يكن تكرار لكنّ الكلام أجنبيّ لأنّه لم يكن ذكر اليهود في الآيتين، والله أعلم.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢)﴾

المعنى: فإن تابوا وندموا من الشرك وعزموا على ترك العود إليه وقبلوا الإسلام وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأدّوهما فعاملوهم معاملة إخوانكم من المؤمنين. ونبيّن الآيات والأحكام للّذين يتطلّبون بيانه دون الجهّال الّذين لا يتفكّرون. وإن نقضوا عهودهم من بعد إن عقدوا العهد وعابوا وطعنوا في دينكم وما قبلوه فقاتلوا رؤساء الضلال والكفر. وخصّهم بالذكر لأنّهم يضلّون اتباعهم لا أنّهم مخصوصون بالقتل دون المرؤوسين بل الرئيس والمرؤوس في حكم واحد.

وقرأ علي عليه السلام هذه الآية يوم البصرة ثمّ قال: أما والله لقد عهد إليّ رسول الله ﷺ وقال: **«يا عليّ لتقاتلنّ الفئة الناكثة والفئة الباغية والفئة المارقة»**.[1]

١ـ مستدرك الوسائل، ج ١١، ص ٦٤؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٢١.

﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ وقرئ بكسر الهمزة ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ عن الكفر قيل: معناه قاتلوهم وليكن قصدكم بالقتال انتهاؤهم عن الكفر والشرك.

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

لمّا أمر الله بقتال أئمة الضلال أتبعه بذكر السبب. «الهمزة» للاستفهام والمراد التحضيض والإيجاب أي: هلّا تقاتلونهم؟ فذكر ثلاثة أسباب كلّ واحد منها يوجب مقاتلتهم لو انفرد فكيف بالجمع؟ أحدها: نكث العهد؟ قيل: هم اليهود الّذين نقضوا العهد وخرجوا مع الأحزاب. الثاني: همّوا بإخراج الرسول من المدينة، وقيل: المراد مشركو قريش، وقيل: المراد من الإخراج إخراجه من مكّة حين هاجر، وثالثها: وهم بدءوكم أوّل مرّة بالقتال يوم بدر والبادي أظلم، وقيل: بدءوكم بقتال حلفاء النبيّ من بني خزاعة وتخافون أن ينالكم من قتالكم مكروه ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا الكلام جمع بين التقريع والتشجيع.

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

أكّد الأمر بالقتال وبشّرهم بالنصر والظفر عليهم. يعذّبهم الله قتلاً وأسراً ويعينكم أيّها المؤمنون عليهم ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ الّذين هم حلفاء رسول الله كبني خزاعة فإنّ بني خزاعة أسلموا فأعانت قريش بني بكر عليهم فشفى الله صدورهم من بني بكر ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ بتشفّي

درك الثار لأنّه من المعلوم أنّ من طال تأذيه من خصمه ثمّ مكّنه الله منه فإنّه يعظم سروره ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يقبل توبة من تاب منهم.

ووجه النظم في اتّصال قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ بما قبله بشارة بأنّه ليس في قتالهم اقتطاع لأحد منهم عن التوبة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم و﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

أ ظننتم أن تتركوا أن تكلّفوا الجهاد دون الإخلاص ليس الأمر كذلك بل لابدّ أن تجاهدوا ويكون غرضكم الإخلاص وليس المراد القتال فقط بل القتال والانقياد والخلوص لأمر الله ولا يتخلّص من هذا التكليف إلّا أن يعلم الله الّذين جاهدوا حقيقة وخالصاً. وذكر العلم وأراد وقوع المعلوم.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ ووسيلة والمقصود من هذا الشرط أنّ المجاهد قد يجاهد ولا يكون جهاده خالصاً بل باطنه غير ظاهره وهو الّذي يتّخذ الوليجة من دون الله. و«الوليجة» الدخيلة في القوم وليس منهم. وينافقون مع المؤمنين ويفشون إلى الكفّار أسرار المؤمنين والله خبير بأعمالكم فيجازيكم عليها.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

ولمّا أمر الله بقتال المشركين وقطع الموالات عنهم أمر بمنعهم عن المساجد، فقال: لا ينبغي للمشركين أن يكونوا قوّاماً على عمارة مساجد الله

ومتولّين لأمر الله، وينبغي أن يكون يتولّاها المسلمون قيل: هي عامّة، وقيل: المسجد الحرام خاصّة. في حال شهادتهم على أنفسهم بالكفر بمعنى أنّه يسأل النصرانيّ من أنت: فيقول: أنا نصرانيّ، واليهوديّ يقول: أنا يهوديّ إذا سئل عنه وكذا المجوسيّ فهذه شهادتهم على أنفسهم بالكفر، وليس المعنى بأن يقول: أنا كافر فإنّ الكافر لا يعترف بكونه كافراً.

واختلف في عمارة المسجد قيل: دخوله وخروجه ويتردّد إليه لأنّ المسجد عمارته بطاعة الله فيه وقيل: باستصلاحه ورمّ ما استرمّ منه بالبناء ومثله. وقيل: في قوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ معناه قولهم في التلبية: لبّيك لا شريك لك إلّا شريك هو لك تملكه وما ملك، وقيل: شهادتهم سجودهم لأصنامهم مع إقرارهم بأنّها مخلوقة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ الّتي من جنس الطاعة ومقيمون ومؤبّدون في النار، والمراد من الحبط أنّه إن كان قد صدر منهم عمل من أعمال البرّ مثل إكرام الوالدين وبناء الرباطات وإطعام الجائع فذلك باطل لأنّ عقاب كفرهم لا يدفعه مثل هذه الأمور.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي: المشتغل بهذا العمل يجب أن يكون يعرف مسجوده ويقرّ بوحدانيّته واليوم الآخر ويكون موقناً بالمعاد، ويقوم بالصلاة وآدابها ويعطي الزكاة إن وجبت عليه ولم يخف سوى الله ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أي: من جمع هذه الأمور قريب من الهداية والجنّة لأنّها أصول الدين. فان قيل: كيف قال: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ والمؤمن قد يخاف من المفسد والظالم؟ المراد من هذه الخشية الخوف والتقوى في الدين وأن لا يختار على رضى الله رضاً غيره وإلّا فالإنسان قد يخاف من المؤذيات كالحيّة.

وفي الآية إشعار على أنّ المسجد يجب صونه عن غير العبادة فيدخل

فيه فضول الدنيا وفضول الكلام قال النبيّ ﷺ: «**يأتي في آخر الزمان أناس من أمتي يأتون المساجد يقعدون فيها حلقاً ذكرهم الدنيا وحبّها. لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة**».(١) وفي الحديث: «**الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش**».(٢) وفي حديث آخر قال الله: «**إنّ بيوتي في الأرض المساجد وإنّ زوّاري فيها عمّارها طوبى لعبد تطهّر في بيته، ثمّ زارني في بيتي فحقّ على المزور أن يكرم زائره**».(٣) وعنه ﷺ: «**من ألف المسجد ألفه الله**»(٤) وعنه ﷺ: «**إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان**».(٥) وعنه ﷺ: «**من أسرج في مسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له مادام في المسجد ضوؤه**»(٦)، وهذا الحديث نقلها الزمخشريّ في «الكشّاف».

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

في سبب النزول قال ابن عبّاس في بعض الروايات: إنّ عليّاً لمّا أغلظ الكلام على العبّاس قال العبّاس: إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد فلقد كنّا نعمر مسجد الحرام ونسقي الحاجّ فنزلت الآية.(٧) وقيل: إنّ المشركين قالوا لليهود: نحن سقاة الحاجّ وعمّار البيت فنحن أفضل أم محمّد وأصحابه؟ فقالت اليهود: أنتم أفضل. وقيل: افتخر طلحة بن شيبة والعبّاس

١ـ مستدرك الوسائل، ج٣، ص ٣٧١.

٢ـ تذكرة الموضوعات، ص ٣٦.

٣ـ علل الشرايع، ج ٢، ص ٣١٨؛ وبحار، ج ٨١، ص ٦.

٤ـ عوالي اللئالي، ج ٢، ص ٣٢؛ وكنزل العمال، ج ٧، ص ٦٤٩.

٥ـ المجموع، ج ٤، ص ٢٥٢؛ وتفسير طبسي، ج ٨، ص ٩٠.

٦ـ تذكرة الفقهاء، ج ١، ص ٩٠؛ وبحار، ج ٨١، ص ٢٥.

٧ـ الميزان، ج ٩، ص ٢١١.

وعليّ قال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه ولو أردت بتّ فيه. قال العبّاس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها. قال عليّ: أنا صاحب الجهاد.[۱]

وعن أبي بريدة قال: بينا شيبة والعبّاس يتفاخران إذ مرّ عليّ عليه السلام فقال: بما ذا تفتخران؟ قال العبّاس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد: سقاية الحاجّ. قال شيبة: أوتيت عمارة المسجد فقال عليّ: أوتيت على صغري ما لم تؤتيا فقالا: وما أوتيت؟ قال: ضربت خراطيمكما بالسيف حتّى آمنتما. فقام العبّاس مغضباً يجرّ ذيله حتّى دخل على النبيّ صلى الله عليه وآله، وقال: أما ترى ما يستقبلني عليّ عليه السلام؟ فقال صلى الله عليه وآله: **«ادعو لي عليّاً»**، وقال له: **«ما حملك على ما استقبلت عنك؟»** قال: **«على صدمته بالحقّ»** فنزلت الآية.[۲]

«والسقاية» و«العمارة» مصدران من سقي وعمر كالصيانة والوقاية، ومعلوم أنّ السقاية والعمارة فعل، وقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ إشارة إلى الفاعل وتشبيه الصفة بالذات والفعل بالفاعل غير صحيح، ولابدّ من محذوف في الكلام، وتقديره: أ جعلتم أهل سقاية الحاجّ، التقدير: أ جعلتم سقاية الحاجّ كإيمان من آمن بالله. وكانت السقاية نبيذ الزبيب وكانوا يسقون الحاجّ الشراب والماء!

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

لمّا ذكر في الآية السابقة ترجيح الإيمان والجهاد على السقاية والعمارة بالتلويح بيّن في هذه الآية بالتصريح أنّ من كان موصوفاً بهذه الصفات أعظم

۱ـ كافي، ج ٨ ص ٢٠٤؛ والصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٢٣؛ وبحار، ج ٢٢، ص. ٣٧

۲ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧ وشواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٢٩ ـ بحار الأنوار ج ٤١ ص ٦٤

درجة عند الله لأنّ الإنسان ليس له إلّا مجموع امور ثلاثة: الروح والبدن والمال: أمّا الروح لمّا زال عنه الكفر وحصل له الإيمان فقد حصل له غاية السعادة وأمّا المال والبدن فبسبب الجهاد والهجرة وقعا في النقصان ولمّا رضي بإهدار النفس والمال لطلب مرضاة الله فمثل هذا الإنسان وصل إلى آخر درجة الإنسانيّة وأوّل درجة الملائكة فأين السقاية مع هذه الدرجة؟ أين الثرى والثريّا؟

﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ المراد الاستغراق في المكانة والعبوديّة لا العنديّة بحسب الجهة. وحصر الفوز لهم بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ لأنّ من آمن بالله وعرفه قلّ أن يبقى ملتفتا إلى الدنيا الفانية ويسعى بالتفريق بين النفس وبين لذّات الدنيا فإنّها شواغل ويستحقر الدنيا فيوجب على نفسه تركها فيعرف ما يضرّه وما ينفعه، ويتمّ عرفانه كما قيل: المعرفة مبتدأ من تفريق ونقص وترك ورفض فلمّا بذل النفس والمال بجزئيّته أقبل الله عليه بكلّيّته، وذلك قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ مؤبّدا ويستحق الأجر العظيم من عنده تعالى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾

لمّا أمر الله المؤمنين بالهجرة وأرادوا الهجرة، فمنهم من تعلّق به أبواه وأولاده وإخوانه وزوجته فكانوا يمنعونه عن الهجرة فيتركون الهجرة لأجلهم، فبيّن سبحانه أنّ أمر الدين مقدّم على النسب إذا قطع قرابة الأبوين فالأجنبيّ أولى إن استحبّوا الكفر وآثروه على الإيمان. قال الحسن البصريّ: من تولّى المشرك فهو مشرك وهذا إذا كان راضياً بشركه.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ أي: من يتولّى من المؤمنين المشركين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على نفوسهم ووضعوا الموالات في غير موضعها.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

بيان الآية أنّ جماعة من المسلمين قالوا: يا رسول الله كيف يمكن البراءة منهم بالكلّيّة وهذه البراءة توجب انقطاعنا عن آبائنا وإخواننا وعشيرتنا وذهاب تجارتنا وهلاك أموالنا؟ فأجابهم الله أنّه يجب تحمّل هذه المضارّ الدنيويّة للدين فإن كانت رعاية هذه الأمور عندكم أولى من طاعة الله ورسوله ومن المجاهدة في سبيله فانتظروا حتّى يأتي الله بأمره أي: بعقوبة عاجلة أو آجلة أو فتح مكّة والله لا يهدي القوم الخارجين عن الدين.

وهذه الآية تدلّ على أنّه إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين وبين جميع مهمّات الدنيا وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾

لمّا فتح النبيّ ﷺ مكّة وقد بقيت من شهر رمضان خرج متوجّها إلى قتال هوازن وثقيف لحنين، وهو اسم واد بين مكّة والطائف واختلفوا في عسكر النبيّ قال ابن عبّاس: كانوا ستّة عشر ألفاً، وقال قتادة: اثني عشر ألفاً. وقال الكلبيّ: عشرة آلاف وعدد عسكر المخالف أربعة آلاف. فلمّا التقوا، قال

رجل من المسلمين اسمه سلمة: لن نغلب القوم عن قلّة فهذه الكلمة ساءت رسول الله. وقيل: قالها أبو بكر. قال البراء بن عازب: كانت هوازن رماة، وفي المثل: قد أنصف القارة من راماها قال البراء: لمّا حملنا انكشفوا وأكببنا على الغنائم فرجعوا واستقبلونا بالسهام وانكشف المسلمون عن رسول الله ولم يبق معه صلى الله عليه وآله إلّا العبّاس بن عبد المطّلب وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، والعبّاس أخذ بلجام بغلته وأبو سفيان بركابه، قال البراء: ما ولّى رسول الله دبره قطّ وهو يقول: **«أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطّلب»**[١]، وطفق يركض بغلته الشهباء نحو الكفّار لا يبالي وعليّ عليه السلام في المعركة مع نفر قليل يحارب ثمّ قال النبيّ للعبّاس: **«ناد المهاجرين والأنصار»** وكان العبّاس رجلاً صيّتاً فجعل ينادي: يا عباد الله يا أصحاب بيعة الشجرة يا أهل سورة البقرة فجاء المسلمون حتّى سمعوا صوته عنقاً واحداً وأخذ رسول الله كفّاً من حصى فرماهم بها، وقال: **«شاهت الوجوه»**. فما زال أمر الكفار مدبراً وحدّهم كليلاً حتّى هزمهم الله ولم يبق منهم أحد إلّا امتلأت عيناه من ذلك التراب[٢] قيل: فذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والسكينة ما يسكن به القلب والنفس، ويوجب الطمأنينة، ووجه الاستعارة أنّ الإنسان إذا خاف اضطرب قلبه. وإذا أمن الإنسان سكن قلبه فجعل لفظ السكينة كناية عن السكون والأمن. ومن النعمة الّتي أنعم الله عليهم: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ والمراد: أنزل الملائكة، قال سعيد بن جبير: أمدّ الله نبيّه بخمسة آلاف من الملائكة واختلفوا في أنّ الملائكة هل قاتلوا ذلك اليوم؟ منهم من قال: قاتلوا، ومنهم من قال: ما قاتلوا بل يوم بدر قاتلوا، قال سعيد

١ـ الارشاد، للمفيد، ج ١، ص ١٤٣؛ وبحار، ج ٨٩، ص ١٦٦؛ والأمالي، للطوسي، ص ٥٧٤.
٢ـ تفسير الرازي، ج ١٦، ص ٢١.

بن المسيّب: حدّثني رجل من المشركين يوم حنين قال: لمّا غلبنا على المسلمين جعلنا نسوقهم فلمّا انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء تلقّانا رجال بيض الوجوه حسان فقالوا: شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا.

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهذا الأمر الثالث من نعم اللّه لهم في ذلك اليوم والمراد من هذا التعذيب قتلهم وأسرهم وأخذ أموالهم وسبي ذراريهم. ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عطف على «أنزل» أي ثمّ يقبل اللّه توبة من تاب عن الشرك والمحاربة ورجع إلى طاعة الرسول والإسلام، ويجوز أن يكون المراد من قبول توبة الّذين انهزموا من عسكر الرسول أو إعجابهم بالكثرة وإنّما علّق بالمشيئة لأنّ القبول تفضّل منه وهذا ردّ لقول الوعيديّة حيث يقولون: قبول التوبة واجب ولو كان واجباً لما علّقه بالمشيئة.

وروي عن الصادقين عليهما السلام أنهم قالوا: كانت مواطن النصرة لرسول اللّه ثمانين موطناً. روي أنّ المتوكّل اشتكى شديدة فنذر أن يتصدّق بمال كثير إن شفاه اللّه فلمّا عوفي سأل العلماء عن حدّ المال الكثير فاختلف أقوالهم فأشير إليه أن يسأل أبي الحسن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى الرضا وقد كان الإمام في حبسه في داره فأمر أن يكتب إليه فكتب عليه السلام يتصدّق بثمانين ديناراً فسألوه عن العلّة فقرأ هذه الآية وقال: «**عددنا تلك المواطن فبلغت ثمانين موطناً**».[1]

ومختصر قصّة حنين أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله لمّا فتح مكّة خرج معنا إلى حنين عن سنة ثمان من الهجرة، وقد اجتمع رؤساء هوازن إلى مالك بن عوف النضريّ، وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم، ونزلوا بأرطاس وكان دريد بن الصمة في القوم، وكان شيخاً كبيراً مطاعاً قد ذهب بصره من

١ـ انظر: تحف العقول، ص ٤٨١؛ وتهذيب الاحكام، الطوسي، ج ٨، ص ٣١٧.

الكبر فقال: بأيّ واد أنتم؟ قالوا: بأرطاس قال: نعم مجال الخيل لا حزن[1] ضرس ولا سهل وهن، ما لي أسمع رغاء البعير وخوار البقر ونهيق الحمير وشقاء الشاة وبكاء الصبيان؟ فقالوا: إنّ مالك بن عوف ساق مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ليقاتل كلّ منهم عن أهله وماله فقال دريد: راعي ضأن وربّ الكعبة. ثمّ قال: ائتوني بمالك فلمّا جاءه قال: يا أبا ملك إنّك أصبحت رائس قومك ردّ قومك إلى عليا بلادهم وألق الرجال على متون الخيل فإنّه لا ينفعك إلّا رجل بسيفه وفرسه فإن كانت لك لحق بك ما وراءك وإن كانت عليك لا تكون فضحت في أهلك وعيالك فقال له مالك: إنّك قد كبرت وذهب علمك وعقلك.

ثمّ عقد رسول الله اللواء الأكبر ودفعه إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وخرج بعد أن أقام بمكّة خمسة عشر يوماً، وبعث إلى صفوان بن اميّة فاستعار منه مائة درع فقال: صفوان: عارية أم غصب؟ فقال صلى الله عليه وآله: **«عارية مضمونة مؤدّاة»**. فأعاره وخرج صلى الله عليه وآله من مكّة في اثني عشر ألفاً.[2]

فبعث صلى الله عليه وآله رجلاً من أصحابه فانتهى إلى مالك بن عوف فسمعه وهو يقول لقومه: ليصيّر كلّ رجل منكم أهله وماله خلف ظهره واكسروا جفون سيوفكم واكمنوا في شعاب هذا الوادي وفي الشجر فإذا كان في الطليعة من الصبح فاحملوا حملة رجل واحد فهدّوا القوم فإنّ محمّداً لم يلق أحدا ممّن يحسن الحرب.

ولـمّا صلّى النبيّ صلى الله عليه وآله وأصحابه الغداة انحدر في وادي حنين فخرجت عليهم كتائب هوازن من كلّ ناحية فانهزمت بنو سليم وهم كانوا في المقدّمة

١ـ الحزن بالفتح فالسكون: الأرض الغليظة.

٢ـ الميزان، ج ٩، ص ٢٣١؛ وانظر: المبسوط، ج ٣، ص ٤٩.

من عسكر رسول الله، وكذلك انهزم ما وراءهم وخلّى الله بينهم وبين عدوّهم لإعجابهم بكثرتهم وبقي عليّ عليه السلام ومعه الراية يقاتلهم في نفر قليل، ومرّ المنهزمون برسول الله لا يلوون على شيء، وكان العبّاس عن يمينه وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب عن يساره ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث في تسعة من بني هاشم وعاشرهم أيمن بن امّ أيمن وقتل يومئذ وفي ذلك يقول العبّاس:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة ... وقد فرّ من قد فرّ عنه وأقشعوا

ولما رأى النبيّ هزيمة قومه أمر العبّاس أن يصوّت كما ذكرنا سابقاً فلمّا سمع المسلمون صوت العبّاس قالوا: لبّيك وتبادر الأنصار خاصّة وقاتلوا المشركين حتّى قال رسول الله: الآن قد حمي الوطيس ونزل النصر وانهزمت هوازن هزيمة قبيحة ومزّقوا في كلّ وجه، ولم يزل المسلمون في آثارهم وفرّ مالك بن عوف فدخل حصن الطائف وأغنم المسلمون أموالهم ونساءهم وأمر رسول الله بالذراري والأموال أن ينحدروا إلى الجعرّانة وولّى على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعيّ.

ومضى صلى الله عليه وآله في أثر القوم فوافى الطائف في طلب مالك فحاصر أهل الطائف بقيّة شوّال، فلمّا دخل ذو القعدة انصرف إلى الجعرّانة، وقسّم غنائم حنين وكان معه من بني هوازن ستّة آلاف من النساء والذراري، ومن الإبل والشاة ما لا يدرى عدّته.[1]

قال أبو سعيد الخدريّ: قسّم النبيّ صلى الله عليه وآله للمتألّفين من قريش ومن سائر العرب ما قسّم ولم يكن في الأنصار منها شيء لا قليل ولا كثير فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله أنّ هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٥.

قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء فقال ﷺ: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» فقال: ما أنا إلّا امرء من قومي، فقال ﷺ: «**اجمع لي قومك في هذه الحظيرة**» فجمعهم فخرج رسول اللّه وقام فيهم خطيباً فحمد اللّه وأثنى عليه، ثمّ قال: «**يا معاشر الأنصار أ ولم آتيكم ضلالاً فهداكم الله وعائلا فأغناكم الله وأعداء فألّف بين قلوبكم؟**» قالوا: بلى. ثمّ قال: «**ألا تجيبوني يا معاشر الأنصار؟**» فقالوا: وبما ذا نجيبك المنّ للّه ولرسوله؟ فقال رسول اللّه: «**لو شئتم لقلتم وصدقتم جئتنا طريداً فآويناك وعائلاً فأغنيناك وخائفاً وآمناك، ومخذولاً فنصرناك؟**» فقالوا: المنّ للّه ولرسوله.

ثمّ قال ﷺ: «**تألّفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى ما قسّم الله لكم من الإسلام أفلا ترضون يا معاشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فو الّذي نفسي بيده لو أنّ الناس سلكوا شعباً لسلكت شعب الأنصار ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار. اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**» فبكى القوم حتّى اخضلّت لحاهم وقالوا: قد رضينا باللّه قسما، ثمّ تفرّقوا وقد أمر النبيّ ﷺ منادياً ينادي يوم أرطاس: ألا لا توطأ الحبالى حتّى يضعن، ولا غير الحبالى حتّى يستبرئن بحيضة.[١]

ثمّ أقبلت وفود هوازن وقدمت على رسول اللّه مسلمين، فقام خطيبهم وقال: يا رسول اللّه من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك فلو أنّا ناكحنا ابن أبي السمراء أو النعمان بن المنذر ثمّ أصابنا مثل الّذي أصابنا منك رجونا عائدتهما، وأنت خير المكفولين ثمّ أنشد أبياتا فقال ﷺ: «**أيّ الأمرين أحبّ إليكم السبيّ أو الأموال؟**» قالوا: خيّرتنا بين الحبّ وبين الأموال والحبّ أحبّ إلينا ولا نتكلّم في الشاة والبعير فقال النبيّ: «**أمّا الّذي لبني هاشم فهو لكم**

١ـ انظر: بعض خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مجلس اهلاء في..

وسوف أكلّم المسلمين وأتشفع لكم فكلموهم وأظهروا إسلامكم»، فلمّا صلّى الرسول الهاجرة قام وتكلّم فقال: «**قد رددت الّذي لبني هاشم والّذي بيدي عليهم فمن أحبّ منكم أن يعطي غير مكره فليفعل ومن كره أن يعطي فليأخذ الفداء وعليّ فداؤهم فأعطى الناس ما في يدهم إلّا قليلاً من الناس سألوا الفداء**».[١]

وأرسل رسول الله إلى مالك بن عوف وقال: «**إن جئتني مسلماً رددت إليك أهلك ومالك ولك عندي مائة من الإبل**»، فخرج إليه من الطائف فردﷺ عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل واستعمله على من أسلم من قومه.[٢]

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

و«ثمّ» عطف على «أنزل سكينته» كما أنّ «ثمّ أنزل سكينته» عطف على «ثمّ ولّيتم مدبرين» كما أنّ «ثمّ ولّيتم» عطف على قوله: «ضاقت عليكم» أي يقبل الله توبة من تاب عن الشرك ورحيم بهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

النظم: لمّا نبذ العهد عليّ‌ؑ بأمر الرسول قال: أناس من أهل مكّة: يا أهل مكّة ستعلمون ما تلقونه من الشدّة لانقطاع السبيل وفقد الحمولات فنزلت الآية لإزالة الخوف.

المعنى: وصف «المشركون» بالمصدر بقوله «نجس» مبالغة في النجاسة أي: عين النجاسة أو هم ذو نجس لخبث كفرهم وشركهم، قال الزّمخشري:

١ـ بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٨٢؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٣٧.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٧.

عن ابن عبّاس: إنّ أعناقهم نجسة كالكلاب والخنازير ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: العام المشار إليه وهو السنة التاسعة الّذي نادى عليّ عليه السلام بالبراءة.

واختلفوا في أنّ المراد من المسجد الحرام هو نفس المسجد أو جميع الحرم؟ والأقوى جميع الحرم عند العامّة وأمّا عندنا الإماميّة فجميع المساجد، والّذين قالوا: المراد جميع الحرم قالوا: لقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾[1] مع أنّه قد أجمعوا على أنّه إنّما رفع من بيت أمّ هاني.

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ فقراً وحاجة بسبب انقطاع المتاجر بمنع المشركين أو أمر آخر ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ رحمة منه وفضلاً، قال قتادة: أسلم أهل نجدة وصنعاء وجرش في اليمن وحملوا الطعام إلى مكّة على ظهور الإبل والدوابّ وكفاهم اللّه ما كانوا يتخوّفون أو المراد: يغنيكم بإباحة الغنائم وأخذ الجزية من أهل الكتاب وبالمطر والنبات وإنّما علّقه بالمشيئة لأنّ اللّه قد علم أنّ منهم من يبقى إلى وقت فتح البلاد واقتناء الأموال من الأكاسرة فيتغنّى، ومنهم من لا يبقى إلى ذلك الوقت فلذا علّقه بالمشيئة. وهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمصالح و﴿حَكِيمٞ﴾ في أفعاله.

قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

لمّا ذكر حكم المشركين من إظهار البراءة عنهم ووجوب مقاتلتهم وتبعيدهم عن المسجد الحرام في الآيات السابقة شرع في بيان حكم

١ـ سورة الإسراء: ١.

الكافرين من أهل الكتاب وهو أن يقاتلوا إلى أن يعطوا الجزية، فحينئذ يقرّون على ما هم عليه وذلك إذا كانوا موصوفين بصفات:

الأولى: كونهم لا يؤمنون بتوحيد اللّه.

الصفة الثانية: أنّهم لا يقرّون بالبعث والحشر كما يقرّون المسلمون من القرآن قال الرّازيّ: المنقول عن اليهود والنصارى إنكار الحشر الجسمانيّ ويميلون إلى البعث الرّوحانيّ.

الصفة الثالثة: لا يحرّمون ما حرّم اللّه ورسوله في القرآن وسنّة الرسول بل لا يعملون بما في التوراة والإنجيل بل حرّفو هما وأتوا بأحكام كثيرة من قبل أنفسهم. وتحريف نعت محمّد في كتابهم وكتمان أمر نبوّته صلى الله عليه وآله وسلم.

الصفة الرابعة: أنّهم لا يدينون دين الحقّ أي دين اللّه ودين الحقّ عند اللّه الإسلام والمقصود تميز هؤلاء اليهود والنصارى حكمهم عن حكم المشركين لأنّ الواجب في المشركين الإسلام أو القتال والواجب في الموصوفين القتال أو الإسلام أو الجزية، وهذا حكمهم دون المشركون «والجزية» مشتقّ من جزى دينه أي: قضاه أو لأنّهم يجزون بها من منّ عليهم بالإعفاء عن القتل.

﴿عَن يَدٍ﴾ أي: حال الإعطاء يكون المعطي منقاداً طائعاً مستصغراً بيدهم لا بيد غيرهم بأن يكونوا حال الإعطاء أذلّاء ماشياً غير راكب ويسلّمها وهو قائم ويتسلّمها الآخذ وهو قاعد ويؤخذ بتلبيبه ولحيته ويقال له: أدّ الجزية وإن كان يؤدّيها ويرجّ في قفاه.

والمجوس حكمهم حكم أهل الكتاب في إعطاء الجزية لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: **«سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب».**[1] قال عليّ عليه السلام: **«إنّه كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا**

١ـ المبسوط، ج ٧، ص ١٥٦؛ وبحار الأنوار، ج ١٤، ص ٤٦٣.

وقد أسري على كتابهم فرفع من بين أظهرهم».[١] لكن اتّفقوا على تحريم ذبائحهم ومناكحهم لقوله ﷺ في آخر ما نقل من الحديث: **«غير ناكحي نسائهم وآكلي ذبائحهم».**

وفي «الكافي» عن الصادق أنّه سئل عن المجوس أ كان لهم نبي؟ فقال: **«نعم، أما بلغك كتاب رسول الله إلى أهل مكّة أن أسلموا وإلّا فأذنوا بحرب من الله. فكتبوا إلى رسول الله أن نعم خذ منّا الجزية ودعنا على عبادة الأصنام فكتب إليهم: أنّي لست آخذ الجزية إلّا من أهل الكتاب فكتبوا إليه ــ يريدون بذلك تكذيبه ــ زعمت أنّك لا تأخذ الجزية إلّا من أهل الكتاب، ثمّ أخذت من مجوس هجر؟ فكتب إليهم النبي ﷺ: إنّ المجوس كان لهم نبيّ فقتلوه وكتاب فاحترقوه أتاهم نبيّهم بكتابها في اثني عشر ألف جلد نور».**[٢]

في «الفقيه» و«التهذيب» و«العلل» عنه عليه السلام أنّه سئل عن النساء كيف سقطت الجزية عنهن؟ فقال: **«لأنّ رسول الله نهى عن قتال النساء والولدان في دار الحرب إلّا أن تقاتل وإن قاتلت فأمسك عنها ما أمكنك فلمّا نهى عن قتلهنّ في دار الحرب كان ذلك في دار الإسلام أولى»**[٣] إلى آخر الحديث.

وفي «الكافي» و«الفقيه» عنه عليه السلام: **«جرت السنّة أنّه لا يؤخذ الجزية من المعتوه ولا من المغلوب على عقله»**[٤]، ومقدار الجزية وحدّها سئل عنه عليه السلام فقال: **«ذلك إلى الإمام يأخذ منهم ما شاء على قدر ماله ما يطيق ويؤخذ منهم على قدر ما يطيقون»**[٥]، وإنّما قيّد بالاستصغار ليتألّم بالاستصغار فيسلم.

١ــ عود المعبود، عظيم آبادي، ج ٨، ص ٢٠٦.

٢ــ كافي، ج ٣، ص ٥٦٧.

٣ــ تهذيب الاحكام، ج ٦، ص ١٥٦؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٢؛ وعلل الشرايع، ج ٢، ص ٣٧٦.

٤ــ من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٢؛ والكافي، ج٣، ص ٥٦٧.

٥ــ انظر: رياض المسائل، ج ٧، ص ٤٧٤؛ وفقه الصادق، ج ١٣، ص ٦١.

وقال أنس بن مالك: قسّم رسول اللهﷺ على كلّ بالغ ديناراً وقسّم عمر على فقراء أهل الذمّة اثني عشر درهماً وعلى الأوساط أربعة وعشرين درهماً وعلى الأغنياء أربعة دنانير في السنة. وهذا الإمهال لأجل أن يقف على محاسن الإسلام ويرى ذلّة الاستصغار بالكفر فينتقل منه إلى دار الإسلام.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾

لمّا بيّن في الآية السابقة أنّ اليهود والنصارى بأنّهم لا يؤمنون بالله شرح في هذه الآية بيان كفرهم بأنّهم أثبتوا لله ابناً ومن جوّز ذلك في حقّ الإله فهو في الحقيقة أنكر الإله وهو داخل في الشرك مع المشركين، ولا فرق بين من يعبد الصنم ومن يعبد المسيح وغيره لأنّه لا معنى للشرك إلّا أن يتّخذ الإنسان مع الله معبوداً بل إنّ كفر عابد الوثن أخفّ من كفر النصارى لأنّ عابد الوثن لا يقول: إن هذا الوثن خالق العالم واله العالم بل يتوسّل به إلى طاعة الله.

وأمّا النصارى فإنّهم يثبتون الحلول والاتّحاد وذلك كفر قبيح جدّاً. وإنّما خصّهم بقبول الجزية لأنّهم نسبوا أنفسهم إلى الكتابين ونسبوا أنفسهم بهذين الرسولين الجليلين فلأجل نسبتهم ورجاء رجوع البعض في مدّة الجزية حكم الله لهم في هذا الأمر.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ قال ابن عبّاس في رواية سعيد بن جبير وعكرمة: أتى جماعة من اليهود إلى رسول اللهﷺ، وهم سلام بن مشكم والنعمان بن أوفى ومالك بن الصيف وغيرهم قالوا: كيف نتّبعك وقد تركت قبلتنا، ولا تزعم أنّ عزيراً ابن الله؟ فنزلت هذه الآية.

وقيل: قال هذا القول رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازورا

وتبعه آخرون. والصحيح أنّه كان هذا المذهب فاشياً فيهم، ثمّ لعلّ انقطع فحكى اللّه عنهم ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك لأنّ حكاية اللّه عنهم أصدق.

والسبب الّذي لأجله قالوا هذا القول ما رواه ابن عبّاس أنّ اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحقّ فأنساهم اللّه التوراة ونسخها عن صدورهم أو أنّ بخت نصّر أحرق التوراة فتضرّع عزير إلى اللّه فنزله جبرئيل فعاد حفظ التوراة إلى قلبه، فأنذر قومه فلمّا وجدوه صادقاً فيه قالوا: ما تيسّر لعزير إلّا أنّه ابن اللّه. قال السدّيّ: قتل العمالقة علماءهم فلم يبق أحد يعرف التوراة. وقيل: فقدت نسخ التوراة غير نسخة واحدة كانت مدفونة في البيت المقدّس أخرجها عزير. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ السبب فيه أنّه وقع حرب بين أتباع عيسى واليهود وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس قتل جمعا كثيراً من أصحاب عيسى ثمّ قال: إن كان الحقّ مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا ونحن مغبونون إن دخلوا الجنّة ودخلنا النار وإنّي أحتال فاضلّهم فعرقب فرسه وأظهر الندامة ممّا كان يصنع ووضع التراب على رأسه وقال: نوديت من السماء يا بولس ليس لك توبة إلّا أن تتنصّر وقد تبت وتنصّرت فأدخله النصارى في الكنيسة ومكث سنة لا يخرج وتعلّم الإنجيل فصدّقوه وأحبّوه غاية.

ثمّ مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم في الكنيسة رجلاً اسمه نسطور وعلّمه أنّ عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة، وتوجّه إلى الروم وعلّمهم اللاهوت والناسوت وقال: ما كان عيسى إنساناً ولا جسماً ولكنّه اللّه وعلّم رجلاً آخر يقال له يعقوب ذلك، ثمّ دعا رجلاً آخر يقال له ملكاً فقال له: إنّ الإله لم يزل ولا يزال عيسى، ثمّ دعا لهؤلاء الثلاثة وقال لكلّ واحد منهم: أنت خليفتي فادع الناس إلى إنجيلك ولقد رأيت عيسى في المنام ورضي عنّي

وأني غداً أذبح نفسي فداء لعيسى، ثمّ دخل في الغد المذبح وذبح نفسه.

ثمّ دعا كلّ واحد من هؤلاء الثلاثة الناس إلى قوله ومذهبه وصار هذا الأمر السبب في وقوع هذا الكفر في طوائف النصارى، هذا ما حكاه الرازيّ عن الواحديّ.

وقال الرازيّ في المفاتيح: لعلّ ورود لفظ الابن في الإنجيل على سبيل التشريف كما ورد لفظ الخليل في حقّ إبراهيم على سبيل التشريف، ثمّ إنّ النصارى لأجل عداوة اليهود ولأجل أن يقابلوا غلوّهم الفاسد في أحد الطرفين بغلوّ فاسد في الطرف الثاني فبالغوا وفسّروا لفظ الابن ببنوّة الحقيقيّة والجهّال قبلوا ذلك، وفشى هذا المذهب الفاسد في أتباع عيسى والله العالم.

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يقولون هؤلاء هذه الأقاويل الفاسدة بأفواههم فلو قيل كلّ قول يقال بالفم فما معناه؟ المراد أنّ هذا القول ما هو إلّا قول متفوّه به فارغ عن المعنى من غير تعقّل وتدبّر:

كلامك يا هـذا كبنـدق فـارغ خلّي من المعنى ولكن يقلقل

قوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قرئ بالهمزة وبغير الهمزة. «المضاهاة» المشابهة مشتقّ من قولهم: «امرأة ضيهاء وهي الّتي لا تنبت لها ثدي» أي يشابه هذا القول قول المشركين قبلهم حيث قالوا: الملائكة بنات الله، أو قول اليهود: عزير ابن الله. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ قال ابن عبّاس: أي: لعنهم الله، لأنّ من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك. كيف يصرفون عن الحقّ إلى الإفك والكذب؟ أي أيّ داع لهذا القول الفاسد؟

ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ

إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

شرح سبحانه في هذه الآية بضرب آخر من شركهم قال ابن السكّيت: «حبر» و«حبر» يقال للعالم ذمّيّاً كان أو مسلماً بشرط أن يكون من أهل الكتاب، ولكن في عرف الاستعمال صار الأحبار مختصاً بعلماء اليهود من ولد هارون والرهبان بعلماء النصارى من أصحاب الصومعة.

والأكثرون من المفسّرين قالوا: ليس المراد من اتّخاذهم أرباباً أنّهم اعتقدوا أنّهم آلهة العالم، بل المراد أنّهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم. نقل أنّ عديَ بن حاتم كان نصرانيّاً فانتهى إلى رسول الله وهو يقرء سورة براءة فوصل إلى هذه الآية قال عديّ: لسنا نعبدهم فقال: أليس يحرّمون ما أحلّ الله فيحرّمونه ويحلّلون ما حرّم الله فيستحلّونه؟ فقال: بلى قال: فتلك عبادتهم.

قال الربيع لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبيّة من الأحبار في بني إسرائيل؟ فقال: ربّما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبانيّة فكانوا يأخذون بأقوالهم وما كانوا يقبلون كتاب الله.

أقول: وهذا الداء قد سرى في عروق بعض من الحمقاء من أهل الدنيا في زماننا فإنّهم يعظّمون شيخهم وقدوتهم، وقد يكون يميل طبع الشيخ إلى الاتّحاد والحلول ويميل طباعهم إلى الشيخ وذلك الشيخ الخبيث يلقي إليهم أنّ الأمر كذلك ولعلّ يأمر أتباعه بأن يسجدوا له ويقول لهم: أنتم عبيدي وقد يكون في الخلوة يدّعي الحلول والإلهيّة مع أصحابه.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾

بيان نوع آخر من قبائح اليهود والنصارى وهو سعيهم في إبطال أمر محمّدﷺ المراد من النور القرآن وعلائم خاتميّته مع أنّهﷺ ليس له إلى

غير اللّه حاجة وما غيّر طريقته في استحقار الدنيا وعدم الالتفات إليها إلى آخر عمره فكانوا قد قصدوا إبطال نبوّته كمن يريد إبطال نور الشمس بسبب أن ينفخ فيها وهذا هو المراد من الآية.

ثمّ إنّه تعالى وعده بالنصر وإعلاء الكلمة فقال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ومعنى «يأبى» في الآية جار مجرى: لم يرد.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

أرسل محمّداً ﷺ وحمّله الرسالات الّتي يؤدّيها إلى الخلق بالحجج والبيّنات والقرآن وبدين الحقّ وهو الإسلام لأنّ كلّ دين باطل ومنسوخ بدينه وأرسله ليعلي الإسلام على الأديان بالحجّة أو الغلبة، أمّا الغلبة بالحجّة فمعلوم لأنّ كتابه أحكم كلّ كتاب وأحسن كلّ طريقة.

وأما ظهوره بالغلبة والقهر فإنّه ما حصل بعد وإن كان كلّ طائفة من المسلمين قد غلبوا على ناحية من نواحي أهل الشرك ولُحق أكثرهم قهر من جهة المسلمين إلّا أنّه لم يحصل كاملاً وما غلب لسائر الأديان مثل أرض الهند والصين والروم وسائر أراضي الكفر، لكن وعد اللّه من اللّه أن يجعل ذلك.

قال أبو جعفر عليه السلام: **«إنّ ذلك يكون عند خروج المهديّ من آل محمّد عليهم السلام فلا يبقى أحد إلّا أقرّ بمحمّد وهو قول السدّيّ»**.[1]

وقال الكلبيّ: لا يبقى دين إلّا ظهر عليه الإسلام وسيكون بعد ذلك ولا تقوم الساعة حتّى يكون.

قال المقداد: سمعت رسول اللّه يقول: **«لا يبقى على ظهر الأرض بيت**

١ـ مجمع البيان، ج ٥ ص ٤٥؛ وانظر: بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٣٤٦.

مدر ولا وبر إلّا أدخله الله كلمة الإسلام إمّا بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل» أي: إمّا طوعا أو كرها يدينون له.[1] وقيل: إنّ ضمير الهاء في «ليظهره» راجع إلى الرسول أي: ليوقفه ويعلّمه جميع الأديان وهذا بعيد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

لمّا وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبّر والربوبيّة وصفهم في هذه الآية بالطمع والحرص وقيّد بقوله: «كثيراً» ليدلّ على أنّ هذه الطريقة طريقة بعضهم لا طريقة الكلّ وعبّر بالأكل لأنّ المقصود الأعظم من جمع المال هو الأكل، فسمّى الشيء باسم ما هو أعظم المقصود، ومن أكل الشيء فقد ضمّه إلى نفسه ويمتنع الوصول لغيره إليه، فإذا طولب بردّه قال: أكلته فلا أقدر على ردّه فلهذا السبب سمّي الأخذ بالأكل.

وقوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: إنّهم كانوا يأخذون الرشا بالتحريفات وتخفيف الأحكام وكانوا يدّعون عند العوامّ أنّه لا سبيل إلى مرضاة الله إلّا بخدمتهم وإطاعتهم وبذل الأموال في مرضاتهم، وآيات كانت في التوراة والإنجيل دالّة على مبعث محمّدﷺ فكانوا هؤلاء يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة، وكانوا يقرّون عند عوامّهم أنّ الدين الحقّ هو الّذي هم عليه وبهذا الطريق يكتسبون أموالاً خطيرة فهذا هو باطل المراد في الآية.

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٥.

ثمّ قال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأنهم بهذه الأمور منعوا الناس عن قبول الإسلام لأنّهم إذا أقرّوا بمحمّد بطل حكمهم ومقاصدهم.

ثمّ قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد بهم هو الأحبار والرهبان ويحتمل أن يكون جملة مستأنفة أي: الّذين يجمعون المال ولا يؤدّون زكاتها فقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله كلّ مال لم تؤدّ زكاته فهو كنز وإن كان المال ظاهراً وغير مدفون، وكلّ مال أدّيت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض[1]، قال ابن عباس والحسن والشعبيّ والسدّيّ.[2] قال الجبائيّ: وهو إجماع.[3] ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ وأخبرهم بعذاب أليم.

وروي عن أمير المؤمنين: ما زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز أدّى زكاته أم لم يؤدّ وما دونها فهو نفقة.[4] ومعنى الحديث أنّ هذا المقدار من المال يصدق عليه الكنز وليس معناه أنّ هذا المقدار من المال يجب عليه الزكاة وما دونه لا يجب، المراد مانعو الزكاة.

روى سالم بن أبي الجعد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا نزلت هذه الآية قال: **«تبّاً للذهب تبّاً للفضّة»**. يكرّرها ثلاثاً فشقّ ذلك على أصحابه فسأله عمر يا رسول الله أيّ المال نتّخذه؟

فقال صلى الله عليه وآله: **«لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه»**.[5]

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: يوقد على الكنوز أو على الذهب والفضّة حتّى تصير ناراً فتكوى بتلك الكنوز المحماة والأموال الّتي

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٧.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٤٣؛ والتبيان ج ٥، ص ٢١٢.

٥ـ مستدرك الوسائل، ج ١٤، ص ١٧٠؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٤٧.

منعوا حقوق اللّه فيها بأعيانها جباههم وجنوبهم وظهورهم وإنّما خصّ هذه الأعضاء لأنّها معظم البدن. وكان أبو ذرّ الغفاريّ يقول: بشّر الكافرين أو قال: بشّر الكفّارين بكيّ في الجباه وكيّ في الجنوب وكيّ في الظهور حتّى يلتقى الجمر في أجوافهم والمراد الّذين لم يؤدّوا الزكاة. ولعلّ السبب باختصاص المواضع للكيّ لأنّ صاحب المال إذا رأى الفقير قبض جبهته وزوي ما بين عينيه وطوى عنه كشحه وولّاه ظهره، عن أبي الورّاق.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: يقال له في حال الكيّ: هذا جزاء ما كنزتم ولم تؤدّوا حقوق اللّه فيها وجعلتموها ذخيرة لأنفسكم فذوقوا العذاب بسبب كنزكم.

قال النبيّ: «**ما من عبد له مال لا يؤدّي زكاته إلّا جمع يوم القيامة صفائح يحمى عليها في نار جهنّم فتكوى بها جبهته وجنباه وظهره حتّى يقضي اللّه بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ممّا تعدّون، ثمّ يرى سبيله إمّا في الجنّة وإمّا في النّار أورده مسلم بن الحجّاج في الصحيح**».

وروى ثوبان عن النبيّ ﷺ قال: «**من ترك كنزاً مثّل له شجاعاً أقرع له زبنتان يتبعه فيقول له: ويلك ما أنت؟ فيقول: أنا كنزك الّذي تركت بعدك فلا يزال يتبعه حتّى يلقمه يده فيقضمها، ثمّ يتبعه سائر جسده**».[١]

قال القاضي عبد الجبّار: تخصيص الآية بمنع الزكاة لا سبيل إليه، بل الواجب أن يقال: الكنز هو المال الّذي ما اخرج عنه ما وجب إخراجه عنه، ولا فرق بين الزكاة وبين ما وجب إخراجه من المال من الكفّارات ونفقة الحجّ وبين ما يجب إخراجه في الدين والحقوق والأنفال الواجب وضمان المتلفات وأروش الجنايات، ويجب في كلّ هذه الأقسام أن يكون داخلاً في الوعيد والحكم.

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٤٨.

وفصّل بعض بأنّ الرّجل إذا جمع مالا ولم يؤدّ زكاته فحكمه الكيّ وما بقي فالمنع عن الجمع المال الكثير، وما ورد في بعض الأخبار أنّهﷺ لمّا مات رجل ووجد في مأزره دينار قالﷺ: «كيه» محمول على التقوى، وإنّ اللّه خلق الأموال ليتوسّل بها إلى دفع الحاجات فإذا حصل للإنسان قدر ما يدفع به حاجته ثمّ جمع الأموال الزائدة عليه فهو لا ينتفع بها لأنّها زائدة عن قدر حاجته ومنعها من الغير الّذي يمكن أن يدفع حاجته فكان هذا الإنسان بهذا المنع مانعاً عن ظهور حكمته ومانعاً عن وصول إحسان اللّه إلى عبيده، ثمّ إذا كثر ماله اشتدّ حرصه على الأكثر فيلتهي دائماً إلى جمعه وحفظه ويكثر ميله وحبّه يوماً فيوماً لأنّ المال اشتقاقه من الميل فلا جرم صار هذا الميل مانعاً عن تحصيل امور الآخرة، وليس المراد من حبّ الدنيا إلّا هذا وهو رأس كلّ خطيئة.

ويجب على العاقل أن يحترز عن الإضرار بالنفس فضلاً عن الغير على أنّ كثرة المال يوجب كثرة الطغيان قال اللّه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾[1] هذا كلّه في المال الّذي أدّى زكاته وإلّا «فالكي» قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ فالتأنيث باعتبار الفضّة وذكر واحد منهما مغن عن الآخر كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾[2].

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٦)

من قبائح أفعال اليهود والمشركين إقدامهم على السعي في تغيير بعض

١ـ سورة العلق: ٦ ـ ٧.

٢ـ سورة الجمعه: ١١.

أحكام اللّه وهو زيادة في الكفر وبيانه أنّ السنة عند العرب عبارة عن اثني عشر شهراً من الشهور القمريّة والدليل عليه هذه الآية وهي: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.(١)

وذلك إنّما يصحّ إذا كانت السنة معلّقة بسير القمر. وعند سائر الطوائف السنة عبارة عن المدّة الّتي تدور الشمس فيها دورة تامّة، والسنة القمريّة أقلّ من السنة الشمسيّة بمقدار معلوم، وبسبب ذلك النقصان ينتقل الشهور القمريّة من فصل إلى فصل فيكون الحجّ والموسم واقعاً في الشتاء مرّة وفي الصيف مرّة، وكان يشقّ عليهم ذلك بهذا السبب.

وأيضاً إذا حضروا الحجّ حضروا للتجارة فربّما كان ذلك الوقت غير موافق لحضور التجارات من الأطراف، وكان يخلّ أسباب تجاراتهم بهذا السبب فلهذا أقدموا على عمل الكبيسة واعتبروا السنة الشمسيّة، وعند ذلك بقي وقت الحجّ مختصّاً بوقت واحد موافقاً لمصلحتهم التجاريّة فهذا التأخير والنسيء وإن كان أصلح لتجارتهم ودنياهم إلّا أنّه لزم تغيّر حكم اللّه منه لأنّه تعالى خصّ الحجّ بأشهر معلومة، وكذلك يقع النسيء في سائر الشهور بتغيير حكم اللّه.

ثمّ إنّ السنة الشمسيّة لمّا كانت زائدة على السنة القمريّة جمعوا تلك الزيادة فإذا بلغ مقدارها إلى شهر جعلوا تلك السنة ثلاثة عشر شهراً فأنكر اللّه ذلك عليهم فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ لا أزيد ولا أقلّ، وكان طريقة العرب من الزمان الأوّل أن يكون السنة قمريّة وتوارثوه عن إبراهيم وإسماعيل. وأمّا عند النصارى واليهود السنة شمسيّة، ثمّ إنّ العرب تعلّم منهم وظهر في بلاد العرب.

﴿عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ اسم «إنّ» مبتدأ «اثنا عشر» خبر. و«عند اللّه» و«في

١ـ سورة يونس: ٥.

كِتابِ اللَّهِ» و«يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ» ظروف أي: ذلك العدد واجب متقرّر في كتاب اللّه وعلمه من أوّل ما خلق اللّه العالم. والمراد من كتاب اللّه قيل: «اللوح» أو المراد القرآن، أو المراد في حكم اللّه ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ من هذه الاثني عشر. ومعنى «حرم» أي: يعظَم انتهاك المحارم فيها أكثر من بعض لانطفاء النائرة وانكسار الحميّة. وشهور السنة المحرّم سمّي بذلك لتحريم القتال فيه و«صفر» لأنّ مكّة تصفرَ من الناس فيه أو وقع وباء عظيم فيه فصفرت وجوههم.

قال أبو عبيدة: لأنّه صفرت وطابهم عن اللبس وشهراً «ربيع» لإنبات الأرض فيهما أو ارتباع القوم وإقامتهم فيهما و«جماديتان» لجمود الماء فيهما.

أقول: ارتباع القوم أنسب في التسمية من إنبات الأرض فيهما بل لا مناسبة بين إنبات الأرض فيهما وجمود الماء في الجماديين لأنّ انجماد الماء لا يكون بعد الربيع بلا فاصلة بل بين الفصلين الخريف وهو ثلاثة أشهر لأنّ الماء لا ينجمد إلّا في الشتاء «فرجب» سمّي بذلك لأنّهم كانوا يعظّمونه أو لترك القتال فيه من قولهم: رجل أرجب أي: أقطع لا يمكنه العمل.

روي عن النبيّ ﷺ: **«أنّ في الجنّة نهراً يقال له رجب، ماؤه أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من العسل من صام يوماً من رجب شرب منه».**[1] و«شعبان» لتشعّب القبائل فيه.

وروى زياد بن ميمون أنّ النبيّ ﷺ قال: **«سمّي شعبان لأنّه يتشعّب فيه خير كثير».**[2] و«رمضان» لأنّه يرمض الذنوب أو لشدّة الحرّ أو رمضان من أسماء اللّه، و«شوّال» لأنّ القبائل تشول وتبرج عن أمكنتها، أو لشولان النوق أذناً بها فيه.

١ـ المقنعة، للمفيد، ص ٣٧٢.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج ٥، ص ٥١، مستدرك الوسائل، ج ٧، ص ٤٨٤.

و«ذو القعدة» لقعودهم عن القتال فيه. و«ذو الحجة» لقضاء الحجّ فيه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك الحساب المستقيم الصحيح والطريقة المشروعة لا ما كانت العرب تفعله من النسيء، وسمّي الحساب ديناً لوجوب الدوام عليه ولزومه كلزوم الدين والعبادة، ومنه قوله: الكيّس من دان نفسه أي: حاسبها. قال القاضي: حمل الدين على العبادة أولى من حمله على الحساب.

فإن قيل: أجزاء الزمان متشابهة فما السبب في التخصيص في هذه الأربعة؟ فالجواب أنّ هذا المعنى غير مستبعد في الشرائع وأمثلته كثيرة كما ميّز البلد الحرام عن سائر البلاد، والجمعة عن سائر الأيّام وليلة القدر عن سائر الليالي.

ثمّ قال: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ واختلفوا في الضمير في قوله: «فيهن» قال ابن عبّاس: يرجع إلى «الاثنا عشر» يقول في الآية: المنع من الإقدام على الفساد مطلقاً في جميع العمر. وقال أكثر المفسّرين: إنّ الضمير عائد إلى «الأربعة» وقد قرّرنا أنّ لبعض الأوقات أثراً خاصّاً في الثواب والعقاب والطاعة والمعصية، قال الفرّاء: العرب تقول فيما بين الثلاثة إلى العشرة «فيهن» فإذا جاوز العدد تقول «فيها». وفي تفسير هذا الظلم أقوال قيل: المراد منه النسيء الّذي يعملونه فينقلون الحجّ من الشهر الّذي أمر اللّه بإقامته إلى الشهر الآخر ويغيّرون حكم اللّه. وقيل: إنّه تعالى نهى عن المقاتلة في هذه الأربعة وهم غيّروا الشهر.

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ أي: قاتلوهم جميعاً مؤتلفين غير مختلفين ﴿كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ مجتمعين ولا تمسكوا منهم بعهد ولا ذمّة إلّا من كان من أهل الجزية وقيل: معناه قاتلوهم خلفاً بعد سلف كما أنّه يخلف بعضهم بعضاً في قتالكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالنصرة والولاية.

إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا

وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

قرئ «النسيّ» بالتشديد من غير همزة وقرئ «النسيء» مخففاً في وزن الهدى و«النسيء» بالمدّ والهمزة. اللغة: نسأت الإبل في ضمئها يوماً أو يومين أخّرتها عنه فالمعنى أنّ الإنساء والتأخير في شهر يجب حرمته إلى شهر ليست له حرمة سبب ازدياد في الكفر، والسبب فيه أنّ العرب كانت أصحاب غارات وحروب فشقّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها وقالوا: إن توالت ثلاثة أشهر حرم لا نصيب فيها شيئاً لنهلكنّ فلهذا كانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر فيحرّمون الصفر ويستحلّون المحرّم. وهذا التأخير ما كان يختصّ بشهر واحد بل كان حاصلاً في كلّ الشهور قال الكلبيّ: أوّل من فعل ذلك نعيم بن ثعلبة بن كنانة وكان إذا همّ الناس بالصدور من الموسم يقوم خطيباً ويقول: لا مردّ لما قضيت وأنا الّذي لا أعاب ولا أجاب فيقول المشركون: لبّيك ثمّ يسألونه أن ينسئهم شهراً يغيرون فيه فيقول: إنّ صفر العامّ حرام فإذا قال ذلك حلّوا الأوتار من القسيّ ونزعوا الأسنّة والأزجّه، وإن قال: حلال عقدوا الأوتار وأغاروا.

وقيل: أوّل من وضع ذلك جنادة بن عوف الكنانيّ. وقيل: رجل من كنانة يقال له القلمسيّ. وقال ابن عبّاس: أوّل من وضع وسنّ النسيء عمرو بن لحيّ بن قمعة بن خندف.

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرئ بفتح الياء وبضمّ الياء بناء على إسناد الإضلال إلى رؤسائهم الّذين اخترعوا هذا الأمر، أو هم ضالّين بسبب النسيء ويضلّون لغيرهم.

قال مجاهد: كان يقول الرئيس: إنّي قد نسأت المحرّم العام وهما العام

صفران فإذا كان العام القابل قضينا فجعلناهما محرّمين، وكانوا يحجّون في كلّ شهر عامين فحجّوا في ذي الحجّة عامين ثمّ حجّوا في المحرّم عامين ثمّ حجّوا في صفر عامين وكذلك في الشهور حتّى وافقت الحجّة الّتي قبل حجّة الوداع في ذي القعدة ثمّ حجّ النبيّ ﷺ في العام القابل حجّة الوداع فوافقت في ذي الحجّة فذلك حين قال النبيّ ﷺ وذكر في خطبته: «**ألا وإنّ الزمان قد استدار كهيئة** ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾»[1] أراد ﷺ بذلك أنّ الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها وعاد الحجّ إلى ذي الحجّة وبطل النسيء. ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: فعلوا هذا الأمر أحلّوا الحرام وحرّموا الحلال ليكون موافقاً لمقصودهم زيّن لهم هذا العمل السوء وزيّنت لهم أنفسهم سوء هذا العمل بميلهم وهواهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولا يرشد الكفور العنود.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

سبب النزول: نزلت في غزوة تبوك، وذلك لأنّه ﷺ لمّا رجع من الطائف أقام بالمدينة وامر بجهاد الروم، وكان ذلك الوقت زمان شدّة الحرّ وطابت ثمار المدينة وأينعت واستعظموا غزو الروم وهابوه فنزلت الآية وعاتب الله المؤمنين على التثاقل عن الجهاد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

١ـ الخصال، ص ٤٨٧؛ وتحف العقول، ص ٣٢.

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾ وأمركم النبيّ بأن اخرجوا إلى الجهاد تباطئتم وتثاقلتم. و«النفر» في اللغة الخروج إلى الشيء لأمر هيّج عليه ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ وملتم إلى الإقامة في الأرض الّتي أنتم فيها.

قال الجبّائي: هذا التثاقل من بعض المؤمنين لا كلّهم ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ وآثرتم الفانية على الباقية؟ فما فوائد الدنيا بالنسبة إلى فوائد الآخرة إلّا قليل. ثمّ بيّن سبحانه مفاسد التثاقل بأن قال: إن لا تخرجوا إلى الجهاد الّذي أمركم الرسول يعذّبكم الله عذاباً مولماً في الآخرة، وقيل: في الدنيا. قال ابن عبّاس: لمّا تثاقلوا أمسك الله المطر عنهم.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ واختلف المفسّرون أنّ المراد من الغير منهم، قيل: هم أهل اليمن. وقال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس. وقيل: هم الّذين أسلموا بعد.

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

لمّا هدّدهم في الآية السابقة بسبب التثاقل بيّن في هذه الآية إن تركتم النصرة للرسول لم يضرّه ذلك شيئاً كما لم يضرّه قلّة ناصريه حين كان بمكّة وهمّ به الكفّار فتولّى الله نصرته ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكّة فخرج منها يريد المدينة. «ثاني اثنين» نصب على الحال أي: وهو أحد اثنين وصاحبه أيضاً أحد اثنين، تعني به أبا بكر وليس معهما ثالث والعرب يقول: هذا ثاني اثنين وهذا ثالث ثلاثة ورابع أربعة وخامس خمسة، يعني أحد اثنين

وأحد ثلاثة وأحد أربعة وأحد خمسة، كما تقول العرب أيضاً: هو ثالث اثنين ورابع ثلاثة وخامس أربعة. والمراد أنّه‌ﷺ كان وأبو بكر وليس معهما ثالث والغار غار ثور و«ثور» اسم جبل بمكّة ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ بدل من قوله «إذ أخرجه» جعل أحد الزمانين في موضع الآخر لتقاربها.

وحاصل معنى الآية ترغيب الناس بالجهاد بأنّ إن لم تنفروا باستنفاره فإنّ اللّه نصره حال ما لم يكن معه إلّا رجل واحد فخرج‌ﷺ مضطراً أول الليل إلى الغار وبعث اللّه حمامتين فباضتا في أسفله، والعنكبوت نسجت عليه فلمّا جاء سراقة بن مالك في طلبهما إلى الغار فرأى بيض الحمام وبيت العنكبوت، قال: لو دخله أحد لأنكر البيض وتفسّخ بيت العنكبوت فانصرف وقال النبي‌ﷺ: «**اللّهم أعم أبصارهم**» وجعلوا يضربون يميناً وشمالاً حول الغار.[١]

وروى عليّ بن إبراهيم بن هاشم قال: كان رجل من خزاعة فيهم يقال له أبو كرز فما زال يقفو أثر رسول اللّه حتّى وقف باب الحجر، فقال: هذه قدم محمّد‌ﷺ هي واللّه وهذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه وما جاوزوا هذا المكان إن صعدوا إلى السماء أو دخلوا في الأرض. وجاء فارس من الملائكة في صورة الإنس فوقف على باب الغار وهو يقول: اطلبوا في هذا الشعاب.[٢]

ونزل رجل من قريش فبال على باب الغار فقال أبو بكر: قد أبصرونا يا رسول اللّه. قال‌ﷺ: «**لو أبصرونا ما استقبلونا بعوراتهم**».[٣]

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: ألقى على قلب محمّد ما سكن به، وعلم أنّهم غير واصلين إليه وقوّاه بملائكة يمنعون أبصارهم عن أن يروه.

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٥٧؛ وبحار الأنوار، ج ١٩، ص ٣٣.

٢ـ تفسير القمي، ج ١، ص ٢٧٦.

٣ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٥٧.

وقيل: المراد في تأييد الملائكة يوم بدر، والمناسبة أنّ التأييد وقع في هذا المكان بصرف أعدائه عنه.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ﴾ الكفّار السفلى نازلة دنيئة وكلمة الله هي المرتفعة المنصورة. وكلمتهم الشرك وكلمة الله هي كلمة التوحيد وهي لا إله إلّا الله. والله غالب على أمره وانتقامه من أهل الشرك ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره.

ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

لمّا توعّد في الآية السابقة من لا ينفر أكّد في هذه الآية بهذا الأمر فقال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ وهذا الأمر يدخل فيه امور ذكروها أي: خفافاً في النفور وثقالاً يعني شباباً وشيوخاً نشّاطاً أو غير نشّاط مشاغيل أو غير مشاغيل أغنياء أو فقراء. وقيل: الخفاف أهل العسرة وقلّة العيال وبالثقال أهل الميسرة والحاشية والعيال.

وقيل: ركباناً ومشاة. وقيل: ذا ضيعة أو غير ذي ضيعة، عن ابن زيد. وقيل: عزّاباً أو متأهّلين أو خفافاً من السلاح أو ثقالاً منه فعلى هذا ظاهر الأعمّ جميع الرجال. وعن ابن امّ مكتوم أنّه قال لرسول الله: أ عليّ أن أنفر قال ﷺ: «**ما أنت إلّا خفيف أو ثقيل**». فرجع إلى أهله ولبس سلاحه ووقف

بين يديه فنزل: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ ﴾.[1]

وعن صفوان بن عمرو قال: كنت والياً على حمّص فلقيت شيخاً قد سقط حاجباه على عينيه وهو على راحلته يريد الغزو فقلت: يا عمّ أنت معذور عند الله فرفع حاجبيه بيده عن عينه، وقال: استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ألا إنّ من أحبّه الله ابتلاه. وعن الزهريّ: خرج سعيد بن المسيّب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنّك عليل صاحب ضرر فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل فإن عجزت عن الجهاد كثّرت السواد وحفظت المتاع.

وقيل: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾[2] قال السديّ: لمّا نزلت: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا ﴾ اشتدّ شأنها على الناس فنسخها الله بقوله: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ ﴾ الآية.[3]

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ لمرضاة الله وهذا يدلّ على أنّ الجهاد بالنفس والمال على من استطاع بهما، ومن لم يستطع على الوجهين فعليه بما استطاع ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ من التثاقل إن كنتم عالمين بأنّه تعالى صادق في وعده وتعرفون الخير.

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ أي: لو كان ما دعوتهم إليه غنيمة حاضرة ﴿وَسَفَرٗا ﴾ هيّناً سهلاً غير شاقّ ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ طمعاً في المال والغنيمة ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي المسافة و«الشقّة» من الأرض الّتي يشقّ ركوبها على صاحبها لبعدها. والمراد غزوة تبوك أمروا فيها بالخروج إلى الشام.

﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ أي: هؤلاء

١ـ سورة الفتح: ١٧

٢ـ سورة التوبه: ١٢٢.

٣ـ سورة التوبه: ٩١.

سيعتذرون إليك في قعودهم عن الجهاد، ويحلفون لو قدرنا من الخروج لخرجنا معكم، ثمّ أخبر سبحانه أنهم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بما أسرّوه من اليمين الكاذبة والعذر الباطلة. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ في هذا الاعتذار والحلف. ثمّ خاطب نبيّه بما فيه بعض العتاب في إذنه لمن استاذنه في التأخّر عن الخروج معه إلى تبوك، وكان الّذين استأذنوه منافقين ومنهم جندب بن قيس ومعتب بن قشير وهما من الأنصار فقال في عتابه: لم أذنت لهم في التخلّف عنك؟ وهذا من لطيف المعاتبة لأنّه تعالى بدأ بالعفو قبل العتاب.

وهل هذا الإذن كان قبيحاً أم لا؟ قال الجبائيّ: وقع صغيراً لأنّه لا يقال في المباح: لم فعلته؟ قال الطبرسيّ: وهذا التعليل غير صحيح لأنّه يجوز أن يقال فيما غيره أفضل منه: لم فعلته؟ ومعناه أنّه لو لم يأذنهم حتّى يتبيّن نفاقهم وتعرفهم كان أحسن وكيف يكون إذنه ﷺ قبيحاً وقد قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.[1]

وقيل: إنّه ﷺ خيّرهم بين الظعن والإقامة متوعّداً فاغتنم القوم ذلك، ويجوز العتاب فيما غيره أولى منه لا سيّما للأنبياء وحاشا سيّد الأنبياء وخير بني آدم من أن ينسب إليه المعصية.

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

ثمّ بيّن حال المؤمنين بأنّهم لا يستأذنوك في القعود عن الجهاد لأنّهم

١ـ سورة النور: ٦٢.

متى أمروا بالخروج تبادروا ولم يتوقّفوا، والمنافقون بالعكس وكان الأكابر من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبيّ في الجهاد فإنّ ربنا ندبنا إليه مرّة بعد اخرى، فأيّ فائدة في الاستيذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم بالقعود لشقّ عليهم.

قال الفخر الرازيّ: إنّ عليّاً عليه السلام لمّا أمره النبيّ صلى الله عليه وآله بأن يبقى في المدينة شقّ ذلك عليه ولم يرض فقال له الرسول: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى.[1] فصار تقدير الآية في أن لا يجاهدوا وحذف حرف النفي كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾[2] ثمّ قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إنّ هذا الاستيذان لا يصدر إلّا عند عدم الإيمان بالله والمعاد.

ثمّ بيّن أنّ عدم الإيمان منهم بسبب الشكّ والريب، وهذا يدلّ على أن الشاكّ المرتاب غير مؤمن بالله والمراد بالتردّد القبول والعذر مثل المتحيّر ولو كانوا مؤمنين لوثقوا بثواب الله وبادروا في الجهاد.

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

أي: لو أرادوا الخروج لكانوا يعدّون أهبتهم واستعدادهم للخروج من الكراع والسلاح ولكن كره الله خروجهم إلى الغزو لعلمه تعالى أنّهم لو خرجوا لكانوا يمشون بالفساد والنميمة للمسلمين، وكانوا عيوناً للمشركين وكان الضرّ في خروجهم أكثر من النفع فوقفهم الله عن الخروج الّذي عزموا عليه لا من الخروج الّذي أمرهم الله به لأنّ الأوّل كفر والثاني إيمان وطاعة.

﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أي: الصبيان والنساء.

١ـ لم أجده ولكن هذه للعبارة منافر لعصمة أمير المؤمنين عليه السلام.

٢ـ سورة النساء: ١٧٦.

يحتمل أن يكون القائلون لهم أصحابهم الّذين نهوهم عن الخروج مع النبيّ أو يكون القائل النبيّ صلى الله عليه وآله على وجه التهديد والتوبيخ.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

ثمّ بيّن على وجه الحكمة في كراهية انبعاثهم فقال: لو خرجوا هؤلاء المنافقون معكم إلى الجهاد ما زادوا بخروجهم إلّا الفساد والشرّ و«الخبل» فساد الإعطاء والجنون.

وقيل: مكراً وغدراً أو عجزاً وجبناً وسعوا بالتفريق بين المسلمين وأوضعوا إبلهم خلالكم ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ بعد والإبل وسطكم ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: يكونوا فيكم عيوناً للمشركين أو المعنى أنّ فيكم ضعفة المسلمين يقبلون قولهم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بهؤلاء المنافقين الّذين ظلموا أنفسهم وهم جماعة منهم عبد الله بن ابيّ وجندب بن قيس وأوس بن قبطيّ. ثمّ أقسم الله فقال:

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

بيّن حالهم بأنهم طلبوا الفتنة واختلاف الكلمة لكم من قبل غزوة تبوك أي: يوم احد حين انصرف عبد الله بن أبيّ بأصحابه وخذل النبيّ صلى الله عليه وآله. وقيل: المراد بالفتنة الفتك بالنبيّ في ليلة العقبة وكانوا اثني عشر رجلاً وقفوا على الثنيّة ليفتكوا بالنبيّ ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ واحتالوا في توهين أمرك ولم يقدروا وكانوا يدبّرون في كيدهم وجوهاً فإذا لم يتمّ ذلك قلّبوا كيدهم بوجه آخر. وهذا معنى التقليب وكانوا يعملون هذه الأعمال ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: النصر والظفر

وظهر دين الله على الكفار على رغمهم ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ ومرغومون.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ سبب النزول: قيل: إنّ رسول الله ﷺ لمّا استنفر الناس إلى تبوك قال: «**انفروا لعلكم تغتنمون بنات الأصفر**» فقام جندب بن قيس أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله ائذن لي ولا تفتنّي ببنات الأصفر أي: ائذن لي في القعود ولا تفتنّي بنساء الروم ولقد علمت الأنصار أنّي مغرم بالنساء، وأنا أعينك بالمال فاتركني.

وقيل في معنى ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾: أي: لا توقعني في الإثم لمخالفة أمرك بالخروج إلى الجهاد ولا تكلّفني بالخروج في شدّة الحرّ فأخبر الله أنّهم وقعوا في الفتنة وأنّ نار جهنّم لمحيطة بهم يوم القيامة.

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

بيّن في هذه الآية خبث بواطن المنافقين بأنّه إن تصبك في بعض الغزوات ظفر وغنيمة أو انقياد من بعض الرؤساء والملوك يسؤهم ذلك وإن تصبك شدّة ومكروه يفرحوا بها ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ وهو التيقّظ والحزم، واحترزنا بالقعود عن الجهاد ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذه المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا۟﴾ راجعين إلى بيوتهم فرحين بما أصاب المسلمين ﴿قُل﴾ لهم يا محمّد: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ في اللوح أو في القرآن ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ من هو مؤمن به.

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ وتنظرون لنا إلّا إحدى النعمتين إمّا الغلبة والغنيمة في العاجل وإمّا الشهادة والثواب الدائم في الآجل ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ﴾ ونتوقّع ﴿بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بأن ينصرنا عليكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ صورة الآية أمر والمراد التهديد ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ كلاناً منتظرون أمّا نحن منتظرون بالشهادة والجنّة وإمّا الغنيمة والفوز، وأمّا أنتم إمّا البقاء في الخزي وإمّا القتل والمصير إلى النار.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾

﴿أَنفِقُوا﴾ لفظه أمر ومعناه معنى الشرط والجزاء أي: إن أنفقتم طائعين أو مكرهين لا تنتفعون بإنفاقكم مع إقامتكم على الكفر قل لهم يا محمّد: إنّ هذا الأمر لن يتقبّل منكم لأنّ اللّه يتقبّل من المتّقين المخلصين وأنتم فاسقون ومتمرّدون عن طاعة اللّه. فإن قيل: كيف يكون الأمر في معنى الخبر؟ قيل: إذا كان في الكلام دليل عليه جاز كما يكون لفظ الخبر في معنى الأمر والدعاء كقولك: غفر اللّه لزيد أي: اللّهم اغفرله.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ﴾ أي: وما يمنع هؤلاء المنافقين أن يثابوا على نفقاتهم إلّا كفرهم باللّه وبرسوله فذلك ممّا يحبط الأعمال وكذلك لا يأتون الصلاة إلّا وهم متثاقلين ولا يؤدّوها على الوجه الّذي أمروا بها ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ يصلّون وينفقون للتستّر بالإسلام وللرياء.

وفي الآية دلالة على أنّ الكفّار محكومون بالشرائع لأنّه سبحانه ذمّهم

على ترك الصلاة والزكاة، ولولا وجوبهما عليهم لما ذمّوا بتركهما.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ الخطاب للنبيّ والمراد الامّة أي: لا يأخذ بقلبك ما تراه من كثرة أموال هؤلاء المنافقين وكذلك كثرة ﴿أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قد ذكر في معناه وجوهاً:

أحدها: أنّ فيه تقديماً وتأخيراً أي: لا يسرّك أموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا إنّما يريد اللّه ليعذّبهم في الآخرة، عن ابن عبّاس وقتادة، فيكون على هذا الظرف متعلّقاً بأموالهم وأولادهم ومثله قوله تعالى: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[1] والتقدير: فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثمّ تولّ عنهم. وثانيها: أنّ معناه إنّما يريد اللّه ليعذّبهم في الدّنيا بحفظها وجمعها ويكائدون لتحصيلها وجمعها مع حرمان المنفعة بها. وثالثها: أنّ معناه إنّما يريد اللّه ليعذّبهم في الدنيا بسبي الأولاد وغنيمة الأموال عند تمكّن المسلمين من أخذها فيتحسّرون عليها جزاء على كفرهم.

ورابعها: يعذّبهم بجمعها والحزن عليها وخروجهم عنها بالموت وكلّ هذا عذاب. واللام في قوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ بمعنى أن أو لام العاقبة والتقدير إنّما يريد اللّه أن يملي بهم ليعذّبهم وتزهق ويهلك أنفسهم بالموت وهم كافرون. والإرادة تعلّقت بالزهوق لا بالكفر وهذا كما تقول: أريد أن أضربه وهو عاص، فالإرادة تعلّقت بالضرب لا بالعصيان.

قالت الأشاعرة: إنّ اللّه أراد إزهاق أنفسهم مع الكفر ومن أراد ذلك فقد أراد الكفر. وأجاب الجبّائي أنّ معنى الآية أنّه تعالى أراد إزهاق أنفسهم حال ما كانوا كافرين وهذا لا يقتضي كونه تعالى مريدا للكفر. ألا ترى أنّ المريض قد يقول للطبيب: أريد أن تدخل عليّ وقت مرضي فهذه الإرادة لا توجب

١ـ سورة النمل: ٢٨

كونه مريداً للمرض. وقد يقول: السلطان لعسكره: اقتلوا البغاة حال إقدامهم على الحرب. وهذا لا يدلّ على كون السلطان مريداً لذلك الحرب فكذا هاهنا.

منع اللّه المؤمنين الإعجاب بكثرة الأموال والأولاد من المنافقين والمقصود الزجر عن الارتكان إلى الدنيا والتهالك في حبّها.

قال صلى الله عليه وآله: **«من كثر ماله اشتدّ حسابه، ومن ازداد من السلطان قرباً ازداد من اللّه بعداً»**.[1] وقال صلى الله عليه وآله: **«مالك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت»**.[2]

والموجودات بحسب القسمة العقليّة على أربعة أقسام:

الأوّل: أن يكون أزليّاً أبديّاً وهو اللّه جلّ جلاله. والثاني: الّذي لا يكون أزليّاً ولا أبديّاً وهو الدنيا. والثالث: الّذي يكون أزليّاً ولا يكون أبديّاً وهذا محال الوجود لأنّه ثبت بالدليل أنّ ما ثبت قدمه امتنع عدمه. والرابع: الّذي يكون أبديّاً ولا يكون أزليّاً وهو جميع المكلّفين والآخرة لأنّ الآخرة لها أوّل وليس لها آخر وكذلك المكلّف سواء كان مطيعاً أو عاصياً فلحياته أوّل ولا آخر له.

وإذا ثبت هذا ثبت أنّ المناسبة بين الإنسان المكلّف وبين الآخرة أشدّ من المناسبة بينه وبين الدنيا ويظهر من هذا أنّه خلق للآخرة لا للدنيا فينبغي أن لا يشتدّ إعجابه وسروره بالدنيا وأن لا يميل قلبه إليها فإنّ المسكن الدائميّ الأصليّ له الآخرة.

ثمّ إنّ الإنسان إذا عظم حبّه بالأموال والأولاد فإمّا أن تبقى له هذه إلى آخر عمره أو لا تبقى وتهلك فإن كان الأوّل فعند الموت يعظم حسرته لأنّ مفارقة المحبوب شديدة وإن كان الثاني وهو أن تهلك وتبطل حال الحياة

١ـ انظر: ثواب الأعمال، للصدوق، ص ٢٦٠.

٢ـ مجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٢٤٢. وتهذيب الكمال، ج ٢٤، ص ٦٠.

عظم أسفه عليها واشتدّ ألم قلبه فثبت أنّ الإنسان إذا عظم حبّه بالأموال حصل له العذاب في الدنيا أيضاً. على أنّ الدنيا حلوة خضرة والنفس مائلة إليها يستلذّ منها فكلّما كثرت استغرقت النفس فيها واشتغلت بها فهذا الاشتغال سبب لحرمانه عن ذكر الله وطاعته، ويحصل في قلبه قسوة وغفلة فصار ذلك سبباً قوياً في زوال حبّ الله والميل إلى الآخرة عن القلب فهذا الإنسان المستغرق عند الموت ينتقل من البستان إلى السجن فيقوى حسرته ثمّ عند الحشر حلالها حساب وحرامها عقاب.

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

أي: يقسم هؤلاء المنافقون أنهم لمن جملتكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ يخافون القتل والأسر إن لم يظهروا الإسلام ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ حرزاً أو حصناً أو غيراناً في الجبال.

وقيل: سراديب أو موضعاً يأوون إليه أو نفقاً يدخلونها على خلاف رسول الله ﴿لَّوَلَّوْاْ﴾ وعدلوا ﴿إِلَيْهِ﴾ وأعرضوا عنكم ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ويسرعون في الذهاب إليه فلا تظنّوا موافقتهم إيّاكم عن الحقيقة بل عن الاضطرار.

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

بيان نوع آخر من قبائحهم وهو أنّه كانوا يقولون: يأخذ الرسولﷺ الصدقات من الأغنياء ويؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودّته ولا يراعي العدل.

سبب النزول: قال أبو سعيد الخدريّ: بينا يقسّم رسول الله مالا من

هوازن إذ جاءه المقداد بن ذي الخويصرة التميميّ، وحرقوص بن زهير أصل الخوارج، فقالا: اعدل يا رسول الله. فقال: **«ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل»**[1] فنزلت الآية.

قال الكلبيّ: كان رجل من المنافقين يقال له أبو الجواض قال لرسول اللهﷺ: تزعم أنّ الله أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء والمساكين ولم تضعها في رعاة الشاة؟ فقال رسول اللهﷺ: **«لا أبا لك! أما كان موسى راعياً أما كان داود راعياً؟»** فلمّا ذهب قالﷺ: **«احذروا هذا**[2] **وأصحابه فإنّهم منافقون»**. وصار حرقوص رئيس الخوارج. ولمّا قال لرسول الله: اعدل يا رسول الله، قال بعض الصحابة للنبيّﷺ: ائذن لي أن أضرب عنقه.

فقال له النبيّﷺ: **«دعه فإنّ له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصومه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية آيتهم رجل أسود في إحدى ثدييه مثل ثدي المرأة ويخرجون على فترة من الناس»**.

﴿وَمِنْهُم﴾ من هؤلاء المنافقين من يعيبك يا محمّد ويطعن عليك في قسمة الصدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ﴾ من تلك الصدقات أقرّوا بالعدل و﴿رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَآ﴾ يغضبون. قال أبو عبد اللهؑ: أهل هذه الآية ثلثا الناس.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لكان خيراً لهم. وجواب «لو» محذوف، وحذف الجواب في مثل هذه المواضع أبلغ. والهمّاز واللمّاز أوعده الله الويل.

فتأمّل في حسن ترتيب الآية من بيان مراتب العبوديّة ودرجاتها: أوّلها الرضا بما قسم لهم لأنّه حكيم في مصالحه. وثانيها إظهار باللسان بقولهم

١ـ انظر: إعلام الورى بأعلام الهدى، ج ١، ص ٢٤١.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج ٥، ص ٧٣.

حسبنا الله. وثالثها الاعتماد والوثوق واليقين بمواعيد الله في الآخرة وهي أولى وأفضل. ورابعها أن يقول: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ أي: نحن لا نطلب من الإيمان والطاعة أخذ الأموال وإنّما نطلب الاستغراق في العبوديّة لأنّه قال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ ولم يقل: إنّا إلى ثواب الله راغبون.

روي أنّ عيسى عليه السلام مرّ بقوم يذكرون الله فقال عيسى عليه السلام ما الّذي يحملكم على الذكر؟ قالوا: الخوف من عقاب الله، فقال: أصبتم. ثمّ مرّ على قوم آخرين يذكرون الله فقال: ما الّذي حملكم عليه؟ فقالوا: الرغبة في ثواب الله فقال: أصبتم. ثمّ مرّ على قوم آخرين فسألهم فقالوا: لا نذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة في الثواب بل لإظهار ذلّة العبوديّة وعزّة الربوبيّة وتشريف القلب بمعرفته، فقال: عيسى عليه السلام أنتم المحقّون المحقّقون.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

لمّا لمزوا رسول الله ﷺ في الصدقات شرح الله لهم مصارف الصدقات والمراد من الصدقات في الآية الزكاة المفروضة أي: ليست إلّا لهؤلاء القوم.

قيل: الفرق بين «الفقير» و«المسكين» أنّ الفقير هو المتعفّف الّذي لا يسأل، والمسكين الّذي يسأل. وقيل: بالعكس. وجاء في الحديث ما يدلّ على القول الثاني فقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**ليس المسكين الّذي يرده الأكلة والأكلتان والتمرة والتمرتان، ولكنّ المسكين الّذي لا يجد غنياً فيغنيه ولا يسأل**

الناس شيئاً ولا يفطن منه فيتصدّق عليه».[١]

وقيل: الفقير هو الزمن المحتاج والمسكين هو الصحيح المحتاج.

وقيل: إنّ الفقير هو الّذي أسوأ حالاً من المسكين فإنّ الفقير هو الّذي لا شيء له والمسكين الّذي له بلغة من العيش لا يكفيه محتجّين بهذه الآية وهي ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وبأنّ الفقر مشتقّ من فقار الظهر فكأنّ الحاجة والاضطرار قد كسرت فقار ظهره.

ويمكن أنّهما صنف واحد وإنّما ذكر الصنفين تأكيداً للأمر.

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ والمراد سعاة الزكاة وجباتها ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وكان هؤلاء قوماً من الأشراف في زمن النبيّ ﷺ وكان يعطيهم سهماً من الزكاة ليألفهم على الإسلام ويستعين بهم على قتال العدوّ.

ثمّ اختلف في هذا السهم هل هو ثابت أم لا؟ فقيل: هو ثابت في كلّ زمان واختاره الجبّائيّ وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام إلّا أنّه قال: «**من شرطه أن يكون إمام عادل يتألّفهم على ذلك**».[٢] وقيل: «**إنّ ذلك كان خاصّاً بزمن النبيّ ﷺ ثمّ سقط بعده لأنّ الله أعزّ الإسلام**».

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي: وفي فكّ الرقاب بالعتق وأراد به المكاتبين، ويشمل قوماً قد لزمهم كفّارات في قتل الخطاء وفي الظهار وقتل الصيد في الحرم وفي الأيمان وليس لهم ما يكفّرون وهم مؤمنون فجعل الله لهم سهماً في الصدقات ليكفّر عنهم ويفكّون رقابهم من الرقّيّة ومن الكفّارات.

﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ وهم قوم ركبهم الدين وأنفقوها في طاعة الله من غير إسراف ومعصية فيجب على الإمام أن يقضي ذلك من الصدقات.

١ـ مستدرك الوسائل، ج ٧، ص ١٣٦.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٧٥؛ والتبيان، ج ٥ ص ٢٤٤.

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الجهاد ويدخل فيه عند أصحابنا جميع مصالح المسلمين كالمساجد وأمثالها أو قوم من المسلمين ليس عندهم ما يحجّون به أو في جميع سبل الخير، فعلى الإمام أن يعطيهم من مال الصدقات حتّى يتقوّون به.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أبناء الطريق الّذين يكونون في الأسفار في طاعة اللّه فيذهب مالهم ويقطع عليهم، فعلى الإمام أن يعطيهم ويردّهم إلى أوطانهم من مال الصدقات. والصدقات تنقسم ثمانية أجزاء فيعطى كلّ إنسان من هذه الثمانية على قدر ما يحتاجون إليه بلا سرف ولا تقتير.

والحكمة في إيجاب الزكاة امور بعضها مصالح عائدة إلى معطي الزكاة وبعضها عائدة إلى آخذها.

أمّا الراجعة إلى المعطي أنّ المال محبوب بالطبع وأنّ القدرة صفة محبوبة لذاتها لأنّه لا يمكن أن يقال: إنّ كلّ شيء فهو محبوب لمعنى آخر وإلّا لزم إمّا الدور أو التسلسل وهما محالان فوجب في الأشياء المحبوبة الانتهاء إلى ما يكون محبوباً لذاته، وأنّ القدرة والكمال صفة محبوبة لذاتها كما أنّ النقصان مكروه لذاته فهذه المحبوبيّة يوجب الاستغراق في الدنيا ويذهل النفس عن التأهّب للآخرة وعن حبّ اللّه.

ثمّ إنّ النفس الناطقة لها قوّتان نظريّة وعمليّة فالنظريّة كمالها في التعظيم لأمر اللّه والعمليّة كمالها الشفقة على خلق اللّه فبالزكاة يحصل لجوهر الروح هذا الكمال وهو اتّصافه بكونه محسناً إلى الخلق فيتخلّق بأخلاق اللّه.

ثمّ إنّ الناس إذا علموا أنّه ساع في إيصال الخير إليهم أحبّوه طبعاً

قال ﷺ: **«جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»**.[١] خصوصاً إذا كانوا فقراء أمدّوهم بالدعاء وللقلوب آثار وللأرواح. وقد يكون تصير تلك الدعوات سبباً لبقاء ذلك الإنسان في الخير والنعمة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٢] وبقوله ﷺ: **«حصّنوا أموالكم بالزكاة»**. ولا تغفل عن دعاء الخير فقد قيل:

سهام أيدي القانتين في السحر أنفذ في الأحشاء من وخز الإبر

ثمّ أمر الله بالزكاة مقصوده أنّه يحصل للمزكّي حالة اخرى وهي أنه كان له الاستغناء بالشيء فبعد الأداء صار له حالة الاستغناء عن الشيء، وهذا المقام أعلى وأشرف. والمال إذا أنفقه الإنسان في وجوه الصلاح والبرّ بقي بقاء لا يمكن زواله، بخلاف ما إذا بقي في يده كالمشرف على الهلاك والتلف لأنّه على كلّ حال لا يحمل معه إلى قبره وإذا أنفقه في طلب الرضوان فقد ذهب به إلى يوم القيامة ونفع المال يكون لذلك اليوم.

ثمّ إنّ شكر النعمة عبارة عن صرف النعمة إلى رضاء المنعم ومرضاته على أنّه إذا فضل المال عن قدر الحاجة وحضور إنسان آخر محتاج فحينئذ للمالك سلطة وله حقّ لأنّه سعى في تحصيله واكتسابه وللفقير حقّ لاحتياجه فاقتضت الحكمة الإلهيّة إبقاء الأكثر للمالك والمكتسب واليسير منه للفقير وهو الزكاة، ومعلوم أنّ المال الفاضل عن الحاجات الأصليّة إذا أمسكه الإنسان وحبسه في بيته بقي المال معطّلاً عن المقصود الّذي لأجله خلق، وذلك منع عن ظهور حكمة الله وهو غير جائز.

ثمّ إنّ الفقراء عيال الله لقوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ

١ـ من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٨١؛ وانظر: الكافي، ج ٨، ص ١٥٢.

٢ـ سورة الرعد: ١٧

رِزْقُهَا﴾[1] والأغنياء خزّان اللّه لأنّ الأموال الّتي في أيديهم أموال اللّه ولولا أنّ اللّه ألقاها في أيديهم ما ملكوا حبّة فكم عاقل يسعى ولا يملئ بطنه طعاماً وكم أبله جلف تأتيه الدنيا صفوا وصحيح أنّ الملك أن يقول لخازنه اصرف شيئاً من الخزانة إلى المحتاجين من عبيدي. والمال إذا كان بالكلّيّة في يد الغنيّ مع أنّه غير محتاج إليه، وإهمال جانب الفقير العاجز عن الكسب لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم فوجب على الغنيّ صرف طائفة من ذلك المال إلى الفقير.

ثمّ إنّ الأغنياء لو لم يقوموا بإصلاح الفقراء ربّما حملهم شدّة الحاجة على الالتحاق بأعداء المسلمين أو الإقدام على الأفعال القبيحة كالسرقة وغيرها فكان إيجاب الزكاة يفيد هذه الفوائد.

قال ﷺ: «**الإيمان نصفان صبر وشكر**[2]»، فالمال محبوب بالطبع فوجدانه يوجب الشكر وفقدانه يوجب الصبر فأعطيتك أيّها الغنيّ المال والنعمة فإن شكرت وصرفت النعمة في رضاي فصرت من الشاكرين، وبسبب فقدان بعض مالك في أداء الزكاة فصبرت على فقده فصرت من الصابرين. وأما أنت أيّها الفقير ما أعطيتك المال فصبرت فصرت من الصابرين وحكمت على الغنيّ أن يصرف إليك طائفة من ذلك وأدخلته في ملكك وارتفعت حاجتك وفاقتك فشكرتني فصرت من الشاكرين. فكان إيجاب الزكاة موجباً لصلاح المكلّفين من الطائفتين لتتّصفوا بصفة الصبر والشكر وإن كان الغنيّ قد أنعم على الفقير بهذا الدينار فقد أنعم الفقير على الغنيّ بأن خلّصه بهذا الدينار عن عذاب النار، فهذه وجوه في بيان حكمة الزكاة بعضها يقينيّة وبعضها إقناعيّة.

١ـ سورة هود: ٦

٢ـ اُنظر: تحت العقول، ص ٤٨.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

سبب النزول: بيان نوع آخر من جهالات المنافقين كانوا يطعنون النبيّ ﷺ أنّه أذن أي: يقبل كلّما يقال له ويصدّق و«أذن خير» مرفوعين قرئ، وقرئ بالإضافة إلى «خير» أي هو أذن خير لا أذن شرّ. قال ابن عبّاس: إنّ جماعة من المنافقين ذكروا النبيّ ﷺ بما لا ينبغي من القول فقال بعضهم: لا تقولوا فإنّا نخاف أن يبلغه ما نقول. فقال الجلاس بن سويد: بل نقول ما نشاء، ثمّ نذهب إليه ونحلف أنّا ما قلنا فيقبل قولنا وإنّما محمّد أذن سامعة. فنزلت الآية وقيل: إنّ المنافقين كانوا يقولون: ما هذا الرجل إلّا أذن من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ فمن رفع «رحمة» كان المعنى: هو أذن خير ورحمة وأمّا الجرّ في «رحمة» فعلى العطف على «خير» فإن قيل: هلّا استغني بشمول الخير الرحمة فالقول منه تخصيص الرحمة بالذكر كقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1] ثمّ خصّ خلق الإنسان وإن كان قوله: «خلق» يعمّ الإنسان وغيره فكذلك الرحمة.

المعنى أنّ بعض المنافقين يؤذون النبيّ والاذن هاهنا بالقول، يقولون: هو يستمع إلى ما يقولون له ويصغي إليه ويقبله.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: هو ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ أي: يستمع إلى ما هو ﴿خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ وهو الوحي وقيل: المراد هو يسمع الخير ويعمل به، ومن قرأ بعدم الإضافة فمعناه قل: كونه أذناً أصلح لكم لأنّه يقبل عذركم ويستمع إليكم ولو

١ـ سورة العلق: ١.

لم يقبل عذركم لكان شراً لكم فكيف تعيبونه بما هو خير لكم؟

﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وعدّي الإيمان إلى الله بالباء وإلى المؤمنين باللام لأنّ المراد بإيمان الله التصديق الّذي هو نقيض الكفر، والإيمان المعدّى باللام معناه التسليم والتصديق كقوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[٢] وقوله: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾.[٣]

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ معناه أنّ هذا النبيّ الّذي تعيبون عليه بأنه أذن، هذه الصفة صفة مدح لوجوه: الأوّل هو أذن الخير، وبيّن الخيريّة أنّه يؤمن بالله وكلّ من آمن بالله هو خائف من الله ولا يقدم على الإيذاء بالباطل ويتسلّم للمؤمنين قولهم إذا توافقوا على الصلاح، فيقبل قولهم. والثاني: أنّه رحمة للّذين آمنوا وهذا أيضاً يوجب الخيريّة لأنّه يجري أمركم على الظاهر ولا يبالغ في التفتيش عن بواطنكم ولا يسعى في هتك أستاركم. وأمّا على قراءة التنوين أي: أذن سامعة واعية خير لكم من أن لا يكون كذلك ورحمة لكم لأنّ من آمن بالله بسبب هدايته إيّاكم خير لكم. والّذين يؤذونه ﷺ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

بيّن قباحة أفعال المنافقين بأنّهم يقدمون على الأيمان الكاذبة. نزلت في رهط من المنافقين تخلّفوا عن غزوة تبوك فلمّا رجع النبيّ ﷺ أتوه

١ـ سورة يونس: ٨٣.

٢ـ سورة يوسف: ١٧

٣ـ سورة الشعراء: ١١١.

واعتذروا وحلفوا ليرضوا المؤمنين بيمينهم الكاذبة بأنّ الّذي بلغكم عنّا باطل، فاللّه يخبر بأنّ هذا الاعتذار منهم لطلب رضى الناس واللّه أحقّ أن يرضوه ورسوله أحقّ أن يرضوه وحذف لدلالة الكلام عليه كقول الشاعر:

نحـن بمـا عنـدنا وأنـت بمـا عندك راض والرأي مختلـف

والمعنى نحن بما عندنا راضون. ثمّ قال سبحانه: على وجه التقريع لهم قوله سبحانه تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾

أي: وما علموا أنّ من يجاوز حدود اللّه الّتي أمر اللّه المكلّفين أن لا يتجاوزوها فإنّ للمتجاوز خلود النار وذلك الخلود هو الخزي العظيم والهوان والذلّ الشديد.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

سبب النزول: قال الحسن: اجتمع اثنا عشر رجلاً من المنافقين على أمر من النفاق فأخبر جبرئيل بأسمائهم فقال ﷺ: **«إنّ أناساً اجتمعوا على كيت وكيت فيقوموا وليستغفروا حتّى أشفع لهم فلم يقوموا»** فقال ﷺ بعد ذلك: قم يا فلان ويا فلان حتّى أتى على آخرهم فقالوا: نعترف ونستغفر فقال ﷺ: **«أنا كنت أوّل الأمر أطيب نفساً بالشفاعة واللّه كان أسرع في الإجابة وأمّا الآن فلا، اخرجوا عنّي اخرجوا عنّي فلم يزل يقول حتّى خرجوا بالكلّيّة»**.(١)

وقيل: إنّ سبب النزول أنّ عند رجوع النبيّ ﷺ من تبوك وقف على

ـــــــــــــــــــ

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ٣، ص ١٢٠؛ وتبيان، للطوسي، ج ٣، ص ٢٤٤.

العقبة اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به فأخبره جبرئيل وكانوا متلثّمين في ليلة مظلمة وأمره أن يرسل ﷺ إليهم من يضرب وجوه رواحلهم فأمر ﷺ حذيفة بذلك فضربها حتّى نحّاهم، ثمّ قال النبيّ ﷺ لحذيفة: **«من عرفت من القوم؟»** فقال: لم أعرف منهم أحداً فذكر ﷺ أسماءهم وعددهم له، وقال: **«إنّ جبرئيل أخبرني بذلك»** فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم ليقتلوا؟ فقال: **«أكره أن تقول العرب: قاتل محمّد بأصحابه حتّى إذا ظفر صار يقتلهم بل يكفينا الله ذلك»**.

فإن قيل: المنافق كافر والكافر كيف يحذر نزول الوحي على الرسول؟

فالجواب أنّ القوم وإن كانوا كافرين بدين الرسول إلّا أنّهم لمّا شاهدوا مراراً أنّ الرسول يخبرهم بما يضمرونه فلهذه التجربة كانوا يخافون ويحذرون وبعضهم كانوا شاكّين في صحّة نبوّته ﷺ وما كانوا قاطعين بفسادها، والشاكّ خائف لا محالة.

روي عن أبي عبد الله الصادق صلوات الله عليه وعلى آبائه أنّهم ائتمروا بينهم ليقتلوه[1]، وقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: إنّا كنّا نخوض ونلعب وإن لم يفطن نقتله.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

سبب النزول: قيل: إنّ جماعة من المنافقين قالوا في غزوة تبوك: يظنّ هذا الرجل أن يفتح قصور الشام هيهات هيهات فأطلع الله نبيّه على ذلك، فقال ﷺ: **«احبسوا عليّ الركب فدعاهم فقال لهم قلتم كذا وكذا؟»** فقالوا: كنّا

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٩٦؛ وانظر: مجمع البيان، ج ٥، ص ٨١.

نخوض ونلعب وحلفوا على ذلك فنزلت الآية.

وقيل: كان عند منصرفه عن غزوة تبوك إلى المدينة بين يديه أربعة نفر ثلاثة يستهزئون ويتحدّثون ويضحكون، وواحدهم يضحك ولا يتكلّم فنزل جبرئيل وأخبر رسول الله فدعا عمّار وقال: «**إنّ هؤلاء يستهزئون بي وبالقرآن أخبرني جبرئيل ولئن سألتهم ليقولنّ كنّا نتحدّث بحديث الركب**» فأتبعهم عمّار وقال لهم: لم تضحكون؟ قالوا: نتحدّث بحديث الركب فقال عمّار: صدق الله ورسوله. أي: إذا سألتهم عن طعنهم في الدين واستهزائهم بالنبيّ وبالمسلمين يقسمون ويحلفون إنّا كنّا نخوض خوض الركب في الطريق لا على طريق الجدّ ولكن على طريق اللعب واللهو، قل يا محمّد: أ بآياته وحججه وكتابه ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ بالمعاذير الكاذبة فإنّكم بما فعلتموه ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ بعد أن كنتم مظهرين للإيمان. ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾ عن قوم منهم إذا تابوا ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ اخرى لم يتوبوا وأقاموا على النفاق و«الطائفة» اسم للجماعة لأنّه اسم لما تطيف وتحيط بغيره، وروي أنّ هاتين الطائفتين كانوا ثلاثة فهزأ اثنان وضحك واحد وهو الّذي تاب من نفاقه، واسمه محشّى بن حمير فعفى الله عنه. وقد يسمّى الواحد طائفة على معنى أنّها نفس طائفة.

﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾ المراد الاستهزاء بتكاليف الله أو بذكر الله أو بقدرة الله كما هو عادة بعض الجهلة والملاحدة.

والمراد من الاعتذار محو الذنوب من قولهم: اعتذرت المنازل إذا درست، يقال: مررت بمنزل معتذر أي: مندرس. أخذ هذا المعنى بهذه المناسبة لأنّ المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه. وقيل: الاعتذار القطع ومنه يقال للقلفة عذرة لأنّها تقطع. وعذرة الجارية من هذا المعنى لأنّها تقطع، فالعذر لمّا صار سبباً لقطع اللوم سمّي عذراً.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

المعنى: المنافقون والمنافقات بعضهم من بعضهم من جملة بعضهم، وبعضهم مربوط ببعضهم في الاجتماع على النفاق والشرك كقولك: أنا من فلان وفلان منّي أي: أمرنا واحد وكلمتنا واحدة. أو بعضهم على دين بعض ذكورهم كإناثهم في العقيدة الخبيثة. ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ ولفظ المنكر يدخل فيه كلّ قبيح إلّا أنّ هاهنا المراد تكذيب الرسول ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ ويدخل فيه كلّ حسن إلّا أنّ المراد هاهنا الإيمان بالرسول ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ من كلّ خير واجب من زكاة وصدقة وإنفاق في سبيل الله والغرض تخلّفهم عن الجهاد.

﴿نَسُوا۟﴾ طاعة ﴿ٱللَّهَ﴾ فترك رحمته لهم وجعلوا الله كالمنسيّ حيث لم يطيعوه فجعلهم الله في حكم المنسيّ عن الثواب، وذكر ذلك لازدواج الكلام وإلّا فالنسيان لا يجوز عليه سبحانه على سبيل الحقيقة.

ثمّ أخبر سبحانه بأنّ المنافقين خارجون عن الإيمان وهم المتمرّدون الفاسقون ووعد الّذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر وهم المنافقون والكفّار نار جهنّم.

وإنّما فصّل النفاق من الكفر وإن كان النفاق هو الكفر؟ ليتبيّن الوعيد على كلّ واحد من الصنفين ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ودائمين فيها وحسبهم العقاب فيها كفاية ذنوبهم أي: على قدر فعلهم عقوبتهم وأبعدهم من رحمته وخيره

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ لا يزول عنهم.

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

﴿كَٱلَّذِينَ﴾ هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب للالتفات أي: فعلتم كأفعال الّذين من قبلكم. شبّه المنافقين بالكفّار الّذين كانوا قبلهم في الأمر بالمنكر والقبائح مع أنبيائهم.

ثمّ قال سبحانه: أولئك الكفّار ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾ في الدنيا ثمّ بادوا وهلكوا وانقلبوا إلى العذاب الدائم، فاستمتعوا أولئك بنصيبهم وحظّهم من الدنيا بأن صرفوها في شهواتهم المحرّمة وفيما نهاهم اللّه. فأنتم أيضاً استمتعتم بحظّكم من الدنيا وخضتم في الكفر والاستهزاء كما خاض الأوّلون. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ هم كذلك أعمالهم محبوطة، أي: كما أنّ المؤمنين يثابون بأعمال الخير من البرّ والإنفاق وصلة الرحم هؤلاء ليسوا كذلك لأنّ الكفر يحبط العمل ولا فائده لهم بها في الآخرة ولهم الخسران.

روي عن ابن عبّاس أنّه قال في هذه الآية: ما أشبه الليلة بالبارحة كالّذين من قبلكم هؤلاء بنو إسرائيل شبّهنا بهم لا أعلم إلّا أنّه قال: والّذي نفسي بيده لتتّبعنّهم حتّى لو دخل الرجل منهم جحر ضبّ لدخلتموه.

وروي مثل ذلك عن أبي هريرة عن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ ﷺ قال: «**لتأخذنّ كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعا بذراع وشبراً بشبر وباعاً بباع حتّى لو أنّ أحداً من أولئك دخل جحر ضبّ لدخلتموه**»، قالوا: يا رسول اللّه: كما

صنعت فارس والروم وأهل الكتاب قال: «**فهل الناس إلا هم**[1]؟» وقال عبد الله بن مسعود: «**أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل تتبعون عملهم حذو القذّة بالقذّة غير أنّي لا أدري أ تعبدون العجل أم لا**[2]؟»

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

المعنى: ألم يأت هؤلاء المنافقين الموصوفين أخبار الكفّار الّذين كانوا قبلهم الطوائف الستّة الّذين خالفوا أنبياءهم وعذّبهم الله بطرق العذاب.

فأوّلهم: قوم نوح، والله أهلكهم بالإغراق. وثانيهم: عاد، والله أهلكهم بإرسال الريح العقيم عليهم. وثالثهم: ثمود، والله أهلكهم بإرسال الصيحة والصاعقة. ورابعهم: قوم إبراهيم، والله أهلكهم بسلب النعمة عنهم، وسلّط الله البعوضة على دماغ نمرود. وخامسهم: قوم شعيب وهم أصحاب مدين، والله أهلكهم بعذاب يوم الظلّة. وسادسهم: قوم لوط أهل المؤتفكات، أهلكهم الله بأنّ جعل عالي أرضهم سافلها. ومعنى «الائتفاك»: الانقلاب، وتلك القرى انقلبت. و«المؤتفكات» صفة القرى ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ بالدلائل الواضحة. وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ وإن كان بصيغة الاستفهام إلّا أنّ المراد التقرير. وما كان عذابهم ظلماً من الله بل باستحقاقهم.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٨٦؛ والأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٢٦٦.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥ ص ٨٦؛ وانظر: العمدة، ص ٣٤١.

وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

لمّا وصف حال الكفّار وعذابهم شرع في وصف المؤمنين وما أعدّ لهم من الثواب والنعيم أي كما أنّ المنافقين والمنافقات بعضهم من جنس بعض كذلك المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض. وهذا البيان اتّصال النقيض بالنقيض أي يتولّون بعضهم بعضاً ويلتزم كلّ واحد منهم نصرة صاحبه.

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ما أوجب الله فعله عليهم ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما نهى الله عن فعله. ويداومون على فعل الصلاة وإخراج الزكاة ويمتثلون أوامر الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: الّذين هذه صفتهم سيرحمهم الله في الآخرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ قادر على الرحمة والعذاب.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

لمّا ذكر الله الوعد في الآية السابقة على سبيل الإجمال ذكر في هذه الآية على سبيل التفصيل أي: إنّ تلك الرحمة أشياء:

أولها: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أراد بها البساتين الّتي يتناولها المناظر لأنّه قال بعده: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ فحينئذ تكون منازلهم في جنّات عدن ومناظرهم الجنّات الّتي هي البساتين بدليل تغاير العطف. وقد كثر الكلام في صفة ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾. وسأل عمران بن الحصين وأبو هريرة عن رسول الله عن قوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾. قال ﷺ: **«قصر في الجنّة من اللؤلؤ فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كلّ دار سبعون بيتاً من زمرّدة خضراء في كلّ بيت سبعون سريراً على كلّ سرير سبعون فراشاً على كلّ فراش زوجة من الحور العين في كلّ بيت سبعون مائدة على كلّ مائدة سبعون لوناً من الطعام وفي كلّ بيت**

سبعون وصيفة، يعطى المؤمن من القوّة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك أجمع».[1]
وعن ابن عبّاس أنّها دار الّتي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر. ولعلّ مراده أنّها دار المقرّبين عند اللّه لأنّه كان أعلم من أن يثبت له داراً.

وقال عبد اللّه بن عمر: إنّ في الجنّة قصراً يقال له عدن، حوله البروج وله خمسة آلاف باب، على كلّ باب خمسة آلاف حرّة لا يدخلها إلّا نبيّ أو وصيّ أو صدّيق أو شهيداً.

و«العدن» بمعنى الإقامة، وعلى هذا الاشتقاق والمعنى الجنّات كلّها جنّات عدن ولكنّه اسم علم لموضع مخصوص. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ روي أنّه تعالى يقول لأهل الجنّة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا أن لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول: أما أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ قال: احلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً.

فدلالة هذا الحديث أنّ السعادة الروحانيّة أفضل من سعادة الجسمانيّة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

الآية تدلّ على أنّ النبيّ مأمور بالجهاد مع الكفّار والمنافقين. والمنافق هو الّذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر ومتى كان الأمر كذلك لم يجز محاربته.

وذكروا أقوالاً بسبب هذا الإشكال: فالقول الأوّل أنّ الجهاد مع الكفّار، وتغليظ القول مع المنافقين وهذا بعيد لأنّ ظاهر القول يقتضي الأمر بجهادهما معاً وكذا ظاهر قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ راجع إلى الفريقين. والقول الثاني: قال

١ـ جامع البيان، ج ١٠، ص ٢٢٩.

الرازيّ ـ وهو الصحيح ـ: أنّ الجهاد عبارة عن بذل الجهد وليس في اللفظ ما يدلّ على أنّ ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر. وفي المجمع في قراءة أهل البيت: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾(١) لأنّ النبيّ لم يجاهد المنافقين بالسيف وعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هكذا نزلت، فجاهد رسول الله الكفّار وجاهد عليّ عليه السلام المنافقين فجاهد عليّ عليه السلام جهاد رسول الله.(٢)

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

هذه الآية تدلّ على أنّ أقواماً من المنافقين قالوا كلمات فاسدة.

ثمّ لمّا قيل لهم: إنّكم ذكرتم هذه الكلمات حلفوا أنّهم ما قالوا.

والمفسّرون ذكروا في أسباب النزول وجوهاً: قيل: إنّ رسول الله كان جالساً في ظلّ حجرة فقال صلى الله عليه وآله: **«إنّه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني الشيطان»** فلم يلبثوا أن جاء رجل أزرق فدعاه رسول الله، فقال: **«علام تشتمني أنت وأصحابك؟»** فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا: فأنزل الله الآية، عن ابن عبّاس.(٣)

وقيل: خرج المنافقون مع رسول الله إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبّوا رسول الله وأصحابه وطعنوا في الدين فنقل ذلك حذيفة إلى

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٨٩.

٢ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٧٧؛ ونور الثقلين، ج ٢، ص ٢٤٢.

٣ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٩٠.

رسول الله ﷺ، فقال لهم: «**ما هذا الّذي بلغني عنكم؟**» فحلفوا بالله ما قالوا شيئاً من ذلك، عن الضحّاك.[١] وقيل: نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت، وذلك أنّ رسول الله خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً وعابهم فقال الجلاس: والله لئن كان محمّد صادقاً فيما يقول فنحن شرّ من الحمير، فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل والله إنّ محمّداً لصادق وأنتم شرّ من الحمير، فلمّا انصرف النبيﷺ إلى المدينة أتاه فأخبره بما قال الجلاس. فقال الجلاس: كذب يا رسول الله فأمر هما النبيﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ثمّ قام عامر فحلف بالله لقد قاله، ثمّ قال: اللّهم أنزل على نبيّك منك الصدق، فقال: النبيّ والمؤمنون: آمين، فنزل جبرئيل قبل أن يتفرّقا بهذه الآية حتّى بلغ: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فقام الجلاس فقال: يا رسول الله قد عرض عليّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فقبل رسول الله منه.[٢] وقيل: نزلت في عبد الله بن أبيّ بن سلول حين قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾.[٣]

وقيل: نزلت في أهل العقبة فإنّهم ائتمروا أن يغتالوا ويقتلوا رسول الله في عقبة عند مرجعهم من تبوك وقصدوا أن يقطعوا أنساع راحلته، ثمّ ينخّسوا بها فاطّلعه الله على ذلك وكان ذلك من جملة معجزاته لأنّه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلّا بوحي من الله. أظهر الله أسرار المنافقين فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ كاذبين ﴿مَا قَالُوا﴾ ما حكي عنهم. ثمّ حقّق عليهم ذلك

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ سورة المنافقون: ٨.

وأقسم بأنّهم قالوا وطعنوا في الإسلام وكفروا بعد إظهار إسلامهم. ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ الأمر إمّا همّهم بفتك الرسول ليلة العقبة والتنفير لراحلته وإمّا قصدهم بإخراج النبيّ من المدينة أو الفساد والتضريب بين أصحابه. ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ﴾ أي: فعلوا بخلاف ما يقتضي فإنّ إغناءهم يوجب شكر النعمة وأنّهم قابلوا الشكر بالكفران والنقمة فإنّه قبل ذلك كانوا في ضنك العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة، وبعد قدومه ﷺ أخذوا الغنائم ووجدوا الدولة وذلك يوجب أن يكونوا محبّين له، وهم قابلوا بالنقمة والفساد. وهذا كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

ثمّ قال: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ هؤلاء المنافقون خير لهم وإن يعرضوا عن الحقّ يعذّبهم الله عذاباً أليماً وليس لهم وليّ ولا ناصر.

وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

ومن المنافقين من عاهد الله. نزلت في ثعلبة بن خاطب قال لرسول الله: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً فقال ﷺ: **«يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه»**. فراجعه وقال: والّذي بعثك بالحقّ لئن رزقني الله مالاً لأعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه.

فدعا له فاتّخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود حتّى ضاقت بها المدينة

فنزل وادياً بها فجعل يصلّي الظهر والعصر ويترك ما سواهما، ثمّ نمت وكثرت حتّى ترك الصلاة إلّا الجمعة ثمّ ترك الجمعة وطفق يسأل الركبان ويتلقّى الركبان عن الأخبار؛ فسأل رسول الله عنه، فأخبره بخبره فقال: يا ويح ثعلبة فنزل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ فبعث إليه برجلين وقال: «**مرّا بثعلبة وخذا صدقاته**» فعند ذلك قال ثعلبة لهما: ما هذه إلّا جزية أو اخت الجزية ولم يدفع الصدقة، فأنزل الله هذه الآية.[1] فقيل له: قد أنزل الله فيك كذا وكذا فأتى رسول الله وسأله أن يقبل صدقته فقال ﷺ: «**إنّ الله منعني من قبول صدقتك**». فحثا التراب على رأسه فقال ﷺ: «**قد قلت لك فما أطعتني**» فرجع إلى منزله وقبض رسول الله.[2]

وقيل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة كان له مال بالشام وأبطأ عليه وجهد لذلك جهدا شديداً فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصّدّقنّ فآتاه الله ذلك ولم يفعل. و«المعاهدة» أن تقول: عليّ عهد الله لأفعلنّ كذا أو عاهدت الله لأفعلنّ كذا فإنّه بذلك قد عقد على نفسه وجوب ما ذكره وقصده.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم﴾ وأعطاهم الله ما اقترحوه ﴿بَخِلُوا بِهِۦ﴾ أي: شحّت نفوسهم عن الوفاء بالعهد ﴿وَتَوَلَّوا﴾ عن ما عهدوا ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن أمر الله ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ وأورثهم بخلهم بما أوجبوا على أنفسهم ﴿نِفَاقًا﴾ في قلوبهم فصار البخل سبباً لحصول النفاق في قلوبهم بحرمان التوبة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي: يلقون جزاء البخل ونقض العهد أو يوم يلقون الله وهو اليوم الآخر. وهذا إخبار من الله أنّ هؤلاء المنافقين يموتون على الكفر بما أخلفوا الله ما وعدوه وبتكذيبهم أحكامه. ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا﴾ هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّ

١ـ جوامع الجامع، ج ٢، ص ٨٢؛ ومستدرك الوسائل، ج ١٣، ص ٢٥٦؛ وبحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٤٠.
٢ـ انظر: جامع البيان، ج ١٠، ص ٢٤٢.

﴿ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ ما يخفون في أنفسهم وما يتناجون بينهم؟ أي: يجب أن يعلموا أنّه عالم بكلّ ما غاب عن علم كلّ عالم.

ثمّ هاهنا مسألة هل من شرط المعاهدة أن يحصل التلفّظ بها باللسان أولا حاجة إلى التلفظ حتّى لو نواه بقلبه فهو داخل في هذا العهد؟ قال جماعة: إنّ أصحاب هذا القول الّذي بالنيّة ينعقد العهد قالوا: إنّ قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ كان شيئاً نووه في أنفسهم ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾؟ وقال المحقّقون: هذه المعاهدة مقيّدة بالتلفّظ والدليل عليه قوله ﷺ: **«إنّ الله قد عفى عن أمّتي ما حدثت به نفوسها ولم يتلفّظوا به».**[1] وأيضاً فقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إخبار عن من تكلّمه فهذا القول وظاهره مشعر بالقول باللسان.

قال النبيّ ﷺ: **«ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صلّى وصام وزعم أنّه مؤمن: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».**[2] وعنه ﷺ قال: **«تقبّلوا لي ستّاً أتقبّل لكم الجنّة: إذا حدّثتم فلا تكذبوا، وإذا وعدتم فلا تخلفوا، وإذا ائتمنتم فلا تخونوا، وكفّوا أبصاركم وأيديكم وفروجكم أبصاركم عن الخيانة وأيديكم عن السرقة وفروجكم عن الزنا».**[3]

ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

سبب النزول: قال ابن عبّاس: إنّ رسول الله خطبهم ذات يوم وحثّ

١ـ مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٧٨.
٢ـ من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٦١.
٣ـ انظر: مجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٣٠١.

على صدقات القوم فجاءه عبد الرحمن بصرّة من دراهم تملأ الكفّ منها، وجاء عاصم بن عديّ الأنصاريّ بسبعين وسق من التمر وجاء علبة بن زيد الحارثيّ بصاع من تمر وقال: آجرت نفسي ليلتي الماضية لرجل لإرسال الماء على نخيله فأخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي وأقرضت الآخر ربّي فأمر النبيّﷺ بوضعه في الصدقات، فقال المنافقون على وجه الطعن: ما جاءوا بصدقاتهم إلّا رياء وسمعة وأمّا أبو عقيل فقد جاء بصاعه لتذكر مع سائر الأكابر فعيّبوا على المكثر بالرياء وعلى المقلّ بالقلّة وقالوا: إنّ اللّه غنيّ عن صاعه فنزلت هذه الآية أي: إنّ المنافقين الّذين يعيبون على المطّوّعين المتنفّلين لطاعة اللّه ومرضاته ويعيبون على فقرائهم مثل أبي عقيل الّذي جهده إتيان صاع من تمر ويسخرون منهم بهذا الفعل أولئك قوم اللّه يسخر بهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

قال ابن عبّاس: إنّ عند نزول آية ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ...﴾ في حقّ المنافقين قالوا: يا رسول اللّه استغفر لنا. فقال النبيّﷺ: «**سأستغفر لكم**» وعزم بالاستغفار لهم فنزلت فتركﷺ الاستغفار.[1]

الصيغة صيغة الأمر والمراد به الإخبار في مبالغة الإياس من المغفرة أي: لو طلبت الاستغفار أو تركته سواء في أنّ اللّه لا يقبلها ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ المراد بالسبعين مرة المبالغة لا العدد المخصوص كقول القائل: لو تقول لي ألف مرّة ما قبلت منك، وجاء في كلام العرب المبالغة في عدد

١ـ انظر: معاني القرآن، ج ٣، ص ٢٣٨.

السبع والسبعين، ولهذا قيل: للأسد السبع لأنّهم تأوّلوا منه لقوّته أنّه ضوعفت له سبع مرّات، وأمّا ما روي أنّه ﷺ قال: «**والله لأزيد على السبعين**»[1] فإنّه خبر واحد لا يعوّل عليه.[2]

ويحتمل أن يكون النبيّ ﷺ يرجو أن يكون لهم لطف يصلحون به فعزم على الاستغفار لهم فلمّا نزلت الآية عرف أنّه ليس لهم لطف وترك العزم. ويحتمل أن يكون قد استغفر لهم قبل أن يخبر بأنّ الكافر لا يغفر له أو قبل أن يمنع منه ويجوز أن يكون استغفاره لهم واقعاً بشرط التوبة عن الكفر، فمنعه الله منه وأخبره بأنّهم لا يؤمنون أبداً فلا فائدة في الاستغفار لهم.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ حرمان المغفرة لهم بكفرهم بالله ورسوله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)﴾

بيان نوع آخر من قبائح أفعال المنافقين أخبر سبحانه أنّ جماعة منهم الّذين خلّفهم رسول الله ولم يخرجهم معه إلى تبوك لمّا استأذنوه في التأخير والقعود فأذن لهم فرحوا بقعودهم عن الجهاد خلاف رسول الله أي: بعده.

١ـ التبيان، للطوسي، ج ٥، ص ٢٦٨.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

وقيل: معناه لمخالفتهم الرسول ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ ومقصودهم صدّ المسلمين عن الغزو وكانوا يقولون للمسلمين: لا تخرجوا إلى الغزو سراعاً في هذا الحرّ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ الّتي وجبت لهم بالتخلّف عن الرسول وأمر اللّه ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ من هذا الحرّ فهي أولى بالاحتراز، إذ لا يعتد بهذا الحرّ بالنسبة إلى ذلك الحرّ ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ وعيد اللّه ووعده. فلو قيل: إنّ هؤلاء المنافقين كانوا متخلّفين لأنّهم احتالوا في التخلّف فكان الأولى أن يقال: فرح المتخلّفون وأجابوا بأنّ النبيﷺ منع أقواماً من الخروج معه لعلمه بأنّهم يشوّشون ويفسدون فحينئذ كانوا مخلّفين لا متخلّفين. ثمّ هؤلاء المتخلّفين صاروا مخلّفين في الآية الآتية وهي قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ فلمّا منعهم اللّه من الخروج معه صاروا بسبب المنع مخلّفين.

وقوله: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ قال ابن عبّاس: يريد المدينة فعلى هذا «المقعد» اسم للمكان، وقال غيره: بمقعدهم أي: بقعودهم وعلى هذا اسم للمصدر «وخلاف» قيل: معناه خلف أي: بعد «رسول اللّه» وعلى هذا الخلاف اسم للجهة المعيّنة كالخلف الّذي يقابل القدّام في المعنى، وأنّ الإنسان متوجّه إلى قدّامه فجهة خلفه مخالف لجهة قدّامه في كونها جهة متوجّها إليها.

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ هذا تهديد لهم في صورة الأمر أي: فليضحك هؤلاء المنافقون في الدنيا قليلاً لأنّ ذلك يفنى وإن دام إلى الموت وليبكوا كثيراً في الآخرة لأنّ ذلك يوم مقداره خمسين ألف سنة وهم فيه يبكون فصار بكاؤهم كثيراً جزاء بما كسبوا من النفاق والكفر والتخلّف عن الجهاد.

قال ابن عبّاس: إنّ أهل النفاق في النار عمر الدنيا فلا يرقى لهم دمع

ولا يكتحلون بنوم. وروى أنس بن مالك عن رسول اللّهﷺ أنّه قال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**».(١)

قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ يا محمّد وردّك من غزوتك هذه أي: غزوة تبوك إلى طائفة منهم أي: من هؤلاء المنافقين الّذين تخلّفوا عنك وعن الخروج معك واستأذنوك للخروج معك في غزوة اخرى ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ إلى غزوة ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾.

ثمّ بيّن سبحانه سبب ذلك فقال: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي عن غزوة تبوك ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ بعد هذا في كلّ غزوة قيل: معناه مع الصبيان والنساء وقيل: مع الّذين تخلّفوا من غير عذر وقيل: أي: مع الخالفين قال الفرّاء: يقال: عبد خالف إذا كان مخالفاً. وقيل: معناه اقعدوا مع الأخسّاء والأدوناء يقال: فلان خالفة أهله إذا كان أدونهم أو فاسدهم، ومنه خلوف فم الصائم إذا تغيّرت وفسدت رائحته.

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾

المراد من الآية تحذير المنافقين لأنّ في الآية السابقة منعهم عن الخروج مع النبيّﷺ وفي هذه الآية منع الرسول من أن يصلّي على من مات منهم وهذا سبب قويّ في إذلالهم وإهانتهم.

قال ابن عبّاس: إنّه لمّا مرض عبد اللّه بن أبيّ بن أبي سلول عاده رسول اللّه فطلب منه أن يصلّي عليه إذا مات ويقوم على قبره.

ثمّ إنّه أرسل إلى الرسول فطلب منه قميصه ليكفّن فيه فأرسلﷺ

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٩٩؛ وللحلّي، ج ٢، ص ٣٤٣؛ ومسالك الإفهام، الشهيد الثاني، ج ١١، ص ٢٩١؛ وجواهر الكلام، ج ٣٥، ص ٣٤٤.

القميص الفوقانيّ فردّه وطلب منه الّذي يلي جلده ليكفن فيه فقال عمر: لم تعطي قميصك الرجس النجس فقال: «**إنّ قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً فلعلّ الله أن يدخل به ألفاً في الإسلام**» وكان المنافقون لا يفارقون عبد اللّه فلمّا رأوه يطلب القميص ويرجو أن ينفعه أسلم منهم يومئذ ألف كما ظنّ رسول اللّه ببركة الثوب فلمّا مات عبد اللّه جاء ابنه وهو اسمه عبد اللّه ـ وكان مؤمناً ـ وقال لرسول اللّه: إنّ أبي مات، فقال ﷺ له: «**صلّ عليه وادفنه**» فقال: إن لم تصل عليه لم يصلّ عليه مسلم. فقام ﷺ ليصلّي عليه فنزلت الآية.[١]

فإن قيل: كيف يجوز أن يقال: إنّ رسول اللّه رغب في أن يصلّي عليه بعد أن علم كونه كافراً وقد مات على كفره وإنّ صلاة الرسول تجري مجرى الإجلال والتعظيم له وذلك محظور لأنّ اللّه أعلمه أنّه لا يغفر للكفّار البتّة وكذلك دفع القميص إليه؟. الجواب: لعلّ السبب فيه أنّه لمّا طلب من الرسول ﷺ أن يرسل إليه قميصه غلب على ظنّه أنّه انتقل إلى الإيمان لأنّ هذا الطلب أمارة للإيمان وذلك وقت يتوب فيه الفاجر ويؤمن فيه الكافر فلمّا رأى منه هذا الأمر غلب على ظنّه أنّه أسلم ورغب في أن يصلّي عليه فلمّا نزل جبرئيل عليه السلام وأخبره أنّه مات على كفره ونفاقه امتنع من الصلاة عليه.

وأمّا دفع القميص إليه فذكروا فيه وجوهاً. قيل: إنّ العبّاس عمّ النبي ﷺ لمّا أخذ أسيراً يوم بدر لم يجدوا له قميصاً وكان رجلاً طويلاً فكساه ذلك اليوم عبد اللّه قميصه. وقيل: إنّ المشركين يوم صلح الحديبية قالوا لعبد اللّه: إنّا لانقاد لمحمّد ﷺ، ولكنا ننقاد لك، فقال: لا إنّ لي في رسول اللّه أسوة حسنة، فشكر رسول اللّه ﷺ له ذلك ثمّ إنّ اللّه سبحانه أمره

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٠٠.

أن لا يردّ السائل بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[1] فدفعه لهذا المعنى. ومنع القميص لا يليق بأهل الكرم. على أنّ ابنه عبد اللّه كان من صلحاء الصحابة وأنّ الرسول أكرم ابنه بهذا الأمر. ولعلّ اللّه أوحى إليه: إذا دفعت إليه قميصك صار ذلك الأمر حاملاً لإسلام ألف نفر من المنافقين ففعل ذلك لهذه المصلحة وقد أسلم ألف.

﴿ وَلَا تُصَلِّ﴾ أي: لا تصلّ على من مات على الكفر أبدا ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ لأنه ﷺ كان إذا دفن الميّت وقف على قبره ودعا له فمنع منه.

وعلّل المنع بسبب أنّهم ماتوا على الكفر والفسق ولمّا علل المنع بسبب الكفر فما الفائدة في وصفه إيّاهم بالفسق والفسق أدنى من الكفر؟ فالجواب أنّ الكافر قد يكون عدلاً في دينه وقد يكون خبيثاً ممقوتاً بالنفاق والخداع والكذب والمكر فهؤلاء كانوا كذلك ولذا وصف الفسق. ويوضح بأنّ طريقة النفاق طريقة قبيحة عند أهل العالم.

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

اعلم أنّ هذه قد سبق ذكرها في هذه السورة ثمّ ذكرت هاهنا مع تفاوت في الجملة، ففي الآية الأولى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾ بالفاء، وهاهنا بالواو. وفي الآية الأولى: ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ وهاهنا كلمة «لا» محذوفة. وفي الآية الأولى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ وهنا ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾ وهناك: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهنا «الحياة» محذوفة والمعنيان متقاربان فما الحكمة في التكرير؟ وهي أنّ أشدّ الأشياء جذباً للقلوب في الاشتغال بالدنيا هو الإعجاب

١ـ سورة الضحى: ١٠.

والاشتغال بالأموال والأولاد وما كان كذلك يجب التحذير والتنبيه عليه مرّة بعد اخرى وهذا التكرير للمبالغة في التحذير.

ثمّ إنّه لمّا كان أحبَّ الأشياء للرجل المؤمن في المطلوبيّة الرجاء والغفران أعاد اللّه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ في سورة النساء مرّتين للتصريح كذلك مع الإعجاب بالمال والأولاد هاهنا مرّتين للمبالغة والتنبيه على لزوم هذا الأمر.

وقيل: التكرير أراد بالأولى قوماً من المنافقين لهم أموال في وقت نزول الآية وأراد بهذه الآية أقواماً آخرين، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام مختلفين في أوقات مختلفة لم يكن ذكره تكراراً بل يجب ذكره وقد ذكرنا أنّ الإرادة تعلّقت بالإزهاق لا بالكفر في تفسير الآية السابقة.

وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾

في هذه الآية بيان تقاعد رؤساء المنافقين عن الجهاد والسورة تطلق على تمام السورة وعلى بعضها كما أنّ القرآن والكتاب يقع على كلّه وعلى بعضه، أي: متى نزلت آية أو سورة مشتملة على الأمر بالإيمان وبالجهاد مع الرسول استأذن أولو الثروة والمال منهم في التخلّف عن الغزو وقالوا لرسول اللّه: ﴿ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أي: مع الضعفاء والساكنين في البلد وفي تخصيص أولي الطول بالذكر أنّ الذمّ لهم ألزم لكون وجود القدرة على الجهاد والسفر وأنّ من لا مال له ولا قدرة له على السفر لا يحتاج إلى الاستيذان غالباً.

ثمّ عيّرهم بقوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ قال الفرّاء: الخوالف

عبارة عن النساء الّتي تخلّفن في البيت فلا يبرحن وقد ذكرنا قبيل هذا معنى الخالف. وكان يصعب على المنافقين هذا التشبيه وعلى العرب. ثمّ قال: سبحانه: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ومعنى الطبع ذكر مراراً في القرآن وهو عبارة عن بلوغ القلب في الميل إلى الكفر إلى الحدّ الّذي لا يقبل الإيمان وعلامة وسواد في القلب يحصل في القلب بسبب اختيار الكفر بحيث إنّه لا يعالج ولا يفقهون حكمة اللّه.

لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

لمّا بيّن حال المنافقين في التخلّف عن الجهاد والدوام على النفاق بيّن في هذه الآية أنّ حال الرسول والّذين آمنوا به على سبيل الحقيقة بالضدّ حيث بذلوا الأموال والأنفس في طلب مرضاة اللّه، أي: إذا تخلّف المنافقون فقد توجّه إلى القبول من هو خير منهم وأخلص عقيدة ونيّة.

فذكر ما حصل للمؤمنين به من الفوائد بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ ولفظ ﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ يتناول منافع الدارين وقيل: المراد من الخيرات الحور العين لقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾.[1] ثمّ قال: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: متخلّصون من العذاب والعقاب. ثمّ قال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ بسبب قبولهم هذه المرتبة العالية والدرجات الرفيعة.

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

١ـ سورة الرحمن: ٧٠.

هذه الآية شرح حال المنافقين الّذين كانوا خارجين من المدينة من أعراب البوادي. «المعذر» بالتخفيف الّذي له عذر، وبالتشديد الّذي يعتذر بلا عذر وقال: (لعن اللّه المعذّرين) وقرئ «معذورون» فمن قرأ بالتخفيف أراد الّذين باقون بالعذر ومن قرأ بالتشديد احتمل أمرين: أحد هما: أن يكون المراد المعتذرون سواء كان لهم عذر أو لم يكن وإنّما أدغمت التاء في الدال لقرب مخرجهما والثاني: المقصّرين من التعذير.

صنّف اللّه الأعراب صنفين: صنف اعتذروا بالباطل وليس لهم عذر وصنف قعدت عن الاعتذار وما اعتذروا مطلقاً لا بباطل ولا بحقّ جرأة على اللّه. وقيل: إنّ الصنف الأوّل اعتذروا بالحقّ وكان لهم عذر وهم نفر من بني غفار ويدلّ على هذا المعنى قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فدلّ على أنّ الأولين كانوا صادقين. قيل: معناه أنّ الأوّلين تصوّروا بصورة العذر وليسوا كذلك وكلا الفريقين كانوا كاذبين. سيصيب الّذين لا عذر لهم وكفروا عذاب موجع.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

لمّا بيّن الوعيد في حقّ من توهّم الإعذار مع أنّه لا عذر له بيّن أصحاب الأعذار المقبولة أنّه ليس عليهم حكم الجهاد وهم معذورون في الحقيقة وهم أقسام. الأوّل: الصحيح في بدنه الضعيف مثل الشيوخ ومن خلق

في أصل الخلقة ضعيفاً نحيفاً وهم المرادون بالضعفاء، والدليل عليه أنّه عطف عليهم المرضى والمعطوف مباين للمعطوف عليه. وأمّا المرضى فيدخل فيهم أصحاب العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكّن من المحاربة. والقسم الثالث الّذين لا يجدون الأهبة من الزاد والراحلة لأنّ حضوره في الغزو إنّما ينفع إذا قدر على أمر يعينه، فإن لم تحصل قدرة له صار كلّاً ووبالاً على المجاهدين حتّى يمكن أن يمنعهم وجوده من الاشتغال بالمقصود فقال: سبحانه: لا حرج على هؤلاء أي: يجوز أن يتخلّفوا عن الجهاد لكن ليس في الآية ما يدلّ على تحريم خروجهم لأنّ الواحد منهم لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القوّة إمّا بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط أن لا يكون كلّاً كان ذلك طاعة مقبولة.

ثمّ إنّه شرط في جواز هذا التأخير ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إذا أقاموا بالبلد احترزوا عن إلقاء الأراجيف وإثارة الفتنة وسعوا في إيصال الخير إلى المجاهدين الّذين سافروا إمّا بأن يقوموا بإصلاح مهمّات بيوتهم إلى المجاهدين فإنّ جملة هذه الأمور إعانة على الجهاد.

ثمّ قال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ وقد اتّفقوا على أنه دخل تحت قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هو أنه لا إثم عليه بسبب القعود عن الجهاد.

واختلفوا في أنّه هل يفيد العموم في كلّ الوجوه أم لا: فمنهم من زعم أنّ اللّفظ مقصور على هذا المعنى لأنّ هذه الآية نزلت فيهم. ومنهم من زعم أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب وقالوا: المحسن هو الآتي بالإحسان، ورأس أبواب الإحسان قول: لا إله إلّا اللّه فكلّ من قالها واعتقد بها كان من المسلمين ومن المحسنين فهذه الآية بعمومها يقتضي أنّ الأصل في كلّ مسلم عدم توجّه الغير عليه في نفسه أو ماله أو عرضه إلّا بدليل

منفصل فتصير هذه الآية بهذا الطريق أصلاً معتبرا في الشريعة في تقرير أنّ الأصل براءة الذمّة فإن ورد نصّ خاصّ يدلّ على وجوب حكم خاصّ في واقعة خاصّة قضينا بذلك النصّ تقديماً للخاصّ على العامّ وإلّا فهذا النصّ كاف في تقرير البراءة الاصليّة. وهذا تقرير أصحاب الظواهر مثل داود الإصفهانيّ وأصحابه ونفاة القياس.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ ...﴾ فإن قيل: أليس هؤلاء داخلون تحت قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ فما الفائدة في إعادته؟ نعم فيه فرق لأنّ الّذين لا يجدون هم الفقراء الّذين ليس لهم النفقة وهؤلاء المذكورون في قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ﴾ هم الّذين ملكوا قدر النفقة إلّا أنّهم لم يجدوا المركوب.

قال مجاهد: هم ثلاثة إخوة: معقل وسويد والنعمان بنو مقرن سألوا النبيّ ﷺ أن يحملهم على الخفاف المدبوغة والنعال المخصوفة، فقال ﷺ: «**لا أجد ما أحملكم عليه فتولّوا وهم يبكون**»[1] قال ابن عبّاس: سألوا أن يحملهم على الدوابّ فقال: لا أجد ما أحملكم عليه لأنّ الشقّة[2] بعيدة والرجل يحتاج إلى بعيرين بعير يركبه وبعير يحمل عليه ماءه وزاده.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُ﴾ لمّا نفى السبيل عن الفقراء والمرضى في الآية السابقة أثبت في هذه الآية أنّ السبيل المنفيّ عنهم ثابت في هؤلاء المنافقين الأغنياء الّذين يستأذنوك في التخلّف. «ورضوا» جملة مستانفة أي رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف وطبع على قلوبهم وبسبب الطبع لا يعلمون شيئاً.

١ـ جامع البيان، ج ١٠، ص ٢٦٩.

٢ـ المسافة البعيدة.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ
فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

سبب النزول: نزلت في جماعة من المنافقين وهم جندب بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وهم ثمانون رجلاً ولمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة راجعاً من تبوك قال: «**لا تجالسوا هؤلاء القاعدين المتخلّفين ولا تكلّموهم**». وقيل: نزلت في عبد الله وأصحابه حلف للنبيّ أن لا يتخلّف عنه بعدها وطلب إلى النبيّ ﷺ أن يرضى عنه.

هؤلاء المتأخّرون القاعدون عن الجهاد مع النبيّ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ من من تأخّرهم عنكم بالمعاذير والأباطيل الكاذبة ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى المدينة من تبوك ﴿قُل﴾ يا محمّد: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا﴾ لسنا نصدّقكم على ما تقولون ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وحقيقة أمركم فأعلمنا كذبكم بقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ﴾ رسوله فيما بعد ﴿عَمَلَكُمْ﴾ هل تتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ثمّ ترجعون بعد الموت إلى الله سبحانه الّذي يعلم ما غاب وما حضر ليجزيكم بأعمالكم كلّها حسنها وقبيحها فيجازيكم عليها أجمع. ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ أي سيقسم: هؤلاء المنافقون ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون إذا رجعتم إليهم أنّهم إنّما يحلفوا العذر وهذه اليمين الكاذبة لأجل أن تصفحوا عنهم حيث إنّ الرسول أمر الأصحاب أن لا يجالسوهم ولا يكلّموهم.

ثمّ أمر الله نبيّه والمؤمنين فقال: ﴿فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡ﴾ أعراض ردّ وإنكار ومقت. ثمّ بيّن سبحانه عن سبب الإعراض فقال: ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞ﴾ أي: نجس أي: إنّهم كالشيء الّذي هو نفس النجاسة والقذارة فاجتنبوهم كما تجتنبون النجاسة. ثمّ قال: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ فإن رضيتم عنهم لجهلكم بحالهم فإنّ الله لا يرضى عن من خرج من دينه أي: لا ترضوا عنهم وباعدوهم كما تجتنبون من النجاسات أي: إنّ ظاهرهم نجس وباطنهم أيضاً خبث ونجس فكما أنّه يجب التحرّز عن الأرجاس الجسميّة كذلك يجب الاجتناب عن الأرجاس الروحانيّة بل أولى خوفاً من سريانها إلى الإنسان وحذراً من أن يميل الطبع إلى تلك العقائد والأعمال. ثمّ قال: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ﴾ على ما اكتسبوا من النفاق والكفر.

وهذه المعاني مذكورة في الآية السابقة وقد أعادها الله هاهنا مرّة اخرى يمكن أن يكون الأوّل خطاباً مع المنافقين الّذين كانوا في المدينة وهذه الآية خطاب مع المنافقين من الأعراب وأصحاب البوادي ولمّا كانت طرقهما متقاربة من أهل الحضر والبوادي لا جرم كان الكلام معهما على مناهج متقاربة ويؤيّد هذا التأويل آية بعدها.

ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾

«رجل عربيّ» إذا كان من العرب وإن سكن البلاد، و«رجل أعرابيّ» إذا كان ساكناً في البادية والعرب صنفان عدنانيّة وقحطانيّة والفضل للعدنانيّة برسول الله، يقال: رجل عربيّ إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب. ورجل أعرابيّ إذا كان بدويّاً يطلب مساقط الغيث والكلاء سواء كان من العرب أو

من مواليهم، ويجمع الأعرابيّ على الأعراب والأعاريب فالأعرابيّ إذا قيل له: يا عربيّ فرح، والعربي إذا قيل له: يا أعرابيّ غضب فالعرب سكّان الأمصار والأعراب سكّان البوادي. وإنّما سمّي العرب عربا قيل: لأنّ أولاد إسماعيل نشئوا بعربة وهي موضع تهامة فنسبوا إلى موطنهم وقيل: سمّي العرب عرباً لإبانة كلامهم وفصاحة نطقهم لأنّ ألسنتهم معربة عمّا في ضمائرهم.

قيل: إنّ حكمة الروم في أدمغتهم وحكمة الهند في أوهامهم، وحكمة اليونان في أفئدتهم لكثرة مالهم من المباحث العقليّة، وحكمة العرب في ألسنتهم وذلك لجزالة ألفاظهم وعذوبة عباراتهم كقوله مثلاً: لا وأيّد اللّه الأمير. شرح اللّه حال منافقي الأعراب بأنّهم أشدّ كفراً ونفاقاً لأنّهم يشبهون الوحوش ثمّ استيلاء الهواء الحارّ اليابس عليهم وذلك يوجب مزيد التكبّر والنخوة والفخر. على أنّهم ما كانوا تحت سياسة سائس ولا تأديب مؤدّب فنشؤوا كما شاؤوا ومن كان كذلك خرج على أشدّ الجهات من الفساد ومن أصبح وأمسى شاهدا لمشاهد المجرّبين المهذّبين، وتأديبات المحاضر الكاملة كيف يكون مساوياً لمن كان حليّه الودعم، وعطره القطران، وصيده اليربوع الأرول وإذا أردت أن تعرف الفرق بينهما قابل الفواكه الجبليّة بالفواكه البستانيّة فحينئذ هؤلاء أولى بالجهل وأجدر بأن لا يعرفوا حدود أحكام اللّه من الحلال والحرام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يحكم عليهم.

﴿وَمِنَ﴾ منافقي ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾ من يعتقد أنّ الّذي ينفقه في سبيل اللّه غرامة وخسران ـ و«المغرم» مصدر كالغرامة ـ لأنّه لا ينفقه إلّا تقيّة ورياء لا لابتغاء ثوابه وينتظر بكم الموت والقتل وبتوقّع أن تنقلب الأمور عليكم بموت الرسول ويظهر عليكم المشركون فأعاده سبحانه إليهم فقال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ والدائرة إمّا صفة أو مصدر كالعاقبة والعافية والصفة أكثر

استعمالاً وهي خلّة تحيط بالإنسان بحيث لا يكون للإنسان منها مخلص، وأضيف إلى السوء على وجه التأكيد والزيادة ولو لم يضف لعلم هذا المعنى كقولك شمس النهار.

و«السوء» قرئ بضم السين وبفتح السين، فبالفتح المصدر وبالضمّ الاسم أي عليهم دائرة البلاء والعذاب وإحاطته أي: يكونون محاطون بالعذاب والبلاء والمضرّة ويدور عليهم البلاء فلا يرون في محمّد وأصحابه إلّا ما يسوؤهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بأقوالهم و﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتهم.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾

لمّا بيّن في الآية السابقة أنّ من الأعراب من يتّخذ ما ينفق مغرماً بيّن في هذه الآية أنّ منهم قوماً مؤمنين صالحين مجاهدين يتّخذ إنفاقه في سبيل اللّه مغنماً. وفي هذا البيان دلالة على أنّ الأصل في جميع الطاعات الإيمان باللّه ورسوله. ثمّ في البيان دلالة على أنّه شرط في جميع أقسام الإنفاق في سبيل اللّه أن يكون خالصاً لوجهه.

و«قربات» مفعول ثان ليتّخذ أي: ما ينفقه لأجل القربات و«القربات» جمع قربة أي يتقرّب إلى اللّه بإنفاقه ويطلب به رضاه ويطلب به دعاء الرسول بالخير والبركة.

﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: انتبهوا أنّ أدعية الرسول يقرّبهم إلى اللّه وإلى ثوابه ويمكن أنّ الضمير راجع إلى النفقات أي: النفقات سبب تقرّب رضاء اللّه. وهذه شهادة من اللّه للمتصدّق بحصول القرب إذا كان خالصاً لوجهه وأكّدها بحرف التنبيه ثمّ بحرف التحقيق وهو قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ ثمّ زاد في التأكيد

بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾. ومعلوم أنّ إدخال حرف السين يوجب مزيد التأكيد. وقرئ «قربة» بضمّ الراء وهو الأصل ثمّ خففت نحو كتب ورسل وطنب.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)

لمّا ذكر أنّ بعض الأعراب صالحون في الآية السابقة شرح في هذه الآية أنّ بعضاً منهم أعلى درجة في الفضل وهم السابقون الأوّلون قال ابن عبّاس: هم الّذين صلّوا إلى القبلتين وشهدوا بدراً. وعن الشعبيّ: هم الّذين بايعوا بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية.

وقيل: الّذين أسلموا قبل الهجرة ونصروا رسول اللّه وكذلك الّذين اتّبعوا المهاجرين الأوّلين بالدخول في الإسلام ومتابعة منهاجهم وسلوك مدارجهم ويدخل في ذلك من يجيء بعدهم بشرط متابعتهم إلى يوم القيامة هؤلاء الجماعة الموصوفون بهذه الكيفيّة رضي اللّه عنهم بقبولهم الإسلام وأوامر الرسول وهم رضوا عن اللّه لمّا أجزل لهم الثواب.

وقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ﴾ خبر لقوله: ﴿السَّابِقُونَ﴾ ﴿وَأَعَدَّ﴾ اللّه ﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ يبقون فيها منعّمين ببقاء اللّه ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الّذي يصغر في جنبه كلّ نعيم.

وأوّل من أسلم عندنا عليّ عليه السلام من الرجال وخديجة من النساء[١] وبه قال ابن عبّاس وجابر بن عبد اللّه وأنس بن مالك وزيد بن أرقم ومجاهد

١ـ انظر: الغدير، ج ٣، ص ١٩٥؛ وضوء النبي، ج ١، ص ٢٣٥.

وقتادة وأبي إسحاق وجماعة كثيرة غيرهم قال أنس: بعث النبيّ صلى الله عليه وآله يوم الاثنين وصلّى عليّ عليه السلام وأسلم يوم الثلاثاء، أسلم وهو ابن عشر سنين. وكان عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله أخذه من أبي طالب وضمّه إلى نفسه يربيه في حجره وكان معه قبل أن يبعث[1] صلى الله عليه وآله وقيل: أسلم وهو ابن تسع سنين. وقيل: اثنتي عشرة سنة وهو الصحيح.[2]

وفي تفسير الثعلبيّ روى إسماعيل بن أياس بن عفيف عن جدّه عفيف قال: كنت امرءاً تاجراً فقدمت مكّة أيّام الحجّ فنزلت على العبّاس بن عبد المطّلب وكان العبّاس لي صديقاً وكان يختلف إلى اليمن يشري العطر ويبيعه في أيّام الموسم، بينما أنا والعبّاس بمنى إذ جاء رجل شابّ حين حلقت الشمس في السماء فرمى ببصره إلى السماء ثمّ استقبل الكعبة فقام مستقبلها فلم يلبث حتّى جاء غلام عن يمينه فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشابّ فركع الغلام والمرأة فخرّ الشابّ ساجداً فسجدا معه فرفع الشابّ فرفع الغلام والمرأة فقلت: يا عبّاس أمر عظيم فقال: أمر عظيم فقلت: ويحك ما هذا؟ قال: هذا ابن أخي محمّد بن عبد الله يزعم أنّ الله بعثه رسولاً وأنّ كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه وهذا الغلام عليّ بن أبي طالب وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجة محمّد بايعاه على دينه وأيم الله ما على ظهر الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء فقال: عفيف الكنديّ بعد ما أسلم: ليتني كنت رابعهم.[3]

وروي أنّ أبا طالب قال لعليّ: أي: بنيّ ما هذا الّذي أنت عليه؟ قال: يا

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١١٢.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه . الطبقات الكبري، ج ٨، ص ١٨.

أبتاه آمنت بالله ورسوله وصدّقت محمّداً فيما جاء به وصلّيت معه لله فقال له: ألا إنّ محمّداً لا يدعو إلّا إلى خير فألزمه.(١)

وروى عبد الله بن موسى عن العلاء بن صالح عن المنهال بن عمر عن عبّاس بن عبد المطّلب قال: سمعت عليّاً عليه السلام يقول: أنا عبد الله وأخو رسوله أنا الصدّيق الأكبر لا يقولها بعدي إلّا كذّاب مفتر صلّيت قبل الناس بسبع سنين.(٢)

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

كان جماعة حول المدينة من الأعراب وهم أربع قبائل: أسلم وأشجع وجهينة وغفار.

المراد في الآية ممّن حول المدينة هؤلاء ﴿مَرَدُوا۟﴾ على النفاق و«المارد» العاتي والمتطاول بالكبر والمعاصي و«المرود» الملاسة مأخوذ من الأرض الرملة الّتي لا تنبت شيئا. ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ مع حدسك وصفاء فهمك ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أي: عذاب الدنيا بالقتل والسبي والثاني عذاب القبر. وقيل: المراد بالدبيلة وعذاب القبر. وقيل: إحدى العذابين ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند النزع والآخر عند البعث قبل الورود إلى جهنّم يوكّل بهم عنق من النار في الموقف. وبيان عذاب الدبيلة أنّه صلى الله عليه وآله أسرّ إلى حذيفة اثني عشر رجلاً من المنافقين وقال: ستّة يبتليهم الله بالدبيلة، سراج من نار يأخذ أحدهم حتّى يخرج من صدره وستّة يموتون. ﴿ثُمَّ

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ المصدر السابق نفسه، شرح أصول كافي للمازندراني، ج ٦، ص ٣٧٥.

يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: النار المؤبّدة المخلّدة.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُوا۟﴾ قيل: إنّهم قوم من المنافقين تابوا عن النفاق. وقيل قوم من المسلمين تكاسلوا وتخلّفوا عن غزوة تبوك ثمّ ندموا على ما فعلوا وتابوا. روي أنّهم كانوا عشرة، فسبعة منهم ندموا على قعودهم وتخلّفهم عن الجهاد في غزوة تبوك لمّا بلغهم ما نزل في المتخلّفين فأيقنوا على أنفسهم بالعذاب فأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد فقدم رسول الله فدخل المسجد وصلّى ركعتين.

وهذه كانت عادته لمّا يقدم عن سفر فرآهم موثوقين سأل عنهم فذكر له صلى الله عليه وآله أنّهم أقسموا أن لا يحلّوا أنفسهم حتّى يحلّهم رسول الله فقال صلى الله عليه وآله: «**وأنا اقسم أنّي لا أحلّهم حتّى أومر فيهم**» فنزلت الآية، فأطلقهم صلى الله عليه وآله بعد الآية فقالوا بعد ما انتحلوا: هذه أموالنا وإنّما تخلّفنا عنك بسببها فخذها وتصدّق بها وطهّرنا فقال: «**ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً**» فنزل ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمۡ...﴾.[1]

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُوا۟﴾ المراد بهم من الأعراب وأهل المدينة وليس المراد منهم المنافقين أقرّوا ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾ ويخلطون ويفعلون أفعالاً حسنة وأفعالاً قبيحة. وأتى بكلمة «عسى» حتّى يكونوا بين إشفاق وطمع فيكون ذلك أبعد من الاتّكال على العفو وإهمال التوبة. وفي هذا دلالة على بطلان القول بالإحباط بأنّه لو صحّ الإحباط لكان أحد العملين إذا طرأ على الآخر أحبطه وأبطله فلم يجتمعا فلا يكون لقوله: «خلطوا» معنى. قال بعض التابعين: ما في القرآن آية أرجى لهذه الأمّة من هذه الآية.[2] قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا

١ـ زبدة البيان، المحقق الأردبيلي، ص ١٨٤.

٢ـ وأما عند الائمة عليهم السلام فأرجى آية في القرآن هو قوله تعالى خطاباً لنبيه: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ كما ورد عنهم عليهم السلام.

تعليل لقبول التوبة من العصاة أي لأنّه غفور رحيم. وعن أبي جعفر عليه السلام أنّ هذه الآية نزلت في حقّ أبي لبابة الّذي شدّ نفسه بسارية المسجد لقضيّة بني قريظة وقد ذكر سابقاً.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه وأمره بأخذ الصدقة قيل: المراد بأخذ الصدقة من هؤلاء التائبين تشديداً للتكليف، وليست الصدقة المفروضة الّتي تسمّى بالزكاة وقد أخذ ثلث مال هؤلاء التائبين وترك ثلثي الباقي لهم حيث إنّهم بذلوا جميع مالهم كفّارة أولاً.

وقال جماعة من المفسّرين: المراد من الصدقة في هذه الآية هي الزكاة المفروضة وهو الأصحّ لأنّ حمله على الخصوص بغير دليل لا وجه له فعلى هذا القول أمر سبحانه نبيّه أن يأخذ من المالكين النصاب الزكاة فمن الورق مثلاً إذا بلغ مائتي درهم ربع العشر ومن الذهب إذا بلغ عشرين مثقالاً ومن الغنم إذا بلغت أربعين رأساً ومن الإبل إذا بلغت خمس نفر ومن البقر إذا بلغ ثلاثين رأساً ومن الغلّات والثمار إذا بلغت خمسة أوسق، تطهّرهم تلك الزكاة عن دنس الذنوب وتزكّيهم.

وهاهنا قيل ضمير الخطاب أي: أنت تزكّيهم بأخذك منهم هذا المال. وقيل: معنى الخطاب في كلا الضميرين في الفعلين أي: أنت تطهّرهم وتزكّيهم أي: تدعو لهم بما يصيرون أزكياء مطهّرين.

وقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ هذا أمر للنبيّ أن يدعو لمن أخذ منه الزكاة كقوله: بارك الله لك. وروي أنّه صلى الله عليه وآله كان إذا أتاهم قوم بصدقتهم دعا لهم كما قال: «**اللّهمّ صلّ على آل أبي أوفى حين أتوه بصدقة**».

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ أي: دعواتك رحمة واطمينان لنفوسهم بأنّ اللّه قد قبل منهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بدعائك و﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

لمّا حكى عن القوم الّذين تقدّم ذكرهم أنّهم تابوا عن ذنوبهم وتصدّقوا ولم يذكر إلّا قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وما صرّح سبحانه بقبول التوبة رغّب جميع العصاة ومن لم يتب بالتوبة والطاعة وبشّر هؤلاء بقبول توبتهم. وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ وإن كان بصيغة الاستفهام إلّا أنّ معناه التقرير والأمر.

و«الإله» هو الّذي يمتنع تطرّق الزيادة والنقصان إليه ويمتنع أن يزداد ويتغيّر حاله بطاعة المطيعين وأن ينتقص حاله بمعصية المذنبين، ويمتنع أيضاً أن يكون له شهوة إلى الطاعة ونفرة عن المعصية حتّى يقال: إنّ نفرته وغضبه يحمله على الانتقام، وشهوته وميله يحمله على الإنعام. والمذنب لا يضرّ إلّا نفسه والمطيع لا ينفع إلّا نفسه كما قال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1] وقبول التوبة وردّها راجع إلى اللّه وليس إلى غيره هذا الأمر وقالت المعتزلة: قبول التوبة واجب عقلاً على اللّه. وقالت الأشاعرة: قبول التوبة واجب بحكم الوعد والتفضّل والإحسان، وأمّا عقلاً فلا.

وقوله: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ أي: هو عزّ شأنه أخذ الصدقات وهذا تشريف عظيم لهذه الطاعة، وأضاف الأخذ إلى نفسه كما أضاف التوفّي إلى نفسه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾[2] في الحديث: **«إنّ الله يقبل الصدقة ولا يقبل منها إلّا الطيّب وإنّه يقبلها بيمينه ويربيها لصاحبه كما يربّي أحدكم مهره**

١ـ سورة الإسراء: ٧.

٢ـ سورة الأنعام: ٦٠.

وفصيله، حتّى أنّ اللقمة تكون عند الله أعظم من احد»[١] وقال ﷺ: **«والّذي نفس محمّد بيده ما من عبد مسلم يتصدّق بصدقة فتصل إلى الّذي يتصدق بها عليه حتّى تقع في كفّ الله ويمين الله، وكفّه لا يوصف، ليس كمثله شيء»**.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾

هذه الآية ترغيب عظيم للمطيعين وترهيب عظيم للعاصين أي: اجتهدوا في أعمالكم فإنّ عملكم له حكم في الدنيا وفي الآخرة حكم أمّا في الدنيا فإنّه يراه الله ويعلمه الرسول ويراه المؤمنون فإن كان طاعة حصل منه الثناء العظيم وإن كان معصية حصل منه الذمّ في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة.

فلو قيل: إنّه في قوله: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أنّ عملهم لا يراه كلّ أحد. والجواب أنّه يصل خبر عملهم غالباً إلى الناس قال ﷺ: **«لو أنّ رجلاً عمل عملاً في صخرة لا باب لها ولا كوّة يخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان»**.[٢] ولو أنّ العطف يقتضي التشريك لكنّ التسوية في كلّ مراتب الرؤية فغير لازم، ومعلوم أنّ رؤية الله غير رؤية الرسول ورؤية الرسول غير رؤية المؤمنين. و«الرؤية» إذا عدّيتها إلى مفعول واحد بمعنى الإبصار وإذا عدّيتها إلى مفعولين فمعناه العلم. فإن قيل: ما الفائدة في رؤية المؤمنين أو علمهم؟ الفائدة أنّ المؤمنين شهداء الله يوم القيامة كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[٣] والرسول كذلك شهيد الامّة كما قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٣٦٣.

٢ـ المستدرك، الحاكم النيشابوري، ج ٤، ص ٣١٤.

٣ـ سورة البقرة: ١٤٣؛ الأولى أن يذكر بعده وهو: «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ».

كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[1] والشهادة لا تصحّ إلّا بعد الرؤية ويشهدون يوم القيامة عند حضور الأوّلين والآخرين بأنّكم أهل السداد والرشاد ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويجازيكم بما أسررتم وأعلنتم وما عملتم من خير وشرّ. فحينئذ إذا حملت معنى الرؤية على الإبصار فيكون قوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ معناه أنّ ما يرى منكم يتبيّن نفعه وضرره بعد الردّ إلى عالم الغيب، وإذا حملت على العلم فيكون جملة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ جارياً في مجرى التفسير لقوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾.

وفي هذه الآية دلالة صريحة بأنّ اللّه عالم بالجزئيّات.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

قرئ «مرجون» بالهمزة وبغير الهمزة.

اعلم أنّ اللّه قسّم المتخلّفين عن الجهاد ثلاثة أقسام: أوّلهم المنافقون الّذين مردوا على النفاق وبقوا على نفاقهم. والثاني: التائبون وهم المرادون بقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وبيّن تعالى قبول توبتهم. والقسم الثالث: الّذين بقوا موقوفين، وهم المذكورون في هذه الآية. والفرق بين القسم الثاني والثالث أنّ الثاني سارعوا إلى التوبة، والثالث لم يسارعوا إليها.

نزلت هذه الآية في ثلاثة: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أميّة وكانوا متخلّفين عن الجهاد. قال كعب: أنا أفره أهل المدينة جملاً فمتى شئت لحقت الرسول فتأخّر أياماً وأيس بعدها من اللحوق بهﷺ، فندم على صنيعه وكذلك صاحباه.

فلمّا قدم رسول اللّهﷺ قيل لكعب: اعتذر إليه من صنيعتك. فقال: لا واللّه حتّى تنزل توبتي. وأمّا صاحباه فقد اعتذر إليهﷺ فقالﷺ: «ما

١ـ سورة النساء: ٤١

خلّفكما عنّي؟» فقالا: لا عذر لنا إلّا الخطيئة، فنزلت ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ...﴾ فوقفهم رسول اللّه بعد نزول الآية ونهى الناس عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نسائهم وأرسلهنّ إلى أهلهنّ فجاءت امرأة هلال تسأل أن تأتيه بطعام فإنّه شيخ كبير فأذن ﷺ لها في ذلك خاصّة.

وجاء رسول من الشام إلى الكعب يرغّبه في اللحوق بهم فقال كعب: بلغ من خطيئتي أن طمع فيّ المشركون! قال: فضاقت عليّ الأرض بما رحبت وبكى هلال بن امية حتّى خيف على بصره.

فلمّا مضى خمسون ليلة نزلت توبتهم بقوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ وبقوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ...﴾. وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ﴾. وكلمة «إمّا» للشكّ واللّه منزّه عنه والمراد منه: ليكن أمرهم على الخوف والرجاء فجعل أناس يقولون: هلكوا، وآخرون يقولون: عسى اللّه أن يغفر لهم. وفي هذه الآية دلالة على أنّ قبول التوبة على اللّه ليس بواجب بل هو تفضّل إن شاء قبل وإن لم يشأ لم يقبل لأنّه لو كان قبولها عليه واجباً لما علّقه بالمشيئة وما جاز تعليقه بها.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧﴾

سبب النزول: قال ابن عبّاس وعامّة أهل التفسير: إنّ بني عمرو بن عوف اتّخذوا مسجد قبا وبعثوا إلى رسول اللّه أن يأتيهم فأتاهم وصلّى فيه فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف فقالوا: نبني مسجداً نصلّي فيه ولا نحضر جماعة محمّد ﷺ وكانوا خمسة عشر رجلاً منهم ثعلبة بن خاطب ومعتب بن قشير فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا فلمّا فرغوا منه

أتوا رسول اللّه وهو يتجهّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول اللّه قد بنينا مسجدا لذوي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية[1] وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي فيه لنا وتدعو بالبركة فقال ﷺ: «**إني على جناح سفر فلو قدمنا أتيناكم إن شاء اللّه فصلّينا لكم فيه**» فلمّا انصرف رسول اللّه ﷺ من غزوة تبوك نزلت الآية في شأن المسجد[2] فبيّن أنّ جماعة من المنافقين بنوا مسجداً للتفريق بين المسلمين وطلب الغوائل للمؤمنين. والمسجد في الأصل موضع السجود وفي العرف اسم لبقعة مخصوصة بنيت للصلاة فالاسم عرفيّ فيه علاقة معنى اللغة. ﴿ضِرَارًا﴾ أي: مضارة، أي بنوا هذا المسجد للضرر بأهل مسجد قبا أو مسجد الرسول ليقلّ الجمع فيهما. ﴿وَكُفْرًا﴾ ولإقامة الكفر فيه وليكفروا فيه بالطعن على الرسول والإسلام ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لاختلاف الكلمة وإبطال الالفة عن رسول اللّه في الناس ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: اتّخذوا ذلك المسجد رصداً لهذه الأمور. وأعدّوا هذا المسجد لأبي عامر الراهب وهو الّذي ترهّب في الجاهليّة ولبس المسوح[3] فلمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة حين الهجرة حسده وحزّب عليه الأحزاب وحارب اللّه ورسوله ثمّ هرب بعد فتح مكّة إلى الطائف فلمّا أسلم أهل الطائف لحق بالشام وخرج إلى الروم وتنصّر وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة الّذي قتل يوم احد وكان جنباً فغسلته الملائكة، وسمّى رسول اللّه أبا عامر الفاسق وكان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدّوا وابنوا مسجداً فإنّي أذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود وأخرج محمّداً من المدينة فكان هؤلاء المنافقون يتوقّعون

١ـ اى: ليلة الباردة في الشتاء.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٢٥.

٣ـ جمع المسح: البلاس، ينسج من الشعر ويلبس قهراً للجسد.

مجيء أبي عامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: هؤلاء يحلفون كاذبين ما أردنا ببناء هذا المسجد إلّا الفعلة الحسنى من التوسعة للمسلمين والترفّه للمزمنين والمرضى فأخبر الله نبيه على فساد طويّتهم وخبث سريرتهم ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ بكذبهم فوجّه النبيّ عند قدومه من تبوك عاصم بن عوف العجلانيّ ومالك بن الدخشم فقال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه. وروي أنّه بعث عمّار بن ياسر ووحشيّاً فحرّقاه، وأمر بأن يتّخذ كناسة يلقى فيها الجيف.

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

ثم نهى الله أن يقوم في هذا المسجد فقال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي لا تصلّ فيه أبداً يقال: فلان يقوم بالليل أي: يصلّي بالليل ثمّ أقسم فقال: ﴿لَمَسْجِدٌ﴾ أي: والله لمسجد ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ وبني أصله على تقوى الله وطاعته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي: منذ أوّل يوم وضع أساسه أولى أن تصلّي فيه.

واختلف في هذا المسجد فقيل هو مسجد قبا، عن ابن عبّاس وجماعة. وقيل: هو مسجد رسول الله، عن زيد بن ثابت وجماعة. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«هو مسجدي أو كلّ مسجد بني لوجه الله»**.[١]

ثمّ وصف المسجد فقال: ﴿فِيهِ﴾ أي: في هذا المسجد ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ﴾ يصلّون لله تعالى متطهّرين بأبلغ الطهارة أو ﴿يَتَطَهَّرُوا﴾ من الذنوب وقيل: يحبّون أن يتطهّروا بالماء عن الغائط والبول. وروي عن النبي أنّه

١ـ بحار الأنوار، ج ٨٠، ص ٣٤٤، ومجمع البيان، ج ٥، ص ١٢٧.

سأل أهل قبا: «**ماذا تفعلون في طهركم فإنّ الله قد أثنى عليكم؟**» قالوا: نغتسل أثر الغائط. قال الزمخشري: لمّا نزلت هذه الآية مشى رسول الله ومعه المهاجرون حتّى وقف على باب مسجد قبا فإذا الأنصار جلوس فقال ﷺ: «**أ مؤمنون أنتم**» فسكت القوم ثمّ أعادها فقال أحد من الصحابة: إنّهم لمؤمنون يا رسول الله. فقال ﷺ: «**أ ترضون بالقضاء؟**» قالوا: نعم. قال: أ تصبرون على البلاء؟ قالوا: نعم. قال: «**أ تشكرون في الرخاء؟**» قالوا: نعم قال ﷺ: «**مؤمنون وربّ الكعبة**». ثمّ قال: «**يا معشر الأنصار إنّ الله أثنى عليكم فما الّذي تصنعون في الوضوء؟**» قالوا: نتبع الماء الحجر فقرأ النبيّ ﷺ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا...﴾.

وفي هذه الآية أي: قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ نكتة دقيقة فتأمّل فيها يزيدك آية وهي أنّه إذا لم يكن يجوز أن يصلّي في مسجد ما كان أساسه بنى على التقوى، وكون الصلاة في مسجد بني أساسه علي التقوى أولى وأحقّ بالصلاة فيه وثبت أنّ عليّاً عليه السلام ما كفر بالله طرفة عين فوجب أن يكون هو الأولى بالقيام بالإمامة ممّن كفر بالله في أوّل مرّة لأنّ أمر الإمامة والخلافة الكلّيّة أهمّ من الصلاة حتماً وإنّ الصلاة تقوم وتبقى بالإمامة وبمن نصبه النبيّ ﷺ علماً للدين.

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن...﴾ فإن قيل: لم قال: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مع أنه لا يجوز قيامه في الأخير؟ قلنا: المعنى: أنّه لو كان ذلك جائزاً لكان هذا أحقّ أن يقوم فيه فكيف بأنه لا يجوز فبطريق أولى عدم الجواز.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

اعلم أنّه أرجح سبحانه مسجدهم على مسجد ضرار بأمرين: أحدهما: أنه بني على التقوى، والثاني: بأهلها فإنّ أهلها رجال متطهّرون. والمراد بهذه الطهارة طهارة عن القذارة والنجاسات الظاهريّة وقد سبق بيانه وطهارة عن الكفر لأنّ اللّه وصف أهل مسجد الضرار بمضارّة المؤمنين وتفريق بين المؤمنين والكفر، فوجب كون هؤلاء ـ أهل مسجد قبا ـ بالضدّ في صفاتهم، وما ذاك إلّا كونهم مبرّئين عن هذه الصفات فقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ والبنيان مصدر كالغفران والمراد به المبنيّ وإطلاق لفظ المصدر على المفعول مجاز مشهور، تقول هذا نسج زيد أي: منسوجه، أي: من أسّس بناء على تقوى من اللّه أي: للخوف من عقاب اللّه ورغبة في ثواب اللّه أكمل وأفضل أم من بنى بناء لداعية الكفر والإضرار بعباد اللّه؟

و«الشفا جرف» الشيء وطرفه، و«الجرف» بسكون الراء وضمّه هو ما إذا سال السيل والجرف الوادي ويبقى على طرف السيل طين واه مشرف على السقوط يهور إذا انصدع واندفع من خلفه وهو ثابت بعد في مكانه يقال: فيه جرف هار هائر فإذا سقط فقد انهار وتهوّر.

إذا عرفت هذه الألفاظ فالمعنى أنّ الّذي بنى بنيان دينه على قاعدة قويّة محكمة وهي تقوى اللّه ورضوانه ليس كمن بناه وأسّسه على أضعف القواعد وأقلّها بقاء وهو الباطل والنفاق الّذي مثله مثل الجرف الهائر على طرف جهنّم ومشرف على السقوط فيها إذا انهار فإنّه متى يسقط فإنّما ينهار في جهنّم بناء الأول واجب الإبقاء وبناء الثاني واجب الهدم.

لمّا أمر الرسول بتخريب مسجدهم ظنّوا أنّه إنّما أمر بتخريبه لأجل الحسد فارتفع أمانهم عنه وعظم خوفهم منه ﷺ في كلّ الأوقات وصاروا مرتابين في أنّه هل يتركهم على ما هم عليه أم يأمر بقتلهم؟

قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ﴾ أي: لا يزال هدم بنيانهم خوفاً وغيظاً أثبت في قلوبهم ولا ينفكّ عنهم ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ﴾ قرئ معلوماً بحذف التاء وقرئ مجهولاً أي: هذا الحزن والغيظ باق إلّا أن تقطّع قلوبهم وتفرّق أجزاء أجزاء فحينئذ يسلمون عنها، وإلّا فما دامت قلوبهم سالمة هذا الريب والحزن باق. ويجوز أن يكون المراد بالتقطّع على سبيل الحقيقة أي: عند قتلهم أو في القبور أو في العذاب من النار يفنى هذا الغيظ. وقرئ على صيغة الخطاب يعني أنت يا محمّد ﷺ تقطّع قلوبهم بالسيف والقتل. وقيل: المراد من الريب الشكّ في أنّ اللّه هل يغفر تلك المعصية الّتي هي بناء هذا المسجد أم لا؟ وقيل: معناه: إلّا أن يتوبوا توبة تنقطع لها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

قال المفسّرون: لمّا بايعت الأنصار رسول اللّه ﷺ ليلة العقبة بمكّة وهم سبعون نفساً قال عبد اللّه بن رواحة: اشترط لنفسك يا رسول اللّه ولربّك ما شئت فقال ﷺ: «**أشترط لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ولنفسي أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**». قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما ذا لنا؟ قال: «**الجنّة**». قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل[١] فنزلت الآية.

قال أهل المعاني: لا يجوز أن يشتري اللّه شيئاً في الحقيقة لأنّ المشتري إنّما يشتري ما لا يملك، وكيف يشتري أنفساً هو خلقها، وأموالاً هو

١ـ جوامع الجامع، ج ٢ ص ٩٨.

أوجدها ورزقها؟ لكنّ هذا البيان لحسن التلطّف في الترغيب إلى الطاعة، وبيّن سبحانه أنّ المؤمن متى قاتل في سبيل اللّه حتّى يقتل فيذهب روحه، وينفق مالاً في سبيله أخذ من اللّه الأجر الجنّة جزاء لما فعل فجعل هذا الأمر استبدالاً وشراء.

وهذا معنى ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي: بالجنّة وهذه واللّه بيعة رابحة وكفّة راجحة بايع اللّه فيها كلّ مؤمن وما على الأرض مؤمن إلّا ودخل في هذه البيعة قال الصادق عليه السلام: «**ليس لأبدانكم ثمن إلّا الجنّة فلا تبيعوها إلّا بها**[1]» وقوله: ﴿وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ يريد الّتي ينفقونها في سبيل اللّه وعلى طاعة اللّه في المثوبات. والمشتري لابدّ له من بايع وهاهنا بحسب الواقع البايع والمشتري هو اللّه، وبحسب الظاهر المشتري هو اللّه والبايع الّذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في مرضات اللّه بالجهاد.

وأضاف سبحانه الأنفس والأموال إليهم لأنّ الإنسان عبارة عن الجوهر الأصليّ الباقي وهذا البدن يجري مجرى الآلة والأدوات والمركب، وكذلك المال خلق وسيلة لرعاية مصالح هذا المركب فاللّه سبحانه اشترى من الإنسان هذا المركب وهذا المال بالجنّة لأنّ ذلك الإنسان الّذي عبّرنا عنه بالجوهر الأصليّ ما دام يبقى متعلّق الإرادة والقلب بمصالح عالم الجسم المتغيّر المتبدّل وهو البدن والمال امتنع وصوله إلى السعادات العالية والدرجات الشريفة لاشتغاله بهذين فإذا انقطع التفاته منهما وبلغ ذلك الانقطاع بحيث أن عرض البدن للقتل والفناء والمال عرضه للإنفاق في طلب رضوان اللّه فقد بلغ أعلى درجة الهدى وفاز بالقدح المعلّى. ﴿فَيَقۡتُلُونَ﴾ المشركين ويقتلهم المشركون فالجنّة جزاؤهم عن جهادهم سواء قتلوا أو

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٣٠

قتلوا. ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: إنّما يستحقّ الثمن بتسليم المبيع وإيجاب الجنّة لهم وعداً على الله حقّاً لا شكّ فيه. و«وعداً» مصدر منصوب أي: وعدهم الله الجنّة وعداً صدقاً لا خلف فيه. وبقيّة الآية تأكيدات كلّها بعضها تلو بعض.

﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ أي: هذا الوعد وعد ثابت قد أثبته الله في التوراة والإنجيل، وقيل: المراد أنّ الله تعالى بيّن في التوراة والإنجيل أنّه اشترى من أمّة محمّد ﷺ أنفسهم وأخبر موسى وعيسى بهذه المبايعة من أمّة محمّد ﷺ. وقيل: معناه أنّ الأمر بجهاد الكفّار هو موجود في جميع الشرائع.

ثمّ أكّد هذا الوعد وصدّقه بقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: إنّ نقض العهد كذب وخدعة وهو من القبائح في حقّ الإنسان المحتاج فكيف بالغنيّ بالذات؟ فهو أولى بإيفائه أي: لا أحد أوفي من الله ثمّ أكّد بقوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾ أي: ابشروا بهذا الربح الّذي هو من عظيم الفوز.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾

اعلم أنّه لمّا اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بالجنّة بيّن في هذه الآية أنّ أولئك المؤمنين موصوفون بهذه الصفات التسعة أي: هم التائبون.

قال الزجّاج: لا يبعد أن يكون «التائبون» مبتدءاً وخبره محذوف أي: التائبون العابدون من أهل الجنّة وإن لم يجاهدوا لقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾[1] فحينئذ يكون الوعد حاصلاً لجميع المؤمنين. ويمكن أن يكون «التائبون» مبتدءاً وقوله ﴿الْعَابِدُونَ ...﴾ خبراً بعد خبر أي: التائبون من

١ـ سورة النساء: ٩٥.

الكفر هم الجامعون لهذه الخصال. الصفات التسع:

فالصفة الأولى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ قال ابن عبّاس: المراد التائبون من الكفر والشرك والنفاق. وقال الأصوليّون: التائبون عن كلّ معصية. وهذا أولى لأنّ التوبة أعمّ قد تكون من الكفر وقد تكون من المعصية، و«التائبون» صيغة عموم محلّاة بالألف واللّام فيتناول الكلّ فالتخصيص بالتوبة عن الكفر تحكّم.

وحقيقة التوبة إنّما يحصل عند حصول امور أربعة: أوّلها: احتراق القلب في الحال على صدور تلك المعصية عنه. وثانيها: ندمه على ما مضى. وثالثها: عزمه على الترك في المستقبل. ورابعها أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة طلب رضوان اللّه وعبوديّته، فإن كان غرضه منها دفع مذمّة الناس أو سائر الأغراض فهو ليس من التائبين.

والصفة الثانية: ثمّ قال: ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ والعبادة عبارة عن إتيان فعل مشعر يدلّ على تعظيم اللّه حسبما قرّره الشارع. قال قتادة والحسن: هم قوم عبدوا اللّه في السرّاء والضرّاء وأخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم.

والصفة الثالثة قوله: ﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ وهم الّذين يقومون بحقّ شكر اللّه على نعمه ديناً ودنياً ويجعلون إظهار ذلك عادة لهم واشتغالهم بالتسبيح والتهليل والتحميد وهذه الصفة كانت صفة الملائكة قبل أن يخلق اللّه الدنيا لأنّه تعالى أخبر عنهم بقوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾.[1]

والصفة الرابعة: ﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ وفيه أقوال: قال عامّة المفسّرين: هم الصائمون.

قال ابن عبّاس: كلّ ما ذكر في القرآن من السياحة فهو الصيام، قال

١ـ سورة البقرة: ٣٠

النبي ﷺ: «**سياحة أمّتي الصيام**».[1] وقيل: هم الّذين يديمون الصيام. والمناسبة في المعنى أنّ السائح لمّا كان يسيح في الأرض متعبّداً لا زاد معه كان ممسكاً عن الأكل، والصائم يمسك عن الأكل فلهذه المشابهة سمّي الصائم سائحاً. ثمّ إنّ الإنسان إذا امتنع من الأكل والشرب وأمثاله وسدّ على نفسه أبواب الشهوات انفتحت عليه أبواب الحكمة وتجلّت له أنوار الجلال فيصير من السائحين في عالم جلال اللّه وكماله، ومن المتنقلين من درجة إلى درجة ومن مقام إلى مقام فيحصل له سياحة في عالم الروحانيّات.

والقول الآخر في السائحين قال عكرمة ووهب بن منبّه: المراد طلّاب علم الشريعة ينتقلون من بلد إلى بلد في طلب العلم. وللسياحة أثر عظيم في تكميل النفس بشرط أن تكون السياحة لاستفادة العلم وتحصيل معرفة اللّه وشواهد الربوبيّة لا لتفرّج شواهد الكفر كما هو معمول عندنا كأسفار الفرنج وإنّما هي التعرّب بعد الهجرة وهو من الكبائر.

وكانت السياحة في بني إسرائيل أنّ الرجل منهم إذا ساح أربعين سنة رأى ما كان يرى السائحون وقد يكون السائح يلقى في سياحته من الضرّاء والبأساء ويصبر عليها وقد ينقطع زاده فيحتاج إلى التوكّل على اللّه وقد يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد منهم فوائد مخصوصة وكذلك يرى الأكابر من الناس في الدين فيستحقر نفسه في مقابلتهم فيصل إلى مقامات عالية وتقوى معرفته.

الصفة الخامسة والسادسة: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ والمراد منه إقامة الصلاة وإنّما جعل الركوع والسجود كناية عن الصلاة، لأنّ سائر أشكال الصلاة في المصلّي موافق للعادة كالقيام والقعود والّذي يخرج عن العادة في ذلك هو الركوع والسجود وبه يتبيّن الفضل والتميّز بين المصلّي وغيره.

١ـ بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٣٥٦ ومجمع البيان، ج ٥ ص ١٣٠.

الصفة السابعة والثامنة: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ واعلم أنّ كتاب أحكام الأمر والنهي وتفصيله لا يسعه هذا المختصر وفي هذا إشارة إلى وجوب الجهاد سيفاً أو عظة لأنّ رأس المعروف الإيمان بالله ورأس المنكر الكفر بالله، والجهاد يوجب الترغيب في الإيمان والمنع والزجر عن الكفر والجهاد داخل في بابيه.

والواو في قوله: ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾ للتسوية فإنّ التسوية قد يجيء بالواو تارة وبغير الواو اخرى قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[1] وجاء بغير الواو مع معنى التسوية قال تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾[2] فجاء بعض بالواو وبعض بغير الواو ووجه آخر ذكروا لإدخال الواو تنبيها على ما يحصل فيها لأهلها المشقّة والمحنة من دون سائر العبادات لظهور الخصومات وتحمّل المشقّات للمكلّف.

الصفة التاسعة: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ والمقصود أنّ فيه تكاليف كثيرة وهي محصورة في نوعين: أحدهما ما يتعلّق بالعبادات والثاني ما يتعلّق بالمعاملات.

أمّا العبادات فهي لمصالح مرعيّة في الدين وهي الصلاة والزكاة والصوم والحجّ والجهاد والإعتاق والنذر وأمثالها.

وأمّا المعاملات فهي إمّا لجلب المنافع أو لدفع المضارّ: أمّا القسم الراجح لجلب المنافع فهي المنافع الحاصلة من طرف الحواسّ الخمسة كالمذوقات ويدخل فيها كتاب الأطعمة والأشربة من الفقه، ولمّا كان الطعام قد يكون نباتاً وقد يكون حيواناً فدخل فيه كتاب الصيد والذبائح والضحايا

١ــ سورة المؤمنون: ٢.

٢ــ سورة المؤمنون: ٢.

وما يحلّ أكله وما يحرم. وثانيها: الملموسات ويدخل فيها باب أحكام الوقاع ولوازم النكاح كالمهر والنفقات، وأحوال القسم والنشوز والطلاق والخلع والإيلاء والظهار واللعان والأمور المتعلّقة بالملبوس وما يجوز لبسه ولا يحلّ استعماله كأواني الفضّة والذهب. وثالثها: المبصرات وهي باب ما يجوز النظر إليه وما لا يجوز وهي راجعة إلى المحارم وغير المحارم. ورابعها المسموعات وهو باب ما يحلّ سماعه وما لا يحلّ. وخامسها المشمومات وليس للفقهاء فيها مجال.

وأمّا ما يتعلّق بالمنافع للدنيا فهو المعاملات وهو البيع وأمثاله والبيع إمّا بيع الأعيان أو منفعة الأعيان فأمّا بيع الأعيان كبيع العين بالعين أو بيع الدين بالعين وهو السلم، وأمّا بيع المنفعة فيدخل فيه الإجارة والجعالة والمضاربة أو الأسباب الموجبة للملك كالإرث والهبة والوصيّة وإحياء الموات والالتقاط والفيء والغنائم وأخذ الزكوات وأمثال هذه الأمور فمثل هذه الأمور المذكورة ضبط امور حدود اللّه وتكاليفه في باب جلب المنافع.

وأمّا تكاليف اللّه وحدوده في باب دفع المضارّ فأقسام المضارّة كثيرة إن حصلت في النفوس ففيها أقسام وأحكام منها القصاص أو الدية أو الكفّارة أو الأرش.

وأمّا المضارّ الحاصلة في الأموال كالغصب أو السرقة وأمثاله. وأمّا المضارّ الحاصلة في الأديان فهي إمّا الكفر أو البدعة فله أحكام. وأمّا المضارّ الحاصلة في الأنساب فيتّصل به تحريم الزناء واللواط والعقوبة عليهما، وحدّ القذف وأحكام اللعان.

ولمّا كان أنّ كلّ أحد لا يمكنه استيفاء حقوقه من المنافع ودفع المضارّ بنفسه لضعفه أو لعدم علم طريقه أو لوقوع الهرج والمرج إذا باشر بنفسه

فلهذا السبب نصب اللّه الإمام لتنفيذ الأحكام وللإمام نوّاب وقضاة.

ولمّا لم يجز أن يكون قول الغير على الغير مقبولاً إلّا بالحجّة فقرّر سبحانه لإثبات الحقّ حجّة مخصوصة وهي الشهادة والبيّنة أو اليمين فهذا ضبط معاقد تكاليف اللّه وحدوده على وجه الإجمال فالمؤمن هو الّذي يحفظ لحدود اللّه فهذه الآية تتناول جملة هذه التكاليف المذكورة على سبيل الاختصار.

ولمّا ذكر سبحانه هذه الصفات التسعة قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)

لمّا كان من أوّل السورة الأمر بالبراءة عن المشركين أمر سبحانه أنّه يجب البراءة عن أمواتهم أيضاً أي: ليس للنبيّ والمؤمنين أن يطلبوا المغفرة للمشركين الّذين يعبدون مع اللّه إلها آخر ولا يوحّدونه في العبادة ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ أي: ولو كان الّذين يطلبون لهم المغفرة أقرب الناس إليهم من بعد أن يعلموا أنّهم كفّار مستحقّون للخلود في النار.

سبب النزول: إنّ المسلمين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله: أن نستغفر لآبائنا الّذين ماتوا في الكفر فنزلت فبيّن أنه «ما كان». وإنّما عبّر سبحانه بقوله: «ما كان» أي: ليس له حقّ أصلاً ولم يجعل اللّه في حكمه ودينه أن يستغفروا للمشركين ولو دعتهم رقّة القرابة إلى الاستغفار لهم.

ثمّ بيّن أنّ الوجه في استغفار إبراهيم لأبيه ـ سواء كان أبوه لأمّه أو عمّه على ما رواه أصحابنا أو أبوه على قول العامّة ـ أنّ استغفاره عن موعدة وعدها إيّاه أي: استغفاره كان عن موعدة.

واختلف في أنّ الواعد هل هو إبراهيم أو أبوه؟ قيل: إنّ الموعدة كانت من الأب وعد بها إبراهيم أنّه يؤمن إن استغفر له فاستغفر له لذلك.

وقيل: إنّ الموعدة كانت من إبراهيم قال لأبيه: إنّي أستغفر لك ما دمت حيّاً، وكان يستغفر له مقيّداً بشرط الإيمان فلمّا أيس من إيمانه تبرّأ منه، وهذا المعنى يوافق قراءة من قرأ «أباه» بالباء لا بالياء ويقوّيه قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ﴾.[1] قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي: دعّاء كثير الدعاء والبكاء وقيل: «الأوّاه» بلغة الحبشة المؤمن. وقيل: معناه الموقن المستيقن. وقيل: معناه الرّاجع عن كلّ ما يكره الله. وقيل: أي: المسبّح الكثير الذكر لله. وقيل: هو المتأوّه شفقاً وفرقاً المتضرّع ولزوماً للطاعة. وقيل: معناه الصبور على الأذى، الصفوح عن الذنب. وقد بلغ من حلم إبراهيم أنّ رجلاً قد أذاه وشتمه فقال له: هداك الله.

ولمّا أمر الله النبيّ والمؤمنين بالبراءة عن المشركين ونهاهم من الموالات لهم والقيام بأمورهم وعلى قبورهم والصّلاة على موتاهم فمنعهم في هذه الآية الاستغفار والدعاء لموتاهم كناية عن البراءة عن حيّهم وميّتهم سواء كانوا اولي قربى أو غير اولي القربى أي رحم ماسّة أو غير رحم ماسّة فبيّن عذر استغفار إبراهيم لأبيه وبيّن أنّ إبراهيم مع أنّه كان حليماً ورؤوفاً وكونه على هذه الصفة يقتضي أن يكون على خلاص أقربائه أحرص ومع ذلك تبرّأ منه حيث يئس من فلاحه.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ

١ـ سورة الممتحنة: ٤

يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾

سبب النزول: قيل: مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن ينزّل الفرائض فقال المسلمون: يا رسول اللّه إخواننا الّذين ماتوا قبل الفرائض كيف حالهم؟ فنزلت. وقيل: لما نسخ بعض الشرائع وقد غاب أناس وهم يعلمون بالأمر الأوّل ويعملون به إذ لم يعلموا بالأمر الثاني مثل تحويل القبلة وغيره وقد ماتوا على الحكم الأوّل فسئل النبيّ عن ذلك فنزلت وبيّن أنّه لا يعذّب هؤلاء على التوجّه إلى القبلة الأولى أو عدم العمل بما شرّع بعد النسخ ولا يضلّهم عن الثواب والكرامة بعد إذ دعاهم إلى الإيمان حتّى يسمعوا النسخ والحكم فيما لم يسمعوا فإذا سمعوا وعلموا بالحكم والناسخ فحينئذ إذا لم يعملوا يعذّبهم اللّه. وحاصل الأمر أنّ اللّه لا يؤاخذ بعمل إلّا بعد أن يبيّن لهم أنّه يجب عليهم أن يتّقوه.

ومعنى قوله: ﴿لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا﴾ أي: ليصرفه عن طريق الصلاح والجنّة. ولا يحكم عليهم بالضلال إلّا بعد البيان منه تعالى وعدم القبول عنهم فحينئذ يحكم عليهم بالضلال إنّه عالم بجميع المعلومات.

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لمّا أمر بالبراءة عن المشركين حيّهم وميّتهم بيّن في هذه الآية أنّ له ما في السماوات والأرض وهو غنيّ عن كلّ شيء وقادر على كلّ شيء، فإذا كان كذلك وهو معكم وناصركم فالكفّار لا يقدرون على إضراركم إذا تبرّأتم منهم ولو كان الكفّار آباءكم وأقاربكم فإنّ المالك للسماوات والأرض والمحيي والمميت لكم يعاونكم إن صرتم محرومين عن معاونتهم، ولكون اللّه إلهكم ولكونكم عبيده وجب عليكم أن تنقادون لحكمه وتكليفه وتعرضون عن الكفّار.

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ

فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

أقسم الله تعالى بأنّه قبل توبتهم وإنّما ذكر النبيّ مفتاحاً للكلام لأنّه سبب توبتهم وإلّا فلم يكن منهﷺ ما يوجب التوبة. روي أنّ عليّ بن موسى الرضا قرأ: «**لقد تاب الله بالنبيّ على المهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه في الخروج معه إلى تبوك**».[1]

﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ والمراد من «الساعة» الوقت وهي صعوبة الأمر حتّى همّ قوم بالرجوع ثمّ تداركهم لطف الله. وحصلت عسرة الظهر وعسرة الماء وعسرة الزاد وعسرة الحرّ، وكان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبون بينهم ويتناوبونه في الركوب. وأمّا عسرة الزاد فربّما مصّ التمرة الواحدة جماعة حتّى لا يبقى من التمرة إلّا النواة وكان معهم من شعير مسوس فكان أحدهم إذا وضع اللقمة في فيه أخذ أنفه من نتن اللقمة.

وأمّا عسرة الماء: قال عمر: خرجنا في قيظ شديد وأصابنا فيه عطش شديد حتّى أنّ الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه. والمراد من العسرة هذه الأمور. وبلغ الجهد بهم كادت قلوب بعضهم تزيغ وتضلّ وتميل. ومعنى الزيغ ميل القلب عن الحقّ.

ولمّا اشتدّ الأمر عليهم وقعت الوساوس في قلوب بعضهم وكادوا لا يثبتون على اتّباع الرسول في الغزوة. و«كاد» عند بعضهم يفيد المقاربة فقط وعند آخرين يفيد المقاربة مع عدم الوقوع. ويمكن هذه التوبة توبة عن تلك المقاربة.

قيل: كان عبد الله بن خيثمة تخلّف عن تبوك إلى أن مضى رسول الله من مسيره عشرة أيّام ثمّ دخل يوماً على امرأتين له في يوم حارّ في عريشين

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٣٨؛ والحدائق الناضرة، ج ٨، ص ١٠٣؛ والاحتجاج، ج ١، ص ٩٨.

لهما وقد رتّبتاهما وبرّدتا الماء وهيّأتا له الطّعام فقام على العريشين وقال: سبحان اللّه رسول اللّه ﷺ قد غفر اللّه ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر في الضحّ والريح والحرّ والقرّ[١] يحمل سلاحه على عاتقه وأبو خيثمة في ظلال بارد وطعام مهيّأ وامرأتين حسناوين؟ أما هذا بالنصف! ثمّ قال: واللّه لا أكلّم واحدة منكما كلمة ولا أدخل عريشاً حتّى ألحق بالنبيّ ﷺ فأناخ بعيره وأشتدّ عليه وأرتحل وامرأتاه تكلّمانه ولا يكلّمهما ثمّ سار حتّى إذا دنى من تبوك قال الناس هذا راكب على الطريق. فقال النبيّ: **«كن أبا خيثمة»**. فلمّا دنا قال النّاس: هذا أبو خثيمة فأناخ راحلته وسلّم على رسول اللّه فقال ﷺ: **«أولى لك»**، فحدّثه الحديث فقال له خيراً ودعا له. وهو الّذي زاغ قلبه للإقامة أوّلاً ثمّ ثبّته اللّه وقبل توبته.[٢]

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

وقرئ خالفوا.

سبب النزول: نزلت في كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن اميّة، وذلك أنّهم تخلّفوا عن رسول اللّه ولم يخرجوا معه لا عن نفاق ولكن عن توان ثمّ ندموا فلمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة جاءوا إليه يعتذرون إليه فلم يكلّمهم النبيّ ﷺ وتقدّم إلى المسلمين بأن لا يكلّموهم هجرهم الناس حتّى الصبيان، وجاءت نساؤهم إلى رسول اللّه ﷺ فقلن: يا رسول اللّه نعتزلهم فقال: لا ولكن لا يقربوكنّ. فضاقت عليهم المدينة فخرجوا إلى رؤوس

١ـ الضحّ: الشمس وضوؤها، والقرّ: شدة البرد.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٣٧.

الجبال وكان أهاليهم يجيؤون إليهم بالطّعام ولا يكلّمونهم فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس ولا يكلّمنا أحد منهم فهلّا نتهاجر نحن أيضاً؟ فتفرّقوا ولم يجتمع منهم اثنان وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرّعون إلى اللّه ويتوبون إليه فقبل اللّه توبتهم ونزلت الآية.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هذه العبارة عن المبالغة في الغمّ أي: ضيق أنفسهم ضيق صدورهم ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي: أيقنوا أنّه لا يعصمهم من اللّه موضع يعتصمون به ويلتجئون إليه غيره تعالى، وأن لا محيص لهم من عذاب اللّه إلّا التوبة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي: سهّل لهم التوبة حتّى تابوا وعادوا إلى حالتهم الأولى. وقيل: معناه: ثمّ تاب على الثلاثة وأنزل توبتهم على النبيﷺ ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي: ليتوب المؤمنون من ذنوبهم ويعلمون أنّه سبحانه قابل التوب.

قال المفسّرون: أما واللّه ما سفكوا من دم ولا أخذوا من مال ولا قطعوا من رحم ولكنّ المسلمين تسارعوا في الشخوص مع رسول اللّه وتخلّف هؤلاء، وكان أحدهم بسبب ضيعة له والآخر لأهله والآخر طلباً للراحة ثمّ ندموا وتابوا فقبل اللّه توبتهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

لمّا حكم بقبول توبة هؤلاء الثلاثة ذكر في هذه الآية ما يكون كالزاجر عن فعل ما مضى وهو التخلّف عن رسول اللّه في الجهاد بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة الرسول ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: مع الرسول وأصحابه في الغزوات.

وهذه الآية دالّة على فضيلة الصدق روي أنّ رجلاً جاء إلى النبيﷺ وقال: إنّي رجل أريد أن اؤمن بك إلّا أنّي أحبّ الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس يقولون: إنّك تحرّم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها

بأسرها فإن قنعت بترك واحد منها آمنت بك فقال ﷺ: «**اترك الكذب**» فقبل ذلك ثمّ أسلم، فلمّا خرج عرضوا عليه الخمر فقال: إن شربت وسألني الرسول عن شربها وكذبت فقد نقضت العهد وإن صدقت أقام عليّ الحدّ فتركها ثمّ عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذلك السرقة فعاد إلى رسول الله وقال: يا رسول الله ما أحسن ما فعلت! لمّا منعتني عن الكذب انسدّت عليّ أبواب المعاصي وتاب عن الكلّ. روي عن ابن مسعود أنّه قال: «**عليكم بالصدق فإنّه يقرّب إلى البرّ والبرّ يقرّب إلى الجنة، وإنّ العبد ليصدق فيكتب عند الله صدّيقاً وإيّاكم والكذب فإنّ الكذب يقرّب إلى الفجور والفجور يقرّب إلى النار**».(١)

وقالوا في قباحة الكذب: إنّ إبليس إنّما ذكر هذا الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(٢) لأنه لو لم يذكره لصار كاذباً في ادّعائه فكأنّه استنكف عن الكذب واستثنى فإذا كان الكذب شيئاً يستنكف إبليس منه فالمسلم أولى بالاستنكاف.

واختلف الناس في أنّ المقتضي لقبحه ما هو؟ فقال جماعة: المقتضي لقبحه هو كونه مخلّاً لمصالح العالم ومصالح النفس. وقالت المعتزلة: المقتضي لقبحه هو كونه كذباً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾(٣) أي: لا تقبلوا قول الفاسق فربّما كان كذباً فيتولّد عن قبول ذلك الكذب فهل تصيرون نادمين عليه، وأيّ قبح أقبح من أن يكون الفعل مبغوضاً عند الله؟

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ

١ـ المعجم الكبير، ج ٩، ص ١٠١.

٢ـ سورة الحجر: ٤٠.

٣ـ سورة الحجرات: ٦.

ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

لمّا قصّ الله أحوال الّذين تأخّروا وتقاعدوا عن الخروج مع النبيّ في غزوة تبوك ذكر في هذه الآية على وجه التوبيخ بأنّه لا يجوز لأهل المدينة ولا يجوز لمن حول المدينة من سكّان البوادي من طوائف الأعراب. قيل: إنّهم مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم. وقيل: بل جميع الأعراب الّذين كانوا أطراف المدينة فإنّ اللّفظ عامّ والتخصيص تحكّم.

وعلى القولين ليس لهم أن يتخلّفوا عن رسول الله ولا يجوز لهم أن يطلبوا لأنفسهم الراحة والدعة حال ما يكون النبيّ في الحرّ والمشقّة ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه أي: ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول لنفسه.

وبعد أن منعهم في صدر الآية عن التأخّر شرع في الترغيب لهم بذكر مثوبات الموافقة في الجهاد بأمور خمسة: أوّلها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي: ذلك النهي عن التأخّر بأنّهم لا يصيبهم عطش في الجهاد ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وعناء وعيّ وتعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: جوع وضمور بطن من الجوع. ولا يضعون أقدامهم ولا يضع حافر فرسه ولا يضع خفّ بعيره بحيث يصير ذلك سبيلاً لغيظ الكفّار ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ أعداءهم ﴿نَّيْلًا﴾ أي: أسراً أو قتلاً أو هزيمة قليلاً كان أو كثيراً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ وقربة إلى الله. وفي الآية دلالة على أنّ من قصد طاعة الله فقيامه وقعوده ومشيته

وحركته وسكونه كلّها حسنات مكتوبة عند اللّه وكذا القول في طرف المعصية فما أعظم بركة الطاعة وشؤم المعصية، وإنّ اللّه لا يضيع أجر من أحسن ولا يضيع عمل عامل.

وكذلك ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ في طاعة اللّه وجهاده [من نفقة صَغيرةً] كانت كالتمرة فما فوقها ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ والوادي كلّ مفرج بين جبال وآكام يكون مسلكاً للسيل إلّا ﴿كُتِبَ﴾ اللّه ﴿لَهُمْ﴾ ذلك الإنفاق وذلك المسير وكتب لهم ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ على أحسن الجزاء من أعمالهم وأجلّ وأفضل وهو رضاء اللّه وثوابه.

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

اعلم أنّه يمكن أن يقال: هذه الآية من بقيّة أحكام الجهاد ويمكن أن يكون كلاماً مبتدءاً مستأنفاً لا تعلّق له في الجهاد، أمّا الأوّل لمّا بالغ اللّه في تحذير المتخلّفين عن الجهاد في غزوة تبوك قال المؤمنون: واللّه لا نتخلّف في غزوة من الغزوات بعد هذا ولا عن سريّة فلمّا قدم رسول اللّه المدينة وأرسل السرايا إلى الكفّار نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة فنزلت الآية.

المعنى: أنّه لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا بكلمتهم إلى الجهاد ويتركون النبيّ وحده بل يجب أن يصيروا طائفتين تبقى طائفة في خدمة الرسول وتنفر اخرى إلى الغزو وذلك لأنّ الإسلام حينئذ كان محتاجاً إلى الجهاد وقهر الكفّار وأيضاً كانت التكاليف تحدث والشرائع تنزل وقتاً بعد وقت وكان بالمسلمين حاجة إلى جماعة مقيمين بحضرة الرسول ﷺ فيتعلّم الشرائع النازلة ويبلّغها إلى الغائبين فكان الواجب انقسام الأصحاب إلى قسمين أحد

القسمين ينفرون إلى الغزو والاخرى لحفظ الأحكام وإيصالها إلى الناس فالنافرة نائبون عن المقيمين، والمقيمون نائبون عن النافرين في التفقّه وبهاتين الطائفتين يتمّ أمر الدين.

«فلولا» كلمة تستعمل للتحريض والتهديد مثل «هلّا» و«لو ما» وهذه الكلم الثلاثة للترغيب و«هل» كلمة استفهام وعرض و«لا» كلمة جحد فلو ركّبته صارت مركّباً من الأمرين: الاستفهام والجحد فكأنّك قلت: هل فعلت؟ ثمّ قلت: لا؟ يعني ما فعلت فينبّه المتكلّم على وجوب ذلك الفعل أي افعل ولم ما فعلت؟ فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ ويتعلّموا المسائل وبعد التعلّم يعلّموا قومهم الّذين لا يعلمون فيحذّرون الجاهلين ويتعلّمون منهم.

واختلفوا في أنّ النافرة إلى الغزو متفقّهة أم المقيمة متفقّهة قيل: النافرة هم المتفقّهة لأنّهم يرون في الغزو من النصرة والإعجاز والظفر من اللّه لهم أموراً فيثبّطون شواهد الدين ثمّ يرجعون ويبيّنون للناس ما رأوا فيهتدون الناس بهم.

وقيل: المقيمة هي المتفقّهة، وعلى كلا التقديرين كانوا مأمورين بالتبعيض والطائفتان هم المجاهدون منهم بالسيف ومنهم بالعلم وبيان العلم واللسان، فكلاهما مجاهدان وإليه الإشارة بقوله: مداد العلماء... .

والمراد بالنفر في قوله: «فلولا نفر» الخروج لطلب العلم، وفي هذا دلالة على أنّ انعلم لا يحصل إلّا في الغربة غالباً.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

المعنى: قاتلوا من قرب منكم من الكفّار الأقرب منهم فالأقرب في

النسب والدار. قيل: إنّ هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال المشركين كافّة ثمّ إنّها نسخت بقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً﴾ ولكنّ المحقّقون أنكروا هذا النسخ وقالوا: هذه الآية بيان الأصلح والأصوب وهو أن يبتدأ من الأقرب فالأقرب منتقلاً إلى الأبعد فالأبعد، ألا ترى أنّ أمر الدعوة وقع على هذا الترتيب؟ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[1] وأمر الغزوات وقع على هذا المنهاج لأنّه حارب قومه ثمّ انتقل منهم إلى غزو سائر العرب ثمّ انتقل منهم إلى غزو الشام، والمسلمون لمّا فرغوا من أمر الشام دخلوا العراق ثمّ إنّ مقابلة الكلّ دفعة واحدة متعذّرة ولمّا تساوى الكلّ في وجوب القتال معهم لما فيهم من الكفر وامتنع الجميع وجب الترجيح والقرب مرجّح ظاهر كما في الدعوة وسائر الواجبات كالنهي عن المنكر مثلاً فالابتداء بالحاضر أولى من الذهاب إلى البلاد البعيدة.

ثمّ إنّ النفقات في القريب أقلّ من الأبعد، والمجاورين من الكفّار لدار الإسلام إمّا أن يكونوا أقوياء أو ضعفاء فإن كانوا أقوياء كان إيذاؤهم وتعرّضهم لدار الإسلام أشدّ وأكثر، وإن كانوا ضعفاء كان استيلاء المسلمين عليهم أسهل وحصول عزّ الإسلام بسبب انكسارهم أقرب وأيسر فكان الابتداء بهم أولى وإذا اجتمع واجبان وكان أحدهما أيسر حصولا وجب تقديمه وهذا الحكم جار في جميع الموارد لأنّ الأقرب سهل التناول أما ترى أنّ الأعرابيّ لمّا جلس على المائدة وكان يمدّ يده إلى الجوانب في المائدة الجوانب البعيدة قال صلى الله عليه وآله له: «**كلّ ممّا يليك**».[2] فإن قيل: ربّما كان التخطّي من الأقرب إلى الأبعد أصلح قلنا: ذاك منفصل بدليل منفصل والمصالح مبنيّة على ما هو أكثر.

١ـ سورة الشعراء: ٢١٤

٢ـ التحفة السنية، السيد الجزائري، ص ٣١٠.

﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ فيها ثلاث لغات بفتح الغين والكسر والضمّ، أي: يجدون الكفّار منكم شجاعة وشدّة، والغلظة ضدّ الرأفة لأنّ في الغلظة أثراً في الزجر والمنع، ثم إنّ الأمر في هذا الباب ليس على سبيل الاطّراد بل يحتاج تارة إلى الرفق واللطف واخرى إلى العنف فقوله: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ يدلّ على تعليل الغلظة وهذه الغلظة في امور يرجع إلى الجهاد والقتال وأمّا ما يتّصل بالمعاشرة والمجالسة والمؤاكلة والبيع والشراء وأمثال هذه فلا بل بالعكس ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: من جاهد بسبب تقوى الله لا بسبب الغنائم وطلب الجاه والمال.

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾

لمّا ذكر مخازي الكافرين ذكر من جملة مخازيهم فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعضهم: أيّكم زادته إيماناً بنزول هذه الآية؟ ومقصودهم تثبّت قومهم على الكفر والنفاق. وقيل: كان المنافقون يقولونه لأقوام من المسلمين وغرضهم صرف المسلمين عن الإيمان. وقيل: بل ذكروه على وجه الهزء فحصل للمؤمنين بسبب نزول هذه السورة أمران وحصل للكافرين أمران: أمّا ما حصل للمؤمنين أنّهم زاد إيمانهم وأقرّوا واعترفوا بأنّها حقّ من عند الله والثاني ما يحصل لهم من الاستبشار بثواب الآخرة والنصر والغلبة والفرح والسرور.

ثمّ جمع للمنافقين أمرين مقابلين للأمرين المذكورين للمؤمنين فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ والمراد من الرجس العقائد الباطلة أي: كانوا مكذّبين بالسور النازلة قبل ذلك والآن صاروا

يكذّبون بهذه السورة فانضمّ كفر إلى كفر وقيل: إنّهم كانوا قبل ذلك في الحسد والعداوة وأعمال وجوه الكفر والمكر والآن بسبب نزول هذه السورة ازدادت. والأمر الثاني أنّهم يموتون على كفرهم فكان هذه الحالة ضدّ الاستبشار الّذي حصل للمؤمنين فالحالة الأولى من الكفّار كونهم على الرجاسة بسبب الكفر والحالة الثانية ازدياد الرجاسة بمداومتهم وموتهم عليه لحصول الحسد الّذي أورث مزيد الكفر في قلوبهم، ومن المعلوم أنّ نزول السورة ما أوجب زيادة الكفر في قلوبهم بدليل أنّ الآخرين سمعوا تلك السورة وازدادوا إيماناً فثبت أنّ الرجاسة هم فعلوها من قبل أنفسهم والله تعالى ما صدّهم عن الإيمان كما قالت الأشاعرة.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

وقرئ «ترون» بالخطاب للمؤمنين. وفي الآية تقريع للمنافقين عن الاعتبار والنظر كأنّ المعنى أنّهم لا يشعرون أنّ في كلّ سنة مرّة أو مرّتين يرون أموراً ينبغي أن يعتبرون بها يمتحنون بالجهاد مع رسول الله ويرون من نصره الله وما ينال أعداء الله من القتل والسبي. وقيل: بالشدّة والمرض والجوع والقحط. وقيل: يبيّن الله سرائرهم ويخبر الله نبيّه بنفاقهم بنزول الوحي والآيات في حقّهم ومع ذلك لا يتنبهون ولا يتناهون ولا يتوبون عن نفاقهم.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا۟ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِيَ

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾

هذا نوع آخر في ذكر مخازي المنافقين وهو أنّه كلّما نزلت سورة مشتملة على ذكر المنافقين تأذّوا من سماعها ونظر بعضهم إلى بعض نظراً مخصوصاً دالّاً على الطعن والهزء بها وأخذوا في التغامز والتضاحك ثمّ قال بعضهم لبعض: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ﴾ أي: لو يراكم أحد على هذا النظر والشكل لضرّكم جدّاً لأنّ ذلك النظر دلّ على الإنكار الشديد منهم والنفرة التامّة فكانوا يخافون أن يراهم أحد من المسلمين على هذه الحالة فإذا تحقّق لهم أنّهم لا يراهم أحد بالغوا فيه وإن علموا أنّه يراهم أحد من المسلمين كفّوا.

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾ عن مجلس النبيّ ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الفوائد الّتي يستفيدها المؤمنون. أو المعنى: صرف الله قلوبهم عن رحمة الله وعن ثوابه عقوبة لهم عن الانصراف عن الإيمان بالقرآن وعن مجلس النبيّ. وقيل: إنّه على وجه الدعاء ودعاء الله على عباده وعيد لهم وإخبار بوقوع العذاب لهم بسبب أنّهم لا يفقهون خطاب الله. ثمّ خاطب جميع المكلّفين وأكّد خطابه بالقسم فقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾.

عنى به محمّداً أي جاءكم رسول من جنسكم من البشر من العرب ثمّ من بني إسماعيل من نكاح لم يصبه شيء من ولادة الجاهليّة لأنّ نسب إسماعيل غير مدخول فصاعدا فنازلا وإنّما منّ الله عليهم بكونه منهم لأنّهم إذا عرفوا مولده ومخبره ومنشأه وشاهدوه صغيراً وكبيراً وعرفوا صدقه وأمانته ولم يعثروا بنقيصة منه فبالحريّ أن يكونوا أقرب إلى القبول منه والانقياد له [شديد عليه] عنتكم وضرركم بترك الإيمان ولا يرضى بهلاككم حريص على إيمانكم رؤوف وذو رقّة بالمؤمنين. وأقرّ بأنّه رؤوف بمن رآه ورحيم بمن لم يره. ولم يجمع الله سبحانه لأحد من الأنبياء بين اسمين من

أسمائه إلّا محمّداً ﷺ فإنّه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ وذهبوا عن الحقّ واتّباع الرسول وأعرضوا عن قبول نبوّتك ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: يكفيني الله فإنّه القادر على كلّ شيء ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ وعليه اعتمدت وفوّضت أموري ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ وخصّ العرش بالذكر تفخيماً لشأنه ولأنه إذا كان ربّ العرش ومدبّره مع عظمته كان ربّ ما دونه.

وقيل: إنّ العرش عبارة عن الملك والقدرة والسلطان. وقيل: هذه الآية آخر آية نزلت من السماء وآخر سورة وآخر القرآن عهداً بالسماء هاتان الآيتان.

خاتمة سورة البراءة.

سورة يونس

السورة مكّيّة إلّا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أو ثلاث آيات فإنّها نزلت في اليهود بالمدينة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

قرئ بفتح الراء على التفخيم وبكسر الراء على الإمالة، وقرئ بين الفتح والكسر واتّفقوا على أنّ ﴿الٓر﴾ وحده ليس آية وعلى أنّ «طه» آية لأنّ ﴿الٓر﴾ لا يشاكل مقاطع الآيات الّتي بعده بخلاف «طه» فإنّه يشاكل مقاطع الآي الّتي بعده قال ابن عبّاس: ﴿الٓر﴾ معناه أنا اللّه أرى. وقيل: معناه أنا الربّ لا ربّ غيري. والأصحّ أنّ فواتح السور علمها عند النبي ﷺ ومرموزات. وقيل: «الر» و«حم» و«ن» اسم الرحمن.

فعلى بناء أنّ هذه الحروف المقطّعة اسم للسورة فتقديره: هذه السورة مسمّاة (الر) والإشارة إليها قبل جريان ذكرها باعتبار كونها على جناح الذكر فصارت في حكم الحاضر وبصدده كما يقال: هذا ما اشترى فلان.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى ما في هذه السورة من الآيات ويمكن أن يكون إشارة إلى ما تقدّم هذه السورة من الآيات. والكتاب الحكيم يمكن أن يكون المراد القرآن، ويمكن أن يكون المراد الكتاب المكنون

المخزون عند الله الّذي نسخ كلّ كتاب منه وهو اللوح المحفوظ وأمّ الكتاب فتقدير المعنى: تلك الآيات الموجودة في هذه السورة هي آيات الكتاب الحكيم لأنّه سبحانه وعد رسوله بل وعد أنبياءه قبل أن ينزل على محمّد كتاباً لا يمحوه الماء ولا يغيّره كرور الدهر، فحينئذ المعنى أنّ تلك الآيات الّتي في سورة «الر» هي ذلك الكتاب المحكم الموعود به الّذي لا يمحوه شيء.

وعلى هذا تكون الإشارة إلى الحاضر و«تلك» يشاربها إلى الغائب فكيف يحسن الإشارة بتلك؟ وأجيب عن هذا في أوّل سورة البقرة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ قالوا: إنّه لمّا وصل من المرسل إلى المرسل إليه وقع في حدّ البعد كما تقول لصاحبك وقد أعطيته شيئاً: احتفظ بذلك. ثمّ إنّ القرآن لمّا اشتمل على حكم عظيمة وعلوم كثيرة يتعسّر اطّلاع القوّة البشريّة عليها بأسرها والآيات وإن كان حاضراً نظراً إلى صورته لكنّه غائب نظراً إلى أسراره وحقائقه فجاز وصحّ أن يشار إليه كما يشار إلى البعيد الغائب والإشارة وقعت بالغائب لعلوّ شأنه وكونه في الغاية القاصية من الشرف وجعله في حكم المتباعد. هذا إذا كان الإشارة إلى هذه الآيات الّتي في هذه السورة وأمّا إذا كان لفظ «تلك» إشارة إلى ما تقدّم هذه السورة من آيات القرآن فالمعنى أنّ تلك الآيات المتقدّمة هي آيات ذلك الكتاب المكنون الّذي يعبّر عنه بامّ الكتاب ويكون المعنى حينئذ إشارة إلى البعيد ويندفع الإشكال.

وأمّا وصف الكتاب بالحكيم لأنّه يشتمل على الحكمة والصلاح أو أنّه بمعنى الحاكم لأنّه يميّز الحقّ عن الباطل والصواب عن الخطاء وحاكم لمحمّد بالنبوّة لأنّ القرآن معجزته الكبرى ويبيّن صدق نبوّته ويحكم برسالته. أو المراد وصف الكلام بصفة من تكلّم به. قال الأعشى:

وغريبة تأتي الملوك حكيمـة   قد قلتها ليقال مـن ذا قالهـا؟

ويمكن أن يكون الحكيم معناه المحكم والممتنع عن الفساد والخلل أي: لا يغيّره طول الدهر والحكيم في أصل اللغة عبارة عن الّذي يفعل الحكمة والصواب ولمّا كان القرآن يدلّ على الحكمة والصواب فوصف القرآن به مجازاً.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢)

إنّ كفّار قريش تعجّبوا من تخصيص اللّه محمّداً بالرسالة والوحي فأنكر اللّه عليهم ذلك التعجّب والكفّار بلغوا في الجهالة إلى أن تعجّبوا من كون الإله واحداً كما في قوله: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾(١) فإذا كان الحال كذلك فغير بعيد أن يتعجّبوا من تخصيص النبيّ بالوحي والرسالة. وكان أهل مكّة يقولون: إنّ اللّه ما وجد رسولاً إلى خلقه إلّا يتيم أبي طالب! فأنكر اللّه عليهم هذا التعجّب بقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ ﴾ إلخ، أي: أ كان إيحاؤنا إلى رجل من الناس بأن ينذرهم يكون عجباً وليس هذا موضع التعجّب، وأمر إرسال الرسل أمر ما أخلى اللّه شيئاً من أزمنة وجود المكلّفين كما قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم ﴾(٢) فكيف يتعجّب وقد سبق نظائره؟ ولو كان تعجّبهم اختصاص محمّد بالوحي أيضاً غلط لأنّه تعالى بعث رجلاً منهم مسلّم عندهم بالأمانة والصدق وطهارة النسب وحسن الأخلاق عند العدوّ والصديق وإذا كان فقره موجباً لتعجّبهم فاللّه أغنى الأغنياء فيغنيه فحينئذ لا وجه لتعجّبهم.

ثمّ بيّن الوجه الّذي لأجله بعث وما الّذي أوحى إليه أن أخبرهم

١ـ سورة ص: ٥

٢ـ سورة يوسف: ١٠٩.

بالعذاب وخوّفهم به ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: عرّفهم ما فيه من الشرف والخلود في نعيم الجنّة على وجه الإلزام لصالح الأعمال وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي أجراً حسناً ومنزلة رفيعة.

وقيل: إنّ المعنى: سبقت لهم الحسنى في الذكر الأوّل. وقيل: تقديم الله إيّاهم في البعث يوم القيامة بيانه: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنون النبيّ، أي: هذا ساحر مظهر للسحر وما أتى به سحر بيّن، والسحر فعل يخفى فيه وجه الحيلة وإنّما قدّم الإنذار في الآية على التبشير لأنّ التخلية مقدّمة على التحلية وإزالة ما لا ينبغي مقدّم على فعل ما ينبغي.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

لمّا حكى عن الكفّار أنّهم تعجّبوا من رسالة رجل منهم أزال تعجّبهم بأنّه لا يبعد البتّة أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولاً يبشّرهم على الأعمال الصالحة وينذرهم عن الأعمال القبيحة ويؤدّبهم بأدب معروف. وهذا إنّما يصحّ إذا كان لهذا العالم إله قاهر قادر حكيم يضع كلّ شيء بعد الخلق موضعه، ويأمرهم وينهاهم. ثمّ لابدّ أن يكون الحشر والقيامة والبعث ثابتاً حتّى يحصل الثواب والعقاب اللّذان أخبر الأنبياء عن وقوعهما، فلا جرم سبحانه ذكر في الآية ما يدلّ على تحقّق هذين الأمرين.

أمّا الأوّل وهو إثبات الإلهيّة فبقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿وَالْأَرْضَ﴾ وأمّا الثاني وهو إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة فبقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾. والاستدلال في الآية بخلق السماوات والأرض من وجوه لأنّهما مادّة كلّ شيء ومعلوم أنّ الأجرام الفلكيّة مركّبة من الأجزاء الّتي لا تتجزّى لأنّها قابلة للقسمة العقليّة وكلّما كان مركّباً من الأجزاء والأبعاض وجب افتقارها إلى مقدّر وخالق لأنّها لمّا تركّبت فقد وقع بعض تلك الأجزاء في داخل ذلك الجرم وبعضها حصلت على سطحها، فلها داخل وخارج وفوق وتحت وتلك الأجزاء متساوية في الطبع والماهيّة والحقيقة. والفلاسفة أيضاً أقرّوا بصحة هذه المقدّمة حيث قالوا: إنّها بسائط وقالوا: يمتنع كونها مركّبة من أجزاء مختلفة الطبائع.

وإذا ثبت هذا فنقول: حصول بعضها في الداخل وبعضها في الخارج أمر ممكن الحصول جائز الثبوت، يجوز ويمكن أن ينقلب الظاهر باطناً والباطن ظاهراً وإذا كان الأمر كذلك وجب افتقار هذه الأجزاء حال تركيبها إلى مدبّر وقاهر ومسخّر يخصّص بعضها بالداخل وبعضها بالخارج، فثبت أنّ الأجرام السماويّة والأرضيّة في تركيبها وشكلها وصفاتها مفتقرة إلى مدبّر قاهر متصرّف عليم حكيم. والوجه الثاني في الاستدلال بصفات الأفلاك على وجود الإله القادر هو أنّه إنّا نرى بالحسّ والعيان أنّ الأفلاك لها حركات وتغيّرات لأنّ المراد من الحركة والتغيّر التغيّر من حال إلى حال وهذه الحالة أي: الحركة والتغيّر تقتضي المسبوقيّة بالحالة المنتقل عنها والأزليّة تنافي المسبوقيّة بالغير فكان الجمع بين الحركة وبين الأزل محالاً فثبت أنّ لحركات الأفلاك وتغييراتها لها بداية وأوّل وأوّليّتها وحركاتها مسبوقة بالعدم في الأوّل فافتقرت حركاتها إلى محرّك خالق فيها الحركة والوجود وهو الإله.

ثمّ قد حصل من هذا الاستدلال والبيان دليل آخر، وهو أنّه لمّا ثبت

افتقارها إلى مدبّر قاهر وتخصيص الأجرام بالحركة في ذلك الوقت المعيّن دون ما قبله ودون ما بعده لابدّ وأن يكون بتخصيص مخصّص وترجيح مرجّح، وذلك المخصّص يتصرّف فيها كيف يشاء وهو اللّه. ثمّ إنّ أجزاء الفلك حاصلة فيه لا في الفلك الآخر وأجزاء الفلك الآخر حاصلة فيه لا في الفلك الأوّل فاختصاص كل واحد منها بتلك الأجزاء أمر ممكن ولابدّ للتخصيص من مرجّح فثبت المطلوب. فبيان الآية مغن ومبيّن دلائل التوحيد ولذا بعد بيان الإلهيّة ذكر دلائل ألوهيّته بذكر السماوات والأرض اللتين موادّ الموجودات.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ إلخ أي: خالقكم ومنشئكم ومالك تدبيركم والّذي يجب عليكم عبادته ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ اخترعهما وأنشأهما من غير مثال على ما فيهما من عجائب الصنعة وبدائع الحكمة ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بلا زيادة ونقصان مع قدرته على إنشائهما دفعة واحدة، والوجه فيه أنّ في ذلك مصلحة للملائكة وعبرة لمن استخبر عن ذلك، وكذا تصريف الإنسان حالاً فحالاً من النطفة والعلقة والمضغة، ثمّ وثمّ، وإخراج الثمار والأزهار شيئاً بعد شيء مع قدرته على ذلك في أقلّ من لمح البصر لأنّ ذلك أبعد من توهّم الاتّفاق فيه، وفي «الأيّام» قيل: من أيّام الدنيا وقيل: من أيّام الآخرة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قيل: إنّ العرش المذكور هنا هو السماوات والأرض لأنّهن من بنائه والعرش البناء، وأمّا العرش العظيم الّذي تعبد اللّه الملائكة حوله ويعظّمونه وعناه بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ فهو غير هذا ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ أي: استولى عليه بإنشاء التدبير من جهة العرش كما يستوي الملك على سرير مملكته بالاستيلاء على تدبيره فإنّ تدبير الأمور كلّها ينزل من عند العرش ولهذا ترفع الأيدي في دعاء الحوائج نحو العرش

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يقدّره على وجهه ويرتّبه على مراتبه على أحكام عواقبه. وهو مأخوذ من الدبور. ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ وإنّما قال هذا ولم يجر ذكر للشفعاء لأنّ الكفّار كانوا يقولون: الأصنام شفعاؤنا عند الله فبيّن الله أنّ الشفعاء إنّما يشفعون عنده إذا أذن لهم فالأصنام الّتي لا تعقل فكيف تكون شافعة؟ ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ إنّ الموصوف بهذه الصفات هو إلهكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لأنّه لا إله لكم سواه ولا تعبدوا الأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. وتتفكّرون؟ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ «المرجع» يحتمل فيه أن يكون بمعنى المصدر الّذي هو الرجوع والآخر أن يكون بمعنى موضع الرجوع أي: إليه موضع رجوعكم يكوّنه إذا شاء ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ ذلك وعداً ﴿حَقًّا﴾ صدقاً ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد موتهم ليؤتيهم جزاء أعمالهم بالعدل لا ينقص من أجورهم شيئا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء حارّ انتهى حرّه في النار ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع جزاء على كفرهم واعلم أنّ في هذه الآية دلالات صريحة على المبدأ والمعاد أمّا المبدأ فقد أشرنا إليه في تحقيق حركات الأفلاك ووضعها وأمّا المعاد فإليه الإشارة بقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لأنّا إمّا نقول بثبوت النفس الناطقة أولاً فإن قلنا به فزال الإشكال لأنّه كما لا يمتنع تعلّق هذه النفس بالبدن في المرّة الأولى لم يمتنع تعلّقها بالبدن مرّة اخرى وإن أنكرنا القول بالنفس فنقول: إنّه سبحانه يركّب تلك الأجزاء المفرّقة تركيبا ثانياً كما خلقها أولاً، ويخلق الإنسان الأوّل بجمع تراكيبها وأجزائها مرّة اخرى كما ترى الأرض وقت الخريف والشتاء، وترى اليبس مستولياً عليها.

ثمّ إنّه ينزل المطر عليها في الشتاء والربيع فتصير متحلّية بالأزهار والأنوار كعام الماضي من غير اختلاف في الصورة والمادّة كما قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا... فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[١] وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[٢].

قال ﷺ: «إذا رأيتم الربيع فأكثروا ذكر النشور» ونعمت المشابهة بين الربيع والنشور وكذلك كلّ إنسان يرى في نفسه من الزيادة والنقيصة والنموّ والذبول بسبب الهزال والمرض، ثمّ يعود إلى حالته الأولى من السمن والصحّة فما جاز كون بعضه جاز كون كلّه فظهر أنّ الإعادة غير ممتنعة، وأنّه تعالى لمّا كان قادراً على إنشاء ذواتكم ثمّ على إنشاء أجزائكم ثانياً حال تركّبكم وحياتكم شيئاً فشيئاً وجب القطع أيضاً بأنّه لا يمتنع عليه إعادتكم بعد البلى في القبور لحشر يوم القيامة. وأيضاً كان قادراً على خلقكم أولاً من غير مثال سبق فلأن تكون قادراً على إيجاده اخرى مع سبق المثال أولى وأحرى كما قال: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾[٣]

وهذا المعنى قرّره سبحانه في آيات كثيرة منها في هذه الآية قوله: ﴿يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾[٤] وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[٥] وكذلك قوله: ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا * أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ

١ـ الفاطر: ٩.

٢ـ سورة الزمر: ٢١.

٣ـ سورة يس: ٧٩.

٤ـ سورة عنكبوت: ١٩.

٥ـ سورة حج: ٧ ـ ٥.

فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[1]

ومن الآيات الدالّة على وقوع الحشر قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾[2] وكذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[3] وأمثال هذه الآيات كثيرة وهي الوجوه المستنبطة على وقوع المعاد فكيف يستنكر الحياة بعد الموت. ووجه الاستبعاد من حيث إنّه يحصل الضدّ بعد حصول الضدّ وهذا غير مستنكر من قدرة الله كما أنّه نجد النار ومادّتها مع حرّها ويبسها توجد وتتولّد من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته فحصل الضدّ من الضدّ فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾.[4]

والأمّة فريقان منهم من يقول: إنّ المعاد واجب على الله عقلاً، وفريق يقول: لا يجب شيء عليه أصلاً. والقول الثاني ضعيف جداً وعلى القول بالوجوب قالوا: يجب أن يكون إله العالم رحيماً عادلاً منزّهاً عن الإيلام والإضرار إلّا لمنافع أجلّ وأعظم منها ومن الواجب في حكمته وعدله سبحانه أن يأمرهم بما هو خير لهم وينهاهم عمّا يضرّهم فإنّه لو لم يمنع عن القبائح ولم يرغّب في الخيرات قدح ذلك في كونه محسناً عادلاً ومن المعلوم أنّ الترغيب في الطاعات لا يمكن إلّا بربط الثواب بفعلها والزجر عن القبائح لا يمكن إلّا بربط العقاب بفعلها، وذلك الثواب المرغّب فيه والعقاب المهدّد به غير حاصل في دار الدنيا فلابدّ من دار اخرى يحصل هذا الثواب وهذا العقاب وهو المطلوب وهذا هو الدليل الأوّل.

١ـ سورة الإسراء: ٥١ ـ ٥٠.

٢ـ سورة يس: ٨١.

٣ـ سورة الأحقاف: ٣٣.

٤ـ سورة يس: ٨٠.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ ثم إنّا نرى في هذه الدنيا أنّ أزهد الناس وأعلمهم وأعملهم مبتلى بأنواع الغموم والأحزان والظلم والابتلاء وأجهلهم وأظلمهم في أعظم اللذّات والمسرّات فيحصل القطع بأنّ دار الجزاء يمتنع أن يكون هذه الدار ولابدّ من دار اخرى ومن حياة اخرى حتّى يتدارك للمحسن والمسيء وأن لا يجعل من كفر به وجحده وظلم الخلق بمنزلة من أطاعه، ولمّا وجب إظهار هذه التفرقة فحصول هذه التمايز إمّا في دار الدنيا أو في دار الآخرة، والأوّل باطل فحقّ الثاني، وثبت أنّه لابدّ بعد هذه الدار من دار اخرى وهو المراد من قوله تعالى في سورة طه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[1] وفي سورة ص: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.[2]

ثمّ إنّا نشاهد بعقولنا أنّه لو كان لسلطان قادر قاهر جمع من العبيد والحشم وكان بعضهم أقوياء وبعضهم ضعفاء وجب على ذلك السلطان إذا كان عادلاً رحيماً شفيقاً عليهم أن ينتصف للمظلوم الضعيف من الظالم القويّ فإن لم يفعل ذلك كان ذلك نقصاً في عدله وكان راضياً بذلك الظلم وحاشاه فوجب الانتصاف وما وقع في الدنيا فلابدّ من أن يقع في دار اخرى.

وحجّة اخرى هاهنا تذكرها أنّه تعالى خلق هذا العالم وما فيه إمّا لمنفعة ومصلحة أولاً وخلقهم لغوا، والثاني لا يليق به وهو منزّه عنه. والأوّل فذلك النفع والصلاح إمّا أن يحصل في هذا العالم أو في دار اخرى، والأوّل باطل من وجهين: الأوّل أنّ لذّات هذا العالم لا حقيقة لها إلّا إزالة الألم وإزالة الألم أمر عدميّ وهذا العدم كان حاصلاً حال كون كلّ واحد من الخلائق

١ـ سورة طه: ١٥.

٢ـ سورة ص: ٢٨.

معدوماً وحينئذ لا يبقى للتخليق فائدة. والثاني أنّ لذّات هذا العالم ممزوجة بالآلام والمحن بل الدنيا طافحة بالشرّ والآفات والمحن والبليّات، واللذّة فيها كالقطرة في البحر فعلم أنّ الدار الّتي فيه الصلاح والنفع غير هذه الدار.

فإن قيل: أليس أنّه تعالى يولم أهل النار بأشدّ العذاب لا لأجل مصلحة ولا لحكمة؟ قلنا: أولاً لا نسلّم هذه الصغرى ثمّ على فرض التسليم الفرق في ذلك أنّ الألم والضرر ضرر مستحقّ على أعمالهم الخبيثة وأمّا الضرر الحاصل في الدنيا فغير مستحقّ فوجب أن يعقّبه خيرات عظيمة ومنافع جابرة لتلك المضارّ السالفة لهذا الزاهد الطائع المظلوم ولو لم يقع جزاء هذا المظلوم وذلك الظالم لينافي أن يكون أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

وأيضاً هاهنا حجّة اخرى وهي أنّه لو لم يحصل للإنسان معاد لكان الإنسان أخسّ من جميع الحيوانات في المنزلة والشرف واللازم باطل والملزوم مثله بيان الملازمة أنّ مضارّ الإنسان في الدنيا أكثر من مضارّ جميع الحيوانات فإنّ سائر الحيوانات قبل وقوعها في الآلام والأسقام، تكون فارغة البال طيّبة النفس لأنّه ليس لها فكر وتأمّل، أمّا الإنسان فإنّه بسبب ما حصل له من العقل يتفكّر أبداً في الأحوال الماضية والأحوال المستقبلة فيحصل له بسبب التعقّل في الأحوال الماضية الحزن والتأسّف وبسبب التعقّل في الأمور المستقبلة الخوف فبحصول العقل وكونه فيه يتألّم بالآلام النفسانيّة الشديدة القويّة وأمّا اللذّات الجسمانيّة فهي مشتركة بين الإنسان وبين سائر الحيوان لأنّ السرقين في مذاق الجعل طيّب كما أنّ اللوز في مذاق الإنسان طيّبة.

إذا ثبت هذا فلو لم يحصل للإنسان معاد ـ وبه تكمل حالته وتظهر سعادته ـ لوجب أن يكون كمال العقل سبباً لمزيد الهموم والغموم من غير جابر يجبر، وكلّ ما كان كذلك يوجب مزيد الشقاء والتعب الخالي عن

المنفعة فثبت أنّه لولا سعادة الآخرة لكان الإنسان أخسّ من الحيوانات حتّى الخنافس والديدان فثبت أنّ الإنسان خلق للبقاء والآخرة لا للفناء والدنيا.

ثمّ هاهنا بيان آخر وهو أنّه لا شكّ أنّ الإنسان وبدن الحيوان إنّما تولّد من النطفة وهذه النطفة اجتمعت من البدن، ومادّة النطفة إنّما تولّدت من الأغذية المأكولة والأغذية تولّدت من الأجزاء العنصريّة وتلك كانت متفرّقة في مشارق الأرض ومغاربها وألفت الأجزاء إذا اجتمعت فتولّد منها حيوان أو نبات فأكله إنسان فتولّد منه دم فتوزّع الدم على أعضائه فتولّد منها أجزاء لطيفة منويّة فعند استيلاء الشهوة سال من تلك الرطوبات مقدار في فم الرحم فتولّد منه هذا الإنسان فثبت أنّ الأجزاء الّتي تولّد منها بدن الإنسان كانت متفرّقة في العناصر فلمّا اجتمعت بالطريق المذكور تولّد منها هذا البدن، فإذا مات تفرّقت تلك الأجزاء على مثال تفرّق الأوّل وإذا ثبت هذا وجب القطع بأنّه لا يمتنع أن يجتمع مرّة ثانية على مثال الاجتماع الأوّل مع أنّا نقطع بأنّ هذا الإنسان الشيخ المنحني هو عين ذلك الإنسان الّذي كان في بطن امّه ثمّ انفصل وكان طفلاً ثمّ شاباً وأنّ الأجزاء البدنيّة دائمة التحلّل وأن الإنسان هو هو بعينه فالإنسان إمّا أن يكون جوهراً مفارقاً مجرّداً وإمّا أن يكون جسماً نورانيّاً لطيفاً باقياً مع تحلّل هذا البدن، وعلى التقديرين لا يمتنع عوده إلى الجثّة مرّة اخرى فيكون هذا الإنسان العائد عين الإنسان الأوّل.

واعلم أنّ إثبات الشيء لا يعقل إلّا بطريقين: أحدهما أن يكون مثله ممكناً فيكون هذا أيضاً ممكناً. والثاني أن يقال: إنّ ما هو أعظم منه وأعلى حالاً منه ممكن فهو أيضاً ممكن.

فذكر الطريق الأوّل فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ

خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1] إشارة إلى العود وإلى كمال القدرة والعلم ومنكر والحشر والنشر لا ينكرونه إلّا لجهلهم بهذين الأصلين لأنّهم تارة يقولون: إنّه يمتنع كونه عالماً بالجزئيّات فيمتنع منه تميّز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو. وتارة يقولون: إنّه موجب بالذات والموجب بالذات لا يصحّ منه القصد إلى التكوين وشبهتهم الفلاسفة في المعاد من هذين الأصلين لا جرم لمّا ذكر اللّه المعاد أردفه بدفع هذين الأصلين.

ثمّ ذكر بعده الطريق الثاني وهو الاستدلال بالأعلى على الأدنى بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا...﴾[2] وهو أنّ الحرارة الناريّة أقوى في الحرارة من الحرارة الغريزيّة فلمّا لم يمتنع تولّد الحرارة الناريّة عن الشجر الأخضر مع كمال مضادّتهما فكيف يمتنع حدوث الحرارة الغريزيّة في جرم الشراب وهو أولى؟. ثمّ حسم مادة الشبهات بقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3] أي: تخليقنا ليس بالأدوات ولا يتوقّف على الآلات، والدليل عليه أنّه خلق الأب الأوّل لا عن أب سابق عليه، ثمّ تأمّل في هذه الحجّة وهي أنّه قد دلّت الدلائل على أنّ العالم محدث، وإذا كان كذلك فلابدّ له من محدث قادر عالم بمصالح حدوثه وأوضاعه فحينئذ لا يجوز في حقّ هذا الحكيم أن يهمل عبيده من غير أن يأمرهم بما ينفعهم وينهاهم عمّا يضرّهم ولا يجوز له أن يتركهم سدى حتّى يفعلوا ما يشاءوا من القتل والنهب والفساد في العالم، وإيقاع الهرج والمرج، ويجحدوا ربوبيّته ويأكلوا نعمته ويعبدوا الجبت والطاغوت لأنّ مثل هذه الأمور لا يقع ولا يليق إلّا

١ـ سورة يس: ٧٩.

٢ـ سورة يس: ٨٠.

٣ـ سورة النحل: ٤٠.

بالسفيه البعيد من الحكمة، وبداهة العقل يحكم بفساده فلابدّ له من أن يأمر وينهى فإذا أمر ونهى ولم يقرن الأمر بالوعد والثواب ولم يقرن النهي بالوعيد والعقاب لم يتأكّد الأمر والنهي ولم يحصل المطلوب والأثر.

فثبت أنّ الوعد والوعيد لابدّ أن يقع من الحكمة، وهل يجوز له أن لا يفي بوعده لأهل الثواب؟ ولا بوعيده لأهل العقاب من الكافرين؟ ولا شكّ أنّه لا يجوز عليه الكذب لأنّه لو جاز ذلك لما حصل الوثوق بوعده ووعيده بل بعدله وبصدقه، وهو أصدق الصادقين فحينئذ تحقّق الثواب والعقاب أمر لابدّ منه وذلك لا يتمّ إلّا بالحشر والنشر وما لا يتمّ الواجب إلّا به واجب، وهذه مقدّمات تتعلّق بعضها ببعض كالسلسلة متى صحّ بعضها صحّ كلّها ومتى فسد بعضها فسد كلّها، ودلّ مشاهدة أبصارنا لهذه التغيّرات الحاصلة على حدوث العالم وحدوث العالم على وجود المحدث والصانع، وذلك يكون غنيّاً قادراً عالماً فحينئذ فإن لم يثبت الحشر أدّى ذلك إلى بطلان جميع المقدّمات المذكورة ولزم إنكار العلوم البديهيّة وإنكار العلوم النظريّة العقليّة فثبت أنّه لابدّ لهذه الأجساد البالية، والعظام النخرة والأجزاء المتفرّقة من البعث بعد الموت، وهي المراد من الآية لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ هذه البيانات كلّها تقرير المعادو به الكفاية.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

هذه الآية تكملة للدلائل الدالّة على الألوهيّة أي: كما أنّ خلق السماوات والأرض دالّة في الإلهيّة كذلك جعل الشمس والقمر نوع آخر من الأدلّة، وبهما يتوصّل المكلّف إلى معرفة السنين والحساب فيمكنه ترتيب مهمّاته ومعاملاته من الحرث والنسل وغيرهما في الأمور الدينيّة والدنياويّة

ولمّا وجب في الحكمة للمكلّف معرفة الشهور والأعوام خلق الشمس والقمر مضيئة ومنيرا فخصّص جسم الشمس بضوئها الباهر وشعاعها القاهر، وجسم القمر بنوره المخصوص الضعيف بالنسبة إلى ضوء الشمس.

وقد قرّرنا أنّ الأجسام من حيث ذواتها متساوية في تمام الماهيّة، وإذا ثبت هذا فالأشياء المتساوية في تمام الماهيّة تكون متساوية في جميع لوازم الماهيّة فكلّ ما يصحّ على بعضها وجب أن يصحّ على الباقي فلمّا صحّ جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر وجب أن يصحّ مثل ذلك الضوء على جرم القمر وبالعكس فاختصاص الشمس بضوئه والقمر بنوره بقسم آخر غير نور الشمس بتخصيص مخصّص وتقدير مقدّر وهو المطلوب لأنّ هذا الاختصاص بجعل جاعل.

قال أبو عليّ الفارسيّ: «الضياء» لا يخلو من أحد أمرين إمّا جمع ضوء كسوط وسياط وحوض وحياض، أو مصدر ضاء يضوء ضياء كقولك: قام قياماً وصام صياماً وعلى أيّ الوجهين فالمضاف محذوف أي: ذات ضياء وذا نور، ويمكن أن يقال: لمّا عظم الضياء والنور فيهما جعلا نفس الضياء والنور مثل زيد عدل، والضياء والنور كيفيّة قابلة للشدّة والضعف فإنّ الضوء الحاصل في أوّل النهار أضعف من الضوء الحاصل في وسط النهار وكذلك النور القائم بالقمر. واختلف الناس في أنّ الشعاع الحاصل والنور الساطع هل هو جسم أو عرض.

قال الرازيّ: والحق أنّه عرض لقوله: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي: قدّر مسيره منازل أو المعنى وقدّره ذا منازل، والضمير لهما وإنّما وحدّ للاتّحاد وإلّا فهو بمعنى التثنية اكتفاء بالمعلوم لأنّ عدد السنين والحساب إنّما يعرف بسير

الشمس والقمر ونظيره: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[1] وقيل: الضمير راجع إلى القمر وحده لأنّ بسير القمر تعرف الشهور. والشهور والسنين المعتبرة في الشريعة هي الشهور القمريّة.

واعلم أنّ انتفاع الخلق بضوء الشمس ونور القمر عظيم وبحركتهما يحصل الفصول وباختلاف أحوالهما تختلف أحوال رطوبات هذا العالم ويبوساته وتنتظم مصالحه ويتعيّن زمان التكسّب والطلب والدعة والراحة وباختلاف حركاتهما تنشأ النباتات والأغذية من الحيوان والنبات وكلّ ذلك يدلّ على كثرة رحمة الله على الخلق ولمّا تحقّق أنّ الأجسام متساوية فاختصاص كلّ جسم بشكله المخصوص وحيّزه المعيّن وأثر معلوم ما حصل إلّا بتدبير المقدّر العالم الحكيم. والتقرير الّذي قرّرنا يدلّ على أنّ جميع المنافع الحاصلة في هذا العالم بسبب حركات الأفلاك ومسير الشمس والقمر والكواكب وقد حصل بتدبيره سبحانه.

ولمّا قرّر سبحانه هذه الدلائل على وجوه ختمها بقوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: خلقها على وفق الحكمة والحقيقة كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾[2] قال حكماء الإسلام هذه الآية تدلّ على أنّه أودع في أجرام الأفلاك والكواكب خواصاً وقوى مخصوصة باعتبارها تنتظم هذا العالم السفلى إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد لكان خلقها عبثاً وباطلاً ثمّ الفوائد لها في هذا العالم نراها عياناً ومشهوداً.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ والتفصيل ذكر هذه الدلائل الباهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعقلون حتّى يعمّ الكلّ لأنّ العقل يشمل الجميع، وقيل: المراد العلماء

١ــ سورة التوبه: ٦٢.

٢ــ سورة ص: ٢٧.

ولا يمتنع أنّ يخصّ الله العلماء لهذا الذكر والأوّل أليق.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

استدلّ سبحانه أولاً على التوحيد والإلهيّات بتخليق السماوات والأرض، ثمّ بأحوال الشمس والقمر، ثمّ في هذه الآية بالمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار وبأقسام الحوادث الواقعة في هذا العالم.

والحوادث أقسام: منها في العناصر الأربعة ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج وأحوال البحار والمدّ والجزر والصواعق والزلازل والخسف وأمثالها. ومنها أحوال المعادن. ومنها أحوال النبات واختلافاتها وخواصّ وجودها ونفعها. ومنها اختلاف الحيوان وجملة هذه الأمور داخلة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وجملتها لا تسع في ألف مجلّد بل كلّ ما ذكره العقلاء والحكماء جزء عن ألف وأقلّ في هذا الباب.

ثمّ قال سبحانه: إنّ هذه الآيات للمتّقين لأنّهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبير ولذا خصّها بالذكر بهم، قال القفال: إنّ من تدبّر في أحوال هذا العالم وفي بيان هذه الآية علم أنّ الدنيا مخلوقة للعمل والعمل لأمر آخر وهو الثواب والعقاب، فلابدّ من أمر ونهي ليتميّز المحسن من المسيء وكلّها آلة على صحّة القول بإثبات المبدء والمعاد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

لمّا تبيّن من الآيات صحّة هذه الأمور الإلهيّة من عجيب الخلقة والحشر والثواب والعقاب شرع في بيان أحوال من يكفر بها وهذه الآية ومن

يؤمن بها فيما بعد هذه الآية فوصف الكافرين بصفات:

الأولى: وهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وفسرّ «الرجاء» هاهنا بالخوف أي: لا يخافون البعث لا يؤمنون بها وتفسير الرجاء بالخوف جائز كما قال: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾[1] قال الهذليّ: «إذا لسعته النحل لم يرج لسعها» وقيل: معنى «الرجاء» معناه الأصليّ والمراد الطمع أي: لا يطمعون في ثوابنا وهذا القول أصحّ لأنّ حمل الرجاء على الخوف وبمعنى الضدّ بعيد ولا مانع هاهنا من حمل الرجاء على ظاهره البتّة وحسن جعل عدم الرجاء كناية عن عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، والمراد من اللقاء رؤية ثواب الله ولقاء نعم الله من السعادات الأبديّة.

الثانية: ﴿وَرَضُواْ﴾ هؤلاء ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ واستغرقوا باللذّات الجسمانيّة وأعرضوا عن كسب السعادات الروحانيّة.

والثالثة: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ أي: ما حصل لهم عند ذكر الله نوع من الوجل والخوف بعكس السعداء لأنّهم إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم، وهؤلاء حصلت الطمأنينة لهم من الدنيا، واشتغلوا بها ولم يبالوا امور الآخرة مطلقاً فلو قيل: مقتضى اللغة أن يقال: اطمأنّوا إليها إلّا أنّ حروف الجرّ يحسن إقامة بعضها مقام البعض فلهذا السبب قال: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾.

الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ بحيث لا يخطر بباله طول عمره ذكر الله ولمّا وصفهم سبحانه بهذه الصفات قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ

١ـ سورة نوح: ١٣.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

لمّا شرح حال الكافرين ذكر حال المؤمنين المحقّين. اعلم أنّ النفس الإنسانيّة لها قوّتان نظريّة وعمليّة والنظريّة كما لها من معرفة الأشياء معرفة اللّه، والعمليّة كما لها العمل بخدمة اللّه من الطاعات والعبادات أي: صدقوا بقلوبهم بقوّة النظر وحقّقوا الإيمان بعمل الجوارح، فشغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة وشغلوا جوارحهم بالخدمة والعبادة فعينهم مشغولة باعتبار كما قال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1] وإذنهم بسماع كلام اللّه كما قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾[2] ولسانهم مشغول بذكر اللّه كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾[3] وجوارحهم مشغولة بطاعة اللّه كما قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.[4]

ولمّا بيّن مقامهم ذكر درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم قوله: [ليهديهم ربّهم إلى الجنة] ثواباً لهم والّذي يدلّ على هذا المعنى قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾[5] وما روي أنّه ﷺ قال: «**إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة، فيقول له: أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنّة والكافر كذلك إلى الجحيم، والعمل الصالح عبارة عن العمل الّذي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة والعمل المذموم بخلافه وكلّما كان العمل أكمل كان النور والهداية أكمل**».[6]

١ـ سورة الحشر: ٢.

٢ـ سورة المائده: ٨٣.

٣ـ سورة الأحزاب: ٤١.

٤ـ سورة النمل: ٢٥.

٥ـ سورة الحديد: ١٢.

٦ـ ميزان الحكمه، ج ٣، ص ٢١٣٩.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ المراد أنهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين والأنهار تجري من بين أيديهم ونظيره قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾[1] كالجدول وكذلك قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾[2] المعنى بين يديّ وإلّا لا يقعد الإنسان على النهر الجاري أي: تجري الأنهار بين أيديهم ومن تحت أسرتهم وقصورهم.

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا﴾ أي: دعاء المؤمنين في الجنّة أن يقولوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ لا على وجه العبادة بل يلتذّون بالتسبيح وقيل: المراد من دعواهم أي: ما حصل من التمنّي في قلوبهم من المشتهيات قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فيؤتون بما أرادوا فإذا نالوا منه شهوتهم قالوا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

وقال بعض المفسّرين كالكلبيّ: هذه الكلمة علامة ما يشتهونه بين أهل الجنّة والخدام فإذا سمعوا ذلك أتوهم به. وهذا القول ضعيف جداً لأنّه تعالى وعدهم بما يشتهون في الجنّة ويجعلون هذا الذكر المقدّس العالي علامة المأكول والمشروب هذا بعيد.

والأنسب في المعاني أنّ تمنّي أهل الجنّة في الجنّة ليس إلّا في تسبيح الله وتنزيهه أي: النهاية في سرورهم وعيشهم هذا الذكر ولكن لا على سبيل العبادة بل على سبيل الميل والإرادة فيكون مفتتح كلامهم في كلّ شيء التسبيح والتنزيه، ومختتم كلامهم التحميد فيكون التسبيح في الجنّة بدل التسمية.

وتحيّتهم في الجنّة من الله ﴿سَلَٰمٞ﴾ وقيل: تحيّة بعضهم لبعض سلام أو تحيّة الملائكة لهم سلام يقولون: سلام عليكم أي: سلمت عن الآفات والمكاره الّتي ابتلى بها أهل النار ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ التحميد، وليس المراد

١ـ سورة مريم: ٢٤.

٢ـ سورة الزخرف: ٥١.

أن يكون ذلك آخر كلامهم حتّى لا يتكلّموا بعد بشيء بل المراد أنّهم يجعلون هذا التحميد آخر كلامهم في كلّ ما ذكروا.

و«إن» في قوله: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ﴾ هي المخفّفة فلذلك لم تعمل لخروجها عن شبه الفعل كقوله: «أن هالك كلّ من يحفى وينتعل» على معنى أنّه هالك وقيل: «إن» الزائدة والتقدير: وآخر دعواهم. وقرئ بنصب الحمد وتشديد «إن».

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

يمكن أن يكون نظم الآية بهذا التقرير وهو أنّه لمّا ذكر في الآيات السابقة أنّ القوم تعجبّوا من تخصيص اللّه محمّد بالرسالة فدفع تعجّبهم بقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾[1] وذكر دلائل صحة التوحيد والمعاد ولازمهما أن يبعث رسولاً من جنسهم فما بقي حينئذ للتعجّب من نبوته موقع، ثمّ إنّ بعض القوم من شدّة كفرهم وحسدهم على النبيّ كانوا يقولون: اللّهمّ إن كان ما يقول محمّدﷺ حقاً في ادّعاء الرسالة ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[2]، فأجاب اللّه عن أحوالهم بما ذكر في هذه الآية قيل: هذا هو الكلام في كيفيّة النظم.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ أي: إجابة دعوتهم في الشرّ إذا دعوا بالشرّ على أنفسهم وأهاليهم عند الغيظ والغضب كقوله: أماتني اللّه أو لعنة اللّه عليّ مثلاً أولاً أبقاني اللّه ساعة كاستعجالهم بالخير، أي: كما يعجّل لهم إجابة الدعوة بالخير ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ ﴾ أجلهم وهلكوا ولكنّ اللّه لا يعجّل لهم الهلاك، بل يمهلهم حتّى يتوبوا ويرجعوا.

١ـ سورة يونس: ٢.

٢ـ سورة انفال: ٣٢.

وقيل: معنى الآية ولو يعجّل الله للناس العقاب الّذي استحقّوه بالمعاصي والكفر كما يستعجل لهم خير الدنيا لفنوا لأنّه لو تعجّلت العقاب لزال التكليف بالموت وإذا عوجلوا بالموت لم يبق أحد ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ﴾ ولا يخافون البعث والحساب يتحيّرون في كفرهم وعدولهم عن الحقّ إلى الباطل لسوء اختيارهم لأنّ تركهم في الدنيا لا يوجب ذلك ولا صلاح في إماتتهم فربّما آمنوا بعد ذلك وربّما خرج من صلبهم من كان مؤمناً وذلك يقتضي أن لا يعاجلهم بإيصال الشرّ والعقاب إليهم كما استعجلوا لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.[1]

ثمّ إنّهم لمّا توعّدوا في الآية السابقة وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ استعجلوا ذلك العذاب وقالوا: متى يحصل ذلك؟ كما قال تعالى: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.[2] فلو قيل: كيف قابل التعجيل بالاستعجال؟ الجواب أنّ في التعجيل معنى الطلب فقولك: عجلت فلاناً طلبت عجلته، وكذلك عجّلت الأمر إذا أتيته عاجلاً فطلبت فيه العجلة فصحّ مقابلة الاستعجال بالعجل لأنّ في كليهما معنى الطلب فحينئذ يصير معنى الآية: لو أراد الله عجلة الشرّ للناس كما أرادوا عجلة الخير لهم لقضي إليهم أجلهم ولكن لا يتعجّل للمصالح المذكورة ويمهلهم للمصالح وإلزاماً للحجّة.

وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾

المقصود من هذه الآية بيان جهل الإنسان وغفلته، ولذلك بيّن كذبهم في استعجال العذاب بأنّهم في هذا الطلب كاذبون لأنّه إذا مسّهم أدنى شيء

١ـ سورة يس: ٤٨.

٢ـ سورة الشورى: ١٨.

يضرّه ويؤذيه فإنّه يتضرّع إلى اللّه في كشفه وإزالته من محن الدنيا ودعانا لرفع ذلك الضرّ في حال أنّه مضطجعاً كان أو قاعداً كان أو قائماً، واجتهد في الدعاء وسؤال العافية فلمّا أزلنا عنه ذلك الضرّ ووهبنا له العافية استمرّ على طريقته الأولى معرضاً عن شكرنا ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ﴾ قطّ لكشف ضرّه.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ يعني: كما زيّن لهم الشيطان ولاقترانهم من المشركين ترك الدّعاء والشكر كذلك زيّن للمسرفين عملهم. ويحتمل أن يكون المعنى: زيّن المسرفون بعضهم لبعض هذا العمل وإن لم يضف التزيين إليهم فهو كقولهم: فلان معجب بنفسه وهذه الآية حثّ للذين منحوا الرخاء بعد الشدّة، والعافية بعد البليّة على أن يتذكّروا حسن صنع اللّه إليهم ويشكروا له قال رسول اللّه ﷺ: **«من سرّه أن يستجاب له دعوة عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء»**.[١]

واعلم أنّ المؤمن إذا ابتلي ببليّة ومحنة وجب عليه رعاية امور.

أولها: أن يكون راضياً بقضاء اللّه غير معترض بالقلب واللسان لأنّه سبحانه مالك على الإطلاق فله أن يفعل في ملكه ما شاء وما يشاء ولأنّه حكيم على الإطلاق وهو منزّه عن الباطل والعبث فعله حكمة وصواب فإن أبقى على عبده المحنة فهو عدل وإن أزال فهو فضل فحينئذ يجب عليه الصبر والسكوت وترك القلق والاضطراب.

وثانيها: أنّ العبد في ذلك الوقت يشتغل بذكر اللّه والثناء عليه بدلاً عن الدعاء وهو أفضل من الدعاء حيث يقول عزّ وجلّ: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، ولأنّ الاشتغال بالذكر اشتغال بالحقّ والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظّ النفس ونيل الآمال ولا شكّ أنّ الأوّل أفضل.

١ـ الدعوات، قطب راوندي، ص ١٩؛ وبحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣١٢.

وثالثها: أنّه سبحانه إذا أزال عنه البليّة يجب عليه أن يبالغ في الشكر ولا يشتغل بالنعم عن المنعم. وقوله: ﴿كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ﴾ حذف الضمير في «كأن» للتخفيف والوضوح.

قال أبو بكر الأصمّ في السبب الّذي لأجله سمّى اللّه سبحانه الكافر في هذه الآية مسرفاً: لأنّ الكافر مسرف في نفسه وماله ومضيّع لهما، أمّا في النّفس فقد جعلها عبداً للوثن وأمّا في المال فلأنّهم يصرفونه في البحيرة والسائبة وأمثالها ولا شبهة في أنّ المرأ كما يكون مسرفاً في ماله كذلك يكون مسرفاً فيما يتركه من واجب، أو يقدم من قبيح ومحرّم إذا تجاوز الحدّ فيه.

وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ (١٤)

لما بيّن في الآية السابقة أنّ إهلاكهم وإجابة دعائهم ليس مصلحة لهم لعلّ يتوبون أو يكون من أولادهم مؤمنون ـ على أنّ هم في دعائهم كاذبين ـ ذكر هذه الآية على سبيل التهديد بأنّه قد ينزل بهم عذاب الاستيصال ولا يزيله عنهم.

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ قال الزمخشري: «لمّا» في الآية ظرف «لأهلكنا» والواو في قوله «وجاءتهم» للحال أي: أهلكنا القرون من قبلكم بأنواع العذاب لمّا ظلموا أنفسهم بأنواع العذاب بأن أشركوا وعصوا أنبياءهم مع أنّ الأنبياء أتوا لهم بالمعجزات والدلالات الواضحة. ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ هذا الكلام إخبار من اللّه بأنّ هذه الأمم إنّما اهلكوا لمّا كانوا في المعلوم أنّهم لو بقوا لم يكونوا يؤمنون بالرسل. واستدلّ أبو علي الجبّائيّ بهذا على أنّ تبقية الكافر واجبة إذا كان المعلوم أنّهم لو بقوا يؤمنون فيما بعد. قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كذلك نعذّب المشركين في المستقبل إذا لم يؤمنوا بعد قيام الحجّة عليهم وعلمنا أنّهم لا يؤمنون ولا يصلحون ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ﴾. يا أمّة محمّد خلائفهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من بعد القرون الّتي أهلكناهم أي أسكنّاكم الأرض خلفهم لننظر كيف عملكم، يعني: نرى عملكم كيف يقع من عمل أولئك أ تقتدون بهم فتستحقّون العذاب مثل ما استحقّوه أم تؤمنون فتستحقّون الثّواب؟ واللّام في «ليؤمنوا» لتأكيد النفي. فلو قيل: كيف يطلق النظر على اللّه وفيه معنى المقابلة، ثمّ «كيف تعملون» مشعرة بأنّ اللّه ما كان عالماً بأحوالهم قبل وجود عملهم. فالجواب أنّ اللّه يعامل العبد معاملة المختبر الّذي لا يعلم الشيء فيجازيه على ما يظهر ولا يجازيهم على ما علم منهم أنّهم يفعلون أو لا يفعلون، والنظر في الحقيقة لا يجوز على اللّه لأنّ النظر إمّا يكون بالقلب وهو التفكّر أو بالعين وهو تقليب الحدقة نحو المرئيّ طلبا للرؤية مع سلامة الحاسّة والمقابلة وكلّها لا يجوز على اللّه حقيقة بل يستعمل في صفاته على وجه المجاز والتوسّع فإنّ النظر يطلب العلم وهو سبحانه يعامل عباده معاملة مثل من يطلب العلم بالوقوع واللاوقوع لأنّ الجزاء فرع الوقوع واللّاوقوع وليس الجزاء فرع العلم فتأمّل.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

سبب النزول: قال ابن عبّاس: إنّ خمسة من الكفّار كانوا يستهزئون بالرسولﷺ وبالقرآن: الوليد بن المغيرة المخزوميّ، والعاص بن وائل السهميّ، والأسود بن المطّلب، والأسود بن عبد يغوث، والحرث بن حنظلة

فقتل الله كلّ رجل منهم بطريق آخر كما قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾.[١]

فشرح الله في هذه الآية حالهم وحال من مثلهم فقال في حالهم: إنّه كلّما تلي عليهم آيات القرآن ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: كونهم مكذّبين للحشر والبعث والقيامة ولا يعتقدون منها فحينئذ حسنت الاستعارة بقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لأنّ من كان معتقداً بالقيامة يرجو الثواب ويخاف العقاب، ومن لم يكن كذلك لا يعتقد الملاقاة أصلاً.

ثمّ إنّهم طلبوا من رسول الله أحد الأمرين على البدل: الأوّل أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن قيل: إنّ هؤلاء المقترحين غير أولئك الخمسة المستهزئين الّذين ذكروا وهم عبد الله اميّة، ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله أبي قيس العامريّ، والعاص بن عامر بن هاشم، والوليد بن المغيرة قالوا للنبيّ ﷺ: ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزّى ومنات وهبل ولا يكون فيه عيب الأصنام أو بدّله من تلقاء نفسك وغيّر أحكامه من الحلال والحرام وسائر الشرائع. أرادوا بذلك زوال الحظر عنهم وسقوط الأمر منهم وأن يخلّي بينهم وبين ما يريدون. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ وناحيتي وما ﴿أَتَّبِعُ إِلَّا﴾ الّذي اوحي ﴿إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في اتّباع غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾ القيامة.

ثمّ هاهنا بحث وهو أنّهم طلبوا من النبيّ ﷺ أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن أو التبديل وهذا يؤول إلى أمر واحد لأنّه إذا بدّل هذا القران بغيره فقد أتى بقرآن غير هذا القرآن وإذا كان كذلك كان كلّ منهما شيئاً واحداً وأمراً واحداً، والجواب من الله أيضاً يدلّ على أنّ كلّ منهما عين الآخر لأنّه سبحانه اقتصر في الجواب على نفي أحدهما وهو قوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن

١ـ سورة الحجر: ٩٥.

﴿تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ﴾ ولمّا كان كلّ واحد من هذين الأمرين نفس الآخر فإلقاء اللفظ على التخيّر باطل.

والجواب أنّ أحد الأمرين غير الآخر لا عين الآخر حتّى يرد الإيراد فالإتيان بكتاب آخر لا على ترتيب هذا القرآن ولا على نظمه يكون إتياناً بقرآن آخر أو يأتي بهذا القرآن ولكن يضع المدح مثلاً محلّ الذمّ كعبادة الأصنام، أو الرحمة محلّ العذاب وهذا القسم الثاني تبديل وتغيير، وهذا القسم غير القسم الأوّل فصار اقتراحهم أحد الأمرين.

وأمّا الاكتفاء بالجواب عن أحد الأمرين لا يدلّ على أنّ الأمرين أمر واحد بل الجواب عن الأمر الواحد يكتفي بذكره عن ذكر الجواب الثاني لأنّ الجواب عن أحد القسمين هو عين الجواب عن القسم الثاني لأنّ علّة المنع في كلا الأمرين واحد وهو عدم القدرة في تبديله أو الإتيان بغيره من تلقاء نفسه.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦﴾

لمّا ظنّ بعض الجاهلون منهم أنّ هذا القرآن هو الّذي يأتي به من عند نفسه فرفع اللّه فساد هذا الظنّ والوهم بهذه الآية بأنّ هؤلاء الكفّار كانوا قد شاهدوا الرسول من أوّل عمره إلى ذلك الوقت وكانوا عالمين بأحواله ورأوا أنّه ﷺ ما طالع كتاباً ولا تلمّذ لأستاذ وما تعلّم من أحد، ثمّ بعد انقراض أربعين سنة بهذا الحال جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على أخبار الماضين ونفائس الحكمة وعمدة علم الأصول والأخلاق المرضيّة وعجز عن معارضته العلماء من اليهود والنصارى والفصحاء والبلغاء فكلّ من كان له عقل يعرف أنّ مثل هذا لا يحصل إلّا بالوحي من اللّه.

﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ يعني: لو شاء اللّه

ما تلوت هذا القرآن عليكم بأن كان لا ينزله عليّ ولا أعلمكم الله به بأن لا ينزله عليّ فلا أقرؤه عليكم فلا تعلمونه. وقرئ «ولا أدرأتكم به» بصيغة المتكلّم وقرأ ابن عبّاس: ولا أنذرتكم به ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ﴾ مدة من العمر من قبل هذا الوقت فلم لا أتيتكم بكتاب ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وتتفكّرون وتستدلّون.

قال عليّ بن عيسى: العقل هو العلم الّذي يمكن به الاستدلال بالشاهد على الغائب والناس يتفاضلون فيه بالأمر المتفاوت فبعضهم أعقل من بعض إذا كان أقدر على الاستدلال من بعض.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

أي: لا أحد أظلم ممن اخترع على الله كذباً وكذّب بآياته ورسله إنّه لا يفلح المشركون الكافرون.

فإن قيل: أليس من ادّعى الربوبيّة أعظم ظلماً ممّن ادّعى النبوة كذباً؟ قلنا: إنّ المراد بقوله: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ من كفر بالله وقد دخل فيه من ادّعى الربوبيّة وغيره من أنواع الكفر والكفّار فكأنّه قال: لا أحد أظلم من الكفّار. ونظم الآية وتعليقها بما قبلها واضح.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

لمّا التمسوا من النبيّ ﷺ تبديل القران لأنّ فيه شتم آلهتهم ذكر الله في هذه الآية ما يدلّ على قبح عبادة الأصنام وحكى عنهم أمرين: الأوّل أنّهم يعبدونها. والثاني أنّهم يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله أمّا الأوّل فقد بيّن الله

ونبّه اللّه على فساده بقوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوها وإن تركوها لا يضرّهم بشيء وإذا كان العابد أنفع من المعبود فالعبادة غلط لأنّ العبادة لا يليق إلّا للمنعم وهؤلاء لا يضرّ ولا ينفع. وأمّا أمر الثاني وهو الشفاعة فاعلم أنّ من الناس من قال: إنّ أولئك الكفّار توهّموا أنّ عبادة الأصنام أشدّ في تعظيم اللّه من عبادة اللّه سبحانه فقالوا: ليست لنا أهليّة أن نشتغل بعبادة اللّه بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام وإنّها رابطة وواسطة وشفعاء لنا عند اللّه.

ثمّ اختلفوا في أنّهم كيف قالوا في الأصنام: إنّها شفعاءنا وذكروا فيه أقوالاً كثيرة فأحدها أنّهم اعتقدوا في أنّ المتولّي لكلّ إقليم من أقاليم العالم روح معيّن من أرواح عالم الأفلاك فعيّنوا لذلك الروح صنماً معيّناً واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم ومقصودهم عبادة ذلك الروح ثمّ اعتقدوا أنّ ذلك الروح يكون عبداً للإله الأعظم ومشتغلاً بعبوديّته.

وثاني: الأقوال أنّهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أنّ الكواكب هي الّتي لها أهليّة عبوديّة اللّه، ثمّ إنّهم لمّا رأوا أنّ الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصناماً بعينه واشتغلوا بعبادتها ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب.

وثالثها: أنّهم وضعوا طلسمات معيّنة على تلك الأصنام والأوثان ثمّ تقرّبوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات. ورابعها: أنّهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنّهم متى اشتغلوا بعبادة هذه الصور والتماثيل فإنّ أولئك الأكابر يكون شفعاءهم عند اللّه.

وخامسها: أنّهم اعتقدوا أنّ الإله نور عظيم، وأنّ الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم وعلى صور الملائكة صور أخر.

وسادسها: لعلّ القوم حلوليّة وجوّزوا حلول الإله في بعض الأجسام

العالية الشريفة.

وقد أبطل كلّ هذه الوجوه الباطلة بقوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ وتقريره الوجوه الثلاثة المذكورة قوله: ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ ﴾ المعنى: أمر نبيّه أن يقول لهم على وجه الإلزام: أ تخبرون اللّه بما لا يعلم من حسن عبادة الأصنام وكونها شافعة؟ لأنّ ذلك لو كان صحيحاً لكان تعالى عالماً ففي نفي علمه بذلك نفي المعلوم. وقيل: معناه: أ تخبرون اللّه بشريك أو شفيع لا يعلم شيئاً ولا يفهم؟ كما قال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾[1] فكذلك وصفهم هاهنا بأنهم لا يعلمون في السماوات والأرض شيئاً ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهو منزّه عن الشريك والمثيل.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)

المعنى: لمّا بيّن سبحانه الدلائل القاهرة على فساد القول بعبادة الأصنام بيّن السبب في كفرهم واختلافهم وسوء اختيارهم فقال: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ وظاهر الآية لا يدلّ على أنّهم أمّة واحدة فيما ذا، وفيه أقوال: القول الأوّل أنّهم كانوا جميعاً على دين الإسلام.

واحتجّوا عليه بأمور: الأوّل أنّ المقصود من هذه الآيات بيان كون الكفر باطلاً وتزييف طريقة عبادة الأوثان وتقرير أنّ الإسلام هو الدين الفاضل فحينئذ لا يناسب أن يقال: إنّهم كانوا أمّة واحدة في الكفر فبقي أنّهم كانوا أمّة واحدة في الإسلام ولا يجوز أن يقال: إنّهم كانوا أمّة واحدة في الكفر

١ـ سورة النحل: ٧٣.

لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾[١] وشهيد الله لابدّ وأن يكون مؤمناً عدلاً فثبت أنّه ما خلت أمّة من الأمم إلّا وفيهم مؤمن، ثمّ إنّ الأحاديث وردت بأنّ الأرض لا تخلو عمّن يعبد الله وعن أقوام بهم يمطر أهل الأرض وبهم يرزقون على أنّ الحكمة الأصليّة في الخلق العبوديّة فخلوّ أهل الأرض بالكليّة عن هذا المقصود بعيد.

روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: «**إنّ الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلّا بقيّة من أهل الكتاب**».[٢] وهذا يدلّ على قوم تمسّكوا بالإيمان قبل مجيء الرسول عليه السلام، فكيف يقال: إنّهم كانوا أمّة واحدة في الكفر؟ ثمّ على كون الامّة مؤمنة اختلف القائلون بهذا القول أنّهم متى كانوا كذلك؟

فقال ابن عبّاس ومجاهد وجماعة: كانوا على دين الإسلام في عهد آدم وفي عهد ولده واختلفوا عند قتل أحد ابنيه الابن الآخر. وقال قوم: إنّهم بقوا على دين الإسلام إلى زمن نوح وكانوا عشرة قرون مسلمين ثم اختلفوا في زمن نوح فبعث الله نوحاً إليهم. وقال آخرون: كانوا على دين الإسلام في زمن نوح بعد الغرق إلى أن ظهر الكفر فيهم. وقال آخرون: كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن غيّره عمرو بن لحيّ. وهذا القائل قال: المراد من الناس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ العرب خاصّة.

إذا عرفت هذا فالمراد من بيان الآية على هذا التقرير أنّ عبادة الأصنام ما كان أصليّا فيهم وأنّه إنّما حدث بعد أن لم يكن فعلوا هذه الصورة كيف لم يتزيّفوا هذا المذهب ولم تنفر طباعهم عنه؟ هذا كلّه على بيان أنّ الناس كانوا أمّة واحدة في الإيمان ويصحّ الوعيد حينئذ لأنّ الاختلاف وقع بسبب

١ـ سورة النساء: ٤١.

٢ـ انظر: التبيان، للطوسي، ج ٥، ص ٣٥٦.

الكفر وذلك يقضي الوعيد.

وأمّا إذا فسّرنا بأنّ الناس كانوا أمّة واحدة في الكفر كما هو منقول عن بعض المفسّرين ففائدة هذا الكلام في هذا المقام هي أنّه تعالى بيّن للرسول أنّه لا تطمع في أن يصير كلّ من تدعوه إلى الدين مجيباً لك قابلاً لدينك فإنّ الناس كلّهم كانوا على الكفر، وإنّما حدث الإسلام في بعضهم بعد ذلك فكيف تطمع في إيمان كلّهم واتّفاقهم جميعاً على الإيمان.

وقول آخر ولعلّ هو الصحيح وهو أنّ المراد أنّهم كانوا أمّة واحدة في أنّهم خلقوا على فطرة الإسلام ثمّ اختلفوا في الأديان، وإليه الإشارة بقوله:ﷺ **«كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه[1]»** كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[2] وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ من أنّه لا يعاجل العصاة والكفّار بالعقوبة إنعاماً منه في التأنّي بهم ﴿لَقُضِيَ﴾ وفصّل بينهم فيما اختلفوا بأن يهلك العصاة وينجي المؤمنين لكنّه أخّرهم إلى يوم القيامة. ثمّ حكى عن حال الكفّار بقوله:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قال الكفّار: هلّا أنزل على محمّد آية من ربّه تضطرّ الخلق إلى المعرفة بصدقه فلا يحتاجون مع تلك الآية إلى الاستدلال والنظر ولم يطلبوا معجزة تدلّ على صدقه، وإنّما لم يلجئهم اللّه إلى ما التمسوه لأنّ التكليف يمنع من الاضطرار، ولو كانت المعرفة ضرورة وقهريّة لما استحقّوا ثوابا وكان ذلك الأمر نقضا للغرض. فقل يا محمّد: إنّ الّذي يعلم الغيب ويعلم بالمصالح قبل

١ـ الخلاف، للطوسي، ج ٣، ص ٥٩١؛ ومختلف الشيعة، ج ٦، ص ١٠٨.

٢ـ سورة الروم: ٣٠.

كونها هو الله العالم فما يعرف في إنزاله صلاحاً أنزله وما لم يعرف لا يفعل الآية الّتي اقترحوها ذلك الوقت فانتظروا عقاب الله بسبب تمرّدكم والعقاب القهر والغلبة والقتل، والأسر في الدنيا، لأنّ الله وعدني بالنصرة عليكم وفي الآخرة العذاب الأليم، والحاصل أنّهم طلبوا من الرسول آية قاهرة يقهرهم على الإيمان والتصديق بالرسول غير القرآن لأنه في بدو الأمر كان فيهم من يزعم أنّه يتمكّن من معارضة القرآن كما أخبر الله عنهم أنّهم قالوا: لو شئنا لقلنا مثل هذا. وإذا كان الأمر كذلك لا جرم طلبوا منه شيئاً آخر سوى القرآن فأمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ فصلاح إتيان آية وعدم صلاحها منوط بعلمه وأنتم بعد القرآن لا تحتاجون إلى آية اخرى ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

المعنى: بيّن الله عادة هؤلاء القوم المكر واللجاج وعدم الإنصاف وإذا كانوا كذلك فبتقدير أن يعطوا ما سألوه من إرسال آية اخرى فإنّهم لا يؤمنون بل يبقون على كفرهم كما روي أنّ الله سلّط القحط على أهل مكّة سبع سنين ثمّ رحمهم وأنزل الأمطار النافعة فخصبت أرضهم.

ثم إنّهم أضافوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام والأنواء، فقابلوا النعمة بالكفران فقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: تلك الأمطار النافعة الّتي خلصهم من أكل الزهق والقحط الشديد ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي: أضافوا إلى الكواكب والأصنام وهذا المعنى ذكر في قبل هذه حيث يقول:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾[١] إلّا أنه في هذه الآية هذه الدقيقة مذكورة، وهي أنّهم عند وجدان الرحمة والشواهد يمكرون الآية وينسبونها إلى الغير وكلمة ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ﴾ جواب الشرط كقوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾[٢] ويفيد المفاجأة معناه أنّهم فورا أقدموا على المكر.

وإنّما سمّي تكذيبهم آيات الله بالمكر لأنّ المكر عبارة عن صرف الشيء عن وجه الظاهر بطريق الحيلة وهؤلاء دفعوا آيات الله بإلقاء الشبهات بالسحر وبالأنواء والكواكب والأصنام ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾ لمّا قابلوا نعم الله بالمكر قابلهم الله بالجزاء والنكال فإنّ رسل الله يكتبون مكرهم ويحفظونه ويصير ذلك سبباً لمقابلة مكرهم.

هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾

اعلم أنّ هذه الآية كالمفسّرة للآية السابقة على سبيل التمثيل لأنه سبحانه لمّا قال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ فذكر الله مثالاً جليّاً يكشف عن حقيقة المعنى بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ أي: يمكّنكم من السير ﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ بما هيّأ لكم من أدوات السير من غير تعب كخلق

١ـ سورة يونس: ١٢.

٢ـ سورة الروم: ٣٦.

الدوابّ وتسخيرها لكم وتحملون عليها أثقالكم وهيّأ لكم السفن في البحر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ﴾ ركبتم ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ وخصّ الخطاب براكب البحر أي: إذا كنتم راكبي السفن في البحر.

﴿وَجَرَيۡنَ﴾ السفن بالناس لمّا ركبوا وعدل من الخطاب إلى الغيبة قيل: للإيذان بما لهم من سوء الحال الموجب للإعراض لأنّ ضمير الخطاب إذا عدل عنه وانقلب إلى الغياب يفيد هذا المعنى وبالعكس يفيد التقرّب والعلوّ كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾[1] والأوّل مثل الآية وهو يدلّ على المقت والتبعيد والطرد، أي: جرين السفن بالناس ﴿بِرِيحٖ﴾ ليّنة يستطبّونها وسرّوا ﴿وَفَرِحُواْ﴾ بتلك الريح لأنّها تبلغهم إلى مقاصدهم ومنازلهم وقيل: إنّ الضمير في «بها» راجعة إلى السفينة حيث حملتهم وأمتعتهم جاءت السفينة ريح شديد الهبوب هائلة وجاءهم اضطراب البحر وأيقنوا أنّهم دنوا على الهلاك أو غلب على ظنّهم الهلاك لمّا أحاط بهم من الأمواج فدعوا اللّه عند هذه الشدائد والأهوال والتجؤوا إليه على سبيل الخلوص من الاعتقاد من دون تشريك من الأوثان وغيره، ولم يذكروا الأوثان وقالوا: يا ربّ ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ عن ما نحن فيه من الكرب والبلاء ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ من جملة من يشكرك على نعمك قوله: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ﴾ جواب قوله: ﴿إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ فلمّا خلّصهم اللّه من الشدّة ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ﴾ ويعملون المعاصي ويشتغلون بالظلم على أنفسهم وعلى الناس. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ﴾ المعنى أنّهم بعد التضرّع والتخلّص عن المهلكة أقدموا في الحال على البغي في الأرض بغير الحقّ ومعنى البغي قصد الاستعلاء بالظلم والترقّي في الفساد.

فإن قيل: ما معنى قوله ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ والبغي لا يكون حقّ؟

١ـ سورة الفاتحه: ٥.

قلنا: البغي قد يكون بالحقّ وهو استعلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله ببني قريظة، والحاصل أنّه سبحانه نهى عن البغي بأنّه أمر باطل ويؤول ضرره على أنفسكم و﴿مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ خبر لقوله: ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾ أي: بغي بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا: الفانية، ولا يصلح لكم.

والبغي من منكرات المعاصي. قال ﷺ: «**أسرع الخير ثواباً صلة الرحم، وأعجل الشرّ عقاباً البغي واليمين الفاجرة**».[1] وروي: «**لثنتان يعجّلهما الله في الدنيا: البغي وعقوق الوالدين**». قال ابن عبّاس: لو بغى جبل على جبل لاندكّ الباغي. قال الشاعر:

فلو بغى جبل يوماً على جبل   لانـدكّ منـه أعاليـه وأسـفله

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا﴾ يرجع الباغي والمبغيّ عليه والغرض الوعيد على العذاب.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

لمّا ذكر في الآية السابقة أنّ البغي أمر قبيح ولا يحصل منه إلّا متاع الحياة الدنيا وهو فاسد أتبعه بهذا المثل العجيب لمن يغترّ بالدنيا ويبغي في الأرض فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بسبب هذا الماء النازل من السماء وذلك لأنّه إذا نزل المطر ينبت بسببه أنواع من النبات وتكون الأنواع مختلفة ويكون المنبوت قبل المطر لم

١ـ انظر: من لايحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٧٩؛ وسنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٤٠٨.

يترعرع ولم يهتزّ فإذا نزل المطر عليه اختلط النابت واتّصل بذلك المطر ونمى ورباً ذلك النبات واكتسى كمال الرونق والزينة وهو المراد بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ وتزيّنت بجميع الألوان من حمرة وخضرة وصفرة وبياض ولا شكّ أنّه متى صار البستان على هذا الوجه وبهذه الصفة فإنّه يفرح المالك به ويعظم رجاؤه في الانتفاع منه.

ثمّ إنّه تعالى يرسل على هذا الزرع والبستان العجيب آفة عظيمة دفعة واحدة من برد أو ريح أو سيل فصارت تلك الأشجار والزروع باطلة هالكة، فكذلك من وضع قلبه على لذّات الدنيا فإذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه فشبّه سبحانه الحياة الدنيا بهذا النبات أي: عاقبة هذه الحياة الدنيا كعاقبة هذا النبات لأنّ المتمسّك بالدنيا إذا وضع عليها قلبه وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت وهو معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾[1].

﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: اختلط بذلك المطر نبات الأرض لأنّ المطر يدخل في خلل النبات وقيل: معناه فاختلط بسبب المطر بعض النبات بالبعض فاختلط ما يأكل الناس بما يأكل الأنعام، وما يقتات بما يتفكّه فقال: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ﴾ الإنسان كالحبوب والثمار والبقول ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ كالحشيش وأنواع المراعي.

﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾ ومالكها ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ﴾ على الانتفاع بها ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ أي: عذابنا من برد وآفة وغيره ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا﴾ محصورة مقطوعة ذاهبة يابسة ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي: كأن لم تقم وتكن على تكل الصفة بالأمس ولم توجد من قبل ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: مثل ذلك نميّز الآيات ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: نذكر آية بعد آية ليكون تواليها وكثرتها سبباً لقوّة اليقين وموجباً لزوال الشكّ والشبهة.

١ـ سورة الأنعام: ٤٤.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

النظم: لمّا نفّر العاقلين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق رغّبهم في هذه الآية بالآخرة. قال النبيّ ﷺ: **«إنما مثلي ومثلكم مثل سيّد بنى داراً ووضع مائدة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ورضي عنه السيّد، ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل ولم يرض منه السيّد فالله السيّد والدار دار الإسلام والمائدة الجنّة والداعي محمد ﷺ»**.

وعن النبيّ ﷺ أنه قال: **«ما من يوم تطلع فيه الشمس إلّا وبجنبها ملكان يناديان بحيث يسمع كلّ الخلائق إلّا الثقلين: أيّها الناس هلمّوا إلى ربّكم»**.[١]

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ والمراد من دار السّلام الجنّة واختلفوا في السبب الّذي لأجله حصل هذا الاسم على وجوه: الأوّل أنّ السّلام هو الله، والجنّة داره وتسميته تعالى بالسلام لأنّه لمّا كان واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغيّر، وسلم من احتياجه ذاتاً وصفة إلى الغير، ثمّ إنّه يوصف بالسلام بمعنى أنّ الخلق سلموا من ظلمه حيث يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.[٢]

قال المبرّد: إنّه تعالى يوصف بالسلام أي: هو ذو السّلام والسّلام عبارة عن تخليص العاجزين من المكاره، وعلى هذا التقدير مصدر سلم. وقيل: «سلام» جمع سلامة فمعنى دار السّلام دار السلامة من الآفات كالرضاع بمعنى الرضاعة أو سمّيت الجنّة بدار السّلام لأنّه يسلم على أهلها قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[٣] والملائكة يسلّمون عليهم ويقولون: ﴿عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[٤] قوله: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. أي: من أجاب الدعوة

١ـ جامع البيان، ج ١١، ص ١٣٦.

٢ـ سورة فصلت: ٤٦

٣ـ سورة يس: ٥٨

٤ـ سورة الرعد: ٢٤.

وأطاع واتّقى فإنّ اللّه يهدي إلى تلك الدار ومشيئته تحصل بإجابة الدعوة.

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

لمّا دعا عباده إلى دار السّلام ذكر السعادات الّتي تحصل لهم فيها قال ابن عبّاس: أي: الّذين ذكروا كلمة لا إله إلّا اللّه. وقال آخرون: الّذين أحسنوا في كلّ ما تعبّدوا به وأتوا بالمأمور به كما ينبغي واجتنبوا المنهيّات على وجه ما نهوا عنها. و«الحسنى» تأنيث الأحسن والعرب يوقع هذه اللفظة على الحالة المحبوبة الكاملة المرغوب فيها ولذلك لم تؤكّد ولم تنعت بشيء.

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهذه الكلمة مبهمة ولهذا اختلف في تفسيرها: قيل: المراد منها التفضّل على قدر المستحقّ على الطاعات من الثواب وهي المضاعفة المذكورة في قوله: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1] هذا أحد الأقوال.

وثانيها: الزيادة ما أعطاهم اللّه من النعم في الدنيا لا يحاسبهم به في الآخرة عن أبي جعفر عليه السلام.[2] وثالثها: أنّ الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب عن علي عليه السلام.[3] ورابعها: الزيادة النظر إلى وجه اللّه أي: وجه رحمته لأنّ النظر إلى اللّه أمر ممتنع ولا يجوز حمل الزيادة على الرؤية كما فسّره بعض الأشاعرة والدلائل العقليّة دلّت على الامتناع على أنّ نفس الآية تدلّ على امتناع هذا المعنى لأنّ الزّيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه ورؤية اللّه ليست من جنس نعيم الجنّة على أنّ النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئيّ وذلك يقتضي كون المرئيّ في الجهة وذلك يلزم

١ـ سورة الأنعام: ١٦٠.

٢ـ الدر المنثور، ج ٣، ص ٣٠٦.

٣ـ نورالثقلين، ج ٢، ٣٠١؛ وفتح الباري، ج ٨، ص ٢٦٢؛ وكنزل العمال، ج ٢، ص ٤٣٣.

التجسّم والمقابلة والتحيّز وكلّها ممتنع على اللّه. ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ والرهق لحاق الأمر ومنه راهق الغلام إذا لحق بالرجال ورهقه بالحرب إذا أدركه والإرهاق حمل الإنسان على ما لا يطيقه ومنه ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾[١] والمعنى في الآية: لا يغشى ولا يلحق وجوههم سواد وغبرة، ولا أثر ذلّة وهوان وكسوف وكآبة.

وروى الفضل بن يسار عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما من عين ترقرقت بمائها إلّا حرّم الله ذلك الجسد على النار فإن فاضت من خشية الله لم يرهق ذلك الوجه قتر ولا ذلّة**».[٢]

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مرّ معناه مراراً.

وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

لمّا شرح حال المؤمنين في الآية السابقة شرح في هذه الآية من أقدم على السيّئات وذكر أموراً أربعة من أحوالهم: أولها: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ والمقصود من هذا القيد التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيّئات وذكر سبحانه من فضله أنّه يوصل في أعمال البرّ الثواب مع الزيادة، وفي أعمال الشرّ بالمثليّة تأكيداً للترغيب في الطاعة وذاك تفضّل وهو حسن ولكنّ الزيادة على قدر الاستحقاق في المعصية، فهو ظلم ولا يفعل سبحانه.

والثاني من الأمور الأربعة: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وذلك كناية عن التحقير والهوان لأنّ الإنسان العاصي ناقص عن درجة الإنسانيّة فإذا مات بقيت روحه

١ـ سورة المدثر: ١٧.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٧٩.

ناقصة عن الكمالات فإدراكه وعلمه بنقصه يوجب له مذلّة وهواناً. وثالثها قوله: ﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ فإنّ قضاءه سبحانه محيط بجميع الكائنات وليس شيء ينفعه عن قضاء الله.

ورابعها: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ من ظلمة المعاصي والجهل بعكس ما للمؤمنين من الضياء والعلم ونورهم يسعى بين أيديهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ مرّ تفسيره مراراً.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾

هذا شرح نوع آخر من فضائح أولئك الكفّار والضمير في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾. عائد إلى المذكور السابق وذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في الآية السابقة وحاصل الكلام: يحشر العابد والمعبود، ثمّ إنّ المعبود يتبرأ من العابد ويتبيّن له أنّه ما فعل ذلك بعلمه وإرادته. والمقصود أنّ القوم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله فبيّن الله في هذه الآية أنّهم لا يشفعون لهؤلاء الكفّار بل يتبرّؤون منهم. ونظير هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾.[1]

ومعنى الحشر الجمع من كلّ جانب إلى موقف واحد و«جميعاً» نصب على الحال أي: نحشر الكلّ حال اجتماعهم «ومكانكم» منصوب بإضمار فعل محذوف أي ألزموا وأثبتوا مكانكم «وأنتم» تأكيد للضمير «وشركاؤكم» عطف عليه والمراد أنّه تعالى يقول: للعابدين والمعبودين أثبتوا مكانكم حتّى تسألوا

١ـ سورة البقرة: ١٦٦.

وقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ جاءت على لفظ الماضي لأنّ الّذي حكم الله فيه بأنّه سيكون صار كالكائن الراهن الآن نظير قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾[1] «زيّلنا» أي: ميّزنا وفرّقنا و«الزيل» التفريق أي: فرّقنا بين المشركين وبين شركائهم من الأصنام والآلهة وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا.

وأمّا قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ وإنّما أضاف الشركاء إليهم لأنّهم جعلوا نصيباً في أموالهم لأصنامهم فصيّروها شركاء لأنفسهم في تلك الأموال فلهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ وقيل: المراد بالشركاء الملائكة واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾[2] وقيل: المراد من الشركاء الأصنام لأنّ الخطاب مشتمل على الوعيد والتهديد وذلك لا يليق بالملائكة.

ثمّ قالوا: إنّ الله يخلق في الأصنام الحياة والعقل والنطق فلا جرم تنطق. وقال آخرون: بل يخلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة والعقل. وقيل: المراد من الشركاء كلّ من عبد من دون الله من صنم وشمس وقمر وإنسيّ وجنيّ وملك. وهاهنا مسألة وهي أنّ هذا الخطاب تهديد في حقّ العابدين فهل يكون في حقّ المعبودين؟ أمّا المعتزلة فإنّهم قطعوا بأنّ ذلك لا يجوز لأنّه لا ذنب للمعبود، ومن لا ذنب له فإنّه يقبح من الله أن يوجّه التخويف والتهديد إليه. وأمّا الأشاعرة قالوا: إنّه تعالى لا يسأل عمّا يفعل كسائر أقوالهم في الأفاعيل.

والحاصل: وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون أي: يحييهم الله وينطقهم فيقولون: ما كنّا نشعر بأنّكم إيّانا تعبدون أي: إنّكم لم تعبدونا بأمرنا

١ـ سورة الاعراف: ٤٤.

٢ـ سورة سبأ: ٤٠.

ودعوتنا ولم يرد أنّهم لم يعبدوهم أصلاً بل بيان أنّ العبادة لم تكن بأمرنا.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وفاصلاً للحكم بيننا وبينكم أيّها المشركون ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ وهذا إذا كان الملائكة فإنّهم ما كان لهم أمر وعلم ورضاء منهم وإن كان الأصنام فما كان للأصنام حسّ وإدراك حتّى يعلموا ويأمروا فهم صادقون فيما ادّعوا.

هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

هذه الآية تتمّة لما قبلها فقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المقام والموقف ﴿تَبْلُوا۟﴾ وتعلم وقرئ نبلو بالنون، وقرئ تتلو بالتائين ويختلف المعنى باختلاف القراءة فبالتاءين المعنى: كلّ نفس يقرأ ما في صحيفتها. وبالنون أي: نختبر كلّ نفس بـ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ من العمل أي: نفعل بها فعل المختبر لقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.[1] قوله: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ردّوا إلى حيث لا حكم إلّا لله وإلى ما يظهر لهم من الله من ثواب وعقاب ويلجئون إلى الإقرار بإلهيّته بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غيره، ولذلك قال تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: أعرضوا عن المولى الباطل ورجعوا قهراً إلى المولى الحقّ قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يعلمون أنّ كلّ ذلك من أعمالهم باطل وافتراء وكذب لا حقيقة له.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ

١ـ سورة الملك: ٢.

تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾

لمّا بيّن فضائح عبدة الأوثان وما يؤول في القيامة أمرهم شرع بذكر الدلائل الدالّة على فساد مذهبهم وهو أحوال الرزق والحواسّ وأحوال الموت والحياة، أمّا الرزق فإنّه ينزل من السماء والأرض، أمّا من السماء فبنزول الأمطار النافعة الموافقة، وأمّا من الأرض لأنّ الغذاء إمّا أن يكون نباتاً او حيواناً أمّا النبات فلا ينبت إلّا من الأرض، وأمّا الحيوان فهو يتوقّف وجوده وبقاؤه أيضاً إلى الغذاء ولا يمكن أن يكون غذاء كلّ حيوان حيواناً آخر وإلّا لزم الذهاب إلى ما لا نهاية له وذلك محال فلزم أن يكون غذاء الحيوان ينتهي إلى النبات وتولّد النبات من الأرض.

فثبت أنّ الأرزاق لا تحصل إلّا من السماء والأرض ومدبّر السماوات والأرض هو الله فثبت أنّ الرزق ليس إلّا من الله، وأمّا أحوال الحواسّ فكذلك لأنّ أشرفها السمع والبصر قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «**سبحان من بصر بشحم وأسمع بعظم، وأنطق بلحم**».

وأمّا أحوال الموت والحياة قوله: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي: يخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ويخرج الميّت من الحيّ أي: يخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر، أو المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن لكنّ معنى الأوّل إلى الحقيقة أقرب.

ثمّ ذكر كلاماً كلّياً وهو قوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ لأنّ تمام مراتب الأمور هو مدبّره وخالقه من العالم العلويّ والسفليّ، من الأرواح والأجساد كأنّه لمّا ذكر بعض الأفراد عقّبها بالكلام الكلّيّ الشامل على البواقي. ثمّ بيّن وقال: إذا سألهم الرسول مثلاً عن خالق هذه الأمور فسيقولون: إنّه الله. وهذا يدلّ على أنّ المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعترفون بالله ولكن كانوا جاعلين أصنامهم

شفعاءهم وشركاء اللّه فعند ذلك ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمّد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الشرك والإشراك في المعبوديّة ولم تجعلون هذه الأوثان الّتي لا تنفع ولا تضرّ شركاء اللّه في العبادة؟ قوله: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي: ومن كان قدرته ورحمته كذلك هو ربّكم الحقّ الثابت ربوبيّته وإذا كان كذلك وجب أن يكون سواه باطلاً لأنّ النقيضين يمتنع أن يكونا حقّين ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي: كيف تستجيزون العدول عن هذا الحقّ الظاهر؟ واستدلّ الجبّائيّ بهذه الآية على بطلان قول المجبّرة حيث يقولون: إنّ اللّه يصرف الكفّار عن الإيمان تعالى اللّه عن ذلك لأنّه لو كان كذلك لما جاز أن يقول: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ لمّا ثبت أنّه ليس بعد الحقّ إلّا الضلال لأنّه ليس واسطة بينهما. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل انصرافهم عن الإيمان وجبت العقوبة لهم أي: جازاهم اللّه بمثل انصرافهم عن الحقّ. وقيل: معناه أنّه كما ثبت وحقّ أنّه ليس بعد الحقّ إلّا الضلال كذلك حقّت كلمة ربّك. وقرئ بالجمع كلمات ربّك ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ ﴾ وخرجوا من الحقّ ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ويعلم أنّهم يبقون على الكفر.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

احتجاج آخر على التوحيد ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين ﴿هَلْ﴾ من هذه الأصنام الّتي جعلتموها شركاء في عبادتي أو جعلتموها شركاء في أموالكم كما قال: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾[1] ﴿مَن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ﴾ بالإنشاء بعد أن لم يكن وهو النشأة الأولى ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في النشأة الثانية فإن قالوا: ليس من

١ـ سورة الأنعام: ١٣٦.

شركائنا من يفعل ذلك ويقدر عليه أو سكتوا ـ ويفهم هذا الكلام من الكلام عند الاحتجاج لأنّ الدليل إذا كان جليّاً فإذا أورد على الخصم في معرض الاستفهام ثمّ يقول المستدلّ: الأمر كذلك كان تنبيها على وضوح الأمر حيث لا يحتاج فيه إلى إقرار الخصم سواء أقرّ أو أنكر ـ فقل أنت يا محمّد: اللّه الّذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ وكيف تصرفون عن الحقّ وتقلبون عن الإيمان؟

واعلم أنّ جمهور العقلاء يقرّون بالصانع سوى جماعة قليلة من ملاحدة الفلاسفة. ومن أقرّ بالصانع صنفان: موحّد يعتقد أنّ اللّه واحد لا يستحقّ العبادة غيره، ومشرك وهم ضربان: فضرب جعلوا للّه شريكاً في ملكه يضادّه ويوازيه وهم الثنويّة والمجوس، ثمّ اختلفوا فمنهم من يثبت للّه شريكاً قديماً كالمانويّة ومنهم من يثبت شريكاً محدثاً كالمجوس، وضرب آخر لا يجعل للّه شريكاً في حكمه وملكه، ولكن يجعل له شريكاً في العبادة يكون متوسّطاً بينه وبين اللّه، وهم أصحاب المتوسّطات ثمّ اختلفوا فمنهم من جعل الوسائط من الأجسام العلويّات كالنجوم والشمس والقمر، ومنهم من جعل المتوسّط من الأجسام السفليّة كالأصنام ونحوها فهؤلاء أجمع مشركون، تعالى اللّه عن الشرك علوّاً كبيراً.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

احتجاج آخر إلزاماً لهم بعد إلزام وإفحام ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿هَلْ مِن﴾ نوع ﴿شُرَكَآئِكُم﴾ وأصنامكم من يكون له أدنى مراتب المعبوديّة بوجه من الوجوه وأدنى مراتب المعبوديّة لعبدته إلى ما فيه صلاح أمرهم؟ ويهديكم إلى طريق الحقّ. وكيف يهدي الجماد الّذي لا حياة له ولا روح ولا

حسّ ولا شعور؟ فحينئذ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ قال الزجّاج: هديت إلى الحقّ وهديت للحقّ بمعنى واحد والله تعالى ذكر هاتين اللغتين. قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ وقوله: «لا يهدّي» أصله يهتدي قرئ ستّ لغات: الأولى: بفتح الياء والهاء وتشديد الدال، أصله «يهتدي» أدغمت التاء في الدال ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء. الثانية: ساكنة الهاء مشدّدة الدال أدغمت التاء وتركت الهاء على حالها. وهذه قراءة نافع فجمع في هذه القراءة بين ساكنين كما في قوله: «يخصّمون» ولهذا غلّطوا بعض على نافع في هذه القراءة. الثالثة: بالإشارة إلى فتحة الهاء من غير إشباع فهو بين الفتح والجزم للتخفيف. الرابعة: بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال فراراً من التقاء الساكنين، والجزم يحرك بالكسر. الخامسة: بكسر الياء والهاء أتبع الكسرة للكسرة. السادسة: يهدي ساكنة الهاء وتخفيف الدال على معنى يهتدي والعرب يقول: «يهدي» بمعنى يهتدي يقال: هديته فهدى أي: اهتدى.

وهاهنا مسألة: وهي أنّ المراد من الشركاء في هذه الآية الأصنام وأنّها جمادات لا تقبل الهداية فكيف تليق بها نسبة الهداية؟ والجواب من وجوه: الأوّل لا يبعد أن يكون المراد من قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ هو الأصنام والمراد من قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ رؤساء الكفر والدعاة إليها والدليل عليه قوله سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ـ إلى قوله ـ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] فحينئذ المراد ومعنى الآية أنّهم لا يقدرون على أن يهدوا غيرهم إلّا إذا هداهم الله فكان التمسّك بدين الله وقول الأنبياء المهتدين بهداية الله أولى من قبول قول هؤلاء الجهّال.

١ـ سورة التوبة: ٣١.

والوجه الثاني في الجواب: أنّ القوم لمّا اتّخذوا هذه الأصنام آلهة لا جرم عبّر عنها كما يعبّر عمّن يعلم ويعقل، ألا ترى أنّه تعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ ﴾[1] مع أنها جمادات وقال: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ ﴾[2] فأجرى اللّفظ على الأوثان على حسب ما يجري على من يعقل ويعلم، فكذا هاهنا وصفهم الله بصفة من يعلم وإن لم يكن الأمر كذلك.

الثالث: أنّا نحمل على التقدير والفرض، يعني أنّها لو كان بحيث يمكنها أن يهدي فإنّها لا يهدي غيرها إلّا بعد أن يهديها غيرها، وإذا حملنا الكلام على التقدير فزال السؤال بالكلّيّة.

الرابع: أنّ الهدي عبارة عن النقل والحركة يقال: هديت المرأة إلى زوجها هداية إذا نقلت إليه، وسمّيت الهديّة هديّة لانتقالها من رجل إلى غيره، والهدي ما يهدى إلى الحرم من النعم فحينئذ قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰ﴾ يحتمل أن يكون معناه أنّ هذه الأصنام لا ينتقل إلى مكان إلّا إذا نقل إليه وهي جمادات خالية عن القدرة والحياة، فكيف يهدي غيره؟

ثمّ لمّا قرّر سبحانه هذه الحجج الباهرة على الكفّار قال سبحانه: ﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ هذا تعجّب من حالهم كيف يقضون بالوهيّة هذه الأصنام ويعتقدون أنّها تستحقّ العبادة.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

ثمّ قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ الكفّار ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ وفيه وجهان: الأوّل: وما يتّبع أكثرهم في إقرارهم بالله إلّا ظنّاً من غير تعقّل وبرهان بل سمعوه من

١ـ سورة الاعراف: ١٩٤.

٢ـ سورة فاطر: ١٤.

أسلافهم. الثاني قوله: وما يتّبع أكثرهم في قولهم وعقيدتهم أنّ الأصنام آلهة وأنّها شفعاء عند الله إلّا الظنّ. والقول الأوّل أقوى لأنّا على القول الثاني نحتاج إلى أن نفسّر الأكثر بالكلّ.

ثمّ قال: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾. وتمسّك نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: العمل بالقياس عمل بالظنّ فوجب أن لا يجوز. وأجاب مثبتو القياس فقالوا: الدليل الّذي دلّ على وجوب العمل بالقياس دليل قاطع فكان وجوب العمل بالقياس معلوماً، فلم يكن العمل بالقياس مظنوناً بل كان معلوماً.

وأجابوا بأن لو كان الحكم المستفاد من القياس يعلم كونه حكماً لله لكان ترك العمل به كفرا لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1] ولمّا لم يكن كذلك بطل العمل به.

وقد يعبّرون عن هذه الحجّة بأن قالوا: الحكم المستفاد من القياس إمّا أن يعلم كونه حكماً لله أو يظنّ أو لا يعلم ولا يظنّ والأوّل باطل وإلّا لكان من لم يحكم به كافراً لقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ وبالاتّفاق ليس كذلك. والثاني باطل لأنّ العمل بالظنّ لا يجوز لقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى﴾ والثالث باطل لأنّه إذا لم يكن ذلك الحكم معلوماً ولا مظنونا كان مجرّد التشهّي فكان باطلاً.

وأجاب مثبتوا القياس بأنّ حاصل هذا الدليل يرجع إلى التمسّك بالعمومات والتمسّك بالعمومات لا يفيد إلّا الظنّ فلمّا كانت هذه العمومات دالّة على المنع من التمسّك بالظنّ لزم كونها دالّة على المنع من التمسّك بها، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان متروكاً.

وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ

١ـ سورة المائده: ٤٤.

وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

هذه الآية تتمة جواب الكافرين حيث قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وكانوا يعتقدون أنّ القرآن ليس بمعجز وأنّ محمّداً إنّما أتى به من عند نفسه على سبيل الاختلاق، وذكر سبحانه عن هذا الكلام أجوبة كثيرة فبيّن في هذه الآية أنّ إتيان محمّد بهذا القرآن ليس على سبيل الكذب والافتراء عليّ بل هو وحي منزل.

ثمّ إنّه تعالى قال: إذا كان الأمر على ما يزعمون ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ قوله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ بيان هذا المعنى.

وقوله: ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ في تأويل المصدر، والمعنى ما كان افتراء، أو كلمة «أن» هاهنا بمعنى اللام والتقدير: ليفترى كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟﴾[١] و﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] أي لم يكن ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك فكذلك هاهنا أي: ما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى.

والافتراء من فريت الأديم إذا قدّرته للقطع، ثمّ استعمل في الكذب ﴿وَلَٰكِن﴾ هذا القرآن وحي و﴿تَصْدِيقَ﴾ للكتب الّتي بين يديه من التوراة والإنجيل وغيرهما، أي: شاهد لما تقدّم من الكتب قبله بأنّها حقّ كما أنّها شاهدة لصدقه، أو المعنى أنّ القرآن والكتب الّتي قبله مصدّقة وشاهدة بالتوحيد والثواب والجزاء والبعث والقيامة.

١ـ سورة التوبة: ١٢٢.

٢ـ سورة آل عمران: ١٧٩.

﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: هذا القرآن تبيّن المعاني المجملة من الحلال والحرام والأحكام والأدلّة الكلاميّة، وفيه جميع ما تحتاجون إليه من الأصول والفروع شارح ومميّز بعضه بعضاً ويبلّغكم من انزل عليه لأنّه إنّما يعرف القرآن من خوطب به، لا شكّ أنّه من عند الله ولا يقدر أحد على مثله أن يأتي به من البشر.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ هذا تقرير على موضع الحجّة بعد مضيّ حجّة اخرى. بل أيقولون افتراه؟ والتقدير: إذا قالوا: افتراه محمّد فقل وألزمهم بإتيان سورة مثله ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ من الفصحاء للمعاونة واستعينوا بهم للمعاضدة بآية منه ﴿إِن كُنتُمۡ﴾ في دعواكم ﴿صَٰدِقِينَ﴾ وهذا البيان غاية في التعجيز والتحدّي. واعلم أنّ الناس اختلفوا في أنّ القرآن معجز من أيّ الوجوه للنبيّ: فقال بعضهم: لاشتماله على الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة وإليه الإشارة بقوله: ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

ومنهم من قال: إنّه معجز لاشتماله على العلوم الكثيرة وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ولا شكّ أنّ كتاباً يشتمل على تمام علوم الأوّلين والآخرين من المعاشيّة والمعاديّة ويكون فيه أحكام جميع من يحتاج إلى حكم من غير إبقاء نكتة أو إهمال دقيقة من الخلق بأسرها بحيث لا يشذّ عنه حكم واحد من الأفراد حكماً ومحكوماً لا يكون إلّا من عند الله ولا يتمكّن أحد سواء كان نبيّاً أو ملكاً أو بشراً أن يأتي به، وما نعني بالمعجزة إلّا هذا الأمر لأنّه متى ثبت العجز ثبت المعجز. وقال بعضهم: إنّ إعجاز القرآن مع قطع النظر إلى اشتماله على العلوم والدقائق وقطع النظر عن الغيوب الماضية والمستقبلة عجزوا عن تركيب هذه الألفاظ على هذا الأسلوب مع أنّه لسانهم وهم كانوا أفصح العرب، وقال بعض: مع قطع النظر عن هذه الدلائل

لمّا أراد اللّه أن يكون القرآن معجزاً لنبيّه منع اللّه أفواه جميع الخلق إلى يوم القيامة أن يتمكّنوا من إتيان آية أو سورة منه.

وهذا القول لا يمكن المناقشة فيه حيث ما ادّعى أحد ولا تمكّن منه مخلوق وما سمع أن يدّعي أحد فضلاً عن أن يأتي به. وأظنّ القائل بهذا القول الأخير السيّد المرتضى رحمة اللّه عليه.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ﴾ أي: كذّبوا بما لم يدركوا علمه من القرآن ولم يأتهم تفسيره لأنّهم لم يراجعوا رسول اللّه حتّى يتعلّموا منه وفي القرآن علوم لا يمكنهم معرفتها إلّا بالرجوع إلى النبيّ لأنّ فيه أموراً يحتاج إلى الفكر والتدبّر والسؤال عن النبيّ، فالكفّار لمّا لم يعرفوا المراد منه كذّبوا به لعدم إحاطة علمهم بتأويله والنبيّ يعرف ذلك ولابدّ أن يستكشفوا منه، ولو راجعوه صلى الله عليه وآله لعلموه.

روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: «**خصّ هذه الامّة بآيتين في القرآن أن لا يقولوا إلّا ما يعلمون، وأن لا يردّوا ما لا يعلمون، ثمّ قرأ:** ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾».[1]

قيل: إنّ من هنا أخذ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قوله: «الناس أعداء ما جهلوا» من قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾.[2]

وأخذ قوله: «**قيمة كلّ امرى ما يحسنه**» من قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾[3] وأخذ قوله: «**تكلّموا تعرفوا**» من قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾[4] قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

١ـ سورة الاعراف: ١٦٩.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٩٠؛ وخصائص الأئمة، الشريف الرضي، ص ١١٠.

٣ـ سورة النجم: ٢٩ ـ ٣٠.

٤ـ سورة محمد: ٣٠.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ أي: مثل تكذيب هؤلاء الّذين في زمانك كذّبت الأمم السالفة رسلها ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمّد كما كان عاقبة أولئك المكذّبين الهلاك كذلك يكون عاقبة هؤلاء الظالمين.

هاهنا مسألة بيانيّة وهي أنّ المعتزلة تمسّكوا بهذه الآية على أنّ القرآن مخلوق حادث وقالوا: إنّه ﷺ تحدّى العرب بالقرآن وطلب منهم أن يأتوا بمثله، فلمّا عجزوا عنه ظهر كونه من عند اللّه، وظهر صدقه ﷺ، وهذا التحدّي إنّما يمكن لو كان الإتيان بمثله صحيح الوجود في الوجود ولو كان قديماً لكان الإتيان بمثل القديم محالاً في نفس الأمر فوجب أن لا يصحّ التحدّي به.

تحقيق شريف وهو أنّه قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾[1] وهاهنا قال: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ فما السبب في ذكر «من» هناك وهنا بغير «من»؟ والسبب أنّ محمّداً ﷺ كان رجلاً أمّيّاً لم يتلمّذ عند أحد، ولم يطالع كتاباً لا بمعنى أنّه ما كان يعرف اللغات أو لا يعرف العلوم، أي تحصيله ما كان بطريق التلمّذ بل من لدن حكيم عليم، وكان أعلم من عليها.

والحاصل: فليأت بسورة من مثله أي: فليأت إنسان يساوي محمّداً في عدم التلمّذ وعدم مطالعة الكتب وممارسة العلماء بسورة تساوي هذه السورة وهذا لا يدلّ على أنّ السورة في نفسها معجزة ولكنّه يدلّ على أنّ ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمّد ﷺ معجز. أمّا في هذه السورة بيّن أنّ تلك السورة في نفسها معجز، وأنّ الخلق وإن تلمّذوا وتعلّموا وتفكّروا وطالعوا فإنّه لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور فلا جرم قال:

١ـ سورة البقرة: ٢٣.

﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾. واعلم أنّ الكفّار إنّما كذّبوا القرآن وفرضوه افتراء لأمور: منها ـ وهو الأعظم ـ: حبّ الدنيا الفانية وأنّ القرآن مشحون بذمّ الدنيا وبيان مفاسدها وهذا الأمر على خلاف ميلهم وإراداتهم ويبيّن أنّ الدنيا فاسدة ونهاية كلّ متحرّك سكون وموت، وغاية كلّ متكوّن أن لا يكون، وكذلك القرآن مملوء من إثبات الحشر والنشر، والقوم كانوا قد ألفوا المحسوسات فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت ولم يتقرّر ذلك في قلوبهم الفاسدة وعقولهم السخيفة فظنّوا أنّ النبيّ ﷺ إنّما يذكر ذلك على سبيل الكذب.

وكذلك لمّا رأوا أنّ في القرآن أحكاماً راجعة إلى العبادات كالصلاة والصوم ونحوهما ويقولون بأنّ اللّه غنيّ عنّا وعن عبادتنا ويقيسون برأيهم وباجتهادهم الفاسد أنّ الغنيّ أجلّ من أن يأمرنا بشيء لا فائدة فيه، ثمّ يجرون الأمور على الأحوال المألوفة في عالم المحسوسات والطبيعيّات ولا يعرفون أسرارها ولا يطلبون حكمها وعلمها، ووجوه تأويلها عن النبيّ ﷺ فلا جرم وقعوا في التكذيب والجهل.

ولهذا قال سبحانه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ وهذه الآية إشارة إلى أنّ هذه الأمور من جهلهم في الأسرار.

وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾

لمّا ذكر في الآية السابقة قوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكان المراد منه تسليط العذاب عليهم في الدنيا شرح أحوال بعضهم بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ﴾ منبّهاً على أنّ الصلاح عنده تبقية هذه الطائفة دون الاستيصال من حيث كان المعلوم أنّ منهم من يؤمن به. والأقرب والأولى

إرجاع الضمير إلى القرآن، وقيل: إلى الرسول يعني أنّ منهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويبدّله بالإيمان ومنهم من يصرّ على كفره ويبقى عليه.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل﴾ يا محمّد لهم: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: عملي الطاعة لي وعملكم الشرك لكم، أو المعنى: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

قال بعض المفسّرين: هذه الآية منسوخة بآية السيف. وأنكروا جماعة النسخ لأنّ شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ ومدلول هذه الآية اختصاص كلّ واحد بأفعاله، وثمرات أفعاله من الثواب والعقاب، وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات الآية فالقول بالنسخ باطل.

وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾

في الآية قسّم الله الكفّار على قسمين: منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وفي هذا القسم ممّن لا يؤمن على قسمين: منهم من يكون على غاية البغض والعداوة للرسول، وهو في نهاية النفرة عن قبول دينه، ومنهم من لا يكون كذلك. فوصف القسم الأوّل فقال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن﴾ يستمع كلامك مع أنّه كالأصمّ من حيث إنّه لا ينتفع من الاستماع بذلك الكلام فإنّ الإنسان إذا قوي بغضه لإنسان آخر وعظمت نفرته عنه، صارت نفسه متوجّهة إلى طلب مقابح كلامه، معرضة عن جميع جهات محاسن الكلام فالصمّ في الاذن معنى ينافي حصول إدراك الصوت فكذلك حصول هذا البغض الشديد كالمنافي للوقوف للمحاسن لذلك الكلام، والعمى في العين معنى ينافي حصول إدراك

الصورة، فكذلك العداوة ينافي وقوف الإنسان على محاسن من يعاديه والوقوف على ما آتاه اللّه من الفضائل.

فبيّن تعالى أنّ في أولئك الكفّار من بلغت حالته في البغض والعداوة إلى هذا الحدّ فكما أنّه لا يمكن جعل الأصمّ سميعاً، ولا جعل الأعمى بصيراً فكذلك لا يمكن جعل العدوّ البالغ في العداوة إلى هذا الحدّ صديّقا تابعاً للرسولﷺ والمقصود تسلية الرسول بأنّ هذه الطبقة من الكفّار قد بلغوا في مرض الجهل إلى حيث لا يقبلون العلاج، والطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أعرض عنه فلا تستوحش أيّها النبيّ. وهاهنا مسألة: احتجّ جماعة بهذه الآية على أنّ السمع أشرف من البصر قالوا: إنّ اللّه قرن ذهاب السمع بذهاب العقل ولم يقترن بذهاب النظر إلّا ذهاب البصر فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر لأنّ العقل أشرف الأشياء للإنسان.

ثمّ قالوا: إنّ اللّه كلّما ذكر السمع والبصر فإنّه قدّم ذكر السمع على البصر، وكذلك إنّ العمى قد وقع على الأنبياء وأمّا الصمم فغير جائز عليهم لأنّه يخلّ بأداء الرسالة من حيث إنّه إذا لم يسمع كلام السائلين تعذّر عليه الجواب فعجز عن تبليغ رسالته وشرائع اللّه على أنّ القوّة السامعة تدرك المسموعات من جميع الجوانب والباصرة لا تدرك المرئيّ إلّا من جهة واحدة وهي المقابل.

ثمّ إنّ الإنسان إنّما يستفيد العلم بالتعليم من الأستاذ وذلك لا يمكن إلّا بقوّة السمع، واستكمال النفس بالكمالات العلميّة لا يحصل إلّا بقوّة السمع ولا يتوقّف على قوّة البصر فكان السمع أشرف.

ومن الدلائل على أشرفيّة السمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ

لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1] والمراد من القلب هاهنا العقل فجعل السمع قريناً للعقل. ويتأكّد هذا بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.[2]

ومن الدلائل أنّ متعلّق السمع النطق وهو شرف الإنسان ومتعلّق البصر إدراك الأشكال والألوان، وذلك مشترك فيه بين الإنسان وسائر الحيوانات، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر.

ومن الدلائل على أفضليّة السمع أنّ الأنبياءﷺ يراهم الناس ويسمعون كلامهم ونبوّتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئيّة، وإنّما حصلت بسبب ما معهم من الكلمات والأصوات المسموعة فوجب أن يكون المسموع أفضل من المرئيّ. فهذا جملة ما تمسّك به القائلون بأنّ السمع أفضل من البصر. ومن الناس من قال: البصر أشرف من السمع واستدلّوا بوجوه:

الحجّة الأولى: أنّهم قالوا: آلة القوّة الباصرة هي النور وآلة القوّة السامعة هي الهواء والنور أشرف من الهواء فالقوّة الباصرة أفضل من السامعة وفي المثل المشهور: ليس وراء العيان بيان وذلك يدلّ على أنّ أكمل وجوه الإدراك البصر.

الحجّة الثانية: أنّ عجائب حكمة الله في تخليق العين أكثر من عجائب خلقته في الاذن فركّب العين من سبع طبقات وثلاث رطوبات وخلق لتحريكات العين عضلات كثيرة على صور مختلفة، والأذن ليس كذلك وكثرة العناية في تخليق الشيء تدلّ على كونه أشرف من غيره.

الحجّة الثالثة: أنّ البصر يرى ما حصل فوق سبع سماوات وهو فلك

١ـ سورة ق: ٣٧.

٢ـ سورة الملك: ١١.

الكرسيّ ونجومها والسمع لا يدرك ما بعد منه على فرسخ فكان البصر أقوى لرؤيته شواهد الربوبيّة.

قال ابن الأنباريّ: كيف يكون السمع أفضل من البصر وبالبصر يحصل جمال الوجه وبذهابه عيبه وذهاب السمع لا يورث الإنسان عيباً ظاهراً مكشوفاً والعرب تسمّي العينين: الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا ومنه الحديث يقول اللّه: «**من أذهبت كريمتاه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنّة**».

فقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ معناه أنّ هؤلاء الكفّار الّذين يستمعون ويطلبون السمع للردّ عليك لا للفهم فلذلك لزمهم الذمّ وعلى هذا الوجه من الاستماع هم صمّ لم يستمعوه حيث لم ينتفعوا به، فأنت لا تقدر على أسماع الصمّ فهذا الكلام في حدّ التربية والإرشاد لنبيّه ﷺ لإنكار استماعهم وأوقع الكلام في معرض الاستحالة.

وأكّده بقوله: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: ولو انضمّ إلى صممهم عدم العقل والإدراك فبالحريّ أن لا يسمعوا، لأنّ الأصمّ العاقل ربّما يتفرّس إذا وصل إلى صماخه هوت وأمّا إذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعاً فقد تمّ الأمر وكذلك الأعمى كيف تهديهم أنت وتبيّن لهم الطريق للهداية وليس لهم أعين؟ فكيف ينظرون خصوصاً إذا انضمّ إلى العمى عدم البصيرة؟ فإذا اجتمع عدم البصر وعدم البصيرة فحينئذ تمّ الأمر لأنّه اجتمع فيه الحمق والعمى.

وجواب «لو» محذوف في الجملتين لدلالة الكلام وهو قوله تعالى: «تُسْمِعُ الصُّمَّ وتَهْدِي الْعُمْيَ» عليه أي: أ فأنت تسمع الصمّ لو كانوا يعقلون، ولو كانوا لا يعقلون لا تسمع أ فأنت تهدي العمي لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون؟ أي: على كلّ حال مفروض.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ المعتزلة

والعدليّة احتجّوا بهذه الآية على صحّة مذهبهم وردّ مذهب القدريّة أي الجبريّة ووجه الاستدلال به أنّه يدلّ على أنّه تعالى ما ألجأ أحدا بالكفر ولا بهذه القبائح والمنكرات لكنّهم باختيار أنفسهم يقدمون عليها ويباشرونها لأنّ الآية صريحة الدلالة على هذا المعنى.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

المعنى: لمّا وصف هؤلاء الكفّار بقلّة الإصغاء وترك التعقّل والتدبّر أتبعه بذكر الوعيد فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ مشابهين حالاً من حال ممن يلبث ساعة من النهار وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يجوز أن يكون متعلّقاً بيوم يحشرهم ويجوز أن يكون حالاً بعد حال و«كأن» مخفّفة من المثقّلة والتقدير: كأنّهم لم يلبثوا في الدنيا إلّا ساعة من النهار.

وحاصل المعنى: يوم نجمعهم من كلّ مكان إلى الموقف كأنّهم لم يلبثوا في الدنيا إلّا مقدار ساعة أي: استقلّوا أيّام الدنيا فإنّ المكث في الدنيا وإن طال كان بمنزلة مكث ساعة في جنب الآخرة.

وقيل: إنّهم استقلّوا مدّة لبثهم في القبور، عن ابن عبّاس وجماعة وقد دلّ القرآن بذلك الوجهين قال الله: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[1] وذكروا في سبب الاستقلال وجوهاً قيل: لمّا شاهدوا من أهوال الآخرة ودوامها وعظم خوفهم نسوا زمان الدنيا واستقلّوه، ولمّا طال وقوفهم في الحشر استقلّوا بقاءهم في الدنيا.

١ـ سورة المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٣.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: إنّ الخلق يعرف بعضهم بعضاً في ذلك الوقت كما كانوا في الدنيا كذلك وقيل: معناه: يعرف بعضهم ممّا كانوا عليه من الخطاء والكفر.

قال الكلبيّ: يتعارفون إذا خرجوا من قبورهم ثمّ ينقطع المعرفة إذا عاينوا العذاب ويتبرّأ بعضهم من بعض فحينئذ لا يسأل حميم حميماً أو المراد من قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يوبّخ بعضهم بعضاً فيقول كلّ فريق للآخر: أنت أضللتني يوم كذا وزيّنت لي الفعل الفلانيّ من القبائح فهذا تعارف بين اثنين في التقبيح والتعنيف والتقاطع لا تعارف عطف وشفقة. وكلمة التعارف يشمل القسمين فلا منافاة بين هذه الآية وبين آية ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾.[1]

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ فيه وجهان: الأوّل: أن يكون التقدير: ويوم يحشرهم رجال كونهم متعارفين وحال كونهم قائلين: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ والوجه الثاني: أن يكون ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ كلام الله فيكون شهادة من الله عليهم بالخسران أي: من باع آخرته بدنياه «فقد خسر» لأنّه أعطى الكثير الشريف الباقي وأخذ الخسيس الفاني.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى رعاية مصالح هذه التجارة لأنّهم اغترّوا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة كمن رأى زجاجة صافية حسنة فظنّها جوهرة نفيسة فاشتراها بكلّ ما ملكه فلمّا عرضها على الناقدين خاب سعيه وأخبروه بأنّها زجاجة لا تعادل فلساً، فوقع في حرقة الروع وعذاب القلب.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ في الدنيا وقيل: إنّه سبحانه وعد محمّداً ﷺ أن ينتقم له من أعدائه إمّا في حياته أو بعد وفاته ولم يعيّن سبحانه الوقت فقال في هذه الآية: إنّ ما وعدناه حقّ إمّا نرينّك يا محمّد في

١ـ سورة المعارج: ١٠.

حياتك بعض الّذي نعد هؤلاء الكفّار من العقوبة في الدنيا، قالوا: ومنها وقعة بدر وبعض الغزوات على الكفّار.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ ونميتك قبل أن ينزل ذلك بهم، وينزل ذلك بهم بعد موتك وستراه في الآخرة أكثر وإلى حكمنا مصيرهم في الآخرة فلا يفوتنا.

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ عليهم بأفعالهم ويوفيهم كفرهم ومعاصيهم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧)

لمّا بيّن حال محمّد ﷺ مع قومه بيّن حال الأنبياء مع أقوامهم تسلية للرسول.

وهذه الآية تدلّ على أنّ كلّ جماعة ممّن تقدّم قد بعث الله إليهم رسولاً، وأنّه ما أهمل أمّة من الأمم قطّ ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1] فإن قيل: كيف يصحّ هذا مع ما نعلمه من أحوال الفترة؟ ومع قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾[2] فالجواب أنّ كون كلّ أمّة أن يكون لها نذير لا يوجب أن يكون الرسول حاضراً مع القوم لأنّ تقدّم الرسول لا يمنع من كونه رسولاً إليهم وحكمه باقياً فيهم كما لا يمنع تقدّم رسولنا من كونه مبعوثاً إلينا إلى آخر الأبد. ويحمل معنى الفترة على ضعف الدين وارتداد الناس عن الحقّ ووقوع موجبات التخليط فيها.

والحاصل في معنى الآية: لكلّ أمّة كأمّة محمّد وأمّة موسى وأمّة إبراهيم وأمّة عيسى بعث الله إليهم وحمل رسله الرسالة الّتي كان مأموراً لتبليغه.

﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ هاهنا حذف وإضمار والتقدير فإذا جاء رسولهم وبلغ الرسالة فكذّبه قوم وصدّقه آخرون ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾ يهلك المكذّبون وينجي المؤمنون وفصل الأمر بينهم بالعدل وهم لا ينقصون عن ثواب

١ـ سورة فاطر: ٢٤.

٢ـ سورة يس: ٦.

طاعاتهم ولا يزدادون في عقاب سيئاتهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

المعنى: لمّا أوعد الله المكذّبين بيّن في هذه الآية أنّهم استعجلوا ذلك الوعيد على سبيل التكذيب والردّ.

قل يا محمّد في جوابهم: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ ولا أقدر لنفسي على ضرّ أو نفع إلّا ما شاء الله أن يملكني أو يقدرني عليه وحينئذ فكيف أقدر لكم ضراً أو نفعاً أو تقديم القيامة وتعجيل العقوبة قبل الوقت المقدّر؟ لكلّ أمّة أجل لعذابها في تكذيب الرسل وموتها فلا يتأخّرون عن ذلك الوقت، ولا يتقدّمون. وكلمة «متى» سؤال عن الزمان كما أنّ «أين» سؤال عن الزمان.

واحتجّ المعتزلة بقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قالوا: هذا الاستثناء يدلّ على أنّ العبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلّا ما شاء الله» قالوا: هذا الاستثناء يدلّ على أنّ العبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً إلّا الطاعة والمعصية فهذا الاستثناء يدلّ على كون العبد مستقلّاً بهما.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

المعنى: هذا جواب آخر لقول الكفّار الّذين يكذّبون النبيّ وكانوا يقولون لأنبيائهم: أنتم تخوّفونا بالعذاب والبعث والقيامة متى هذا الوعد ولم لم يأتنا؟ ويستعجلون العذاب.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أعلمتم ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ

نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: أيّ شيء الّذي يستعجل من العذاب المجرمون؟

وحاصل الجواب أن يقال لأولئك الكفّار الّذين يطلبون نزول العذاب: بتقدير أن يحصل هذا المطلوب ما الفائدة لكم فيه؟ فإن قلتم: نؤمن عنده فذلك باطل لأنّ الإيمان في ذلك الوقت إيمان إلجاء وقسر، وذلك لا يفيد قطعاً.

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: **«يريد بذلك عذاباً ينزل على فسقة أهل القبلة في آخر الزمان أجارنا الله»**.[1]

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي أحين وقع بكم العذاب المقدّر الموقّت آمنتم بالله أو بالقرآن أو بالعذاب الّذي كنتم تنكرونه؟ فيقال لكم: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمنون وتصدّقون وقد اضطررتم لحلوله وقد كنتم بالعذاب من قبل تستعجلون وكنتم تستهزءون.

ثمّ يقال يوم القيامة للّذين ظلموا أنفسهم على وجه التقريع: ذوقوا العذاب الدائم. وقوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطف على الفعل المضمر قبل كلمة «آلآن» قيل لهم: «آلآن» نظير قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾[2] فذوقوا العذاب الدائم بعد عذاب الدنيا.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ إلّا بسبب ما كسبتم وأنكم هديتم من قبل فما اهتديتم، وبيّن لكم الأدلّة وازيحت عنكم العلّة فأبيتم إلّا التمادي في الكفر والامتناع والانهماك في الغيّ فحينئذ ذوقوا جزاء أعمالكم. والذوق طلب الطعم وإحساس الكيفيّة. وقيل: لأنّهم يتجرّعون العذاب بدخول أجوافهم.

﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلاً يقال: بتّ ليلتي أفعل كذا. والسبب فيه أنّ الإنسان

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ١٧٩؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ١٠٢.

٢ـ سورة يونس: ٩١.

يكون في الليل غالباً في بيته فجعل هذا اللفظ كناية عن الليل و«البيات» مصدر كالوداع والسراج.

ويقال في النهار: ظللت أفعل كذا لأنّ الإنسان في النهار ظاهر في الظلّ. و«ماذا» قيل: كلمة واحدة ويكون منصوب المحلّ، نحو: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾[1] وقيل: كلمتين ومحلّ «ما» الرفع على الابتداء وخبره «ذا» بمعنى الّذي فيكون معناه: ما الّذي يستعجل منه. ودخول حرف الاستفهام على «ثمّ» كدخوله على الواو والفاء نحو قوله: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[2] للتقريع وإفادة التوبيخ.

واعلم أنّ الآية صريحة الدلالة على أنّ العبد هو المكتسب لأفعاله التكليفيّة وليس إجبار من الله تعالى أبداً خلافاً للجبريّة.

وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

المعنى: قوله: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ عطف على ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ ووقوع الاستعجال حين قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي يقولون: متى تكون القيامة والعذاب ويستخبرونك أحقّ ما تقول؟ واختلفوا في الضمير في قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ قيل: أحقّ ما جئتنا من القرآن والنبوّة والشرائع؟ وقيل: أحقّ ما تعدنا من البعث والعذاب والقيامة؟ وقيل: ما تعدنا من عذاب الدنيا ونزوله. فأمر سبحانه نبيّه أن يجيبهم بقوله: ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

والفائدة أن يستميلهم ويتكلّم معهم بكلام المعتاد، وأنّ من أخبر عن شيء وأكّده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل والشبهة، وأدخله في الجدّ

١ـ سورة البقرة: ٢٦.

٢ـ سورة الاعراف: ٩٦.

والحقيقة والناس طبقات: فمنهم من لا يقبل الشيء إلّا بالبرهان الحقيقيّ، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان بل ينتفع ويقنع بالبيانات الإقناعيّة نحو القسم فإنّ الأعرابيّ الّذي جاء الرسول ﷺ وسأل عن نبوّته اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم. قل يا محمّد ﷺ لهم: نعم وحقّ اللّه إنّ ما وعدتكم بمجيئه لحقّ لا شكّ فيه.

ثمّ أكّد سبحانه بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ وسابقين وفائتين لمن وعدكم بالعذاب أن ينزّله عليكم، لا يمكن لأحد أن يمانع ربّه ويدافعه عمّا أراد وقضى. ثمّ بيّن سبحانه أنّ هذا الجنس من الكلمات إنّما ينفع لهم ما داموا في الدنيا فأمّا إذا حضروا محفل القيامة وعاينوا قهر اللّه تعالى وماتوا على كفرهم لا ينفعهم شيء أبداً فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٍ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ والافتداء إيقاع الشيء بدل غيره لدفع المكروه أي لو أنّ لهم جميع ما في الأرض ويعطون بدل عذابهم لا يمكن ذلك لأنّه في ذلك الوقت لا يملك شيئاً كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾[1] وبتقدير أن يملك خزائن الأرض لا ينفعه الفداء لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾[2] وقال في صفة هذا اليوم: ﴿لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[3].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ وجاء بصيغة الماضي لتحقيق وقوعه. و«الإسرار» معناه الإخفاء والإظهار ضدّان فإذا كان بمعنى الإخفاء فظاهر، وأمّا بمعنى الإظهار من قولهم: سرّ الشيء وأسرّه إذا أظهره فقيل: المراد إخفاء

١ـ سورة مريم: ٩٥.

٢ـ سورة البقرة: ٤٨.

٣ـ سورة البقرة: ٢٥٤.

تلك الندامة لأنّهم لمّا رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيّرين فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً سوى إسرار الندم كحالة من يذهب به إلى الصلب فإنّه يبقى مدهوشاً متحيّراً لا ينطق بكلمة، أو لأنّهم أسرّوا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم.

فإن قيل: إنّ مهابة ذلك الموقف يمنع الإنسان عن مثل هذه الأمور.

قيل: إنّ ذلك قبل الورود في النار وإلّا فبعد الورود استصرخوا وأظهروا لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾.[1]

وأمّا من قال: المراد بالإسرار الإظهار فظاهر لأنّهم إنّما أخفوا الندامة في الدنيا إمّا لأجل رئاستهم وميلهم أو أنّ الندامة ما حصلت لهم حتى يخفوا أو يظهروا ولكن لمّا رأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب فحينئذ أظهروا الندامة.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ والعدل قيل: قضي بين المؤمنين والكافرين. وقيل: بين الرؤساء والأتباع من أهل الكفر لأنّهم وإن اشتركوا في العذاب لكن لابدّ أن يقضى بينهم بالعدل لأنّه لا يمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضاً في الدنيا فيكون في ذلك القضاء

تخفيف بعضهم دون بعض وتثقيل بعضهم دون بعض لأنّ العدل يقتضي أن ينتصف للمظلومين من الظالمين ولا سبيل إليه إلّا بأن يخفّف من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

تعلّق الآية بما قبلها هو أنّه قال قبل هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ

---

[1] ـ سورة المؤمنون: ١٠٦.

ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ فلا جرم بيّن في هذه الآية أنّه ليس للظالم شيء يفتدي به فإنّ كلّ الأشياء ملك الله تعالى وملكه.

وهاهنا دقيقة اخرى وهي كلمة «ألا» وهذه الكلمة إنّما تذكر عند تنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وأهل هذا العالم غالباً مشغولون بالنظر إلى الأسباب الظاهرة فيقولون: البستان للأمير، والدار للوزير، والغلام لزيد، والجارية لعمرو فيضيفون كلّ شيء إلى مالك آخر والخلق لكونهم في رقدة الغفلة يظنّون صحّة تلك الإضافات فالله سبحانه ينبّه الغافلين بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ وذلك لأنّه لمّا ثبت بالعقل أنّ ما سوى الواحد الأحد ممكن لذاته والممكن مستند إلى الواجب لذاته فما سواه ملكه أجدّه فما سواه له وليس لغيره في الحقيقة.

ثمّ نبّه ثانياً بقوله تعالى أنّ المالك الغنيّ عن كلّ شيء جميع ما وعد به من العذاب والحشر والنشر حقّ وواقع لا محالة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لغفلتهم ولاقتصار فهمهم على المحسوسات المعتادة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾. فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ من غير دخل لأحد في ذلك ﴿وَإِلَيْهِ﴾. لا إلى غيره في الآخرة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث والحشر.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

المعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب لجميع الخلق والمكلّفين ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾. يعني القرآن. والموعظة بيان ما يجب أن يحذر عنه ويرغب فيه ويدعو إلى الصلاح ويزجر عن الفساد ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ كالدواء لإزالة الداء فداء الجهل أضرّ من داء البدن، وعلاجه أعسر وأطبّاؤه أقلّ والشفاء منه أجلّ والصدر موضع القلب، وهو أجلّ موضع من البدن لشرف

القلب ﴿وَهُدًى﴾ أي القرآن دلالة تؤدّي إلى معرفة الحقّ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي نعمة لمن تمسّك به وعمل بما فيه. وإنّما خصّ المؤمنين بالذكر وإن كان القرآن موعظة لجميع الخلق لأنهم الّذين انتفعوا به.

وقد وصف الله سبحانه القرآن بأوصاف أربعة الموعظة والشفاء لما في الصدور وبالهدى وبالرحمة.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد بإفضال الله ونعمته، ووضع الفضل موضع الإفضال كما وضع النبات موضع الإنبات في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[1] أي: إنباتاً ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ بدل من قوله: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالقرآن فليفرحوا لأنّه خير لكم يا أمّة محمّد وهو أحسن لكم ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الكفّار من الأموال.

وحاصل المعنى أنّه قل يا محمّد لهؤلاء الفرحين بأموال الدنيا الجامعين لها: إذا فرحتم بشيء فافرحوا بفضل الله ورحمته: بهذا القرآن وبإرسال محمّدﷺ إليكم فحينئذ إنّكم تحصلون بهما نعيماً دائماً مقيماً. وقيل: «فضل الله» هو القرآن ورحمته الإسلام عن أبي سعيد الخدريّ. وروى أنس بن مالك عن النبيﷺ أنّه قال: «**من هداه الله للإسلام وعلّمه القرآن ثمّ شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم القيامة**».[2]

قال أبو جعفر الباقرعليه السلام: «**فضل الله رسول اللهﷺ ورحمته عليّ بن أبي طالبعليه السلام**».[3]

وروى الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس كذلك. وفي الآية بيان آخر وطريق صحيح لإثبات النبوة وهو أنّا نعلم بعقولنا أنّ من جاء ودعى الخلق

١ـ سورة نوح: ١٧.

٢ـ تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٣٥٤.

٣ـ بحار الأنوار، ج ٩، ص ١٠٢.

إلى الحقّ ونهاهم عن الباطل والفساد، ونقل الناس من الكفر والفساد إلى الإيمان والصلاح ومعه آية ومعجزة لا يتمكّن غيره أن يأتي بها فهو النبيّ الحقّ الصادق المصدّق.

ومن المعلوم أنّ نفوس الخلق قد استولى عليها أنواع الجهل والنقص وحبّ الدنيا وطالبين لاستدراك مشتهيات طباعهم ومستلذّاتهم بأيّ نحو كان ومن أيّ وجه حصل.

ولا شكّ أنّ هذا الميل يستدعي إلى ارتكاب جهالات وضلالات غير متناهية وإذا كان كذلك فالخلق يحتاجون إلى إنسان كامل قويّ النفس مشرق الروح علويّ الملكة بحيث يقوى بكماله نقل هؤلاء الناقصين والجاهلين الفاسدين المفسدين إلى مقام الكمال حتّى لا يقع الهرج والمرج ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكرات.

ونحن نرى أنّ الناس طبقات: الناقصون وهم الجهلة الفسدة، والكاملون الّذين لا يقدرون على تكميل الناقصين، والأكملون الّذين يقدرون على تكميل الناقصين فالطبقة الأولى هي عامّة الخلق، والقسم الثاني بعض الأولياء، والثالث هم الأنبياء.

ولمّا كانت القدرة على نقل الناقصين إلى درجة الكمال متفاوتة ومراتبها مختلفة لا جرم كانت درجة الأنبياء في قوّة النبوّة مختلفة ولهذا السرّ قال ﷺ: **«علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل»**.[1]

إذا عرفت هذه المقدّمات وظهر لك إعجاز القرآن ثبت لك نبوّته وهذا الاستدلال أي: المعجزيّة على نبوّته برهان الإنّ على اصطلاح المنطقيّين، وهذه

١ـ مكاسب، الشيخ الانصاري، ج ٣ ص ٥٥١ وتحرير الاحكام، حلي، ج ١، ص ٣٨؛ وحدائق الناظرة، ج ١١، ص ٢٠٧.

البيانات الّتي نذكرها في تفسير هذه الآية برهان اللّم وهو أشرف وأعلى فائدة.

اعلم أنّ نور العقل يضعف حيث قويت العلائق الحسيّة والحوادث الجسدانيّة، ويوجب ذلك الاستغراق حصول العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة في جوهر الروح، وهذه الأحوال تجري مجرى الأمراض الشديدة للروح والبدن فلابدّ لها من طبيب حاذق يعالجه بالعلاجات المفيدة وربّما حصلت الصحّة وزال السقم فكان محمّدﷺ كالطبيب الحاذق والقرآن عبارة عن مجموع الأدوية الّتي بتركّبها تتعالج القلوب المريضة والأرواح الفاسدة.

والطبيب له مع المريض في المعالجة أحوال أربعة:

الأولى: أن ينهاه عن تناول ما لا ينبغي ويأمره بالاحتراز عن امور بسببها وقع ذلك المرض وهذا هو الموعظة فإنّه لا معنى للموعظة إلّا الزجر والمنع عمّا يبعّد الإنسان عن مرضاة اللّه.

والثانية: من حال الطبيب الشفاء وهو أن يسقيه أدوية يزيل المرض والأخلاط الفاسدة عن باطنه ليبرأ المرض. فهذا النبيّ الطبيب بهذا الدواء الّذي هو شفاء للصدور يتداوى ذلك المريض كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾[١] فصار جوهر الروح مطهّراً من النقوش المانعة.

والمرتبة الثالثة: حصول الهداية كما يحصل للمريض حصول العافية، ويحصل لجوهر النفس الناطقة فيض السعادة والأضواء الإلهيّة، وفيض عامّ غير منقطع قالﷺ: «**إنّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها**».[٢] والمنع في حقّه تعالى ممتنع فعلى هذا عدم حصول هذه الأضواء الروحانيّة إنّما كان

١ـ سورة النحل: ٩٠.

٢ـ توحيد الصدوق، ص ٣٣٠.

للعقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة والظلمة فحينئذ يمتنع حصول النور فإذا زالت تلك الأحوال فيقع ضوء عالم القدس والمريض يصحّ.

وأمّا الحال الرابع للطبيب فهي: أن تصير النفس بالغة إلى هذه الدرجات العالية والمعارج الربّانيّة بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر ضياء الشمس على أجرام هذا العالم، وهو المراد بقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو وجود محمّدﷺ الّذي جعله اللّه رحمة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)﴾

النظم: قيل: لمّا وصف القرآن بأنّه هدى ورحمة وأمرهم بالتمسّك به عقّبه في هذه الآية بذكر مخالفتهم.

وقيل: إنّها اتّصلت بقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإذا أقرّوا أنّه الرزّاق ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد لكفّار مكّة وغيرهم من المشركين و«ما» بمعنى «الّذي» منصوب «برأيتم» قل لهم على وجه التقريع ولو كان بصورة الاستفهام: الّذي ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ وإنّما قال: أنزل اللّه لأنّ أرزاق العباد من المطر الّذي ينزله اللّه. لم جعلتم بعضه حلالاً وبعضه حراماً أي: ما حرّموا من قبل أنفسهم كالسائبة والبحيرة والوصيلة والزروع. ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في هذه الأمور؟ ومعناه أنّ اللّه لم يأذن لكم في شيء من ذلك بل أنتم تكذبون في ذلك على اللّه سبحانه. وأيّ شيء يظنّ الّذين يكذبون على اللّه يوم القيامة؟

أي: لا ينبغي أن يظنّوا أن نصيبهم على افترائهم على اللّه إلّا العذاب الشديد. وقرئ «ظنّ» بصيغة الماضي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بما

فعل بهم من ضروب الإنعام ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمه ويجحدونها وقيل: معناه أنّه لذو فضل على خلقه بترك معاجلته العذاب على من افترى عليه بالعقوبة، ويمهلهم لعلّهم ينتبهون. ثمّ بيّن سبحانه أنّ إمهاله إيّاهم ليس لجهل بحالهم، فقال:

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ أنت يا محمّد وامّتك في حال من الأحوال من الدين والدنيا ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ الضمير إلى الله أو ضمير الشأن وما تقرء من الله ﴿مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا﴾ عالمين به شاهدين عليكم متى ما دخلتم في ذلك العمل. و«الإفاضة» الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه مأخوذ من انصباب الماء من الإناء من جوانبه. ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ ويغيب عن علم ﴿رَّبِّكَ﴾ وزن نملة صغيرة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ﴾.

من وزن نملة و[لا أكبَرَ إلّا] هو مثبوت ومبيّن في كتاب بيّنه الله فيه، وهو اللّوح المحفوظ. أو المراد الكتاب الّذي كتبه الملائكة السفرة والحفظة. قال الصادق عليه السلام: «**كان رسول الله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديداً**».[1]

وهذه الآية ردّ على قول من يقول: إنّ الله ليس عالماً بالجزئيّات.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا

١ـ انظر: مستدرك الوسائل، ج ٤، ص ٢٧٧.

يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

لمّا بيّن في الآية السابقة أنّه سبحانه عالم بجميع ما تعملون شرح أحوال الصادقين الصدّيقين ونفى الخوف والحزن عنهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ...﴾ ولابدّ أن نعرف الوليّ فعرّفه سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ وعن النّبيّ ﷺ: **«هم الّذين يذكر الله برؤيتهم»**.[1] والسبب فيه أنّ مشاهدتهم تذكّر أمر الآخرة لما يشاهد منهم من الخشوع والخضوع كما قال سبحانه: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.[2]

قال أبو بكر الأصمّ: أولياء الله هم الّذين تولّى الله هدايتهم باليقين وتولّوا القيام بحقّ عبوديّة الله والدعوة إليه.

وظهر في علم الاشتقاق أنّ تركيب الواو واللّام والياء تدلّ على القرب فوليّ كلّ شيء هو الّذي يكون قريباً منه والقرب من الله بالمكان والجهة محال فالقرب منه إنّما يكون إذا كان القلب مستغرقاً في نور معرفة الله فإن رأى دلائل معرفة الله، وإن سمع سمع آيات الله، وإن نطق نطق بالثناء على الله، وإن تحرّك تحرّك في خدمة الله فهنالك يكون هذا الإنسان في غاية القرب من الله ويكون وليّ الله وإذا كان كذلك كان الله وليّه كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[3] والقرب لا يحصل إلّا من الجانبين.

وقال المتكلّمون: وليّ الله من يكون بالاعتقاد الصحيح المبنيّ على الدليل ويكون آتيا بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به الشريعة. فهؤلاء

١ـ جوامع الجامع، ج ٢، ص ١٣٦.

٢ـ سورة الفتح: ٢٩.

٣ـ سورة البقرة: ٢٥٧.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنّ الخوف إنّما يكون في المستقبل والحزن إنّما يكون على الماضي إمّا لأجل أنّه كان قد حصل في الماضي ما كرهه أو لأنّه فاته شيء أحبّه. وليس المراد أنّ الأولياء لا يلحقهم في الدنيا خوف وحزن، بل المراد في الآخرة لأنّ المؤمن وإن صفاً عيشه في الدنيا فإنّه لا يخلو من همّ بأمر الآخرة شديد وحزن على ما يفوته في القيام بطاعة اللّه، وقلّما يتّفق أن يكون المؤمن خاليا من قلّة أو ذلّة أو علّة كما في الحديث: **«الدنيا سجن المؤمن»**.

قال ابن عطا: بين العبد والربّ بحران عميقان: أحدهما بحر النجاة وهو القرآن والآخر بحر الهلاك وهو الدنيا فمن ركن إليها هلك، ليذهب بلال الحبشيّ بالتاج والحلية إلى الفردوس ويذهب بمولاه صاحب الطيلسان الحرير أميّة بن خلف بالأنكال والحديد ومعلوم أنّ ترك اللّذائذ يخفض القوى الجسمانيّة لكي تقوى القوى الروحانيّة إنّ الملوك إذا دخلوا... ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ مع ذلك المعاصي﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فيه أقوال: أحدها: أنّ البشرى في الحياة الدنيا هي ما بشّرهم اللّه تعالى به في القرآن على الأعمال الصالحة نظير قوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾[1] ونظير قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾[2] وثانيها: أنّ البشارة في الحياة الدنيا بشارة الملائكة للمؤمنين عند موتهم بأن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنّة.

وثالثها: أنّها في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن لنفسه أو ترى له، وفي الآخرة بالجنّة وهي ما يبشّرهم الملائكة عند خروجهم من القبور وفي

١ـ سورة يونس: ٢.

٢ـ سورة التوبه: ٢١.

القيامة إلى أن يدخل الجنّة حالاً فحالاً وهو المرويّ عن أبي جعفر، وروي ذلك في حديث مرفوع عن النبي ﷺ.

وروى عقبة بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**يا عقبة لا يقبل الله من العباد يوم القيامة إلّا هذا الدين الّذي أنتم عليه وما بين أحدكم وبين أن ترى ما تقرّ به عينه إلّا أن تبلغ نفسه إلى هذه** ـ وأومأ بيده إلى الوريد ـ»[1] الخبر بطوله. ثمّ قال: «**إنّ هذا في كتاب الله**» وقرأ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ وقد بيّنا البشرى أنّ من معناها الرؤيا الصالحة وعنه ﷺ قال: «**الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فإذا حلم أحدكم حلماً يخافه فليتعوّذ منه وليبصق عن شماله ثلاث مرّات فإنّه لا يضرّه**».[2]

وعنه ﷺ «**ذهبت النبوّات وبقيت المبشّرات**».[3] وعنه ﷺ «**الرؤيا الصالحة جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة**».[4]

وعن ابن مسعود: الرؤيا ثلاثة قصد وهمّ يهمّ به الرجل في النهار فيراه في الليل وحلم الشيطان والرؤيا الصادقة فإذا رأى منكم رؤيا غير صالحة فليقل: أعوذ بما عاذت به ملائكة الله من شرّ الرؤيا الّتي رأيتها أن تضرّني في دنياي أو في آخرتي. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا خلف فيها والكلمة والقول سواء نظيره ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾[5] وهذا دليل على أن المراد بالبشرى وعد الله بالثواب والكرامة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. قال القاضي عبد الجبّار: قوله ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ يدلّ على أنّ كلمات الله غير قابلة للتبديل وكلّ ما قبل العدم

١ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ١٢٥.

٢ـ الاحكام، ج ٢، ص ٥٥٠؛ وعدة الداع، ص ٢٦٢.

٣ـ الإصابة، ابن حجر، ج ٨، ص ٤٥٩.

٤ـ مدنية المعاجز، ج ٧، ص ١٨٣.

٥ـ سورة ق: ٢٩.

امتنع القدم. ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

النظم: كما أنّه سبحانه أزال الخوف والحزن عن أوليائه في الآخرة بقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أزال الخوف والحزن في الدنيا عن قلبه ﷺ بهذه الآية حيث كان المشركون يهدّدونه بالكثرة والقوّة والمال، وكانوا يقولون: إنّا أصحاب المال والتبع ونسعى في قهرك وإبطال أمرك. فإن قيل: فكيف آمنه ولم يزل خائفاً حتّى احتاج إلى الهجرة والهرب.

قلنا: إنّ الله وعده الظفر والنصرة مطلقا والوقت ما كان معيّناً فهو كان يخاف من أن لا يكون هذا الوقت المعيّن ذلك الوقت فحينئذ يحصل الانكسار والانهزام في هذا الوقت.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦)

ذكر في الآيات السابقة ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فدلّ على أنّ كلّ ما لا يعقل فهو ملك الله. وأمّا في هذه الآية فكلمة «من» وهي مختصّة بمن يعقل فدلّت على أنّ كلّ العقلاء من الثقلين والملائكة ملك لله فحينئذ ما سواه ملكه وذلك قدح في جعل الأصنام شركاء لله تعالى. ثمّ قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ وفي كلمة «ما» قولان:

الأوّل: أنّه نفي وجحد. والمعنى: أنّهم ما اتّبعوا شريكاً وإنّما اتّبعوا شيئاً ظنّوه شريكاً لله لأنّ شريك الله ممتنع. الثاني: أنّ «ما» استفهام كأنّه قيل: أيّ شيء يتّبع الّذين يدعون من دون الله شركاء؟ والمقصود تقبيح فعلهم يعنى أنّهم ليسوا على شيء. ثمّ قال سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: اتّبعوا ظنونهم الباطلة وأوهامهم الفاسدة. ثمّ بيّن أنّ هذا

الظنّ لا حكم له ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ و«الخرص» الكذب والتقدير بالتخمين أي: يقدّرون تقديراً باطلاً.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

المعنى: أي: الّذي مالك السماوات والأرض ومالككم ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾. وجعله لسكونكم ولأن يزول التعب والكلال عنكم بالسكون فيه، وجعل ﴿ٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾. مضيئاً تبصرون وتهتدون به في معاشكم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الخلق والجعل ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ وحججاً لقوم يسمعون الحجج، ويتفهمون البيّنات سماع تدبّر وتعقّل. «والمبصر» الّذي يبصر والنّهار يبصر فيه. وإنّما جعله مبصراً على طريق نقل الاسم من السبب إلى المسبّب.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

وإنّما قال: ﴿قَالُوا۟﴾ وإن لم يكن سبق ذكرهم لأنهم كانوا بحضرة النبيّ ﷺ وكان يعرفهم، ويصحّ الضمير والكناية عن المعلوم كما يصحّ عن المذكور. ثمّ حكى اللّه سبحانه عن صنف من الكفّار أنهم أضافوا إليه سبحانه اتّخاذ الولد وهم طائفتان: إحداهما كفّار قريش والعرب فإنّهم قالوا: الملائكة بنات اللّه. والطائفة الاخرى النصارى الّذين قالوا: المسيح ابن اللّه ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزيهاً له تعالى عن اتّخاذ الولد.

ثمّ بيّن الوجه فيه فقال: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي إذا كان له ما في السماوات والأرض ملكاً وخلقاً فهو غنيّ عن اتّخاذ الولد ليقوى به من ضعف أو يستغني به عن فقر وإذا استحال اتّخاذ الولد حقيقة عليه لاستغنائه بالذات عن كلّ شيء استحال عليه اتّخاذ الولد على وجه التبنّي.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ أي ما عندكم من حجّة وبرهان بهذا ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هذا توبيخ لهم على قولهم.

ثمّ بيّن وعيدهم على ذلك فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ يكذبون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ باتّخاذ الولد وغير ذلك ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ ولا يفوزون بشيء من الثواب.

وأصل الافتراء القطع من فريت الأديم أي: يقطعون بالكذب الّذي يكذبون به على الله هو ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ يتمتّعون به أيّاماً قلائل ثمّ تنقضي ثمّ إلى ما حكمنا مصيرهم ﴿نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

لمّا بالغ سبحانه في تقرير الأدلّة للكفّار والجواب عن شبهاتهم شرع في قصص بعض الأنبياء لإثبات المطلوب بنوع آخر وهذه صناعة الافتنان وهو الخروج عن فنّ إلى فنّ لأنّ الكلام إذا طال فربّما حصل نوع من الملالة، فإذا

انتقل عنوان الكلام يحصل للمتكلّم به شرح صدر وطاب قلبه ووجد رغبة في الاستماع وقوّة حادثة، على أنّ في الآية تسلية للرسول بمن سلف من الأنبياء لأنّه ﷺ إذا سمع معاملة الكفّار مع كلّ الرسل خفّت المصيبة عليه، لأنّ المصيبة إذا عمّت طابت.

ثمّ إذا سمعوا هذه القصص وأنّ ما فعل الجهّال قبلهم بأنبيائهم لعلّ أن يقع الخوف في قلوبهم ويرتدعون عمّاهم عليه وهم كانوا يعلمون أنّ هذا النبيّ امّيّ ولم يتعلّم من أحد فإخباره لهم بأمثال هذه الأمور دلائل على نبوّته خصوصاً إذا بيّن لهم هذه الأقاصيص من غير تفاوت وزيادة ونقصان فلا يكون حينئذ إلّا من الوحي والتنزيل. والحاصل أنّه أمر اللّه محمّداً ﷺ أن يقرأ عليهم أخبار نوح ﴿إِذْ قَالَ﴾ نوح ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ الّذي بعث إليهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ﴾ ثقل وشقّ وعظم عليكم إقامتي بين أظهركم وفيكم وبينكم وثقيل عليكم تذكيري ووعظي بآيات اللّه وبحججه وبيّناته على أصول دينكم من التوحيد والعدل والنبوّة والمعاد وبطلان ما تدينون به. وفي الكلام حذف وإضمار وهو قوله: وعزمتم على قتلي وطردي وتبعيدي ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ مع أنّه متوكّل عليه كان في جميع الأحوال ليتبيّن لهم أنّه متوكّل عليه. وفي هذا الإعلام موعظة وزجر لهم أي: إلى اللّه فوّضت أمري فاعزموا على أمركم واجتماعكم واتّفقوا على أمر واحد من قتلي وطردي. وهذا تهديد في صورة الأمر ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: الأوثان الّتي تعبدونها وجعلتموها معبوداً لكم أو المراد من شاركهم من أصحابهم في عداوته وقوله: «فعلى اللّه» جواب الشرط. ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مبهماً وملتبساً ويكون ظاهراً ومنكشفاً ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ثمّ امضوا إليّ بمكروهكم واقطعوا ما بيني وبينكم. وقرئ بالفاء أي: انتهوا.

وهذا القول من نوح يدلّ على توكّله ويقينه بربّه. ومن قرأ بالفاء معناه أن اسرعوا إلى الفضاء لأنّه إذا صار إلى الفضاء تمكّن من الإسراع وتسلّط على قتله وكان هذا من معجزات نوح لأنّه كان في نفر يسير أو ما كانوا يقدرون أن يقتلوه نعم كانوا يؤذونه، لكن لم يتمكّنوا من قتله.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: إن أعرضتم عن قبول قولي فإنّي ما كنت طامعاً منكم شيئاً وما طلبت منكم أجراً ليس أجري إلّا على اللّه وأنا أطلب الأجر منه، وأمرني اللّه أن أكون من المستسلمين لأمره.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ ونسبوا إليه الكذب في أنّه نبيّ اللّه ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ في السفينة وجعلنا الّذين نجوا مع نوح خلفاء لمن هلك بالغرق قيل: إنّهم كانوا ثمانين نفساً. وأهلكنا المكذّبين بنوح جميعاً من أهل الأرض ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ المخوّفين باللّه وعذابه كيف أهلكهم اللّه؟!

ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾

ثمّ بعد نوح بعثنا رسلاً ولم يسمّهم، وكان منهم هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام بالمعجزات والشواهد القاهرة فأخبر تعالى عنهم أنّهم جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب فما كانوا هؤلاء الأقوام الّذين بعث اللّه إليهم الرسل ولم يصدّقوا بسبب ما كذّبت به أوائلهم الّذين هم قوم نوح أي: كذّبوا هؤلاء كما كذّبوا أولئك لأنّهم كانوا مثلهم في العتوّ والكفر وكانت الحالتان سواء عندهم قبل البيّنات وبعد البيّنات.

﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي: نجعل على قلوب الظالمين لأنفسهم الّذين تعدوا حدود اللّه سمة وعلامة على كفرهم يلزمهم الذمّ كما فعلنا ذلك بقلوب هؤلاء الكفّار حتّى تعرفهم الملائكة.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

المعنى: ثمّ بيّن قصّة من بعثه بعد الرسل أو بعد الأمم ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ نبيّين مرسلين ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: رؤساء قومه بأدلّتنا ومعجزاتنا فاستكبروا عن الانقياد لها وكانوا قوماً عاصين لربّهم. فلمّا جاء قوم فرعون الحقّ من عندنا أي: جاءهم موسى بالبيّنات والبراهين قالوا إنّ هذا لسحر ظاهر قال: لهم موسى أ تقولون للمعجز والحقّ إنّه سحر؟ والسحر باطل والمعجز حقّ وهما متضادّان ولا يظفرون السحرة بحجّة ولا يأتون على ما يدّعونه ببيّنة وإنّما هو تمويه على الصفة.

و﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: فرعون وقومه لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ لتصرفنا عن ذلك ولتلوينا عن ديننا الّذي كان آباؤنا على ذلك الدين و﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي السلطنة والملك لأنّ النبيّ إذا اعترف القوم بنبوّته صارت مقاليد أمر الامّة إليه فصار أكبر القوم، والرياسة تنتقل إليه في الأرض ولذا صرّحوا بأن لا نؤمن لكما ثمّ لمّا ذكروا هذه المعاني حاولوا في معارضة موسى بأنواع السحر ليظهروا عند الناس ويموّهوا في الأمر.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ

بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

ثمّ جمع فرعون السحرة وأحضرهم ف﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾. فإن قيل: كيف أمرهم بالكفر والسحر والأمر بالكفر كفر؟

قلنا: إنّه عليه السلام أمرهم ليظهر للخلق أنّ ما أتوا به عمل فاسد لا على طريق أنّه عليه السلام أمرهم بالسحر ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ حبالهم وعصيّهم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾. وهو الباطل والتمويه وأخبرهم بأنّ اللّه يحقّ الحقّ ويبطل الباطل ويظهر فضيحة صاحبه وقد أخبر اللّه سبحانه إبطاله في سائر السور و﴿ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ولا يقوّيه ولا يكمّله، بل يحقّ الحقّ ويكمّله بكلماته أي: بحكمه وقضائه. وفي هذه الآية دلالة على أنّ اللّه لا يهيّئ عمل من قصد إفساد الدين ولا يمضي له ولا يرضى به، وينصر المحقّين. والنصرة على وجهين: تارة بالحجّة الحقّة وهي مستمرّة على كلّ حال، وتارة بالغلبة والقهر وهذا يختلف بحسب المصلحة قد تكون بالتخلية وبالحيلولة اخرى.

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

ثمّ بيّن سبحانه من آمن من قوم موسى. أي: لم يصدّق موسى فيما ادّعى من النبوّة مع ما أظهره من المعجزات إلّا ذرّيّة أي: أولاد من قوم فرعون. وقيل: من قوم موسى وهم بنو إسرائيل الّذين كانوا بمصر.

واختلف من قال بالأوّل فقيل: إنّهم قوم كانت أمّهاتهم من بني إسرائيل

وآباؤهم من القبط فاتّبعوا أمّهاتهم وأخوالهم عن ابن عبّاس. وقيل: إنّهم ناس يسير من قوم فرعون منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وجارية وامرأة هي مشّاطة امرأة فرعون.

واختلف من قال بالثاني فقيل: هم جماعة من بني إسرائيل أخذهم فرعون لتعلّم السحر وجعلهم في أصحابه فآمنوا بموسى. وقيل: أراد مؤمني بني إسرائيل وكانوا ستّمائة ألف وكان يعقوب دخل مصر باثنين وسبعين إنساناً فتوالدوا حتّى بلغوا ستّمائة ألف وإنّما سمّاهم ذرّيّة لضعفهم.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ يعني: آمنوا وهم خائفون من معرّة فرعون ومن معرّة أشرافهم ورؤسائهم. وقيل: إنّ الضمير في «ملائهم» راجع إلى الذرّيّة لأنّ آباءهم كانوا من القبط وكانوا يخافون قومهم من القبط أن يعذّبوهم وأن يفتنهم فرعون عن الدين ويمتحنهم لمحنة لا يمكنهم الصبر عليها فينصرفون عن الدين وكان جنود فرعون يعذبون بني إسرائيل فكان خوفهم منه ومنهم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ ومستكبر باغ طاغ في أرض مصر ونواحيها ومن المجاوزين الحدّ في العصيان لأنّه ادّعى الربوبيّة وأسرف في القتل والظلم. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لقومه الّذين آمنوا به ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ كما تظهرون فأسندوا أموركم إليه ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ على الحقيقة. وإنّما أعاد قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم﴾ لتبيّن المعنى أنّ اجتماع الصفتين واجب: التصديق والانقياد فأخبر اللّه عن طاعتهم ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي: لا تمكّن الظالمين من ظلمنا بما يحملنا على الانصراف عن ديننا ولا تظهر علينا فرعون وقومه، ولا تسلّطهم علينا فنفتتن بهم ﴿وَنَجِّنَا﴾ برحمتك من فرعون واستعباده إيّانا وأخذهم جماعتنا

بالأعمال الشاقة.

والمصدر هاهنا في قوله «فتنة» بمعنى المفتون، والمصدر بمعنى المفعول شائع كالخلق بمعنى المخلوق.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

لمّا ظهر من التوكّل على الله من المؤمنين بموسى أمر سبحانه موسى وهارون عليهما السلام باتّخاذ المساجد والإقبال على الصلوات فقال: ﴿تَبَوَّءَا﴾ أي: اتّخذاه مكاناً كقوله: «توطّنه» أي اتّخذه وطناً.

﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال الفرّاء: معناه: واجعلوا بيوتكم إلى القبلة. واختلفوا في أنّ هذه القبلة أين كانت؟ فظاهر لفظ القرآن لا يدلّ على تعيّنه إلّا أنّه نقل عن ابن عبّاس أنّه قال: كانت الكعبة قبلة موسى. وبعضهم يقول: الكعبة قبلة كلّ الأنبياء.

وقال آخرون: كانت تلك القبلة جهة بيت المقدّس. وخصّ موسى بالتبشير ليدلّ بذلك الخطاب على أنّ الأصل في الرسالة موسى وأنّ هارون تبع له وكأنّ موسى وقومه كانوا في أوّل الأمر مأمورين بأن يصلّوا في بيوتهم خفية عن الكفرة كما كان المسلمون كذلك في أوّل الإسلام في مكّة.

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

المعنى: لمّا بالغ موسى في إظهار البيّنات ورأى القوم مصرّين على

الجحود والعناد أخذ يدعو عليهم، ولمّا علم أنّ سبب إنكارهم وجحودهم اشتغالهم بزينة الدنيا من الصحّة والجمال واللّذات ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ يا ربّ ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾ وأشراف قومه ﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾. قالت الأشاعرة: اللام هاهنا للتعليل وغرضهم من هذا المعنى إثبات مذهبهم الجبر. وذلك فاسد لأنّا قد علمنا بالأدلّة الواضحة أنّ الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلالة ولا يريد منهم الكفر والضلال، وكذلك لا يؤتيهم المال ليضلّوا. قال القاضي عبد الجبّار المعتزليّ: لا يجوز أن تكون اللام بمعنى الغرض والأجل قطعاً لأنّه ثبت أنّه سبحانه منزّه عن فعل القبيح ولا شكّ أنّ إرادة الكفر قبيحة. ثمّ دليل آخر هاهنا: وهو أنّه سبحانه لو أراد ذلك لكان الكفّار مطيعين لإرادته سبحانه بسبب كفرهم لأنّه لا معنى للطاعة إلّا الإتيان بما يوافق الإرادة، ولو كانوا كذلك لما استحقّوا العذاب والدعاء عليهم بطمس الأموال وشدّ القلوب كما دعا عليهم موسى وهو سبحانه يجيب.

ثمّ دليل آخر: أنّا لو جوّزنا أن يريد الله إضلال العباد لجوّزنا أن يبعث الله الأنبياء للدعاء إلى الضلال وفي هذا الأمر هدم الدين وهذا باطل.

ثمّ لو كان الأمر كذلك كيف يقول سبحانه لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ؟﴾[1] وكيف يجوز أن يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؟[2] ثم إنّه تعالى أراد الضلالة منهم وأعطاهم النعم لكي يضلّوا، لأنّ ذلك عين المناقضة فلابدّ من حمل أحدهما على موافقة الآخر فوجب أن يتأوّل هذه الكلمة، وذلك من وجوه:

١ـ سورة طه: ٤٤.

٢ـ سورة الاعراف: ١٣٠.

الأوّل: أنّ اللام للعاقبة في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾(١) ولمّا كانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال وقد أعلمه الله لا جرم عبّر عن هذا المعنى بهذا اللّفظ.

الثاني: أنّ قوله: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ أي: لئلّا يضلّوا عن سبيلك فحذف «لا» لدلالة المفعول عليه كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾(٢) والمراد: أن لا تضلّوا. وكقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٣) والمراد: أن لا تقولوا. ومثل هذا الحذف كثير في الكلام.

الثالث: أن يكون موسى عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التعجّب المقرون بالإنكار، والتقدير: كأنّك آتيتهم ذلك لهذا الغرض فإنّهم لا ينفقون هذه الأموال إلّا فيه فالمعنى يصير: أنّهم يصرفون لأجل الضلال، ثمّ حذف حرف الاستفهام كما في قول الشاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالاً

أرادا: أ كذبتك عينك فكذا هاهنا.

الرابع: هذه اللام لام الدعاء وهي لام مكسورة تجزم المستقبل وتفتح بها الكلام فيقال: ليغفر الله المؤمنين، وليعذّب الله الكافرين فحينئذ يكون المعنى: ربّنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك.

الخامس: أنّ الضلال جاء في القرآن بمعنى الهلاك وفي غير القرآن: أمّا القرآن في سورة البقرة ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾(٤) وفسّر بمعنى الهلاك وفي

١ـ سورة القصص: ٨.

٢ـ سورة النساء: ١٧٦.

٣ـ سورة الاعراف: ١٧٢.

٤ـ سورة البقرة: ٢٦.

غير القرآن يقال: ضلّ الماء في اللبن أي: هلك.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ معناه ليهلكوا وليموتوا فحينئذ أيضاً اللام بهذا المعنى للعاقبة.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ المراد من الطمس على الأموال تغييرها عن جهتها إلى جهة لا ينتفع بها قال عامّة أهل التفسير: صارت جميع، أموالهم حجارة حتّى السكر والفانيذ أي: الحلوا ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قيل: معناه أمتهم بعد سلب أموالهم. وقيل: اطبع على قلوبهم بأن يموتوا على الكفر. وقيل: معناه ثبّتهم على المقام ببلدهم بعد إهلاك أموالهم فيكون ذلك أشدّ عليهم. قال ابن عبّاس: بلغنا أنّ الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً. والطمس معناه المسخ. ثمّ قال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ والتقدير: ربّنا ليضلّوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتّى يروا العذاب الأليم. قال الله سبحانه: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ والداعي موسى وكان هارون يؤمّن على دعائه لأنّ المؤمّن أيضاً الداعي ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ وأثبتا على أمركما في دعوة الناس على الإيمان قال ابن جريح: مكث فرعون بعد هذا الدعاء أربعين سنة روي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام[1] قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نهاهما عن أن يتّبعا طريقة من لا يؤمن بالله ولا يعرفه ولا يعرف أنبياءه.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ

١ـ بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٨٦؛ وانظر التبيان، ج ٥، ص ٤٢٥.

﴿بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾

المعنى: أنّه سبحانه لمّا استجاب دعاءهما واقتضت المصلحة أمر بني إسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم، ويسّر لهم أسبابه وفرعون كان غافلاً عن ذلك فلمّا سمع بخروجهم خرج على عقبهم. وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ أي لحقهم مع جنوده وهو كان مظاهراً للعزّ وشاكي السلاح ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ مفعول له أي: للعدو والبغي.

روي أنّ موسى عليه السلام لمّا خرج مع قومه وصلوا إلى طرف البحر وقرب فرعون مع عسكره منهم فوقع أصحاب موسى في خوف شديد لأنّهم وقعوا بين بحر مغرق وجند مهلك فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم في البحر طريقاً يبساً.[1]

ثمّ إنّ موسى عليه السلام مع أصحابه دخلوا وخرجوا من البحر، وأبقى الله ذلك الطريق يبساً ليطمع فرعون وجنوده في التمكّن من العبور، فلمّا دخل مع جمعه أغرقه الله بأن أوصل أجزاء الماء ببعضها وأزال القلق.

ثمّ إنّ سبحانه ذكر أنّه لمّا أدركه الغرق أظهر كلمة الإخلاص ظنّاً منه أنّه ينجيه من تلك الآفة. وهاهنا بيان وهو أنّه لو قيل: كيف يتمكّن الغريق عن هذه المقالة المفصّلة؟

يمكن أن يكون لمّا كان مشرفاً ومشفياً على الغرق قال هذه الكلمات أو قال بكلام النفس لا بكلام اللّسان.

السؤال: إنّ فرعون آمن ثلاث مرّات أي: بثلاث تقريرات، آمن أوّله قولها: ﴿آمَنْتُ﴾ وثانيها قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وثالثها قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فما السبب في عدم قبوله توبته، والله متعال عن أن يلحقه غيظ عياذاً بالله حتّى يقال: ما قبل توبته وإنّما لم تقبل توبته لأنّ هذه

١ـ انظر: كنز الدقائق، ج ١، ص ٢٤٣.

التوبة توبة إلجاء ولا تفيد البتّة لا منه ولا من غيره لأنه رأى نزول العذاب فليس من مثل هذه التوبة مقبولة قطعاً، ولهذا السبب قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[1] على أنه إنّما ذكر هذه الكلمات لدفع تلك البليّة الحاضرة وما كان مقصوده من هذا الكلام الإقرار بتوحيد الله والاعتراف بعزّة الربوبيّة وذلّة العبوديّة، ولمّا لم يكن الكلام مقروناً بالإخلاص فلهذا السبب ما كان مقبولاً.

ووجه آخر: ذكروا جماعة من المفسّرين أنّ بعض الأقوام من بني إسرائيل اشتغلوا بعبادة العجل فلمّا قال فرعون: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ انصرف ذلك إلى العجل الّذي آمنوا بعبادته في ذلك الوقت فكانت هذه الكلمة في حقّه سبباً لزيادة الكفر. والحقّ أنّ هذا الوجه غير وجيه لأنّ قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ ينافي هذا المعنى. ووجه آخر وهو أنّ الإيمان إنّما كان يتمّ بالإقرار بالوحدانيّة وبالإقرار بنبوّة موسى فههنا لمّا أقرّ بالوحدانيّة ولم يقرّ بالنبوّة لا جرم لم يصحّ إيمانه كما أنّ أحداً من الكفّار يقول ألف مرّة بالتوحيد ولا يقرّ بنبوّته ﷺ فحينئذ لا يصحّ إيمانه وهو كافر.

قال الزمخشريّ في «الكشّاف»: إنّ جبرئيل عليه السلام أتى بفتيا فيها: ما قول الأمير في عبد نشأ من مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقّه وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فرعون فيها: يقول أبو العبّاس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيّده الكافر بنعمته أن يغرق في البحر. ثمّ إنّ فرعون لمّا غرق رفع جبرئيل عليه السلام فتياه إليه.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الأخبار دالّة على أنّ

١ـ سورة غافر: ٨٥.

القائل بهذا القول جبرئيل. وقيل: هو الله قاله له على وجه التوبيخ. وفي الآية إضمار والتقدير: قيل له: الآن آمنت حين لا ينفع الإيمان هلّا آمنت قبل ذلك وكنت من المفسدين بادّعاء الإلهيّة وقتل النفوس؟

روى عليّ بن إبراهيم بن هاشم بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: «**ما أتى جبرئيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا كئيباً حزيناً ولم يزل كذلك منذ أهلك الله فرعون، فلمّا أمر الله سبحانه بنزول هذه الآية نزل ضاحكاً مستبشراً فقال صلى الله عليه وآله له: يا جبرئيل ما أتيتني إلّا والحزن في وجهك ظاهر حتّى الساعة. قال: نعم يا محمّد صلى الله عليه وآله لمّا أغرق الله فرعون قال:** ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ **فأخذت حمأة فوضعتها في فيه، ثمّ قلت له:** ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ **ثمّ خفت أن تلحقه رحمة من عند الله فيعذّبني الله على ما فعلت فلمّا كان الآن وأمرني أن أؤدّي إليك ما قلته أنا لفرعون أمنت وعلمت أنّ ذلك كان الله راضي**».[1]

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ اختلف معناه وقرئ بالحاء المهملة.

قال المفسّرون: لمّا أغرق الله فرعون وقومه أنكر بعض بني إسرائيل غرق فرعون وقالوا: هو أعظم شأناً من أن يغرق فأخرجه الله حتّى رأوه فذلك قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نلقيك على نجدة ومكان مرتفع من الأرض بجسدك من غير روح وذلك أنّه طغا عرياناً.

وقيل: معناه نخلّصك من البحر ببدنك أي: بدرعك والبدن الدرع.

قال ابن عبّاس: كانت عليه درع من ذهب يعرف بها، فالمعنى: نرفعك فوق الماء بدرعك المشهور ليعرفوك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ فلا يقولوا مثل مقالتك. وقرئ «لمن خلقك» بالقاف لأنّه كان يدّعي أنّه الربّ.

والمعنى الثالث: ننجّيك ببدنك أي: نخرجك من البحر عرياناً من غير لباس.

۱ـ نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۱۸.

الرابع: بالحاء أي: نلقيك بناحية ممّا يلي البحر، وذلك أنّه طرح بعد الغرق بجانب من جوانب الساحل كأنّه ثور وما أخرج الله جثّة غيره من هذا الجمع الكثير أحداً بل خصّه بالإخراج. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ قال الرازي: الأظهر أنّه سبحانه في ختم هذه الآية خاطب قوم محمّد ﷺ ليكون ذلك زاجراً لهم عن كفرهم.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه حال بني إسرائيل بعد إهلاك فرعون وإنجائهم بقوله تعالى: «**مكّناهم مكاناً محموداً**» وهو بيت المقدس والشام و«مبوء» يجوز أن يكون مصدراً ومفعولاً ثانياً لبوأت وإنّما قال: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: أنزلناهم في موضع خصب وأمن بصدق ما يدلّ عليه من جلالة النعمة. وقيل: مبوأ صدق لأنّ فضل ذلك المنزل على غيره كفضل الصدق على الكذب. وقيل: يريد به مصر وذلك أنّ موسى عبر ببني إسرائيل البحر ثانياً ورجع إلى مصر وتبوأ مساكن آل فرعون. وقيل: الشام ومصر. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الأشياء اللذيذة المستطابة.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ معناه: فما اختلفوا في تصديق محمّد ﷺ يعني اليهود كانوا مقرّين به من بني قريظة وبني النضير واليهود الساكنين ما بين المدينة والشام قبل مبعثه حتّى جاءهم العلم وهو القرآن الّذي جاء به محمّد ﷺ عن ابن عبّاس. وقال الفرّاء: «العلم» محمّد ﷺ لأنّه كان معلوماً عندهم بنعته فلمّا جاءهم اختلفوا في تصديقه فكفر به أكثرهم. وقيل: إنّ معناه: فما اختلف بنو إسرائيل إلّا من بعد ما جاءهم العلم بالحقّ على يد موسى وهارون فإنّهم كانوا مطيعين ومتّفقين على الكفر قبل مجيء موسى

فلمّا جاءهم آمن بعضهم به وثبت على الكفر بعضهم فصاروا مختلفين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهو تعالى يتولّى الحكم يوم القيامة لأنّ هذا النوع من الاختلاف لا حيلة في إزالته في الدنيا فلابدّ أن يقضي في القيامة بينهم ويميز المحقّ عن المبطل والصدّيق من الزنديق.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

المراد إثبات نبوّته ﷺ بشهادة الأحبار من اليهود كعبد الله بن سلام وابن صوريا وتميم الداريّ وغيرهم للناس والشاكّين والمتوقّفين في نبوّته وإنّما خاطبه كقولهم: «إيّاك أعني واسمعي يا جارة» أي: أيها الشاكّين استخبروا من علماء أهل الكتاب.

اختلف المفسّرون في أنّ المخاطب من هو؟ قيل: هو ﷺ. وقيل: غيره. فأمّا من قال: هو قالوا: إنّ الخطاب معه ظاهراً والمراد غيره وأمثال هذا العنوان في القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[1] ومعلوم أنّه ﷺ ما كان يطيعهم وكقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2] وكقوله: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾[3] والّذي يدل على صحّة هذا التأويل قوله في آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا

١ـ سورة الأحزاب: ١.

٢ـ سورة الزمر: ٦٥.

٣ـ سورة المائدة: ١١٦.

ﵟٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِيﵞ(1) فبيّن أنّ المذكور في أوّل السورة على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح.

ثمّ إذا كانﷺ فرضاً شاكاً في نبوّته لكان غيره أولى بالشكّ في رسالته، وهذا باطل. ثمّ بتقدير أن يكونﷺ شاكاً في نبوّة نفسه فكيف يزول هذا الشكّ بإخبار أهل الكتاب عن نبوّته؟ مع أنّهم في الأكثر كفّار فثبت أنّ المراد بالخطاب امّته ولو أنّ صورة الخطاب هو، ومثل هذا معتاد في الكلام فإنّ السلطان إذا كان له أمير وكان تحت راية ذلك الأمير جمع فإذا أراد أن يأمر الرعيّة بأمر مخصوص فإنّه لا يوجّه خطابه عليهم بل يوجّه الخطاب إلى الأمير ليكون ذلك أقوى تأثيرا في قلوبهم.

في تمام التقرير أنّ قوله تعالى: ﵟفَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ ...ﵞ قضيّة شرطيّة والقضيّة الشرطيّة لا إشعار فيها البتّة بأنّ الشرط وقع أو لم يقع، وكذلك لا إشعار فيها بأنّ الجزاء وقع أو لم يقع بل ليس فيها إلّا بيان أنّ ماهيّة ذلك الشرط مستلزمة لماهيّة ذلك الجزاء فقط، مثلاً إنّك إذا قلت: إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين فهذا الكلام حقّ لكن لا يدلّ على أنّ الخمسة زوج ولا يدلّ على أنّها منقسمة بمتساويين فكذا هاهنا الآية تدلّ على أنّه لو حصل هذا الشكّ لكان الواجب فيه السؤال عن أهل الكتاب، وأمّا وقع الشكّ أو لم يقع فلا دلالة عليه.

فالفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول تسكين قلوب المتوقّفين في نبوّته وتقوية لخاطرهم وطمأنينة النفس لهم بتكثير الدلائل وتقريبهم إلى الإيمان بالرسول لأنّهم طالبوه مرّة بعد اخرى بما يدلّ على نبوّته.

قال أبو عبد اللهؑ: «**إنّ النبيّﷺ لم يشكّ ولم يسأل**». والخطاب لرسول

١ـ سورة يونس: ١٠٤.

اللّه وإن لم يشكّ لكنّ الكلام خرج مخرج التقرير والإفهام للناس، كما يقول القائل لعبده: إن كنت عبدي فأطعني أو يقول لأبيه: إن كنت والدي فتعطّف عليّ. وربّما خرجوا في مبالغة الكلام إلى ما يستحيل كقولهم: بكت السماء لموت فلان أي: لو كان سماء تبكي على ميّت لبكت عليه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ يعني: بالحقّ القرآن والإسلام. ورأيت في تفسير أبي السعود العلّامة في الآية أنّه قال: وإن كنت أيّها السامع في شكّ ممّا أنزلنا إليك على لسان نبيّنا فاسأل الّذين يقرءون الكتاب فلا تكوننّ من الممترين الشاكّين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ واعلم أنّ فرق المكلّفين ثلاثة مصدّقة ومتوقّفة ومكذّبة، ولا شكّ أنّ الفرقة المتوقّفة الشاكّة أمرهم أسهل من أمر المكذّبة فبيّن تعالى أنّهم من الخاسرين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنّ الّذين أخبر اللّه عنهم أنّهم لا يؤمنون، فنفى الإيمان عنهم ولم ينف القدرة عنهم فإنّ نفي الفعل لا يكون نفيا للقدرة كما أنّ اللّه نفى عن نفسه مغفرة المشركين ولم يكن ذلك نفيا لقدرته على مغفرتهم. وقيل: المعنى: إنّ الّذين وجبت عليهم سخط ربّك لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ ومعجزة ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الموجع فيصيروا ملجئين إلى الإيمان.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)

هذه الآية بيان قصّة ثالثة في هذه السورة: الأولى قصّة نوح، والثانية قصّة فرعون، وهذه قصّة قوم يونس بن متى. وروى الواحديّ في «البسيط» قال: قال أبو مالك: كلّ ما في كتاب اللّه من ذكر «لولا» فمعناه «هلّا»

وللتحضيض إلّا حرفين أي إلّا في موضعين: واحد من الموضعين هذه الآية ومعناه النفي أي: فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها وكذلك. ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾[1] أي: فما كان من القرون فعلى هذا تقدير الآية: فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلّا قوم يونس. وانتصب قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ على أنّه استثناء منقطع عن الأوّل ووقع استثناء القوم من القرية وقرئ بالرفع على البدل. وقيل: إنّ «لولا» معناه أي هلّا كانت قرية واحدة من القرى الّتي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت في الإيمان قبل معاينة العذاب إلّا قوم يونس.

وفسّروا المعنى جماعة بأنّه لم يكن فيما خلا من الأمم أن يؤمن أهل قرية بأجمعهم حتّى لا يشذّ منهم أحد إلّا قوم يونس أفلا كانت القرى كلّها هكذا؟ وقيل: معناه لم أفعل هذا الأمر بامّة من الأمم قطّ إلّا قومه لمّا آمنوا عند نزول العذاب كشف عنهم العذاب بعد ما تدلّى عليهم العذاب ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. وكان من قصّة يونس أنّ قومه كانوا بنينوى من أرض الموصل وكان يدعوهم يونس إلى الإسلام فأبوا فأخبرهم أنّ العذاب مصبحهم إلى ثلثين أو إلى أربعين إن لم يتوبوا فقالوا: إنّا نجرّب عليه فإن بات فيكم ليلة العذاب فليس بشيء فإن لم يبت فيكم فاعلموا أن العذاب مصبحكم. فلمّا كان في جوف الليل خرج يونس من بين أظهرهم فلمّا أصبحوا أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً فهبط حتّى غشى مدينتهم واسودّت سطوحهم. قال ابن عبّاس: كان العذاب فوق رؤوسهم قدر ثلثي ميل فلمّا رأوا ذلك طلبوا نبيّهم فلم يجدوه فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابّهم وألبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وأخلصوا النيّة وفرّقوا بين كلّ والدة وولدها من الناس والأنعام فحنّ بعضها إلى بعض

١ـ سورة هود: ١١٦.

وعلت أصواتها واختلطت أصواتها بأصواتهم وتضرّعوا إلى اللّه، وقالوا: آمنّا بما جاء به يونس. فرحمهم ربّهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلّهم.

قال عبد اللّه بن مسعود: بلغ من قومه أهل نينوى أن يردّوا المظالم بينهم حتّى أن كان الرجل ليأتي الحجر وقد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه ويردّه. وروي عن أبي مخلّد أنّه لمّا غشيهم العذاب مشوا إلى شيخ من بقيّة علمائهم فقالوا: لقد نزل العذاب بنا فما ترى؟

قال: قولوا: يا حيّ يا قيّوم يا حيّ حين لا حيّ ويا حيّ يا محيي الموتى ويا حيّ لا إله إلّا أنت. فقالوا فكشف اللّه العذاب عنهم.[1] وعن الفضل بن عبّاس أنّهم قالوا: اللّهم إنّ ذنوبنا قد عظمت وجلّت وأنت أعظم منها وأجلّ افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

في الحديث ـ بحذف الأسانيد ـ عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: **«كان فيهم رجل اسمه مليخا عابد وآخر اسمه روبيل عالم، وكان العابد يشير إلى يونس بالدعاء عليهم والعالم ينهاه عن الدعاء عليهم ويقول: إنّ الله يستجيب دعائك فلا تدع عليهم والله لا يحبّ إهلاك عباده فقبل يونس قول العابد فدعا عليهم فأوحى الله إليه أنّه يأتيهم العذاب في شهر كذا وفي يوم كذا. فلمّا قرب الوقت خرج يونس مع العابد وبقي العالم فيهم فلمّا كان اليوم الّذي نزل بهم العذاب قال لهم العالم: افزعوا فلعلّه يرحمكم ويردّ العذاب عنكم فاخرجوا إلى المفازة وفرّقوا بين النساء والأولاد وبين سائر الحيوانات وأولادها، وتضرّعوا إلى الله وابكوا ففعلوا فصرف عنهم العذاب وكان قد قرب منهم. ومرّ يونس على وجهه مغاضباً كما حكى الله عنه حتّى انتهى إلى ساحل البحر فإذا سفينة قد شحنت وأرادوا أن يدفعوها فسألهم يونس أن يحملوه فحملوه فلمّا توسّطوا البحر بعث عليهم حوتاً عظيماً فحبس عليهم السفينة فتساهموا فوقع من بينهم السهم**

١ـ انظر: نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٢٨.

على يونس فأخرجوه وألقوه في البحر فالتقمه الحوت ومرّ به في الماء».[١] وقيل: إنّ الملّاحين قالوا: نقترع فمن أصابته القرعة ألقيناه في البحر فإنّ هاهنا عبداً آبقاً فوقعت القرعة سبع مرّات على يونس فقام يونس قال: أنا العبد الآبق وألقى نفسه في الماء فابتلعه الحوت فأوحى الله إلى ذلك الحوت لا تؤذ شعرة منه فإنّي جعلت سجنه بطنك ولم أجعله طعامك فلبث في بطنه ثلاثة أيّام.[٢] وقيل: سبعة أيّام.[٣] وقيل: أربعين يوماً.[٤]

وقد سأل بعض اليهود عليّاً عليه السلام عن سجن طاف أقطار الأرض بصاحبه فقال عليه السلام له: **«هو الحوت الّذي حبس يونس في بطنه فدخل في بحر قلزم حتّى خرج إلى بحر مصر ثمّ إلى بحر آخر ثمّ خرج من دجلة».**[٥]

قال عبد الله بن مسعود: ابتلع الحوت حوتاً آخر فأهوى به إلى قرار الأرض وكان في بطنه أربعين ليلة ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾[٦] فاستجاب له فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر وهو كالفرخ المتمعّط فأنبت الله له شجرة من يقطين فجعل يستظلّ تحتها ووكّل الله به وعلا يشرب من لبنها فيبست الشجرة فبكى عليها فأوحى الله إليه تبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون وأردت أن أهلكهم. فخرج يونس فإذا بغلام يرعى فقال: من أنت؟ قال: من قوم يونس قال: إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنّك لقيت يونس فأخبرهم الغلام وردّ الله عليه بدنه وعافيته

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٣٠؛ وانظر: بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٤٠٤.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٣١.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ المصدر السابق نفسه.

٥ـ المصدر السابق نفسه.

٦ـ سورة الأنبياء: ٨٧.

ورجع إلى قومه وآمنوا به. وقيل: إنّه أرسل إلى قوم آخرين غير قومه الأولين.

وهاهنا مسألة: وهي أنّ فرعون تاب في آخر الأمر ولم يقبل توبته وحكى سبحانه عن قوم يونس أنّهم تابوا وقبل توبتهم فما الفرق؟

الجواب أنّ فرعون قد ذكرنا قبيل هذا بآيتين سبب عدم قبول توبته على أنّ فرعون لو فرضنا أنّه تاب تاب بعد أن شاهد العذاب وبعد مشاهدة العذاب والإلجاء لا يقبل التوبة البتّة. وأمّا قوم يونس فإنّهم ظهرت لهم أمارات دلّت على قرب وقوع العذاب، وتابوا قبل أن شاهدوا فظهر الفرق.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

المعنى: لمّا تقدّم أنّ إيمان الإلجاء غير نافع بيّن في هذه الآية أنّ ذلك لو كان ينفع لأكره أهل الأرض عليه فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمّد لآمن أهل الأرض جميعاً وأكرههم قهراً على الإيمان أي: بقدر على هذا الأمر كما قال في موضع آخر: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[1] وكذلك قال بعده: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا ينبغي أن تريد إكراههم على الإيمان مع أنّك لا تقدر عليه لأنّ اللّه تعالى يقدر عليه ولا يريده لأنّه ينافي التكليف. وأراد بهذا المعنى سبحانه تسلية الرسول وتخفيف ما يلحقه من التحسّر والحرص على إيمانهم.

وفي هذا أيضا دلالة على بطلان قول المجبّرة: «إنّه تعالى لم يزل كان شائياً وإنّه لا يوصف بالقدرة على أن يشاء» وهذا باطل لأنّه تعالى أخبر أنّه لو

١ـ سورة الشعراء: ٤.

شاء لقدر لكنّه لم يشأ فلذلك لم يوجد ولو كانت مشيئته أزليّة لم يصحّ تعليقها بالشرط فصحّ أنّ مشيئته فعليّة ألا ترى أنّه لا يصحّ أن يقال: لو علم ولو قدر كما صحّ أن يقال: لو شاء ولو أراد. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ المعنى أنّه لا يمكن أحد أن يؤمن إلّا بإطلاق اللّه له في الإيمان وتمكينه منه ودعائه إليه بما خلق فيه من العقل الموجب لذلك وقيل: إنّ إذنه هاهنا أمره. وقيل: إنّ إذنه هنا علمه. أي: لا تؤمن نفس إلّا بعلم اللّه. ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ والعذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا﴾ يتفكّرون حتّى ﴿يَعْقِلُونَ﴾ والمراد من الرجس قيل: السخط والغضب. وقيل: النتن. والرجز والرجس واحد. قال أبو عليّ الفارسيّ: الرجس على ضربين أحدهما بمعنى العذاب، والآخر بمعنى القذر والنجس. فحينئذ المعنى يحكم بأنّهم رجس كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[1]

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

المعنى: ﴿قُلِ﴾ يا محمّد في مقام الإرشاد لمن يسألك الآيات والشواهد ﴿ٱنظُرُوا۟﴾. والنظر طلب الشيء من جهة الفكر كما يطلب إدراكه بالعين أي: انظروا ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الدلائل والعبر من اختلاف اللّيل والنهار ومجاري النجوم والأفلاك وما خلق من الجبال وإنبات الأشجار والثمار وأنواع الحيوانات وفوائدها الّتي يستفيدون منها فإنّ النظر والتدبّر فيها في

١ـ سورة التوبه: ٢٨.

أفرادها وجملتها يدعو إلى معرفة الصانع والإيمان بوحدانيّته وقدرته وحكمته.

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ وهو جمع النذير أي الرسل والأنبياء أو الإنذارات. والمعنى: وما تغني هذه الآيات والبراهين الواضحة مع ظهورها ولا الرسل المخوّفة عن قوم لا ينظرون في الأدلّة ولا يتدبّرون ولا يريدون الإيمان. وقيل: «ما» استفهاميّة يعني أيّ شيء يغني عنهم إذا لم يستدلّوا بهذه الدلائل؟

قال النبي صلى الله عليه وآله: **«تفكّروا في الخلق ولا تفكّروا في الخالق»**.[1] ولو أنّ الإنسان أخذ يتفكّر في كيفية حكمة الله في تخليق جناح بعوضة لا نقطع عقله قبل أن يصل إلى أقلّ مرتبة من مراتب تلك الفوائد والحكم فنبّه سبحانه على القاعدة الكلّيّة وأمر بالنظر إلى ما في السماوات والأرض حتّى أنّ الإنسان بقدر القوة البشريّة يشرع في فهم تحصيل حكمته فحينئذ يوجب النظر له اليقين.

وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية هتف بها وقال: وما تغني الحجج عن قوم لا يقبلونها. قال أبو عبد الله عليه السلام: **«لمّا أسرى رسول الله صلى الله عليه وآله جبرئيل بالبراق فركبها فأتى بيت المقدّس فلقي من لقي من الأنبياء ثمّ رجع فأصبح يحدّث أصحابه أنّي أتيت بيت المقدس ولقيت إخواني من الأنبياء فقالوا: يا رسول الله كيف أتيت بيت المقدس اللّيلة؟ قال: جاءني جبرئيل بالبراق فركبتها وآية ذلك أنّي مررت بعير لأبي سفيان على ماء لبني فلان وقد أضلّوا جملاً لهم أحمر وهم في طلبه.[2] فقال القوم بعضهم لبعض: إنّما جاءه راكب سريع ولكنّكم أتيتم الشام وعرفتموها فاسألوه عن أسواقها وأبوابها وتجّارها فسألوه عن ذلك، وكان صلى الله عليه وآله إذا سئل عن الشيء لا يعرفه شقّ ذلك عليه حتّى يرى ذلك في وجهه على جهة التفصيل»**.[3]

١ـ الدر المنثور، ج ٦، ص ١٣٠.

٢ـ مجمع البيان، ج٥، ص ٢٣٥؛ وانظر: تاريخ ابن خلدون، ج ٢، ص ١١.

٣ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٣٥.

قال عليه السلام: «**فبينا هو كذلك إذ أتاه جبرئيل فقال: يا رسول الله هذه الشام قد رفعت لك فالتفت النبيّ فإذا هو بالشام فقالوا له: أين بيت فلان ومكان كذا؟ فأجابهم كلّ ما سألوه عنه فلم يؤمن منهم إلّا قليل وهو قول الله تعالى:** ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾». ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: «**فنعوذ بالله أن لا نؤمن بالله ورسوله**».(١)

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ المعنى أنّ الأنبياء قبلك كانوا يتوعّدون كفّار زمانهم بمجيء أيّام العذاب وهم كانوا يكذّبون بها ويستعجلونها على سبيل السخريّة وكذلك كفّار زمانك هكذا يفعلون وأمر نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله أن يقول لهم: فانتظروا وأنا كذلك منتظر. ثمّ أخبره بأنّه لو نزل العذاب، واقتضت الحكمة بنزوله ننجي رسلنا وأتباعهم فهم أهل النجاة.

ثمّ قال سبحانه: مثل ذلك الإنجاء للرسل السابقين، ننظر المؤمنين من امّتك وننظرك ونهلك المشركين وحقّ علينا حقّاً بنجاتهم.

قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

أمر سبحانه نبيّه بإظهار دينه وبإظهار المباينة عن المشركين لكي تزول الشبهات وتخرج عبادته من طريقة السرّ إلى الإظهار. وظاهر هذه الآية يدلّ على أنّ هؤلاء الكفّار ما كانوا يعرفون دين رسول الله. وفي الخبر أنّهم كانوا يقولون فيه: قد صبأ وهو صابئ.

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٣٥.

المعنى: إن كنتم لا تعرفون ديني فأنا ابيّنه لكم وإنّما أثبت تقديم النفي لقوله: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ﴾ لأنّ بيان إزالة النقوش الفاسدة عن اللّوح مقدّمة لا محالة على إثبات النقوش الصحيحة في ذلك اللّوح. ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ والمقصود ترك عبادة الأوثان والأحجار ويجب الاشتغال بعبادة المعبود الحقّ الموصوف بهذه الصفة أي: يتوفّاكم. وإنّما خصّ هذا الوصف بالذكر في هذا المقام لأنّ الموت أقوى من الزجر والردع، أو المراد: أعبد الّذي خلقكم أولاً ثمّ يتوفّاكم ثانياً ثمّ يعيدكم ثالثاً واكتفى بذكر التوفّي من المراتب الثلاثة لكونه منبهاً على البواقي. ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: إنّا مأمورون بعبادة الجوارح وقبول الإيمان بالقلب، يعني لابدّ أن يكون الظاهر مزيّناً بالأعمال الصالحة والقلب منوّراً بالمعرفة والقبول. ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: وأمرت بإقامة الوجه إلى طلب الدين كناية عن توجيه العقل بالكلّيّة إلى طلب الدين لأنّ من يريد أن ينظر إلى شيء نظراً بالاستقصاء فإنّه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه والحاصل أي: استقم في الدين على ما أمرت به من القيام بأعباء الرسالة وتحمّل أمر الشريعة بوجهك. وقيل: المعنى: وأقم وجهك في الصلاة بالتوجّه نحو الكعبة ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً إليه ميلاً كلّيّاً معرضاً عمّا سواه إعراضاً كلّيّاً بإخلاص تامّ وترك الالتفات إلى غيره. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: لا يكون في العبادة شرك لغير اللّه.

قال الرازيّ: لا يمكن أن يكون هذا نهياً عن عبادة الأوثان لأنّ ذلك صار مذكوراً بقوله: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فوجب حمل هذا الكلام على فائدة زائدة وهو الشرك الخفيّ لأنّ من عرف مولاه فلو التفت بعد ذلك إلى غيره كان ذلك شركاً، وتسمّيه أصحاب القلوب الشرك الخفيّ.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وكلّ شيء هالك إلّا وجهه فلا نافع ولا ضارّ سوى الله لأنّ غيره ممكن ومعدوم أو سيعدم فما سواه لا وجود له إلّا بإيجاده فلا حكم إلّا له والرجوع إليه فحينئذ إن اشتغلت بطلب المنفعة أو دفع الضرر من غيره ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ ذلك الأمر ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾ وضعت الشيء في غير موضعه وكنت ظالماً فإنّ ما سوى الحقّ معزول عن التصرّف لعدم القدرة. فإن قيل: طلب الشبع من الأكل والريّ من الشرب هل يقدح في ذلك الإخلاص والتوجّه؟ قلنا: لا لأنّ حصول الشبع من الأكل بتكوين الله وطلب الانتفاع بشيء قدّره الله للانتفاع به لا يكون منافياً للرجوع بالكلّيّة إلى الله بشرط أن يشاهد بعين عقله أنّها معدومة بذواتها وهالكة بأنفسها وباقية بإبقاء الحقّ ويرى ما سوى الحقّ عدماً محضاً بحسب أنفسها ويرى فيض وجوده وإحسانه غالباً على الكلّ.

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

لمّا بيّن في الآية السابقة أنّ ما تدعونه وتعبدونه من الأوثان لا يضرّ ولا ينفع عقّبه ببيان أنّه تعالى هو النافع الضارّ أي: إن أحلّ الله بك ضرّاً من بلاء أو شدّة أو مرض لا يقدر على كشفه أحد غيره وإن يردك بخير من صحّة ونعمة وخصب ونحوها لا يقدر أحد على منعه. ﴿يُصِيبُ﴾ بالخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فيعطيه على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

وفي الآية نكتة دقيقة حيث إنّ المسّ نسبه إلى الضرّ والإصابة نسبها إلى الخير حيث إنّ جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب وهذا يؤيّد قوله سبحانه: «سبقت رحمتي غضبي» والخير مراد بالذات والشرّ مراد بالعرض.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

المعنى: لمّا قرّر الدلائل من أوّل السورة في التوحيد والنبوّة والمعاد بالدلائل والبراهين والأمثلة لتقريب المعنى في الأذهان ختم السورة بقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: إنه بيّن التكاليف وأزاح العلّة وقطع المعذرة ﴿فَمَنِ﴾ قبل و﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ فالنفع راجع إليه والهداية تنفعه، ومن لم يصغ بسمع القبول وخالف الهداية واتّبع الضلالة فخاصم نفسه، ولا يجب عليّ من السعي في إلجائكم إلى الثواب العظيم. قال بعض المفسّرين كابن عبّاس: إنّ هذه الآية منسوخة بآية القتال.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

ثمّ أمر نبيّه باتّباع الوحي والتنزيل فإن وصل إليه ﷺ بسبب ذلك الاتّباع مكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه وهو حكم عدل لا جور في قضيّته.

تمّت السورة بحمد الله تعالى.

سُورَةُ هُودٍ

هذه السورة مكيّة كلّها إلّا آية وهو قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ فإنّها نزلت بالمدينة.

فضلها: ابيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال: «**من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء**».[1]

وروى الثعلبيّ بإسناده عن أبي إسحاق عن أبي حجيفة قال: قيل: يا رسول الله قد أسرع إليك الشيب؟ قال ﷺ: «**شيّبتني هود وأخواتها**». وفي رواية أنّه سئل عن إسراع الشيب، قال: «**شيّبتني هود وأخواتها: الحاقّة والواقعة وعمّ وهل أتاك حديث الغاشية**».[2]

روى العيّاشيّ بحذف الأسانيد عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**من قرأ سورة هود في كلّ جمعة بعثه الله يوم القيامة في زمرة النبيّين وحوسب حساباً يسيراً ولم تعرف له خطيئة عملها يوم القيامة**».[3]

١ـ جوامع الجامع، ج ٢، ص ١٥٣.

٢ـ تفسير الثعلبي، ج ٥، ص ١٥٦.

٣ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ١٣٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

لمّا ختم الله سورة يونس بذكر الوحي وأمر النبيّ باتّباع الوحي افتتح هذه السورة ببيان الوحي. ﴿الٓر﴾ اسم للسورة وهو مبتدأ و﴿كِتَٰبٌ﴾ خبره و﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ صفة «للكتاب» قال الزجّاج: لا يجوز أن يكون «الر» مبتدءاً وقال: «كتاب» خبر بإضمار هذا كتاب. وقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: لا يتطرّق إليها الفساد وآياته محكمة ومفصّلة ببيان الحلال والحرام والأمر والنهي ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ بالوعد والوعيد والثواب والعقاب. وقيل: معناه: أحكمت آياته جملة لا يتطرّق إليها الفساد.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ أي: فرّقت في الإنزال آية بعد آية ليكون المكلّف أمكن في النظر والتدبّر وقيل: معناه أحكمت في ترتيبها بأن جعلت على أبلغ وجوه الفصاحة حتّى عجزوا عن الإتيان بمثله ثمّ فصّلت بالشرع والبيان المفروض.

والحاصل يعني هذا الكتاب محكم النظم مفصّل الآيات من الأمور فليس فيها خلل ولا باطل وتتابعت آياته بعضها على إثر بعض ﴿مِن لَّدُنۡ﴾ أي أتاكم هذا الكتاب الموصوف بهذه الصفات من عند ﴿حَكِيمٍ﴾ في تدابيره عليم بأحوال خلقه ومصالحهم.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ القرآن كلام محدث لأنّه وصفه بأنّه أحكمت آياته ثمّ فصّلت والإحكام والتفصيل من صفات الأفعال لأنّه قال:

هذا التفصيل والإحكام من لدن حكيم وقعت وصدرت وهذه الإضافة لا تصحّ إلّا في المحدث لأنّ القديم يستحيل أن يكون صادراً من غيره. والحقّ أنّه نعم الدليل على حدوث الكلام. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ في موضع نصب تقديره فصّلت آياته لأن لا تعبدوا أو بأن لا تعبدوا إلّا اللّه وأنّ هذا الأصل ثابت في كلّ الشرائع ولا محيص عنه. وحاصل المعنى: انزل هذا الكتاب المحكم المفصّل ليأمركم لكي لا تعبدوا الّا اللّه ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ هذا إخبار من النبيّ أنه مخوّف من مخالفة اللّه بأليم العذاب ومبشّر على طاعة اللّه بجزيل الثواب.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي: اطلبوا المغفرة واجعلوها غرضكم ومقصدكم واستغفروا من ذنوبكم الماضية ثمّ توبوا إليه في المستأنف وارجعوا إليه. وقيل: إنّ «ثمّ» هاهنا بمعنى «الواو» والاستغفار والتوبة واحد فحينئذ على هذا المعنى يكون التوبة تأكيداً للاستغفار. ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إنّكم إذا استغفرتموه وتبتم إليه يمتّعكم في الدنيا بالنعم السابغة من الخفض والدعة والأمن والسعة إلى الوقت الّذي قدّر لكم أجل الموت فيه ويبقيكم ولا يستأصلكم بالعذاب كما استأصل أهل القرى الّذين كفروا من قبلكم.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ أي: ويعط كلّ ذي إفضال على غيره بمال أو كلام أو عمل بيد أو رجل جزاء إفضاله والهاء في ﴿فَضْلَهُۥ﴾ راجع إلى ذي الفضيلة. وقيل: إنّ معناه يعطي اللّه كلّ ذي عمل صالح ثوابه على قدر عمله وعلى هذا فالأولى أن تكون «الهاء» في «فضله» عائداً إلى اسم اللّه ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرضوا عمّا أمروا به وقرئ بالتائين والمراد الخطاب ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ شأنه وهو يوم القيامة وهذا الخوف ليس في معنى

الشكّ بل بمعنى اليقين أي: قل لهم: إنّي أعلم أنّ لكم عذاباً عظيماً.

وإنّما وصف اليوم بالكبير لعظم ما فيه من الأهوال. وفي ذلك اليوم رجوعكم إلى حكم اللّه ومصيركم إليه ويعيدكم للجزاء وهو قادر على الإعادة والجزاء فاحذروا مخالفته.

أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

قرئ «يثنوني» على يفعوعل للمبالغة مثل احلولى واخشوشن.

وأصل «الثنّ» العطف تقول: ثنيته عن كذا أي: عطفته ومنه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر في المعنى ومنه الثناء لعطف المناقب في المدح ومنه الاستثناء لأنّه عطف عليه بالإخراج منه. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ﴾ «ألا» حرف تنبيه ولا نصيب لها من الإعراب.

سبب النزول: قيل: نزلت في الأخنس بن شريق كان حلو الكلام يلقى رسول اللّه بما يحبّ، وينوي بقلبه على ما يكره. وعن أبي جعفر: «**أنّ المشركين إذا مرّوا برسول اللّه ﷺ طأطأ بعضهم رأسه وظهره هكذا وغطّى رأسه بثوبه حتّى لا يراه رسول اللّه فأنزل اللّه هذه الآية**». لمّا تقدّم ذكر القرآن بيّن سبحانه فعلهم عند سماعه فقال: ألا إنّ المنافقين والكفّار يطوون صدورهم ويطأطئونها ويحنون صدورهم لكي لا يسمعوا كلام اللّه.

وحاصل المعنى أنّ طائفة من المنافقين والمشركين قالوا: إذا أغلقنا أبوابنا وأرسلنا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمّد فكيف يعلم بنا؟ أي: نضمر خلاف ما نظهر ليستخفوا من اللّه، فاللّه سبحانه نبّه بأنّهم لو تولّوا ظاهراً وباطناً لا فائدة لهم بذلك التولّي باطناً لأنّي أعلم سرّهم وعلنهم وأعلم خطرات ما في صدورهم وحديث نفسهم.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

لمّا ذكر سبحانه في الآية السابقة على أنّه عالم بجميع المعلومات ذكر آية علمه بأنّه لو لم يكن عالماً لما كان يوصل رزق كلّ حيوان إليه وما حصلت لها هذه المهمّات فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: ليس ما يدبّ على وجه الأرض من الجنّ والإنس والأنعام والطير والهوامّ والوحوش إلّا والله يتكفّل برزقها ويعلم موضع قرارها من أصلاب الآباء وأرحام الأمّهات ومسكن الأرض ويعلم سبحانه حيث تأوي هذه الأنواع إليه من الأرض وحيث تموت وتبعث منه وأين مكان يستقرّ عملها وإلى أيّ مكان تصير إليه وتستودع فيه وجميع ذلك مكتوب في كتاب ظاهر وهو اللوح المحفوظ. وقيل في معنى المستقرّ والمستودع: إنّ المستقرّ هو مكانه في الأرض والمستودع حيث كان مودعاً قبل الاستقرار في صلب أو رحم أو بيضة أو أصل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

لمّا أثبت بالدليل المتقدّم كونه عالماً أثبت بهذا الدليل كونه قادراً على جميع المقدورات فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾ إخبار عن قدرته بأنّه خلق هذه الأجرام العظيمة في هذا المقدار من الزمان لو كان زمان لأنّه لم يكن هناك أيّام تعدّ فإنّ اليوم عبارة عمّا بين طلوع الشمس وغروبها، والحكمة اقتضت أن ينشئهما في هذا المقدار من الزمان مع قدرته على أن يخلقهما في مقدار لمح البصر.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ وفي هذا دلالة على أنّ العرش والماء كانا موجودين قبل خلق السماوات والأرض وكان الماء قائماً بقدرة الله على

غير موضع قرار بل كان اللّه يمسكه بقدرته وبناء العرش والسماوات والأرض على الماء أبدع وأعجب في القدرة.

قال بعض المفسّرين: خلق اللّه ياقوتة خضراء ثمّ نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد، ثمّ خلق الريح فجعل الماء على متنها، ثمّ وضع العرش على الماء.

وقالت المعتزلة: في الآية دلالة على وجود الملائكة قبل خلقهما لأنّه خلقهما لمنفعة وتلك المنفعة عائدة إلى غيره سبحانه لأنّه غنيّ عن أن ينتفع بشيء ولابدّ أن يكون المنتفع حيّاً وذلك كان في جنس الملائكة.

ففي مقام إثبات القدرة شرح أنّ العرش الّذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه اللّه فوق سبع سماوات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويمتحنكم. ومعنى «الاختبار» في حقّ اللّه ذكرناها مراراً أي يعاملكم معاملة المختبر ليظهر إحسان المحسن وإساءة المسيء لئلا يتوهّم أنّه سبحانه يجازي العباد على حسب ما في معلومه بل يجازي بعد وقوع العمل وقوله: ﴿أَحْسَنُ﴾ لأنّه قد يكون فعل حسن أحسن من حسن آخر.

ومع هذه الدلائل [لَئِنْ قُلْتَ] لهم يا محمّد ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ للحساب والجزاء ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هؤلاء الكفّار ليس هذا القول إلّا باطلاً وتمويهاً ظاهراً ولا حقيقة له. ومن قرأ «ساحر» أي: أنت ساحر والساحر معناه الكذّاب. قال القفال: كانوا يقولون: إنّ هذا القول خدعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذّات الدنيا وإحرازاً لهم إلى الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم كما قال بعض الزنادقة في زماننا ويقولون. أجارنا اللّه من هذه العقائد الرجسة والأقوال النجسة.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

المعنى: لمّا حكى سبحانه عن الكفّار أنّهم يكذّبون الرسول ونسبوا إليه أنّه قوله سحر أو هو ساحر وكاذب حكى في هذه الآية أنّه متى تأخّر عنهم العذاب الّذي توعّدهم النبي ﷺ أخذوا في الاستهزاء وكانوا يقولون: ما السبب الّذي حبس عنّا العذاب؟ فأجاب اللّه بأنّه إذا جاء الوقت الّذي عيّنه اللّه لنزول العذاب لم ينصرف ذلك العذاب عنهم. واختلفوا في ذلك العذاب أهل التفسير فمنهم قال: عذاب الدنيا من الأسر والقتل وأمثاله. وقيل: عذاب الآخرة. فنبّه سبحانه بأنّه يوم يأتيهم في القيامة ليس مصروفاً عنهم وليس له صارف وحاق بهم. وإنّما أتى بلفظ الماضي لتقريره وتحقّق وقوعه. والمراد من قوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ قيل: المراد من «امّة» الحين والوقت كما في قوله: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾[1] أي بعد زمان. وقيل: المراد بعد طائفة مجتمعة أي: إلى حين تنقضي أمّة من الناس بعد هذا الوعيد لقالوا: ما ذا يحبسه عنّا؟ وقد انقرض من الناس. وهذا من باب تسمية الشيء باسم ما يحصل فيه كقولك: كنت عند فلان صلاة العصر أي: في ذلك الوقت.

وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾

المراد من الإنسان مطلق الإنسان لأنّه تعالى استثنى منه قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ﴾ والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل فيشمل المؤمن والكافر كقوله: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾[2] فبيّن تعالى: عادة الإنسان أن

١ــ سورة يوسف: ٤٥.

٢ــ سورة العصر: ١ ــ ٣.

يقابل النعم بالكفران أي: إذا أحللنا به نعمة من الصّحة والسعة من المال وغير ذلك من نعيم الدنيا، ثمّ سلبنا تلك النعمة عنه للمصلحة فيه فعادته اليأس وكفران النعمة.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَهُ﴾ أي: أحللنا به بعد أن مسّته الضرّاء وأعطيناه نعمة ثانية ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ عند نزول النعماء ذهبت عنّي الخصال الّتي تسوؤني أي: الشدائد والأمراض والآلام ذهبت عنّي ولا تعود إليّ ويغفل ولا يؤدّي شكرها لله الّذي أعطاه ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ به و﴿فَخُورٌ﴾ به على الناس فلا يصبر في المحنة ولا يشكر عند النعمة. إلّا بعض الناس من المؤمنين يقابلون الشدّة بالصبر والنعمة بالشكر، ويواظبون على الأعمال الصالحة أولئك لهم الجنّة.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

سبب النزول: روي عن ابن عبّاس أنّ رؤساء مكّة من قريش أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمّد إن كنت رسولاً فحوّل لنا جبال مكّة ذهبا أو ائتنا بملائكة تشهد لك بالنبوّة فأنزل الله الآية. وروى العيّاشيّ عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ رسول الله ﷺ قال لعليّ عليه السلام: **«إنّي سألت الله أن يؤاخي بيني وبينك ففعل وسألت ربّي أن يجعلك وصيّي ففعل فقال بعضهم: والله لصاع من تمر في شنّ بال أحبّ إلينا ممّا سأل محمّد ﷺ ربّه فهلّا سأله ملكاً يعضده على عدوّه أو كنزاً يستعين**

به على فاقته[1]؟ فنزلت الآية».

المعنى: ثمّ أمر سبحانه رسوله بالثبات على الأمر وحثّه على حجاج القوم بما يقطع العذر فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ﴾ القرآن وهو ما فيه سبّ آلهتهم ولا تبلّغهم إمّا دفعاً لشرّهم أو خوفاً منهم أي: ولعلّك يضيق صدرك بما يقولونه ويلحقك من أذاهم وتكذيبهم مخافة ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ لولا يعني هلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾ من المال ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يشهد له.

والحاصل: الحثّ للنبيّ على أداء الرسالة كما يقول أحدنا لغيره وقد علم من حاله أنّه يطيعه ولا يعصيه، لكن لأجل ترغيبه وحثّه يقول له: لعلّك تترك بعض ما آمرك لقول فلان. فيقول الله لنبيّه: لا تترك بعض ما يوحى إليك ولا يضيق صدرك بسبب مقالتهم هذه. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ يجلب النفع ويدفع الضرّ إن أراد. ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ الكفّار اختلقه واخترعه وأتى به من عند نفسه. قيل: هاهنا حذف وإنّما الحذف لدلالة ما ابقي على ما القي وتقديره: أ يكذّبونك فيما أتيتهم به من القرآن. أم يقولون افتريته أنت على ربّك ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمّد: إن كان على زعمكم مفترى ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ في الترتيب والنظم والفصاحة فإنّ القرآن نزل بلغتكم وقد نشأت أنا بين أظهركم فاجتمعوا وأتوا من عندكم بمثل هذه المفتريات، فإن لم يمكنكم ذلك فاعلموا أنّه من عند الله وهذا صريح في التحدّي.

واعلم أنّه قد أجمع المسلمون على أنّه لا يجوز للرسول أن يخون في الوحي ولا قصّر ولا خان أبدا وما ترك بعض ما يوحى إليه فما المراد في قوله «فلعلّك»؟ وهو أنّه لمّا علم سبحانه أنّ قلب النبيّ ﷺ ضاق بسبب كلماتهم الفاسدة فكان يضيق صدره أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه فأيّده الله

١ـ تفسير العياشي، ج ٢، ص ١٤١.

وهيّجه بهذا العنوان لطرح المبالات بكلماتهم الفاسدة وبشرح صدره لا أنّه صلى الله عليه وسلم ما بلّغ بعض الوحي. فإن عجزتم عن الإتيان فاعلموا أنّ القرآن انزل بعلم اللّه وليس مفترى ولا شريك في خلقه. فهل أنتم بعد قيام الحجّة والعجز عن الإتيان مستسلمون ومنقادون ولتوحيده معتقدون، أو بعد في ضلالتكم.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

المعنى: من كان يريد حسن بهجة الدنيا وزهرتها ولا يريد الآخرة نوفّر عليهم جزاء أعمالهم في الدنيا تامّاً ولا ينقصون شيئاً منها. والمراد المشركون الّذين لا يصدّقون بالبعث ويعملون أعمال البرّ كإعطاء السائل وصلة الرّحم والكفّ عن الظلم وإغاثة المظلوم والأعمال الّتي يستحسنها العقل كبناء المرابط والقناطير فإنّ اللّه يعجّل لهم جزاء أعمالهم في الدنيا بالاستمتاع بما خوّلهم وبصحّة أبدانهم وتوسعة المعاش وصرف المكاره عنهم حتّى قيل: إنّ من مات على كفره قبل استيفاء العوض وضع اللّه عنه في الآخرة من العذاب بقدره وأمّا ثواب الآخرة فلا حظّ لهم فيه.

وقيل: المراد من الآية المنافقون الّذين كانوا يغزون مع النبيّ للغنيمة دون نصرة الدين جازاهم اللّه على ذلك بأن جعل لهم ثواب الدنيا.

وقيل: المراد منهم أهل الرياء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ كذا حالهم ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ﴾ في الدنيا من الخير إنّهم ما عملوا للّه وماتوا على كفرهم وبطل عملهم بالكفر.

وذكر الحسن في تفسيره أنّ رجلاً من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج من عند أهله فإذا بجارية عليها ثياب وهيئة فجلس عندها فقامت الجارية فأهوى

بيده إلى عارضها فمضت فأتبعها بصره ومضى خلفها فلقيه حائط فخمش وجهه فعلم أنّه أصيب بسبب ذلك الذنب فأتى الرسولﷺ وذكر له ذلك فقالﷺ: «**أنت رجل عجّل الله عقوبة ذنبك في الدنيا إنّ الله إذا أراد بعبد شرًا أمسك عنه عقوبة ذنبه حتّى يوافي به يوم القيامة، وإذا أراد به خيراً عجّل له عقوبة ذنبه في الدنيا**».[1]

والنظم: لمّا قال سبحانه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ كأنّ قائلاً قال: إن أظهرنا الإسلام سلامة المال والنفس تكون ماذا؟ فقال اللّه: من أراد الدنيا دون الآخرة فسبيله هذا. والقائلون بأنّ المراد المراؤون ذكروا أخبارا كثيرة في هذا الباب.

روي أنّهﷺ قال: «**تعوّذوا بالله من جبّ الحزن**» قيل: وما جبّ الحزن؟ قالﷺ: «**واد في جهنّم يلقى فيها القرّاء المراؤون**».[2] وقالﷺ: «**أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أنّ فيه خيراً ولا خير فيه**».[3] وروى أبو هريرة أيضاً أنّهﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن فيقال له: ما عملت فيه؟ فيقول: يا ربّ قمت به آناء الليل والنهار فيقول الله: كذبت بل أردت أن يقال: فلان قارئ وقد قيل ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم اوسّع عليك؟ فماذا عملت فيما آتيتك؟ فيقول: وصلت الرحم وتصدّقت فيقول الله: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جواد وقد قيل ذلك، ويؤتى بمن قتل في سبيل الله فيقول: قاتلت في الجهاد حتّى قتلت فيقول الله: كذبت بل أردت أن يقال: فلان جريء وقد قيل ذلك**».

قال أبو هريرة: ثمّ قرب رسول اللّه ركبتي وقال: «**يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أوّل خلق تسعر بهم النار يوم القيامة**».[4]

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٥٣.

٢ـ انظر: بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٨٨.

٣ـ ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٠١٧.

٤ـ رسائل الشهيد الثاني، ص ١٤٢.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

تعلّق هذه الآية بما قبلها ظاهر والتقدير: أ فمن كان على بيّنة من ربّه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟ إلّا أنّه حذف الجواب لظهوره.

واختلفوا في أنّ الّذي وصفه اللّه بأنّه على بيّنة من هو؟ قيل: المراد به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وقيل: المراد من آمن به من القوم وهو الأظهر لقوله في الآية: ﴿أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وهذا صيغة جمع، فلا يجوز رجوعه إلى النبيّ. والمراد بالبيّنة هو البيان والبرهان الّذي عرف به صحّة الدين الحقّ.

والضمير في «يتلوه» راجع إلى معنى البيّنة وهو البرهان. والمراد بالشاهد القرآن و﴿مِّنْهُ﴾ أي: من اللّه ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل القرآن وقبل مجيئه التوراة ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وحاصل المعنى أنّ اللّه يقول: اجتمع في صحّة هذا الدين امور ثلاثة: أوّلها: البيّنات العقليّة والثاني: شهادة القرآن بصحّته والثالث: شهادة التوراة، فلا يبقى ريب مع هذه الأمور.

واختلف في معنى الشاهد أنّه من المراد به؟ فقيل: الشاهد جبرئيل يتلو القرآن على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من اللّه، عن ابن عبّاس ومجاهد والزجّاج.

وقيل: الشاهد من اللّه محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، عن الحسين بن علي عليه السلام[1] واختاره الجبّائيّ. وقيل: الشاهد عليّ بن أبي طالب يشهد للنبيّ وهو منه ومن صنوه وأصله وهذا غاية التشريف لعليّ عليه السلام.[2]

١ـ التفسير الصافي، ج ٢، ص ٤٣٨.

٢ـ انظر: الميزان، ج ١٠، ص ١٨٥.

وهو المرويّ عن أئمّتنا أبي جعفر وعليّ بن موسى الرضا عليه السلام، رواه الطبريّ بإسناده، عن جابر بن عبد الله، عن علي عليه السلام.(١)

ومن قبل القرآن التوراة وقد وصف الله كتاب موسى بأنّه ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: كان مقتدى الخلق ورحمة لهم أي: لما كان سبباً للرحمة إطلاقاً لاسم المسبّب باسم السبب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: إنّ الموصوفين بالبيّنة والهدى في صحّة هذا الدين يؤمنون بالقرآن أو بمحمّد صلى الله عليه وآله.

وقيل: المعنى المراد أنّ صورة النبيّ صلى الله عليه وآله ووجهه وخصائله كلّ ذلك يشهد له بالصدق فالتقدير أنّ حصول هذا الشاهد عقيب تلك البيّنة فحينئذ يكون الشاهد منه كون هذه الأحوال متعلّقة بذات النبيّ صلى الله عليه وآله. وهاهنا بيان آخر وهو أنّ المطالب على قسمين: منها ما يعلم صحّتها بالبداهة والضرورة ومنها يحتاج في تحصيل العلم بها إلى طلب واجتهاد، وهذا القسم الثاني على قسمين لأنّ طريق تحصيل المعارف إمّا الحجّة والبرهان المستنبط بالعقل وإمّا الاستفادة من الوحي فهذان الطريقان هما الطريقان اللّذان يمكن الرجوع إليهما في تعريف المجهولات، فإذا اجتمعا واعتضد كلّ واحد منهما بالآخر بلغا في غاية القوّة. ثمّ إنّ في الأنبياء كثرة فإذا توافقت كلماتهم على صحّته وكان البرهان اليقينيّ قائماً على صحّته. فقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فالمراد الدلائل العقليّة اليقينيّة وقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ إشارة إلى الوحي الّذي حصل لمحمّد صلى الله عليه وآله ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾. إشارة إلى الوحي الّذي حصل لموسى فقد بلغ هذا الدليل والبرهان في القوّة إلى حيث

١ـ روي العامة والخاصة: الشاهد يتلوه علي عليه السلام انظر: تفسير الفخر، ج ٥، ص ٦٨، وتفسير الطبري، ج ١٢، ص ١٠؛ والدّر المنثور في تفسير سورة هود، والنيشابوري ج ٢، ص ١١٧؛ وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديدي، ج ٢، ص ٢٣٦.

لا يمكن الزيادة عليه. ثمّ قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: بالقرآن وبمحمّد صلى الله عليه وآله من أصناف الناس ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾. فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس وسائر الطبقات من الكفر. روي عن النبي صلى الله عليه وآله والراوي أبو موسى روى عنه سعيد بن جبير أنه صلى الله عليه وآله قال: «**لا يسمع بي يهوديّ ولا نصرانيّ فلا يؤمن بي إلّا كان من أهل النار**». قال أبو موسى: فقلت في نفسي: إنّ النبيّ لا يقول مثل هذا إلّا عن القرآن فوجدت الله يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.[1]

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: لا تكن في مرية من صحّة هذا الدين ومن كون هذا القرآن نازلاً من عند الله. وقيل: إنّ المعنى: لا تك في مرية من أنّ موعد الكفار النار. ثمّ قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا تبال بالجهّال سواء آمنوا أو لم يؤمنوا.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

المعنى: في الآية دلالة على أنّ الافتراء على الله من أعظم أنواع الظلم.

ثمّ إنّه تعالى بيّن وعيد هؤلاء بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وما وصفهم بذلك لأنهم مختصّون بذلك العرض لأنّ العرض عامّ في كلّ العباد كما قال سبحانه: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾[2] إنّما أراد أنّهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم: هؤلاء الّذين كذبوا على ربّهم فيحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد عليه. فإن قيل: إذا لم يجز أن يكون الله تعالى في مكان فكيف يعرضون على ربّهم؟ فالجواب أنّهم

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٥٦.

٢ـ سورة الكهف: ٤٨.

يعرضون على الأماكن المعدّة للحساب الّتي أعدّها اللّه للحساب والأشهاد الّذين أضيف إليهم القول قيل: الناس وقيل: هم الأنبياء والملائكة الحفظة. و«الأشهاد» جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب وناصر وأنصار ويجوز أن يكون شهيداً مثل شريف وأشراف. ثمّ بيّن سبحانه عن حالهم بأنّهم في تلك الحال لملعونون من عند اللّه وهذه اللّعنة ابتداء خطاب من اللّه وقيل: من كلام الأشهاد. والمراد من اللّعنة إبعادهم عن رحمته. ثمّ وصف سبحانه الملعونين الظالمين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويغوون الخلق ويصرفونهم عن دين اللّه، وقد يكون بإلقاء الشبهة إليهم ويطلبون لسبيل اللّه زيغاً عن الاستقامة وزيادة ونقيصة في الكتاب ليتغيّر الأدلّة كما فعله اليهود في وصف النبيّ والتحريفات في التأويل والبدع.

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ قال الزجّاج: كلمة «هم» كرّرت على جهة التأكيد بشأنهم في الكفر.

أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

المعنى: أولئك الموصوفون من الكفّار لم يكونوا معجزين اللّه بالهرب مفلتين بأنفسهم من أخذه لو أرادوا ذلك في الأرض مع سعتها وأن يهربوا منها كلّ مهرب. وإنّما خصّ الأرض بالذكر وإن كانوا لا يفوتون اللّه ولا يخرجون عن قبضته على كلّ حال لأنّ معاقل الأرض مهرب البشر ومعصمهم عند المخاوف.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ أي: ليس لهم وليّ ولا ناصر ينصرهم ويحميهم عن

عذاب الله في الدنيا والآخرة ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: كلّما مضى ضرب من العذاب يعقّبه ضرب آخر مثله أو فوقه دائماً مؤبّداً على قدر الاستحقاق.

وقيل: معناه يضاعف العذاب على رؤسائهم للإضلال والصدّ عن الدين.

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ في معناه وجوه:

أحدها: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يستطيعون السمع فلا يسمعون وبما كانوا يستطيعون الإبصار فلا يبصرون عنادا وذهاباً عن الحقّ فأسقطت الباء عن الكلام، كما في قول الشاعر:

نغالي اللّحم للأضياف نيّا ... ونبذله إذا نضج القدور

أراد: نغالي باللحم، فحينئذ «ما» مصدريّة وليست بنافية.

وثانيها: أنّه لاستثقالهم استماع آيات الله وكراهتهم تذكّر هاجروا مجرى من لا يستطيع السمع وكذلك أبصارهم لم يبصروا كقول الأعشى:

ودّع هريرة إنّ الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيّها الرجل؟

وقد علمنا أنّ الأعشى كان يقدر على الوداع، وإنّما نفى الطاقة عن نفسه من حيث الكراهة. وثالثها: إنّما عنى بذلك آلهتهم وأوثانهم أي: أولئك الكفّار الموصوفون العابدون لآلهتهم إنّ آلهتهم جمادات ليس لها سمع ولا بصر، وفيه تعسّف.

ورابعها: أنّ «ما» ليست للنفي بل يجري مجرى قولهم: لأواصلنّك ما لاح نجم والمعنى أنّهم معذّبون ما داموا أحياء. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ من حيث فعلوا ما استحقّوا به العذاب فهلكوا فذلك خسران النفس، فأخذوا الخسيس من الدنيا وبدّلوا الشريف ﴿وَضَلَّ﴾

وبطل مفترياتهم وأكاذيبهم ﴿لَا جَرَمَ﴾ من عمل هذه التجارة الخاسرة ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وخسارتهم أضرّ من كلّ تجارة.

قال الزجّاج: كلمة «لا جرم» كلمة «لا» حرف نفي و«جرم» معناه كسب

فمعناه لا كسب لهم في النفع بل هذا الكسب خسران الدنيا والآخرة فيؤول المعنى من كلمة «لا جرم» أنّه حقّ كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

لمّا شرح خسارة الكفّار وشقاوتهم بيّن في هذه الآية سعادة المؤمنين. و«الإخبات» مأخوذ من الخبت وهو الأرض المطمئنّة كناية عن من يطمئنّ إلى ربّه ويخضع له أي: المؤمنون المطمئنّون إلى الله الخاضعون، ويعبدون الله وقلوبهم مطمئنّة بذكر الله والخضوع له، فارغة عن الالتفات إلى ما سوى الله، وتيقّنوا بصدق ما وعدهم الله. وأمّا إذا فسّرنا الإخبات بالخشوع كان المعنى: أنّهم يأتون بالأعمال الصالحة لكنّهم خائفون وخاشعون من أن يكونوا لم يأتوا بها من الوجوه الصحيحة، ووجلون من أن يكون وقوع التقصير والإخلال، فأولئك الموصوفون بهذه الصفات أصحاب الجنّة ويحصل لهم الخلود.

﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

لمّا ذكر الله حال الفريقين من المؤمن والكافر ذكر لهما مثالاً في الآية مطابقاً لها أي: مثل فريق المؤمنين كالبصير والسميع ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصمّ، وأنّ المؤمن ينتفع بهاتين الحاسّتين في الدين والكافر الّذي ليس له هاتان الحاسّتان لا ينتفع بها فصارت حاسّته بمنزلة المعدوم. وإنّما دخل الواو ليبيّن أنّ حال الكافر كحال الأعمى على حدة، وكحال الأصمّ على حدة، وحال من يكون قد جمع بين الصفتين جميعاً. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ فكما

لا تستوي هاتان الحالتان عند العقلاء كذلك لا تستوي حال الكافر والمؤمن ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتتفكرون.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

اعلم أنّه تعالى قد بدأ بذكر هذه القصّة في سورة يونس وقد أعادها في هذه السورة أيضاً لما فيها من زوائد الفكر وبدائع الحكم. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ وبعثنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ﴾ أهل زمانه و﴿قَوْمِهِۦ... أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ أي: أنذركم أن لا تعبدوا إلّا الله، ووحّدوا الله، وتركوا عبادة غيره. وبدأ بالدعوة إلى الإخلاص في العبادة له سبحانه لأنه من أهمّ الأمور، ولا تصحّ العبادات إلّا بعد التوحيد ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾. وإنّما قال: أخاف مع أنّ عقاب الكفّار مقطوع عليه وليس مظنوناً به لأنه ألطف في الدعوة وأقرب إلى القبول والإجابة في الغالب. ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ والأشراف ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يملؤون المجالس بحاشيتهم وغاشيتهم ﴿مِن﴾ قوم نوح لنوح: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ ظنّاً منهم أنّ الرسول إنّما يكون من غير جنس المرسل إليه ولم يعلموا أنّ البعثة من الجنس قد يكون أصلح ومن الشبهة أبعد. ثمّ قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ أي: لم يتّبعك الملأ والأشراف والرؤساء منّا وإنّما اتّبعك أخسّاؤنا الّذين لا مال لهم ولا جاه ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: في ظاهر الأمر والرأي لم يتدبّروا ولم يتعمّقوا فيما قلت.

وقال الزّجّاج: معناه اتّبعوك في الظاهر وباطنهم على خلاف ذلك. ومن قرأ بالهمزة فالمعنى: أنّهم اتّبعوك ابتداء الرأي، ولو فكّروا وتأمّلوا لم يتّبعوك. وقيل: معناه أنّ في مبتدء وقوع الرؤية عليهم يعلم أنّهم أراذلنا وأسافلنا.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: ما نرى لك ولقومك علينا من فضل لأنّ الفضل عندهم بكثرة المال والمنزلة في الدنيا والشرف في النسب وهكذا عادة أهل الدنيا يستحقرون أرباب الدين إذا كانوا فقراء ويسترذلونهم وإن كانوا هم الأكرمين الأفضلين عند الله. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ هذه بقيّة كلام كفّار قوم نوح، قالوه لنوح ومن آمن به. ﴿قَالَ﴾ نوح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

واختلفوا أنّ قول نوح هذا جواب عمّا ذا من كلامهم؟ قيل: جواب عن قولهم: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ وقيل: جواب عن قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فالمعنى كأنّه عليه السلام قال: «**أخبروني أنّكم إن تظنّوني كاذباً فما ذا تقولون إذا أتيتكم بحجّة من الله واضحة؟ ألا تصدّقونني؟**»

هذا إذا كان قوله عليه السلام جواباً عن قولهم ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾. وإذا كان جواباً عن قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ فالمعنى: إن كنت بشراً فماذا تقولون إذ أتيتكم بحجّة دالّة على صدقي؟ والرسالة تظهر بالمعجزة فلا معنى لاعتبار البشريّة. ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ والمراد بالرحمة هنا النبوّة أي: وأعطاني نبوّة من عنده ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ وخفيت ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لقلّة تدبّركم فيها. أ تريدون أن أكرهكم، ألزمكم بطريق الإلجاء على تصديق نبوّتي على كره منكم؟ ذلك غير مقدور لي لأنّ إلزامي إيّاكم على قبول نبوّتي ذلك الإيمان الاضطراريّ وليس من شأني.

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

المعنى: ثمّ أنكر نوح استثقالهم التكليف لأنّ العاقل يستثقل الأمر إذا لزمته مؤونة ثقيلة فقطع عذرهم فقال: إني لا أطلب منكم مالاً لدعوتي إيّاكم إلى اللّه حتّى تمتنعوا إجابتي خوفاً من بذل المال لأنّي أطلب أجري من اللّه ولست أطرد المؤمنين من عندي، ولا ابعدهم عنّي على وجه الإهانة لأنّهم سألوه طردهم ليؤمنوا له آنفة من أن يكونوا مع الفقراء سواء.

فكأنّه عليه السلام أجاب عن جميع سؤالاتهم بهذه الآية أي: أنّي لا أطلب المال حتّى إذا كان المستجيب لنبوّتي إذا كان فقيرا لم ينفعني، وإذا كان غنيّاً نفعني ويتفاوت لي فإن ظننتم أنّي فقير واشتغلت بهذه الحرفة لأتوصّل بها إلى أخذ أموالكم فاعلموا أنّ هذا الظنّ خطاء منكم ولا أطرد الصعاليك عنّي لأنّهم ملاقوا ربّهم ما وعدهم من البعث والجزاء فإن طردتهم استخصموني عند اللّه. ونبّه بهذا المعنى لهم وجود البعث والجزاء والقيامة فحينئذ إن فعلت ذلك وخاصموني فمن ينصرني عند اللّه من مخاصمتهم؟ وأراكم جاهلين لأنّ تعظيم البرّ المتّقي المؤمن وإهانة الفاجر الكافر حكم بهما الشرع والعقل فإذا قلبت القضيّة كنت على صدّ أمر اللّه فحينئذ من يجيرني من هذا الإثم والعصيان؟ ﴿أَفَلَا﴾ تفقهون و﴿تَذَكَّرُونَ﴾ والفرق بين التفكّر والتذكّر أنّ التذكّر طلب معنى قد كان حاضراً للنفس والتفكّر طلب معرفة الشيء بالقلب وإن لم يكن حاضراً للنفس. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي﴾ هذا تمام الحكاية عمّا قاله نوح لقومه أي: إنّي لا أرفع نفسي فوق قدرها فأدّعي أنّ عندي مقدورات

الله فأفعل ما أشاء واعطي من أشاء وأمنع من أشاء ومفاتيح الله في الرزق وخزائنه عنده ولا أدّعي علم الغيب حتّى أدلّكم على منافعكم ومضارّكم. ولا أقول إنّي ملك فأخبركم بخبر السّماء من قبل نفسي، وإنّما أنا بشر لا أعلم الأشياء إلّا بتعليم الله.

ثمّ أكّد عليه السلام بيانه بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ وتستقلّونهم وتستخفّونهم وتنظرون إليهم بعين الحقارة والعيب لما ترونهم من الفقر: لا يعطيهم الله في المستقبل خيراً ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ﴾ قلوبهم من الإخلاص إن قلت منهم ما لم أعلم وطردتهم ﴿إِذٗا﴾. أنا ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ (٣٤)﴾

لمّا جاوب الكفّار بهذه الآية السابقة وصفوه بكثرة المجادلة وحملوا كلامه على الجدل. والمجادلة المقابلة بما يقبل الخصم من مذهبه بحجّة أو شبهة، والجدل شدّة القتل. والفرق بين الحجاج والجدال أنّ المطلوب بالحجاج ظهور الحجّة، والمطلوب بالجدال الرجوع عن المذهب.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ﴾ حاججتنا وأكثرت الجدل فأتنا بما تخوّفنا من العذاب فلسنا نؤمن بك إن كنت صادقاً فيما تدّعي. ﴿قَالَ﴾ نوح: لا يأتي بالعذاب إلّا الله متى شاء، فإن شاء عجّل وإن شاء أخّر وأنتم لا تفوتونه بالهرب والتأخير. وإذ أراد الله عذابكم وأن يعاقبكم لكفركم، ويجنّبكم من رحمته بسبب سوء اختياركم، ويحرّمكم ثوابه، وأغواكم لا ينفعكم نصحي إذا أردت أن أنصح، لأنّكم عامدون على العناد والإنكار. وقد سمّى الله سبحانه العقاب والعذاب

غيّاً بقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[١] ويشهد بذلك قول الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغيّ لائماً

وقال بعض المفسّرين: إنّ معنى الآية: إن كان اللّه يريد عقوبة إغوائكم الخلق وإضلالكم إيّاهم أي: يريد عقوبتكم على ذلك الإغواء. ومن عادة العرب أن تسمّي العقوبة باسم الشيء المعاقب عليه كقوله: وجزاء سيّئة سيّئة مثلها، ومكروا ومكر اللّه.

وقيل: معنى الإغواء: الإهلاك إذا أراد اللّه إهلاككم بسبب كفركم لا ينفعكم نصحي عند نزول العذاب وإن قبلتم نصحي وآمنتم لأنّ اللّه حكم بأن لا يقبل الإيمان بعد نزول العذاب. وقد حكي عن العرب أنّهم قالوا: أغويت فلاناً أي: أهلكته، ويقال: غوى الفصيل إذا فسد من كثرة شرب اللّبن.

وقيل: إنّ قوم نوح كانوا يعتقدون أنّ اللّه يضلّ عباده عن الدّين وأنّ ما هم عليه بإرادة اللّه ولولا ذلك لأجبرهم على خلافه فقال نوح على وجه التعجّب من قولهم: إن كان القول كما تقولون وتعتقدون فنصحي لا ينفعكم.

واعلم أنّه لا يجوز أن يكون المراد بالإغواء في الآية فعل الكفر والدعاء إلى الكفر أو الحمل عليه على ما يعتقده المجبّرة لقيام الأدلّة على أنّ خلق الكفر وإرادته من أقبح القبائح وكالأمر به، وكما لم يجز أن يأمر به فكذلك لا يجوز أن يفعله أو يريده. ولأنّه لو جاز منه الإضلال لجاز منه أن يبعث من يدعو إلى الضلال ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾

المعنى: قيل: أ يؤمن كفّار محمّد ﷺ بما أخبرهم به محمّد ﷺ من نبأ

١ـ سورة مريم: ٥٩.

قوم نوح ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ من تلقاء نفسه فـ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﷺ: «إن اختلقته وافتريته كما تزعمون فعليّ عقوبتي ولا تؤخذون به وأنا لا أؤاخذ بجرمكم».

وقيل: يعني به نوحاً وأنّه يقول على الله الكذب، عن ابن عبّاس.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

المعنى: أخبر الله نوحاً أنّه لن يؤمن به أحد من قومه في المستقبل فلا تغتمّ ولا تحزن.

ولأنّ العقل لا يدلّ ولا يحكم على أنّ قوماً لا يؤمنون في المستقبل وإنّما طريق ذلك السمع فأخبره الله فلمّا علم أنّ أحداً منهم لا يؤمن فيما بعد ولا من قبلهم دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1] فلمّا أراد الله إهلاكهم أمر نوحاً باتّخاذ السفينة له ولقومه المؤمنين فقال سبحانه: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ واعمل السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وبمرأى منّا أي: بحفظنا إيّاك حفظ الرائي لغيره إذا كان يدفع الضرر عنه. وذكر الأعين لتأكيد الحفظ وقيل: المراد بالأعين الملائكة الموكّلون بك وهم ينظرون إليك بأعينهم. وإنّما أضاف ذلك إلى نفسه إكراماً وتعظيماً لهم. وقوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ معناه: على ما أوحينا إليك من

١ـ سورة نوح: ٢٦ ـ ٢٧.

صنعتها وكيفيّتها أو المراد: بوحينا إليك أن اصنعها وذلك أنّه لم يعلم صنعة الفلك فعلّمه اللّه بأنّا نوحي إليك بما تحتاج إليه من طوله وعرضه وهيئته ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾ أي: ولا تسألني العفو عن هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كفروا من قومك ولا تشفع لهم فـ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ عن قريب وهذا غاية في الوعيد. فجعل نوح يصنع الفلك كما أمر اللّه بيده فجعل ينحت ويسوّيها وأعرض عن قومه. وكلّما مرّ عليه أشراف قومه ورؤساؤهم وهو يعمل السفينة هزءواً بفعله لأنّه كان يعملها في البرّ على مبلغ من الطول والعرض ولا ماء هناك يحمل مثلها، فكانوا يتضاحكون ويتعجّبون من عمله، وكانوا يقولون له: يا نوح صرت نجّاراً بعد النبوة؟ على طريق الاستهزاء. وقيل: إنّ استهزاءهم له بأن كانوا يقولون: لو كنت صادقاً في دعواك لكان إلهك يغنيك عن هذا العمل الشاق. أو أنّهم ما رأوا السفينة قبل ذلك وما عرفوا السفينة إلّا ينتفاع بها فيسخرون ويعدّون عمله سفهاً. ولمّا طالت مدّته مع القوم، وكان ينذرهم بالغرق وما شاهدوا من ذلك المعنى خبراً غلب على ظنونهم كونه كاذباً في ذلك المقال. ثمّ إنّه سبحانه حكى عن نوح أنّه كان يقول: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ أي: إذا وقع الغرق والعذاب نحن نسخر منكم.

فإن قيل: السخريّة من آثار المعاصي فكيف يليق بالأنبياء؟ قلنا: سمّي المقابلة سخريّة كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾.[1]

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أيّنا أحقّ بالسخريّة، وتعلمون عاقبة سخريّتكم ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ يفضحه في الدنيا وثبت عليه عذاب دائم في الآخرة، القصّة. قال الحسن: كان طول السفينة ألف ذراع ومأتي ذراع وعرضها ستّمائة ذراع. وقيل: أقلّ. قال ابن عباس: كانت ثلاث طبقات: طبقة للناس

١ـ سورة الشوري: ٤٠

وطبقة للأنعام والدوابّ وطبقة للوحش والهوامّ، وجعل أسفلها للوحوش والسباع والهوامّ، وأوسطها للدوابّ والأنعام، وركب هو ومن معه في الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وكانت من خشب الساج، وقيل: من النخل.

لمّا فرغ نوح من عمل السفينة وأراد اللّه إهلاكهم، روى عليّ بن إبراهيم بحذف الأسانيد عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**لمّا أراد اللّه إهلاك قوم نوح عقم أرحام النساء أربعين سنة فلم يولد لهم مولود، وأمر اللّه نوحاً أن ينادي بالسريانيّة أن يجمع إليه جميع الحيوان، فلم يبق حيوان إلّا وقد حضر فأدخل من كلّ نوع من أنواع الحيوان زوجين ما خلا الفأر والسنّور، ثمّ لمّا شكوا القوم من سرقين الدوابّ دعا الخنزير ومسح جبينه فعطس فسقط من أنفه زوج فأرة فتناسلوا ولمّا كثروا وشكوا إليه منها دعا بالأسد ومسح جبينه فعطس فسقط من أنفه زوج سنّور**».

وكان الّذين آمنوا به من جميع الدنيا ثمانين نفراً.[1] وروى الشيخ أبو جعفر في كتاب النبوّة بإسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «**آمن مع نوح ثمانية نفر**».[2]

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾

كلمة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وقعت غاية لقوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي: فكان يصنعها إلى أن جاء وقت العذاب. وفي ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ قولان: أحدهما: أنّه التنوّر الّذي يخبز فيه. والثاني: أنّه غيره فعلى الأوّل قيل: إنّه تنوّر لنوح عليه السلام، كانوا يخبزون فيه. وقيل: كان لآدم وحوّاء حتّى صار لنوح. واختلفوا في موضعه قال

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧٢؛ وبحار الأنوار، ج ١١، ٣٣٧.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧٢؛ وبحار الأنوار، ج ١١، ٣٣٧.

الشعبيّ: كان بناحية الكوفة. وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه في مسجد الكوفة[١] قال عليه السلام: «**وقد صلّى نحوه سبعون نبيّاً**». وقيل: بالشام بموضع يقال له وردان. ولكنّ الصحيح ما قاله عليّ عليه السلام وقيل: فار التنوّر بالهند. وقيل: إنّ امرأته كانت تخبز في ذلك التنوّر خبزاً ورده من أرض الشام في دار نوح، فأخبرت نوحاً بخروج الماء فاشتغل في الحال بوضع الأشياء في السفينة، هذا كلّه على القول الأوّل.

وعلى القول الثاني إنّ المراد وجه الأرض والعرب تسمّي وجه الأرض تنّوراً. وقيل: إنّ التنوّر أعلى مكان في الأرض وأشرفها وقد أخرج اللّه الماء من ذلك الموضع ليكون ذلك معجزة له. وقيل: فار التنوّر أي: طلع الصبح عن عليّ عليه السلام. وقيل: فار التنوّر كقولهم: «حمي الوطيس» بمناسبة وقوع العذاب. وفار أي: نبع على قوّة وشدّة تشبيها بغليان القدر. وقد وعد اللّه المؤمنين النجاة وجعل هذه الحالة علامة لحدوث الواقعة.

قال الليث: «التنوّر» لفظة عمّت بكلّ لسان ووافقت اللغات بهذا المعنى وصاحبه تنّار. لكنّ الأزهريّ قال: إنّ الاسم قد يكون أعجميّاً في الأصل فتعربه العرب فصار عربيّاً نظير ما دخل في كلام العرب من كلام العجم كالديباج والدينار والسندس والإستبرق فإنّ العرب لمّا تكلّموا بهذه الكلمات صارت عربيّة. ﴿قُلْنَا احْمِلْ﴾ أي: قلنا لنوح لمّا فار التنوّر: احمل في السفينة ﴿مِن كُلٍّ﴾ نوع من الحيوان ﴿اثْنَيْنِ﴾. فإن قيل: الزوجان قد فهم أنّهما اثنان فكيف جاز وصفهما بقوله «اثنين»؟ إنّما جاز للتأكيد كقوله: ﴿إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[٢] تقول: أمس الدابر ونفخة واحدة ونعجة واحدة، والحاصل: احمل في السفينة من الحيوان ذكراً وأنثى.

١ـ انظر: تفسير القمي، ج ١، ص ٣٢٧.

٢ـ سورة النحل: ٥١.

واحمل ﴿أَهْلَكَ﴾ وولدك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾ القول بإهلاكه إلّا امرأته الخائنة، واسمها واغلة، ابنه كنعان. واحمل ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بك من قومك، وأخبر الله أنّه ما آمن معه إلّا نفر قليل وهم ثمانون إنساناً. وقيل: اثنان وسبعون رجلاً وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم فهم ثمانية وسبعون نفساً وحمل معه جسد آدم وقيل: ثمانية أنفس، عن أبي عبد الله عليه السلام، وكان فيهم بنوه الثلاثة: سام، وحام ويافث. وثلاث كنائن[1] لهم، فالعرب، والروم، وفارس وأصناف العجم ولد سام، والسودان والحبش والزنج وأمثالهم ولد حام، والترك والصين والصقالبة ويأجوج ومأجوج ولد يافث.[2] قوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي قال نوح لأهله وقومه: اركبوا في السفينة متبرّكين ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، أو قائلين: بسم الله وقت إجرائها وحركتها ووقت إرسائها وثبوتها. وقيل: كانوا إذا أرادوا أن تجري السفينة قالوا: بسم الله جرت، وإذا أرادوا أن تقف السفينة قالوا: بسم الله فوقفت.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذا القول حكاية عمّا قاله نوح لقومه. ووجه اتّصالها بما قبلها: لمّا ثبت النجاة بالسفينة ذكرت النعمة بالمغفرة والرحمة.

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)

المعنى: إنّ السفينة كانت تجري بنوح ومن معه على الماء في أمواج كالجبال في عظمها. وارتفاعها ومن التشبيه تبيّن أنّ الموج لم يكن واحداً بل

١ـ جمع الكن بالفتح: امراة الابن.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧٩.

كان كثيراً. وروي أنّ الماء ارتفع فوق كلّ جبل عال ثلاثين ذراعاً. وقيل: إنّ السفينة سارت لعشر مضين من رجب، فسارت ستّة أشهر، فطافت الأرض كلّها لا تستقرّ في موضع حتّى أتت الحرم فطافت بموضع الكعبة أسبوعاً، ثمّ سارت بهم حتّى انتهت إلى الجوديّ. ومن المعلوم أنّ الأمواج العظيمة في البحر لا تحدث إلّا بعد هبوب رياح عاصفة، وحدوث هول عظيم والفزع. ثمّ ﴿نَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ يا بنيّ ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ من السفينة وإنّه كان يظنّ أنّ الجبل يمنعه عن الغرق. وقيل: إنّه كان بمعزل أي: في معزل من الكفّار، وإنّه انفرد عنهم. فظنّ نوح أنّ ذلك إنّما كان لأنّه أحبّ مفارقتهم فطمع في إيمانه وركوبه معه، ولهذه الجهة ناداه، وإلّا لما قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[١] كيف يناديه مع كفره؟ بل قيل: إنّه كان ينافق أباه فظنّ نوح أنّه مؤمن ولولا ذلك لما أحبّ نجاته.

والقول الصحيح أنّه كان ابن امرأته[٢]، ويروى أنّ عليّاًعليه السلام قرأ: ونادى نوح ابنها.[٣] قال الباقرعليه السلام: إنّه كان ابن امرأته.[٤] قال قتادة: سألت الحسن البصريّ عنه فقال: واللّه ما كان ابنه، فقلت إنّ اللّه حكى عنه قال: إنّ ابني من أهلي وأنت تقول: ما كان ابنا له؟ فقال الحسن: لم يقل: إنّه منّي ولكنّه قال: من أهلي وهذا يدلّ على قولي وابن المرأة يدعى بالابن.

فأجابه ابنه فقال: سأرجع وأستقرّ إلى جبل يمنعني من الماء. قال نوح: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ ولا مانع ولا دافع اليوم من عذاب اللّه إلّا من رحمه اللّه بإيمانه فآمن باللّه يرحمك، فما قبل قول نوح ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ فصار كنعان

١ـ سورة نوح: ٢٦.

٢ـ رواه القمي في تفسيره عن العلاء عن الصادقعليه السلام.

٣ـ التبيان، ج ٥، ص ٤٩٥.

٤ـ انظر: نورالثقلين: ج ٢، ص ٣٦٣؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧٦

وقيل: اسمه يام ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

قال اللّه للأرض: انشفي ماءك الّذي نبعت به العيون، واشربي ماءك حتّى لا يبقى على وجهك شيء منه. وهذا إخبار عن ذهاب الماء عن وجه الأرض بأوجز مدّة فجرى مجرى أن قيل لها: ابلعي فبعلت وقال اللّه للسماء: أمسكي عن المطر وهذا إخبار عن إقشاع السحاب في أسرع زمان فكأنّه قال: له أقلعي فأقلعت. والمقصود من هذا الكلام وصف آخر لمّا انتهى الطوفان، بلع الماء إذا شربه دفعة من غير تروّ، وبلع الطعام إذا لم يمضغه، وأقلع الرجل عن عمله إذا كفّ وأمسك عن شغله، وغاض الماء إذا نقص، لازم متعدّ. و«الغيض» النقص الّذي ما بقي منه شيء.

وهذه الآية مشتملة على عظمة اللّه وكبريائه غاية فقوله: «قيل» يدلّ على أنّه سبحانه في القدرة بحيث إنّه متى قيل: «قيل» لم ينصرف العقل إلّا إليه ولم يتوجّه الفكر إلّا إلى أنّ ذلك القائل هو هو. وهذا البيان تقرير في العقول أنّه لا حاكم في العوالم العلويّ والسفلي إلّا هو وقوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾ فإنّ الحسّ يدلّ على عظمة هذه الأجسام وشدّتها وقوّتها فإذا شعر العقل بوجود قاهر لهذه الأجسام يتصرّف فيها فصار ذلك البيان لوقوف القوّة العقليّة على كمال قوّة الجلال وعلوّ قهره ومشيئته سبحانه.

ثمّ إنّ السماء والأرض من الجمادات فقوله: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾ و﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ مشعر بحسب الظاهر على أنّ أمره نافذ في الجمادات. فلأن يكون أمره نافذاً على العقلاء كان أولى. فإن قيل: كيف يليق بحكمة اللّه أن يغرق الأطفال بسبب جرم الكفّار؟

فالجواب أنّ كثيراً من المفسّرين يقولون: إنّ اللّه أعقم أرحام النساء أربعين سنة، فلم يغرق إلّا من بلغ أربعين سنة فما فوق. فلو قيل: فما قولكم في إهلاك الطير والوحش مع أنّه لا تكليف عليها؟ فالجواب على مذهب الأشاعرة: لا اعتراض على فعله، لا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون. وعلى مذهب المعتزلة والعدليّة. ذلك يجري مجرى ذبح البهائم وإعمالها في الأعمال الشاقّة واللّه يعوّضهن عوض ألم الذبح والغير بأنواع اللذّة على حسب مراتبها بنوع يتداركه، وكذلك القول في الأطفال.

﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي وقع الهلاك على القوم واستقرّت السفينة على الجبل المعروف بالجوديّ. وقيل: الجوديّ اسم لكلّ جبل. قال الزجّاج: هو لناحية أسل. وقيل: بقرب الموصل. وفي كتاب النبوّة مسنداً إلى أبي بصير عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال: «**كان نوح لبث في السفينة ما شاء الله وكانت مأمورة فخلّى سبيلها فأوحى الله إلى الجبال أنّي واضع سفينة نوح على جبل منكن، فتطاولت الجبال وشمخت وتواضع الجوديّ وهو جبل بأرض الموصل فضرب جؤجؤ السفينة الجبل فقال نوح عند ذلك: يا ماريا اتقن وهو بالعربيّة يا ربّ أصلح**».[١] وفي رواية اخرى يا رهمان اتقن وتأويله: يا ربّ أحسن.[٢] قيل: وأرست السفينة على الجوديّ شهراً[٣] وكان ذلك اليوم عاشوراء.[٤]

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: قال اللّه: وأبعد اللّه الظالمين من رحمته. أو قال نوح أبعد اللّه الظالمين من رحمته، أو قالت الملائكة هذا الكلام.

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٨١.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ وهذا القول للمعاندين لآل محمد صلى الله عليه وآله؛ راجع: مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، ص ٣٥٦؛ أعمال يوم عاشوراء، واحذر عن هذا الرأي جداً. فتأمّل.

ولا يخفى على ما قال أهل الفصاحة من الفصاحة في هذه الآية من حسن تقابل المعنى وائتلاف الألفاظ ولطف البيان والإيجاز من غير إخلال وغير ذلك ممّا يعرفه أهل الأدب ومن له معرفة بكلام العرب ومحاوراتهم في الدواوين.

ويروى أنّ كفّار قريش أرادوا في وقت أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على لباب البرّ ولحوم الضأن وسلاف الخمر[1] أربعين صباحاً لتصفو أذهانهم فلمّا أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية. فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام وليس كلام المخلوق وتركوا ما أخذوا فيه فافترقوا.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

المعنى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ إنّك وعدتني وأهلي بالنجاة فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الّذين وعدتك أن انجيهم معك لأنّه ليس من أهل دينك فالآية تدلّ على أنّ العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب لأنّه نفاه الله بأبلغ الألفاظ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ وقرئ «إنّه عمل غير صالح» على صيغة فعل الماضي. و«غير» منصوب ونعت لمصدر محذوف أي: إنّ ابنك عمل عملاً غير صالح، وهذا غلط لأنّه يمتنع أن يقع على الأنبياء شيء من القبائح وهذا السؤال قبيح. واختار المرتضى رحمه الله أنّه ذو عمل غير صالح كقول الخنساء: «فإنّما هي إقبال وإدبار» أي: هي ذات إقبال وذات إدبار.

١ـ بالضم ما سال قبل عصر العنب وهو أفضل الخمر.

فإن قيل: فلم قال سبحانه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وكيف قال نوح ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾؟

قال: لا يمتنع أن يكون نهى عن سؤال ما ليس لك به علم وإن لم يقع ذلك منه وأن يكون تعوّذ من ذلك وإن لم يوقعه كما نهى الله عن الشرك في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] وإن لم يجز وقوع ذلك منه وإنّما سأل نوح نجاة ابنه بشرط المصلحة لا على سبيل القطع. وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾ وأحذّرك ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: إنّي أعظك لئلّا تكون من الجاهلين.

وقيل في معنى ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾: الضمير يرجع إلى ابن نوح كأنّه جعل عمل غير صالح للمبالغة كما يجعل الشيء الشخص لكثرة ذلك منه كقولهم: الشعر زهير، من كثرة حذقه بالشعر. وقوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وإنّما قال ذلك على سبيل التخشّع والاستكانة لله وإن لم يسبق منه ذنب لأنّه دلّت الدلائل الكثيرة بل ضرورة الإسلام عندنا أن ننزّه الأنبياء عن المعصية صغيرة كانت أم كبيرة، وحصول العقاب والأمر بالاستغفار لا يدلّ على سابقة الذنب كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾[2] ومعلوم أنّ مجيء نصرة الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجاً ليست بذنب يوجب الاستغفار وقال: في موضع آخر: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[3] وليس جميعهم مذنبين.

والحاصل أنّه تعالى لمّا نهاه عن ذلك السؤال بقوله: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ

١ـ سورة الزمر: ٦٥.

٢ـ سورة النصر: ١ ـ ٢.

٣ـ سورة محمد: ١٩.

لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ قال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فقال نوح: عند ذلك قبلت يا ربّ هذا التكليف ولا أعود إليه إلّا أنّي لا أقدر على الاحتراز منه إلّا بإعانتك وهدايتك فقال: في الابتداء: إنّي أعوذ بك أن أسألك في المستقبل ما ليس لي به علم أي لا أعود لمثل هذا، ثمّ اشتغل بالاعتذار عمّا مضى فقال: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ وقد حصلت حقيقة التوبة من غير ذنب، وهذا معنى: (حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين). ومن غيرنا من نسب هذه الزلّة إلى نوح وحاشا منه لم ينسبه إلى معصية بل قال: إنّه أخطأ في اجتهاده حيث ظنّ أنّ ابنه مؤمن كما أنّهم قالوا: إنّ آدم أخطأ في ظنّه بإبليس أنّه لم يقسم على الله كذباً.

قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾

ثمّ بعد ما استقرّت السفينة على الجبل بعد خراب الدنيا بالطوفان امر نوح وقومه بالخروج من السفينة والهبوط من الجبل إلى الأرض المستوية ووعده الله بالسلامة والبركة لأنّ ذلك الغرق لمّا كان عامّاً في جميع الأرض وأنّه ما كان في الدنيا شيء ينتفع به نوح بشّره الله بالبركة والسلامة حتّى يستقرّ قلبه، ويعلم حصول السلامة من الآفات. و«البركة» هي الثبات والدوام مأخوذ من بروك الإبل ومنه البركة لثبوت الماء فيها. ومن البركة الحاصلة لنوح أنّ الله جعله آدم الأصغر وأبا البشر؟ لأنّ الخلق كلّهم من نسله لأنّه على قول من قال: إنّه ما كان في السفينة من البشر غير أولاده قالوا: لم يبق منهم ذرّيّة وأنّ من بقي من أولاد نوح والدليل عليه قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ

ﭐلۡبَاقِينَ﴾[١] فهذا هو المراد من البركات.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: الأمم الّذين كانوا معه في السفينة. و«الامّة» الجماعة المتّفقة على ملّة واحدة. وقيل: معناه: يعني بالأمم الّذين معه سائر الحيوان الّذين معه في السفينة بأن يزودون في الدنيا ويكثرون كالأوّل.

﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ أي: من نسلهم سنمتّعهم في الدنيا بضروب النعم فيكفرون ونهلكهم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ بعد الهلاك بسبب كفرهم ﴿عَذَابٌ﴾ مولم. وإنّما ارتفع في قوله: ﴿وَأُمَمٞ﴾ لأنه استأنف الإخبار عنهم. ثمّ أشار سبحانه بقوله:

تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

فأشار وقال: تلك الأنباء من أخبار ما غاب عنك معرفتها. ولو قال ذلك بالتذكير جاز لأنّ المصادر يكنى عنها بالتذكير والتأنيث يقال: قدوم فلان فرحت بها وفرحت به أي: بقدمته وبقدومه وهذه الأخبار الّتي أخبرناكها لم تكن تعلم وكذلك قومك لم يكونوا يعلمون من قبل إيحائنا لأنهم لم يكونوا أهل كتاب وسرّ من قبل هذا القرآن. ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ على القيام بأمر الله وعلى أذى قومك يا محمّد ﷺ كما صبر نوح على أذى قومه. وهذا أحد الوجوه الّتي لأجلها كرّر الله قصص الأنبياء ليصبر النبيّ ﷺ على ما يقاسي من الكفّار والجهلة ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ﴾ المحمودة والنصرة ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ كما كانت لنوح.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ

١ـ سورة الصافات: ٧٧.

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

هذا هو القصّة الثانية في هذه السورة عطف إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ أي: ولقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ﴾ قوم عاد أخاهم في النسب لا في الدين ﴿هُودًا﴾ لأنّ هود كان رجلاً من قبيلة عاد وهي قبيلة من العرب وكانوا بناحية اليمن، وهذه العبارة مصطلحة يقال: يا أخا تميم، ويا أخا سليم. ثمّ حكى سبحانه عن هود ما قال لهم وأمرهم:

الأول أنّه أمرهم بالتوحيد ونهاهم عن عبادة غيره ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم إلّا كاذبون في قولكم: إنّ الأصنام آلهة ﴿يَٰقَوْمِ﴾ لست أطلب منكم على دعوتي لكم بعبادة الله جزاء، ليس جزائي إلّا على الّذي خلقني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وتتعقّلون أنّ الأمر ما أقوله.

والأمر الثاني الّذي أمرهم هود: دعاهم إلى الاستغفار ثمّ إلى التوبة أي: سلوه سبحانه أن يغفر لكم ما قدّمتم من شرككم، ثمّ ارجعوا إليه بعد الندم إنّكم متى ما فعلتم ذلك فالله تعالى يكثر النعم. وإنّما يحصل تكثير النعم في الدنيا بالأمطار لأنّ الأمطار الموافقة مادّة النعم ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي: مع أنّكم متبرّزون ومعروفون بالقوّة تزداد قوّتكم. وكانوا صاحب بساتين خصبة مونقة طيّبة لأنّ هذين الحالين كانوا طالبين لأنّ الله لمّا بعث هوداً عليه السلام إليهم وكذّبوه حبس الله عنهم المطر سنين، وأعقم أرحام نسائهم، فوعدهم هود بأن إذا آمنوا تنعكس القضيّة فقالوا: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا﴾ بحجّة واضحة

ـ وقد أظهر المعجزات إلّا أنّ القوم بجهلهم أنكروها ـ ولسنا بتاركين عبادة أصنامنا لأجل قولك. ومعنى «عن» هاهنا معنى الباء ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ﴾ بمصدّقين في شيء ممّا تأتي به من التوحيد وترك عبادة الأصنام ـ وفي هذه العبارة دلالة على شدّة الشكيمة والعتوّ ـ ولولا تقول إلّا قولنا أصابك بعض آلهتنا بجنون وتغيّر مزاج بسبّك إيّاها وصدّك عن عبادتها وحطّك لها عن رتبة الألوهيّة. زعموا بيانات هود من جملة الخرافات فضلاً عن أن يصدّقوا بقوله. أي: لا نعدّ كلامك إلّا من الهذيانات الصادرة من المجانين.

وقد سلكوا في طريق المخالفة والعناد إلى سبيل الترقّي من الأدنى إلى الأعلى حيث أخبروا بالأوّل أنّ ما جئتنا ليست بحجّة واضحة ثمّ بعد هذا البيان تركوا الامتثال بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ ونفوا تصديق قوله، ثمّ نسبوه إلى الجنون. قال هود لقومه: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ أي: أشهدكم بعد إشهاد الله ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ﴾ أي: أنا بريء من أصنامكم الّذي تعبدونها وتزعمون أنها عاقبتني لطعني عليها. وإنّما أشهدهم على ذلك وإن لم يكونوا من أهل الشهادة من حيث إنّهم كانوا كفّاراً فسّاقاً إقامة للحجّة عليهم لا لتقوم الحجّة بهم. ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ واحتالوا واجتهدوا أنتم وآلهتكم في إنزال مكروه بي ثمّ لا تمهلوني. قال الزجّاج: وهذا من عظيم الآيات أن يكون الرسول وحده وامّته متهاونة عليه فيقول لهم: ﴿فَكِيدُونِي﴾ ولا يستطيع واحد منهم ضرّه، وكذلك نوح عليه السلام قال مثل هذه الكلمة لقومه حيث قال: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾[1] وقال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٞ فَكِيدُونِ﴾[2] ولا يصدر هذا الكلام إلّا ممّن يكون واثقاً بنصر الله. ثمّ قال هود:

١ـ سورة يونس: ٧١.

٢ـ سورة المرسلات: ٣٩.

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةٗ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدٗا لِّعَادٖ قَوْمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ وذي حياة يدبّ على وجه الأرض إلّا والله مالك لها. وجعل الأخذ بالناصية كناية عن القهر والقدرة لأنّ من أخذ بناصية غيره فقد قهره وأذلّه ومع كونه تعالى قاهراً يعدل ولا يجور وصراطه عدل مستقيم لا عوج فيه. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يمكن أن يكون حكاية عن قول هود فالمعنى: فإن تتولّوا أنتم. ويجوز أن يكون قول الله أي: فإن تولّوا هم فقل لهم: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾. وليس لتقصير منّي في إبلاغكم وإنّما هو لسوء اختياركم في إعراضكم عن نصحي ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويهلككم ربّي بكفركم ويستبدل قوماً غيركم يوحّدونه ولا ضرر يترتّب عليه في إهلاككم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ﴾ يحفظه من الهلاك إن شاء ويهلكه إذا شاء. وقيل: معناه: إنّ ربّي يحفظني عنكم وعن أذاكم وحفيظ من أعمال عباده يجازيهم عليها.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بهلاك عاد ﴿نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ من الهلاك قيل: إنّهم كانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٖ مِّنَّا﴾ بما أريناهم من الهداية ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ أي: من العذاب الثقيل العظيم في الآخرة. ويحتمل أن يكون المراد من عذاب الدنيا الّذي عذّب به قوم هود.

ثمّ ذكر سبحانه كفر قوم عاد فقال: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي تلك القبيلة ﴿جَحَدُوا﴾ المعجزات الدالّة على صحّة نبوّة هود وعصوا رسله. وإنّما جمع الرسل مع أنّه بعث إليهم هوداً لأنّ من كذّب رسولاً واحداً فقد كذّب جميع الرسل لأنّ جميع الرسل يدعون الناس إلى الإيمان باللّه وبما أنزل إليهم من الكتب فلذلك فقد عصوهم واتّبع السفلة وإسقاط الرؤساء الّذين يقتلون ويضربون على غضبهم والمعاندين في الدين. ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ رديفاً لهم ومتابعاً في الدنيا والآخرة أي: الأبعاد من الرحمة ومن كلّ خير ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا﴾ بنعمة ﴿رَبَّهُمْ﴾ فحذف الباء كما في قوله: «أمرتك الخير» أي: بالخير ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ من الرحمة. وإنّما فسّر بآخر الآية بكلمة ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ لأنّ عاداً عادان: القديمة وهو قوم هود، والثانية عاد إرم ذات العماد فذكر ذلك لإزالة الاشتباه.

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

عطف على قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾ وأرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم صالحاً. سمّوا باسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن غابر بن إرم بن سام بن نوح، أو أنّهم سمّوا بذلك لقلّة مائهم من «الثمد» وهو الماء القليل من نزّ الأرض.

وهذه هي القصّة الثالثة في هذه السورة، فأمرهم بالتوحيد، ومنعهم عن

عبادة الأصنام وذكرﷺ في تقريره دليلين: الأول: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لأنكم من صلب آدم وهو مخلوق من الأرض، أو الإنسان مخلوق من النطفة وهي تتولّد من الأغذية، ومادّتها من الأرض. وقيل: «من» هاهنا بمعنى في الأرض وهذا بعيد. الدليل الثاني قوله: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عمّار الأرض ومكّنكم من عمارتها، أو المعنى أطال أعماركم وكانت أعمارهم من الألف إلى ثلاثمائة سنة.

قال الشاعر:

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ... ولا يكون له في الأرض آثار

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك والذنوب. ثمّ دوموا على التوبة ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ برحمته ﴿مُّجِيبٌ﴾ لمن دعاه. ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ﴾ قبل ذلك كنّا نرجو منك الخير، فالآن قد يئسنا منك ومن خيرك بهذا القول، وكنّا نظنّ بك عوناً لنا في ديننا. وقالوا على سبيل الإنكار: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾؟ كأنّهم أنكروا أن ينهى الإنسان عن عبادة ما عبده آباؤه.

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ من الدين شكّ موجب للتهمة والريب لأنّ آباءنا لم يكونوا في جهالة وضلالة. والفرق بين الشكّ والريب أنّ الشاكّ متوقّف بين النفي والإثبات والمريب هو الّذي يظنّ به السوء أي: نرجّح في اعتقادنا فساد قولك.

قال صالح: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ يعني قدّروا وافرضوا إن كنت في الحقيقة على حجة ظاهرة ونصرة من ربّي ﴿وَءَاتَىٰنِى﴾ من قبله سبحانه نبوّة فخالفت نبوّته وعصيته فعذّبني من ينصرني منه؟ وإنّما أورد كلامه بحرف الشكّ وهو قوله: «إن كنت» مع أنّهﷺ كان على يقين من أمره لأنّ خطاب المخالف على هذا الوجه أقرب للقبول والإلزام. ثمّ قال في

هذه السورة: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ يعني: تخسرون أعمالي وتبطلونها.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

قد جرت العادة لمن يدّعي النبوّة بأن يأمرهم بعبادة اللّه، ولابدّ أنّ قومه يطلبون منه المعجزة. يروى أنّ قومه خرجوا في عيد لهم فسألوه أن يأتيهم بآية وأن يخرج لهم من صخرة معيّنة أشاروا إليها ناقة فدعا صالح ربّه فخرجت الناقة كما سألوه. وهي كانت معجزة من وجوه: كونها من صخرة، وخلقها من جوف الجبل، ثمّ شقّ عنها الجبل، وحامل من غير ذكر، وخلقها بتلك الصورة من غير ولادة ولها شرب يوم وللقوم كلّهم شرب يوم، ويحصل منها لبن كثير يكفي الخلق العظيم وكلّ واحد من هذه الوجوه معجزة قويّ.

ثمّ قال عليه السلام: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ ورفع عن القوم مؤونتها فصارت تنفع ولا تضرّهم، وكان عليه السلام يخاف من إقدامهم على قتلها بسبب إخفاء هذه المعجزة فلهذا احتاط وقال لهم: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ وتوعّدهم في وقوع مسّ السوء بعذاب قريب ومع ذلك عقروها لإبطال الحجّة ولأنّها ضيّقت الشرب على القوم ورغبوا في شحمها ولحمها. فلمّا عقروها قال: تلذّذوا بالمنافع في دنياكم ثلاثة أيّام من غير كذب واقع بكم العذاب بعد المدّة لا محالة ـ والمصدر يقع بلفظ المفعول كالمجلود والمفتون ـ فلمّا كان اليوم الرابع أتتهم الصيحة والصاعقة.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ أمر العذاب ﴿نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا﴾ والمؤمنين معه بسبب [رحمة منا] للمؤمنين ونجيناهم من الخزي والعار الّذي لزمهم ذلك اليوم وظهر فضيحته ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ الغالب على ما يشاء ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الّذي لا يمتنع عليه شيء ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ قيل: إنّ الله أمر جبرئيل فصاح بهم صيحة فماتوا عندها. ويجوز أنّ الله خلق تلك الصيحة فماتوا عند الصياح فأصبحوا في منازلهم ميّتين واقعين على وجوههم أو قاعدين على ركبهم.

وإنّما قال: ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ لأنّ العذاب أخذهم عند الصباح ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي: كأن لم يكونوا في تلك المنازل قطّ لانقطاع آثارهم بالهلاك إلّا ما بقي من أجسادهم الدالّة على الخزي. ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟﴾ بكفرهم نالوا هذا العذاب، وبعدا لهم.

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

هذه هي القصّة الرابعة في هذه السورة.

قال النحويّون: دخلت «قد» هاهنا لأنّ السامع للقصّة يتوقّع قصّة بعد قصّة و«قد» للتوقّع، ودخلت اللام للتأكيد في الخبر و«رسلنا» جمع وأقلّه

ثلاثة، وكانوا جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وقيل: أربعة والرابع كرّوبيل. وقيل: اثنا عشر بصورة الغلمان الحسنة. ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ والبشارة فأبشره الله بعد ذلك بقوله: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ وقيل: المراد بالبشارة سلامة لوط وبإهلاك قومه.

وأمّا قوله: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ وقرئ «سلم» بكسر السين وبكون اللام بغير ألف قال الفرّاء: لا فرق بين القراءتين كما قالوا: حلّ وحلال لأنّ في التفسير: أنّهم لمّا جاءوا سلّموا عليه. وقيل: المراد بالسلم خلاف العدو والحرب، وعلى قراءة المشهور ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي: سلّمنا عليك سلاماً قال إبراهيم: سلام، تقديره: أمري سلام ولستُ مريداً غير السلامة. أو المراد: سلام عليكم، وحذف الخبر كما حذف من قوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾(١) أجمل ويحسن هذا الحذف إذا كان المقصود معلوماً بعد الحذف ونظيره قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾(٢) على حذف الخبر. واعلم أنّه إنّما سلّم بعضهم على بعض لقوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾(٣) وأكثر ما يستعمل سلام عليكم بغير الألف واللّام. فإن قيل: كيف جاز جعل المبتدأ نكرة. فالنكرة إذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدءاً فالتنكير في هذا الموضع أتمّ وأكمل فكأنّه قيل: سلام كامل شامل تامّ عامّ عليكم نظيره ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾(٤) وأمّا مع الألف واللّام فصحيح كقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾(٥) والمراد مع الألف واللّام الماهيّة

١ـ سورة يوسف: ١٨.

٢ـ سورة الزخرف: ٨٩.

٣ـ سورة النور: ٢٧.

٤ـ سورة يس: ٥٨.

٥ـ سورة طه: ٤٧.

والحقيقة فحينئذ بدون الألف واللام يفيد الكمال والمبالغة، ومع الألف واللام لا يفيد إلّا الماهيّة.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ قالوا: مكث إبراهيم خمس عشرة ليلة لا يأتيه ضيف فاغتمّ لذلك، ثمّ جاءه ملائكة فرأى أضيافاً لم ير مثلهم فجعل فما لبث في المجيء به.

والـ﴿حَنِيذٍ﴾ هو الّذي يشوى في حفرة من الأرض بالحجارة المحماة، وهو من فعل أهل البادية وأصله محنوذ مثل طبخ ومطبوخ: وقيل: الـ﴿حَنِيذٍ﴾ الّذي يقطر دسمه عرقاً ومرقاً. ﴿فَلَمَّا رَءَآ﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ﴾ إلى العجل استنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

أي: أضمر منهم خوفاً. واختلف في سبب الخوف فقيل: إنّه لمّا رآهم شبّاناً أقوياء وكانوا نازلين بطرف من المكان، وامتنعوا من تناول الطعام لم يأمن أن يكون ذلك لبلاء وذلك لأنّ أهل ذلك الزمان إذا أكل بعضهم طعام بعض أمنه صاحب الطعام على نفسه وماله، وكذلك كان يقال: تحرّم فلان بطعامنا أي: أثبت الحرمة بأكله الطعام.

وقيل: إنّ سبب خوف إبراهيم أنّه ظنّ أنّهم ليسوا من البشر وأنّهم جاءوا لأمر عظيم فخاف أن يكون قومه المقصودين بالعذاب حتّى ﴿قَالُواْ﴾ له ﴿لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ بالإهلاك قيل: إنّ إبراهيم ما عرفهم أنّهم الملائكة. وقيل: عرفهم لكن ما عرف أنّهم لأيّ أمر أتوا فكان خوفه من هذه الجهة. والصحيح أنّه ما عرفهم أنّهم من الملائكة. ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ هي سارة بنت آزر بن باحوراً بنت عمّ إبراهيم عليه السلام. وقوله: ﴿قَآئِمَةٌ﴾ من وراء الستر تستمع إلى الرسل. واختلفوا في الضحك: منهم من حمله على نفس الضحك ومنهم من حمل على الطمث أي: حاضت

لشدّة سرورها. وقيل: ضحكت سروراً من البشارة بإسحاق لأنّها قد هرمت وهي ابنة ثمان وتسعين سنة، وكان قد شاخ زوجها وكان ابن تسع وتسعين أو مائة سنة أو مائة وعشرين سنة ولم يرزق لهما ولد في حال شبابهما. فعلى هذا المعنى يكون في الكلام تقديم وتأخير. وتقديره ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ بابن يسمّى إسحاق ومن بعد ﴿إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ ـ قيل: معنى ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ الوراء ولد الولد ـ فضحكت بعد البشارة ﴿قَالَتْ﴾ سارة ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ﴾ ولم ترد بهذه الكلمة الدعاء على نفسها بالويل ولكنّها كلمة تجري على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يتعجّبن ﴿وَهَٰذَا﴾ الّذي تعرفونه ﴿بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ﴾ هذه البشارة لأمر ﴿عَجِيبٌ﴾.

قالت الملائكة لها حين تعجّبت من أن تلد بعد الكبر: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ من أن يفعل بك وبزوجك كذلك وليس هذا موضع تعجّب لأنّ التعجّب إنّما يكون من الأمر الّذي لا يعرف سببه، ونعمة اللّه وكثرة خيراته النامية الباقية عليكم. ويحتمل أن يكون دعاء لهم بالرحمة والبركة من اللّه.

فقالوا: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ كما يقال: أ تتعجّب من هذا بارك اللّه لك أو يرحمك اللّه. روي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام مرّ بقوم فسلّم عليهم فقالوا: وعليك السّلام ورحمة اللّه وبركاته ومغفرته ورضوانه. فقال عليه السلام: **«لا تجاوزوا بنا ما قالت الملائكة لأبينا إبراهيم: «رحمة اللّه وبركاته عليكم أهل البيت»**.[1]

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾ أي: محمود في أفعاله ﴿مَّجِيدٌ﴾ أي: مبتدئ بالعطيّة قبل الاستحقاق أو المعنى واسع القدرة والنعمة. روي أنّ سارة قالت لجبرئيل: ما

١ـ الحدائق الناضرة، ج ٩، ص ٦٧؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٣٠٩.

آية ذلك فأخذ بيده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاخضر.[١]

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾ والخوف والفزع الّذي دخله من الرسل ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالولد ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ أي: يجادل رسلنا ويسألهم عن قوم لوط، وتلك المجادلة أنّه قال لهم: إن كان فيها خمسون من المؤمنين أ تهلكونهم؟ قالوا: لا قال: فأربعون؟ قالوا: لا. فما زال ينقص ويقولون: «لا» حتّى قال: فواحد؟ قالوا: «لا» فاحتجّ عليهم بلوط.

وأعلم أنّ هذه المجادلة من إبراهيم ـ ومقصوده منها التخفيف لهم في حكم العذاب ـ لاحتمال أن يتوبوا لا لكونه ما كان راضياً بقضاء الله ويطلب من الرسل مخالفة أمر الله، والدليل عليه أنّه سبحانه مدحه عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ ولو كان هذا الجدل غير هذا لما ذكر عقيبه ما يدلّ على المدح العظيم أو كانت المجادلة بسبب مقام لوط فيهم.

لمّا رأى وعلم أنّ مجيء الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوّه عليه فلذلك وصفه الله بهذه الصفة ووصفه بأنّه منيب وراجع إلى الله. فقالت الملائكة له: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ﴾ هذه المجادلة لأنه ﴿قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بإيصال العذاب بهم، ولا سبيل إلى دفعه عنهم وآتيهم العذاب لا محالة.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٠٩؛ در المنثور، ج ٣، ص ٣٤٠.

فانطلقوا الرسل من عند إبراهيم إلى لوط ـ وبين القريتين أربع فراسخ ـ ودخلوا عليه على صورة شباب مرد من بني آدم، وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط أنّهم من الملائكة وظنّ أنّهم من الإنس فخاف عليهم خبث قومه وأيضاً ساءه مجيئهم لأنّه ما كان يجد ما ينفقه عليهم وأيضاً ساءه لأنّ قومه منعوه من إدخال الضيف داره.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ الذراع يوضع موضع الطاقة والأصل في معناه أنّ البعير يذرع بيديه في سيره ذرعاً على قدر سعة خطوته فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ومدّ عنقه فيقال: ما لي به ذرع أي: ما لي به طاقة. وقال: إنّ هذا اليوم عصيب عليّ أي: شديد و«العصيب» الشديد في الشرّ خاصّة وأصله من الشدّ قال الراجز:

يوم عصيب يعصب الأبطالا　　　عصب القويّ سلّم الطوالا

وحاصل المعنى: أي: يوم شديد التفّ الشرّ فيه بالشرّ. وإنّما قال ذلك لأنّه لم يعلم أنّهم رسل الله وخاف من قومه أن يفضحوهم.

وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

المعنى: لمّا دخلت الملائكة دار لوط قال الصادق عليه السلام: «جاءت الملائكة لوطاً وهو في ذرعه قرب القرية فسلّموا عليه، ورأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض، فقال لهم: المنزل فتقدّمهم ومشوا خلفه. فقال لوط في نفسه: أيّ شيء صنعت إذا آتي بهم قومي وأنا أعرفهم فالتفت وقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله فقال جبرئيل: هذه واحدة ــ وكان قد قال الله لجبرئيل: لا تهلكهم حتّى يشهد عليهم ثلاث مرّات ــ ثمّ مشى لوط والتفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله. فقال جبرئيل هذه ثنتان. ثمّ مشى فلمّا بلغ باب المدينة التفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله. فقال جبرئيل: هذه الثلاثة. ثمّ دخل ودخلوا معه حتّى دخل منزله فلمّا رأتهم امرأة لوط رأت هيئة حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا فدخّنت ــ وهذه كانت علامة بينهم ــ فلمّا رأوا الدخان أقبلوا يسرعون بعدو وعجلة لطلب الفاحشة».[1]

﴿وَمِن قَبْلُ﴾ قيل معناه: من قبل بعثة لوط إليهم ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الفواحش مع الذكور. ولمّا رأى لوط أنّهم همّوا بأضيافه من قصد السوء وجاهروا بذلك عرض عليهم نكاح بناته. واختلف في ذلك فقيل: أراد نكاح بناته لصلبه. وقيل: أراد النساء من امّته لأنّهنّ كالبنات له فإنّ كلّ نبيّ أبو امّته وأزواجه أمّهاتهم، وكان يجوز في شرعه تزويج المؤمنة من الكافر وكذلك كان يجوز أيضاً في بدو الإسلام، وقد زوّج النبيّ صلى الله عليه وآله بنته من أبي العاص بن الربيع قبل أن يسلم ثمّ نسخ الله ذلك. وقيل: إنّه كان لهم سيّدان مطاعان فيهم فأراد أن يزوّجهما بنتيه اسمهما زعوراء وريثاء.

وقال لهم: ﴿فَٱتَّقُوا۟﴾ من عقابه من هذا العمل الخبيث ولا تلزموني عارا بالهجوم على أضيافي فإنّ الضيف إذا نزل به معرّة لحق عارها للمضيف ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ﴾ وفي جملتكم رجل يعرف الرشد ويعمل به ويزجر هؤلاء عن

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣١٤؛ وانظر: الصافي، ج ٢، ص ٤٦١.

قبح فعلهم. ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ فجاوبوه قومه حين أمر نكاح البنات: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ﴾ من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وتعلم ميلنا إلى الغلمان دون النساء فلمّا رأى لوط أنّ الموعظة لم يقبلوها تأسّف على عدم قدرة دفاعهم بأن قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ ومنعة وجماعة أتقوّى بها عليكم ﴿أَوْ ءَاوِيَ﴾ وأنضمّ إلى عشيرة منيعة تنصرني ولكن لا يمكنني أن أفعل كذلك.

فكابروه حتّى دخلوا البيت فصاح به جبرئيل أن يا لوط دعهم يدخلوا، فلمّا دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قوله: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾. ولمّا رأت الملائكة ما لقيه لوط من قومه ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أرسلنا لهلاكهم فلا تغتمّ به ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ ولا ينالونك بسوء أبداً ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ ليلاً ﴿بِقِطْعٍ﴾. أي: بظلمة من اللّيل أو بعد طائفة من اللّيل، أو نصفه ولا ينظر أحد منكم وراءه، أو المعنى لا يلتفت أحد منكم إلى ماله ومتاعه بالمدينة. وقيل: إنّ معناه أنّهم أمروه أن لا يلتفتوا إذا سمعوا الوجبة والهدّة ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قيل: إنّها التفتت حين سمعت الوجبة فقالت: يا قوماه فأصابها حجر فقتلها. وقيل: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ أي: لا تسر بها ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ أي يصيبها من العذاب ما يصيبهم فأمروه أن يخلفها في المدينة. ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ لمّا أخبرت الملائكة لوطاً بأنّهم يهلكون قومه قال لهم لوط: أهلكوهم الساعة لضيق صدره عليهم فقالوا: إنّ موعد إهلاكهم الصبح ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ وإنّما قالوا هذه الكلمة تسلية له.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلّبنا القرية أسفلها أعلاها فإنّ الله أمر جبرئيل فأدخل جناحه تحت الأرض فرفعها حتّى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثمّ قلبها، ثمّ خسف بهم الأرض يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة.

﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ على القرية على الغائبين منها ﴿حِجَارَةً﴾ وقيل: مطرت الحجارة على تلك القرية حين رفعها جبرئيل وإنّما أمطرت عليهم الحجارة بعد أن قلّبت قريتهم تغليظاً للعقوبة. وقيل: كانت أربع مدائن وهي المؤتفكات: سدوم، وعاموراً، وذادوماً، وصبوايم وأعظمها سدوم كان يسكنها لوط وهي الأربعة كانت من الشامات. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي «تجارة وطين» المتصلّب بمرور الزمان. وقيل: «السجّيل» موضع الحجارة وهي جبال مخصوصة، ومنه قوله: ﴿جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾[1] ﴿مَّنضُودٍ﴾ والنضد وضع الشيء بعضه على بعض فعلى هذا يمكن أنّه سبحانه كان قد خلقها في معادنها ونضد بعضها فوق بعض وأعدّها لإهلاك الظالمين و﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: معلمة بعلامة كان عليها أمثال الخواتيم قال أبو صالح: رأيت منها عند امّ هاني حجارة فيها خطوط حمر على هيئة الجزع وقيل: مكتوب على كلّ حجر اسم من رمي به.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني: به كفّار مكّة عن أنس أنّه قال: سأل رسول اللهﷺ جبرئيل عن هذه فقال: يعني عن ظالمي امّتك ما من ظالم منهم إلّا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة[2]، أراد بذلك إرهاب قريش. وقال قتادة: ما أجار الله منها ظالماً بعد قوم لوط فكونوا منها على حذر. وذكر أنّ حجراً بقي معلّقا بين السماء والأرض أربعين يوماً يتوقّع به رجلاً من قوم لوط كان في الحرم حتّى خرج منها فأصابه. قال بعض المفسّرين: وكانوا أربعة آلاف ألف.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ

١ـ سورة النور: ٤٣.

٢ـ التفسير الصافي، ج ٢، ص ٤٦٣.

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

هذه هي القصّة السادسة في هذه السورة.

«مدين» اسم لابن إبراهيم، ثمّ صار اسما لقبيلة ثمّ صار اسماً لمدينة بناها مدين ابن إبراهيم عليه السلام وعادة الأنبياء كلّهم أن يشرعوا في أوّل الأمر بالدعوة إلى التوحيد.

المعنى: [وَ] أرسلنا ﴿إِلَىٰ﴾ أهل ﴿مَدْيَنَ أَخَاهُمْ﴾ ونسيبهم لأنّ شعيباً ابن ميكيل بن يشجر بن مدين جدّهم، وكان يقال له: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته وخطابته قومه. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾. ثمّ شرع في الأهمّ من الدعوة لأنّ المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان فدعاهم إلى ترك هذه العادة فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ والنقص فيه على وجهين: أحدهما: الإيفاء من قبلهم فينقصون من قدره والآخر أن يكون لهم الاستيفاء فيأخذون أزيد من المقدار، وفي القسمين النقص في حقّ الغير. ثمّ قال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: إذا لم تتركوا هذه العادة أراكم بزوال الخير والنعمة عنكم، أو المعنى أنّي أراكم بالخير الكثير والخصب فلا حاجة لكم بالتطفيف، وأنّي أخاف عليكم عذاباً

يحيط بكم بحيث لا يخرج أحد منه، و«المحيط» في الظاهر صفة اليوم وفي المعنى صفة العذاب. ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ وهذا الكلام الأوّل فما الفائدة في هذا التكرار؟ لأنّ القوم كانوا مصرّين على هذا العمل فاحتيج إلى التأكيد والمبالغة في المنع، وأمّا قوله تعالى ثالثاً: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ ليس بتكرير لأنّه تعالى نهى في المرّة الأولى عن التطفيف والتنقيص، وفي الآية الثانية أمر بالإيفاء على سبيل الكمال والتمام حتّى أنّه لا يحصل ذلك باليقين القطعيّ إلّا إذا أعطى قدراً زائداً على الحقّ لحصول البراءة، وفي الآية الثالثة النهي عن التنقيص في كلّ الأشياء: لأنّ في العنوانين خصّوا بالمكيال والميزان، وفي الثالثة عمّ الأشياء فحينئذ لا تكرار. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ فإن قيل: «العثو» الفساد التامّ فقوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ جار مجرى قوله: ولا تفسدوا في الأرض مفسدين؟ المراد من هذا البيان أنّ في البخس والتطفيف وعبادة غير الله فساد دينكم ودنياكم. ثمّ قال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ وقرئ «تقيَة الله خير لكم» أي: تقواه خير لكم، المراد: ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير من البخس والتطفيف أي: مال الحلال يبقى لكم من تلك الزيادة من التطفيف الحرام وحظّكم من ربّكم خير لكم فإن حملنا البقيّة من موادّ امور الدنيويّة فواضح فإنّ الناس إذا عرفوا الإنسان بالأمانة والبعد عن الخيانة اعتمدوا عليه ورجعوا في المعاملات إليه فيفتح باب الرزق عليه، كما أنّه إذا عرفوه بالخيانة والتطفيف انصرفوا عنه فتضيق أبواب النعمة والرزق عليه، وأمّا إذا حملنا هذه البقيّة على الأمور الاخرويّة من ثواب الله فالأمر ظاهر لأنّ كلّ الدنيا يفنى وينقرض وثواب الله باق. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بالله ومقرّين بالثواب والعقاب ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ أي إنّي نصحتكم وأرشدتكم إلى

الخير، ولا قدرة لي على منعكم، أو المعنى ما أنا بحافظ نعم اللّه عليكم إذا أراد أن يزيلها عنكم بمعصيتكم إيّاه فاطلبوا بقاء نعمته بطاعته، أو المعنى ما أنا بحافظ كيلكم ووزنكم حتّى توفّوا الناس حقوقهم ولا تظلموهم، وإنّما عليّ أن أنهاكم عنهم. ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ وإنّما قالوا ذلك لأنّ شعيباً كان كثير الصلاة وكان يقول: إنّ الصلاة رادعة عن الشرّ ناهية عن الفحشاء والمنكر. فقالوا: أ صلاتك الّتي تزعم أنّها تأمر بالخير وتنهى عن الشرّ أمرتك بهذا الأمر؟ ودينك يأمرك بترك دين السّلف؟ وكنّي عن الدين بالصلاة لأنّها من أجلّ امور الدين وإنّما قالوا ذلك على وجه الاستهزاء وأنّها كانت ضحكة لهم حين كان يصلّي [أو أنّ نترك] فعل ما نشاء في أموالنا من البخس والتطفيف ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ وإنّهم قالوا هذا القول على وجه الهزء والتهكّم وأرادوا به ضدّ ذلك أي: السفيه الغاوي كما يقال للبخيل: لو رآك حاتم لسجد لك.

وقيل: إنّهم قالوا ذلك على وجه التحقيق أي: إنّك الحليم في قومك ولا تعاجل العقوبة لمستحقّها ومعروف عند الناس بالحكم والرشد ومع ذلك كيف تنهانا عن دين أسلافنا وطريقة آبائنا؟ ويستبعد منك من حلمك ورشدك هذا الأمر. قال شعيب: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه فحوى الكلام والمعنى: أ تقولون في شاني ما تقولون، ونظمتوني في سلك السفهاء والغواة وحسبتم ما صدر عنّي من الأوامر من قبيل ما لا يصلح أن يتفوّه به عاقل وجعلتموه من أقسام السفه والجنون واستهزأتم بي حتّى قلتم ما قلتم؟ فأخبروني إن كنت على بيّنة ﴿مِّن﴾ جهة ﴿رَّبِّي﴾ ثابتا على النبوّة والحكمة ورزقني بذلك رزقاً حسناً هل تقولون ما تقولون أيضاً؟ أو المعنى: أخبروني إن كنت على بيّنة ومعجزة ممّا

آتاني الله من العلم والهداية والنبوة ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ ـ لأنه كانعليه السلام كثير المال ـ فهل ينبغي ويجوز لي مع هذا الإنعام العظيم أن أخون في وحيه وأخالفه في أمره ونهيه؟

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ أي: أسبقكم إلى شهواتكم الّتي نهيتكم عنها وأريد أن أدخل فيه وإنّما أختار لكم ما أختاره لنفسي وما أقصد بخلافكم إلى ارتكابه. قال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيماً

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ﴾ ولست أريد إلّا إصلاح دينكم ودنياكم ما قدرت عليه وتمكّنت منه، وليس توفيقي إلّا بالله فلا يوفّق غيره بل بمعاونته سبحانه ونصرته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وتقديم الخبر يفيد الحصر أي: لا ينبغي لأحد أن يتوكّل على أحد إلّا الله فأعظم مراتب معرفة المبدأ هو الله جلّ ذكره.

وأمّا قوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إشارة إلى معرفة المعاد وهو أيضاً يفيد الحصر وكان رسول اللهصلى الله عليه وآله إذا ذكر شعيبعليه السلام قال: «**ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته في قومه**».[1]

وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ
هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ
كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ
وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٢٣؛ وبحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٧٦؛ وتاريخ الطبري، ج ١، ص ٢٢٩.

مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

المعنى: «جرم» مثل كسب يتعدى إلى مفعول واحد وإلى مفعولين، والمراد أنّه قال لقومه: لا تكسبنّكم معاداتكم إيّاي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ عذاب الاستيصال في الدنيا ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من عذاب الغرق، ولقوم هود عن الريح العقيم، ولقوم صالح من الرجفة، ولقوم لوط من الخسف.

وأمّا قوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ المراد إمّا نفي البعد في المكان لأنّ قوم لوط قريبة من مدين، وإمّا نفي البعد في الزمان لأنّ إهلاك قوم لوط أقرب الإهلاكات زماناً من زمان شعيب فكأنّه قال: اعتبروا بأحوالهم واحذروا مخالفة الله ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ عن عبادة الأوثان ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ بأوليائه ﴿وَدُودٌ﴾ محبّ لعباده. ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ لأنّهم كانوا لا يلقون إليه أفهامهم لشدّة نفرتهم عن كلامه، أو أنّهم فهموه ولكنّهم ما أقاموا له وزناً فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بكلامه: ما أدري ما تقول. والمراد من الفقه الفهم أي: ما نفهم ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قيل: ضعيف البصر. وقيل: ضعيف البدن.

وقيل: أعمى ـ وكان أعمى ـ وحمير سمّى المكفوف ضعيفاً كما قيل: ضرير أي: ضرّ ببصره. وقيل: معنى «ضعيفاً» أي: مهيناً. واختلف في أنّ النبيّ هل يجوز أن يكون أعمى: قيل: لا، لأنّه يوجب النفرة. وقيل: يجوز كسائر الأمراض.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي: ولولا حرمة عشيرتك وقومك لقتلناك بالحجارة،

وقيل: لشتمناك وسببناك ولم ندع قتلك لعزّتك علينا، ولكن لأجل عشيرتك. وكان شعيب في عزّ من قومه وكان من أشرافهم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أ عشيرتي وقومي أعظم حرمة عندكم من الله فتتركون أذاي لأجل قومي واتّخذتم الله وراء ظهوركم ونسيتموه؟ والضمير إلى الله أو إلى ما جاء به شعيب ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ محص أعمالكم وخبير بها. ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ وحالتكم هذه و«المكانة» الحالة الّتي يتمكّن بها صاحبها من عمل ـ وهذا تهديد في صورة الأمر ـ أو المعنى: اعملوا أنتم على ما تقولون وأنا أعمل على ما أقول كقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[1] وفيه دلالة على يأسه من قومه فـ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيّنا المخطئ وأيّنا الجاني على نفسه وتبيّن لكم عاقبة الأمر ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ يهينه و﴿يُخْزِيهِ﴾ ويظهر الصادق من الكاذب، وانتظروا ما وعدكم ربّكم من العذاب، إنّي معكم من المنتظرين.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صاح بهم جبرئيل صيحة فماتوا ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى﴾ دارهم ملازمين مكانهم باركين على ركبهم لا يتحوّلون عن أمكنتهم. وإنّما ذكر «الصيحة» بالألف واللام إشارة إلى المعهود السابق وهي صيحة جبرئيل في قوم صالح، فزهق روح كلّ واحد منهم بحيث وقعوا في مكانهم ميّتين كأن لم يقيموا في ديارهم وما كانوا أحياء أبداً. فبعداً بعداً لهم كما لثمود.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

١ـ سورة الجحد (كافرون): ٦.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣)﴾

هذه هي القصّة السابعة من القصص في هذه السورة.

والمراد بالآيات التوراة مع ما ضمّها من الشرائع والأحكام ومن السلطان المبين المعجزات الظاهرة والتقدير: ولقد أرسلنا موسى بشرائع وتكاليف وأيّدناه بمعجزات باهرة له على صدق نبوته، وهي تسع آيات: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، ونقص من الثمرات والأنفس ـ ومنهم من أبدل بإظلال الجبل ـ والتاسع فلق البحر.

والحجّة سمّيت بالسلطان لأنّ صاحب الحجّة يقهر من لا حجّة له كما يقهر السلطان غيره، قيل: إنّ اشتقاق السلطان من السليط ما يضاء به، ومن هذا قيل للزيت السليط، ومن هذا المعنى يقال للسلطان: «ظلّ الله في الأرض» وقيل: إنّ السلطان مشتقّ من التسليط، والعلماء سلاطين بسبب كمال قوّتهم العلميّة، والملوك سلاطين بسبب تسلّطهم بقدرتهم. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وجماعته من الأشراف ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ الملأ والناس ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ وتركوا أمر الله ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ﴾ بهاد لهم إلى رشد ولا قائد إلى خير إنّ فرعون ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ ويمشي بين يدي قومه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ على قدميه حتّى هجم بهم على النار كما تقدّمهم في الدنيا ويدعوهم إلى النار

﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أتى بلفظ الماضي والمراد المستقبل لأنّ ما عطفه عليه من قوله: «يقدم قومه» يدلّ عليه. ﴿وَبِئْسَ﴾ الماء الّذي يردونه عطاشاً لإحياء نفوسهم النار. وإنّما أطلق سبحانه على النار اسم «الورد المورود» ليطابق ما يرد عليه أهل الجنّة من الأنهار والعيون. وقيل: معناه بئس الشيء الّذي يرده النار، وبئس النصيب المقسوم لهم النار. وإنّما أطلق لفظ «بئس» وإن كان عدلاً حسناً لما فيه لهم من البؤس والشدّة. ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ والحقوا في الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ وهي الغرق ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بإبعادهم عن الرحمة وورود العذاب. وقيل: معناه أتبعهم الله في الدنيا لعنة وأتبعهم الأنبياء والمؤمنون بالدعاء عليهم باللعنة ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ بئس العطاء المعطى النار واللعنة. وإنّما سمّاه رفدا لأنّه في مقابلة ما يعطى أهل الجنّة من أنواع النعيم. قال قتادة: ترافدت عليهم لعنتان من الله: لعنة الدنيا ولعنة الآخرة. قال ابن عبّاس والضحّاك: اللعنتان اللتان أصابتهما رفدت إحداهما الاخرى. ﴿ذَٰلِكَ﴾ النبأ الّذي ذكرناه ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ﴾ أي: من أخبار البلاد ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ ونذكره لك تسلية لخاطرك ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ أي: من تلك البلاد معمور ومنها ﴿وَحَصِيدٌ﴾ وخراب قد أتى عليه الإهلاك ولم يعمر فيما بعد واندرس أثره كالشيء المحصود. وقيل: المعنى: منها قائم أصولها ينظرون إليها، وحصيد قد هلك وباد أهلها. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بأن كفروا وارتكبوا ما استحقّوا به الهلاك فما أغنتهم ونفعتهم ﴿آلِهَتُهُمُ﴾ وأوثانهم ﴿الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من فائدة ﴿لَّمَّا جَاءَ﴾ عذاب ربّك، أو ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بإهلاكهم لم يزيدوا تلك الأصنام إيّاهم غير الهلاك والخسار. وإنّما أضاف الهلاك إلى الأصنام لأنّها السبب في ذلك ولو لم يعبدوها لم يهلكوا. وإنّما قال: ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ لأنّهم كانوا يسمّونها آلهة ويطلبون

الحوائج منها كما يطلبها الموحّدون من الله. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي: كما فعل بأمم من تقدّم من الأنبياء لمّا خالفوا الرسل وردّ عليهم من عذاب الاستيصال، بيّن أنّ عذابه ليس مقتصرا على من تقدّم بل الحال في أخذ كلّ الظالمين كذلك. ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ الضمير بحسب الظاهر عائد إلى القرى ولكنّ المراد أهلها ونظائره كثيرة كقوله: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةً﴾.[1] ثمّ أكّد سبحانه هذا البيان بقوله: ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ﴾ ربّك ﴿أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ وشرح بأن لا ينبغي أن يظنّ أحد أنّ هذه الأحكام مختصّة بأولئك المتقدّمين لأنه تعالى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ فحكم بأنّ من شاركهم في فعل ما لا ينبغي فلابدّ وأن يشاركهم في ذلك الأخذ الشديد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ أي: إنّ في ما قصصنا عليك من إهلاك الجماعة تبصرة عظيمة لمن خشي عقوبة الله يوم القيامة. وخصّ الخائف بذلك لأنّه هو الّذي ينتفع به بالتدبر. ويوم الآخرة يوم يجمع له الناس وفيه الناس كلّهم الأوّلون والآخرون منهم للجزاء والحساب. والهاء راجعة إلى اليوم ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ يشهده الجنّ والإنس وأهل السماء والأرض، وفي هذا دلالة على إثبات المعاد وحشر الخلق.

وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴿١٠٨﴾

١ـ سورة الأنبياء: ١١.

المعنى: أخبر سبحانه عن اليوم المشهود فقال: [وما نؤخّر] هذا اليوم ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ﴾. قد عدّه الله لعلمه أنّ صلاح الخلق في إدامة التكليف عليهم إلى ذلك الوقت وإنّما قال: «لأجل» ولم يقل: «إلى أجل» لأنّ اللام تدلّ على الغرض، وأنّ الحكمة اقتضت تأخيره، وكلمة «إلى» لا تدلّ على ذلك. ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ القيامة والجزاء لا يتكلّم أحد إلّا بأمره وإذنه لأنّ الخلق ملجؤون هناك إلى ترك القبائح. والمراد أنّه لا يتكلّم أحد في الآخرة بكلام نافع من شفاعة ووسيلة إلّا بإذنه.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[1] وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[2] وفي موضع آخر ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[3] وهل هذا إلّا التناقض؟

فالجواب أنّ يوم القيامة يشتمل على مواقف عديدة قد اذن لهم في الكلام في بعض تلك المواضع ولم يؤذن لهم في بعض المواضع.

ويوم يأتي الأمر الهائل المهيب المستعظم أي القيامة. قال صاحب «الكشّاف»: فاعل يأتي «الله». وهذا غير صحيح لأنّه قاس على قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا﴾[4] والكلام فيهما نقول في هذه نقول في تلك لأنّه إذا تأوّل قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وجاء أمر ربّك مع صراحة الفاعل ففي هذه الآية بطريق أولى. والّذي أوجب لصاحب «الكشّاف» هذا القول قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾[5] والحال أنّه حكى الله هذه الآية عن أقوام

١ـ سورة المرسلات: ٣٥ ـ ٣٦.

٢ـ سورة الرحمن: ٣٩.

٣ـ سورة الصافات: ٢٤.

٤ـ سورة الفجر: ٢٢.

٥ـ سورة البقرة: ٢١٠.

وهم اليهود، وإسناد الفعل إلى الله غلط.

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ إخبار من الله بأنّهم قسمان: أشقياؤهم المستحقّون للعقاب، وسعداؤهم المستحقّون للثواب والشقيّ من شقي بسوء عمله في معصية الله، والسعيد من سعد بحسن عمله في طاعة الله. والضمير في قوله: «فمنهم» راجع إلى المجتمعين من الناس والمكلّفين. وقيل: راجع إلى النفس والمعنى واحد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ باستحقاقهم العذاب داخلون في النار، وأمّا ما روي عنه ﷺ أنّه قال: **«الشقيّ من شقي في بطن أمّه والسعيد سعيد في بطن امه»**[1] فإنّ المراد بذلك أنّ المعلوم من حاله أنّه سيشقى بارتكاب القبائح الّتي تؤدي إلى النار كما في السعيد، كما يقال لابن الشيخ الهرم: إنّه يتيم أي سييتم.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ «الزفير» و«الشهيق» أصوات المكروبين المحزونين و«الزفير» من شديد الأنين بمنزلة ابتداء صوت الحمار. و«الشهيق» الأنين المرتفع جداً بمنزلة آخر صوت الحمار. وعلى قول الأطبّاء الزفير استدخال الهواء الكثير والشهيق استخراج الهواء الكثير عند انحصار الطبيعة. عن ابن عبّاس: يريد ندامة ونفساً عالياً وبكاء لا ينقطع ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في النار ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾. اختلف العلماء في تأويل هاتين الفقرتين ـ وهما من المواضع المشكلة في القرآن ـ فيه من وجهين أحدهما: تحديد الخلود بمدّة دوام السماوات والأرض، والآخر معنى الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فالأول فيه أقوال:

أحدها: أنّ المراد ما دامت السماوات والأرض مبدّلتين أي: ما دامت سماء الآخرة وأرضها وهما لا ينفيان إذا أعيداً بعد الإفناء.

١ـ الكافي، ج ٨، ص ٨١.

وثانيها: أنّ المراد ما دامت سماوات الجنّة والنار وأرضهما وكلّ ما علاك فأظلّك فهو سماء وكلّما أقلّك واستقرّ عليه قدمك فهو أرض وهذا قريب من قوله الأوّل. وثالثها: أنّه لا يراد به السماء والأرض بعينها، بل المراد التبعيد فإنّ للعرب ألفاظاً في معنى التأبيد يقولون: لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار وما دامت السماء والأرض وما نبت النبت وما أطّت الإبل وما درّ شاق، وأشباه ذلك ظنّاً منهم أنّ هذه الأشياء لا يتغيّر ويريدون منه التأبيد لا التوقيت، قال عمرو بن معد يكرب:

وكـــلّ أخ يفارقـــه أخـــوه لعمر أخيـك إلّـا الفرقـدان[1]

وأمّا الكلام في الاستثناء ففيه أقوال:

أحدها: أنّه استثناء في الزيادة من العذاب لأهل النار والزيادة من النعيم لأهل الجنّة والتقدير: إلّا ما شاء ربّك من الزيادة على هذا المقدار كما يقول الرجل لغيره: لي عليك ألف دينار إلّا الألفين اللذين أقرضتكهما وقت كذا فالألفان زيادة على الألف بغير شكّ لأنّ الكثير لا يستثنى من القليل فحينئذ يكون «إلّا» بمعنى سوى أي: سوى ما شاء ربّك فحينئذ يكون المعنى: إنّهم يكونون في النار في جميع مدّة بقاء السماوات والأرض فذكر أوّلاً في خلودهم ما ليس في العرب أطول منه ثمّ زاد عليه الدوام الّذي لا آخر له بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي سوى ما شاء ربّك من الزيادة الّتي لا آخر لها.

الثاني: أنّ الاستثناء واقع على مقامهم في المحشر والحساب لأنّهم حينئذ ليسوا في جنّة ولا نار وكذلك مدّة كونهم في البرزخ الّذي هو بين الموت والحياة الثانية لأنّه تعالى لو كان قائلاً: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ولم يستثن لكان يظنّ ظانّ أنّهم يكونون في النار أو الجنّة من لدن انقطاع التكليف

١ـ المغني، ابن قدامة، ج ٤، ص ٣٠٠؛ والبتيان، ج ٦، ص ٦٩

فحصل للاستثناء فائدة ولا ينافي الدوام فحينئذ هذا الاستثناء قبل الدخول فيها لا بعدها.

الثالث: أن يكون المراد بالّذين شقوا جميع الداخلين إلى جهنّم ممّن ادخل فيها من أهل التوحيد الّذين ضمّوا إلى إيمانهم وطاعاتهم ارتكاب المعاصي فقال: إنّهم يعاقبون في النار إلّا ما شاء ربّك من إخراجهم إلى الجنّة فاستثنى هؤلاء الموصوفين بهذه الصفة ممّن لم يستحقّ الخلود الأبديّ لإيمانه فتقدير الآية: إلّا من شاء ربّك أن يخرجه بتوحيده من النار. فحينئذ يكون «ما» بمعنى «من» قالت العرب عند سماع الرعد: سبحان ما سبّحت له. وأمّا في أهل الجنّة فكذلك فهو استثناء من خلودهم أيضاً لما ذكرناه لأنّ من ينقل إلى الجنّة من النار وخلّد فيها لابدّ في الإخبار عنه بتأبيد خلوده من استثناء ما تقدّم فكأنّه قال: خالدين فيها إلّا ما شاء ربّك من الوقت الّذي أدخلهم النار فيه قبل أن ينقلهم إلى الجنّة «فما» في قوله: ﴿مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هاهنا على بابه والاستثناء من الزمان.

وروى أبو روق عن الضحّاك عن ابن عبّاس قال: الّذين شقوا ليس فيهم كافر وإنّما هم من أهل التوحيد يدخلون النار بذنوبهم، ثمّ يتفضّل اللّه عليهم فيخرجهم من النار إلى الجنّة فيكونون أشقياء في حال سعداء في حال اخرى.

الرابع: أنّ المعنى خالدون في النار، دائمون فيها مدّة كونهم في القبور ما دامت السماوات والأرض في الدنيا، وإذا فنيتا وعدمتا انقطع عذابهم إلى أن يبعثهم اللّه للحساب فقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ استثناء وقع على ما يكون في الآخرة، أورده الشيخ أبو جعفر قدّس اللّه سرّه، وقال: ذكره قوم من أصحابنا في التفسير.

الخامس: أنّ المراد إلّا ما شاء ربّك أن يتجاوز سبحانه عنهم فلا

يدخلهم النار، وقدّر الاستثناء لأهل التوحيد عن أبي مجلز قال: هي جزاؤهم وإن شاء تجاوز عنهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟﴾ بطاعة الله وانتهائهم عن المعاصي ﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: مدة دوام السماوات والأرض ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ يتأتى فيه جميع الأقوال الّتي قلنا في الاستثناء من الخلود في النار إلّا مسألة الخروج من الجنّة فإنّ إجماع الامّة انعقد على أنّ من دخل الجنّة لا يخرج منها ﴿عَطَآءً غَيْرَ﴾ مقطوع.

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

﴿فَلَا تَكُ﴾ في شكّ ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من دون الله إنّه باطل، وإنّ مصيرهم إلى النار ولا يكون داعي عبادتهم دون الله إلّا التقليد وإنّما اتّبعوا آباءهم، وإنّا لمعطوهم جزاء أعمالهم وعقابهم وافياً من غير نقيصة عن مقدار ما استحقّوا. وقيل: معناه إنّا نعطيهم ما استحقّوه من العذاب بعد أن حكمنا لهم به من الخير في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ وأعطينا ﴿مُوسَى﴾ التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ يريد أنّ قومه اختلفوا في صحّة الكتاب الّذي انزل عليه، وأراد سبحانه بذلك البيان تسلية النبيّ عن تكذيب قومه إيّاه وجحدهم للقرآن ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾

أي لولا قضاء الله السابق بأنّه يؤخّر العذاب والجزاء إلى يوم القيامة، أو يكون المعنى: لولا كلمة «سبقت رحمتي غضبي» لعجّل الثواب والجزاء لأهله. وفصّل بين المؤمنين والكافرين بنجاة هؤلاء وهلاك هؤلاء، وإنّ الكافرين ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ من القرآن ووعد الله ووعيده ﴿مُرِيبٍ﴾ والريب أقوى الشكّ ومعنى «مريب» أي: موقع في الريبة. ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ وكلمة «لمّا» مركّبة من «من» الجارّة و«ما» الموصولة فقلبت «النون» «ميماً» للإدغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت أولاهنّ واللام الأولى موطّئة للقسم، والثانية في قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ جواب للقسم المحذوف، والتنوين في «كلّا» عوض عن المضاف إليه أي: وإنّ كلّ الفريقين المؤمنين والكافرين لمن الّذين ليوفّينّهم ربّك. وقرئ «لما» بالتخفيف على أنّ ما مزيدة للفصل بين اللامين، والمعنى: وإنّ جميعهم والله ليوفّينّهم أجزية أعمالهم إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. وقرئ «لمّا» بالتنوين أي: لمّا وجمعا كقوله سبحانه: ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ وقرأ أبو عليّ أنّ معنى «إن» النافية ومعنى «لمّا» بمعنى «إلّا» وحاصل المعنى أنّ من عجّلت عقوبته أو اخّرت ومن صدّق الرسل أو كذّب فحالهم سواء في جزاء أعمالهم.

قال بعض الفضلاء: إنّ في هذه الآية سبعة أنواع من التوكيدات في الدلالة على الحشر والجزاء: أوّلها: كلمة «إنّ» وهي للتأكيد. وثانيها: كلمة «كلّ» وهي للتأكيد. وثالثها: «اللام» الداخلة على خبر «إنّ» وهي تفيد التأكيد أيضاً. ورابعها: حرف «ما» إذا جعلناه موصولاً على قول الفرّاء. وخامسها: القسم المضمر فإنّ تقديره: وإنّ جميعهم والله ليوفّينّهم.

وسادسها: «اللام» الثانية الداخلة على جواب القسم. وسابعها «النون» المؤكّدة في قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ وهذه الكلمة كلمة جامعة في كلّ ما يتعلّق

بالعقائد والأعمال سواء كان مختصاً به أو كان متعلّقاً بالأمّة. قال ابن عبّاس: ما نزلت على رسول اللّهﷺ آية أشدّ على رسول اللّه من هذه الآية في تمام القرآن ولهذا قالﷺ: «**شيّبتني هود وأخواتها**».[1] ولا شكّ أنّ البقاء والمواطئة على الاستقامة الحقيقيّة مشكل جدّاً ومن هذا المعنى تبيّن لك سبب خوف الأنبياء والأولياء فالسبب في غشوات أمير المؤمنين في كلّ ليلة سبعين مرّة يتّضح لك فتأمّل. وهذه الآية وهي ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أصل عظيم في الشريعة وذلك لأنّ القرآن لمّا ورد بالأمر بأعمال الوضوء مرتّبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها لقوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ وكذلك مثلاً ورد الأمر بالزكاة بأداء الإبل من الإبل والبقر من البقر وجب اعتبارها، وفي كلّ ما ورد أمر اللّه به. ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ «ومن» في محلّ الرفع وعطف على الضمير المستتر في قوله: «فاستقم» أي: فاستقم أنت ومن تاب معك يعني أنت وهم لأنّ التائب عن الفسق والكفر يصحّ منه الاستقامة. ثمّ قال: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ أي: لا تجاوزوا ما أمرتم به وتعيّن لكم «والطغيان» تجاوز المقدار فتحلّوا حرامه وتحرّموا حلاله ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بَصِيرٞ﴾ بأفعالكم.

وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

والركون هو السكون إلى الشيء والميل إليه بالمحبّة ونقيضه النفور. أي: ولا تميلوا إلى المشركين في شيء من دينكم عن ابن عبّاس. وقيل: معناه لا يداهنوا الظلمة عن السدّيّ وجماعة. وقيل: إنّ الركون إلى الظالمين المنهيّ عنه هو الدخول معهم في ظلمهم وإظهار الرضا بفعلهم وإظهار موالاتهم. وقريب

ـــــــــــــــ

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٣٩.

من هذا المعنى ما روي عنهم عليهم السلام أنّ الركون المودّة والنصيحة والطاعة.[1]

﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ فيصيبكم عذاب النار أي: إنّكم ركنتم إليهم فهذه عاقبة الركون وليس لكم أولياء يخلّصوكم من عذابه ولا تجدون من ينصركم فإذا كان الركون إلى الظالم موجب مس النار فكيف إذا كان ظالماً هو؟ فحينئذ أولى بمسّ النار.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٤) وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدّها وأت بأعمالها على وجه التمام في فروضها. وقيل: أدم على فعلها، والمراد من ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ صلاة الفجر والمغرب و«بزلف الليل» صلاة العشاء الآخرة و«الزلف» أوّل ساعات الليل. قالوا: وترك ذكر الظهر والعصر إمّا لظهورهما في أنّهما صلاتا النهار فكأنّه قال: وأقم الصلاة طرفي النهار مع المعروفة من صلاة النهار. وإمّا لأنّهما مذكورتان على التبع للطرف الآخر لأنّهما بعد الزوال فهما أقرب إليه وقد قال سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾[2] ودلوك الشمس زوالها، وهذا القول هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام.[3] وقيل: صلاة طرفي النهار الغداة والظهر والعصر، وصلاة زلف الليل المغرب والعشاء الآخرة. قال

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٤٤؛ ومصباح المنهاج، ص ٢٨٠؛ ونور الثقلين، ج ٢، ص ٤٠١.

٢ـ سورة الإسراء: ٨٠.

٣ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٤٤.

الحسن: قال رسول الله ﷺ: «**المغرب والعشاء زلفتا الليل وقيل: أراد بطرفي النهار صلاة الفجر وصلاة العصر**». ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قيل في معناه: إنّ الصلاة الخمس تكفّر ما بينها من الذنوب لأنّه عرّف الحسنات بالألف واللام. وذكر الواحديّ بإسناده معنعناً عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان تحت شجرة فأخذ غصناً يابساً منها فهزّه حتّى يتحاتّ ورقه، ثمّ قال: يا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعله؟

قال: إنّ المسلم إذا توضّأ وأحسن الوضوء ثمّ صلّى الصلاة الخمس تحاتت خطاياه كما يتحاتّ هذا الورق ثمّ قرأ هذه الآية. وبإسناده عن أبي أمامة قال: بينما رسول الله في المسجد ونحن قعود معه إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله إنّي أصبت حدّاً فأقمه عليّ فقال: «**هل شهدت الصلاة معنا؟**» قال: نعم يا رسول الله قال: «**فإنّ الله قد غفر لك حدّك (أو قال: ذنبك)**».[١]

وبإسناده عن الحرث عن عليّ بن أبي طالب قال: «**كنّا مع رسول الله ﷺ في المسجد ننتظر الصلاة فقام رجل فقال: يا رسول الله إنّي أصبت ذنباً فأعرض عنه، فلمّا قضى النبيّ الصلاة قام الرجل فأعاد القول، فقال النبيّ ﷺ: أليس صلّيت معنا هذه الصلاة وأحسنت لها الطهور؟**» قال: بلى قال: «**فإنّها كفّارة ذنبك**».[٢]

ورووا عن أبي حمزة الثماليّ قال: سمعت أحدهما عليهما السلام يقول: «**إنّ عليّاً عليه السلام أقبل على الناس فقال: أيّ آية أرجى عندكم في كتاب الله؟ فقال بعضهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾[٣] فقال: حسنة وليست إيّاها، وقال بعضهم: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾[٤] قال: حسنة وليست إيّاها، وقال بعضهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ**

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٤٥؛ ونيل الاوطار، ج ٧ وص ٢٦٧،ج ٢٢، ص ٤١٩.

٢ـ الميزان، ج ١١، صه ٦٧.

٣ـ سورة النساء: ٤٨ و١١٦.

٤ـ سورة النساء: ١١٠.

﴿ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾[١] قال: حسنة وليست إيّاها، وقال بعضهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ...﴾[٢] قال: حسنة وليست إيّاها. قال: ثمّ أحجم الناس فقال: ما لكم يا معشر المسلمين؟ فقالوا: لا والله ما عندنا شيء قال: سمعت حبيبي رسول الله ﷺ يقول: أرجى آية في كتاب الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ وقرأ الآية كلّها، ثمّ قال: يا عليّ والّذي بعثني بالحقّ بشيراً ونذيراً إنّ أحدكم ليقوم من وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفتل وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أمّه. فإن أصاب شيئاً بين الصلاتين كان له مثل ذلك حتّى عدّ الصلاة الخمس، ثمّ قال: يا عليّ إنّما منزلة الصلاة الخمس لأمّتي بمنزلة النهر الجاري على باب أحدكم فما يظنّ أحدكم لو كان في جسده درن ثمّ اغتسل في ذلك النهر خمس مرّات في كلّ يوم وليلة، أ كان يبقى في جسده درن؟ فكذلك والله الصلاة الخمس لأمّتي».[٣]

وقيل: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ معناه أنّ الدوام على فعل الحسنات يدعو إلى ترك السيّئات. وقيل: المراد بالحسنات التوبة فإنّها يذهب بالسيّئات وتسقط عذابها. ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ يعني ما ذكره من أنّ الحسنات يذهبن بالسيّئات في هذا البيان تذكار وموعظة لمن تذكّر به. ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ أي اصبر على الصلاة كما قال: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾[٤] وقيل: معناه: اصبر يا محمّد على أذى قومك وتكذيبهم إيّاك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾ عمل ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. وقيل: معنى المحسنين هاهنا المصلّين.

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا﴾ المعنى: لمّا بيّن سبحانه أنّ الأمم المتقدّمة حلّ

١ـ سورة الزمر: ٥٣.

٢ـ سورة آل عمران: ١٣٥.

٣ـ مستدرك الوسائل، ج ٣، ص ٤٠؛ والأحكام الشرعية، ص ١٣٣؛ وبحار الأنوار، ج ٧٩ ص ٢٢٠.

٤ـ سورة طه: ١٣٢.

بهم عذاب الاستيصال بيّن أنّ السّبب فيه أمران: الأوّل أنه ما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الأرض والمعنى: فهلّا كان؟ وحكى الخليل أنّ كلّ ما كان في القران من كلمة «لولا» فمعناه «هلّا» إلّا الّتي في الصافّات.

والمراد من قوله: ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي: أولو فضل ونعمة وخير وسمّي الفضل والخير «بقيّة» لأنّ الرجل يستبقي ممّا يخرجه أجوده وأفضله يقال: فلان من بقيّة القوم أي: من خيارهم، ويجوز أن يكون البقيّة بمعنى البقوى كالتقيّة بمعنى التقوى أي: فهلّا كان منهم ذو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط اللّه وقرئ «أولو بقية» بكسر الباء وسكون القاف والبقية المرّة، والمعنى: فلولا كان منهم أولو مراقبة وخشية من عذاب اللّه. ثمّ قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولا يمكن أن يكون المستثنى متّصلاً لأنه على هذا التقدير يكون أمر البقيّة في النهي عن الفساد إلّا القليل من الناجين منهم كما تقول: هلّا قرأ قومك القرآن إلّا الصلحاء منهم تريد استثناء الصلحاء منهم، فإذا ثبت هذا فالاستثناء منقطع، والتقدير: لكنّ قليلاً ممّن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وسائرهم تاركون للنهي. ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: واتّبع المشركون ما عوّدوا من النعم والتنعّم وإيثار اللّذات على امور الآخرة وكان هؤلاء المبطرون والمتنعّمون مصرّين على الجرم. وفي الآية دلالة على وجوب النهي عن المنكر لأنه سبحانه ذمّهم بترك النهي عن المنكر وأخبر بأنّه أنجى القليل منهم، ونبّه بأنّه لو كان الكثير كما نهى القليل لما هلكوا وما استوصلوا بالعذاب كأنّه بيّن أنّ سبب عذابهم بالاستيصال ترك النهي عن الفساد.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾

المعنى: وما كان ربّك ليهلك القرى بظلم منه تعالى لهم ولكن إنّما

يهلكهم بظلمهم لأنفسهم كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا...﴾[1] هذا أحد وجوه معنى الآية. والثاني: أنّ اللّه لا يؤاخذهم بظلم بعضهم مع أنّ أكثرهم مصلحون ولكن إذا عمّ الفساد وظلم الأكثرون عذّبهم. وثالثها: أنّه لا يهلكهم بشركهم وظلم أنفسهم وهم يتعاطون الحقّ بينهم ويتعاملون بينهم بالإصلاح وينصف بعضهم بعضاً. وحاصل النظم في الآية أنّ السبب في إهلاك الأمم أنّهم أقدموا في إهلاك نفوسهم بعذاب الاستيصال، ولو كان فيهم مؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن الفساد لما استأصلناهم رحمة منّا، ولكنّهم لمّا عمّهم الكفر استحقّوا عذاب الاستيصال.

وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

المعنى: أخبر سبحانه عن قدرته فقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ﴾ الكلّ ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ وعلى دين واحد فيكونون مؤمنين بأن يلجئهم إلى الإيمان ولكنّ ذلك ينافي التكليف ويبطل الغرض ولذلك لم يشأ اللّه ذلك ولكنّه سبحانه شاء أن يؤمنوا باختيارهم ليستحقّوا الثواب وقيل: معناه: لو شاء ربّك لجعلهم أمّة واحدة في الجنّة على سبيل التفضّل ولكنّه شاء لهم بالجنّة لا على

١ــ سورة يونس: ٤٤.

سبيل التفضّل بل شاء على سبيل الاستحقاق للجنّة بحسن عملهم وقيل: معناه لو شاء رفع الخلاف فيما بينهم. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في الأديان بين يهوديّ ونصرانيّ ومجوسيّ وغير ذلك. وقيل: مختلفين في الأرزاق والأحوال ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ من المؤمنين فإنّهم لا يختلفون ويجتمعون على الحقّ وقد رحمهم ربّهم.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اختلف في معناه فقيل: وللرحمة خلقهم عن جماعة كابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضحّاك وهذا هو الصحيح. واعترض على ذلك بأن لو أراد ذلك لقال: ولتلك خلقهم لأنّ الرحمة مؤنّثة وهذا ليس بشيء لأنّ تأنيث الرحمة غير حقيقيّ فإذا ذكر فعلى معنى الإنعام والتفضّل وقد قال: سبحانه: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ و﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1] ومثله قول امرئ القيس:

برهرهـــــة رودة رخصـــــة ... كخرعوبــة البانـــة المنفطـــر

ولم يقل: المنفطرة لأنّه ذهب إلى الغصن وأمثال ذلك كثير وقيل: «اللام» للعاقبة يريد أنّ الله خلقهم وعلم أنّ عاقبتهم يؤول إلى الاختلاف المذموم كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾[2] ولا يجوز أن يكون اللام للغرض لأنّه تعالى لا يجوز أن يريد منهم الاختلاف المذموم لأنّه لو أراد منهم ذلك لكانوا مطيعين له في ذلك الاختلاف وحقيقة الطاعة الموافقة للإرادة فحينئذ لم يعذّبهم والإجماع محقّق بعذابهم ويمكن أن يكون «اللام» في الآية للغرض. وهذا إذا كان معنى الآية أنّه سبحانه لو شاء لجعلهم أمّة واحدة في الجنّة على سبيل التفضّل لكنّه اختار لهم أعلى الدرجتين ليستحقّوا

١ـ سورة الكهف: ٩٨، وسورة الاعراف: ٥٦.

٢ـ سورة الاعراف: ١٧٩.

الثواب ولهذا الغرض خلقهم.

وقال المرتضى ﷺ: قد قال قوم: إنّ معنى الآية ولو شاء ربّك أن يدخل الناس بأجمعهم الجنّة فيكونوا في وصولهم جميعهم إلى الجنّة أمّة واحدة لفعل وأجروا هذه الآية مجرى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[1] وإنّه أراد هداها إلى طريق الجنّة فعلى هذا التأويل يكون لفظة ذلك إشارة إلى إدخال الجميع الجنّة وخلقهم المصير إليها لكنّهم نقضوا هذا الغرض بسوء اختيارهم وهذا المعنى اختيار جمهور المعتزلة قالوا: ولا يجوز أن يفسّر الآية بأنّ اللّه العادل يخلقهم للاختلاف بل خلقهم للرحمة وهو القول الصحيح.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: وصل وبلغ وحيه ووعده ووعيده بتمامه إلى خلقه فمن شاء فليكفر ومن شاء فليؤمن. وقيل معناه: وجب قول ربّك ومضى حكمه سبحانه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ بكفرهم إذا كفروا ﴿وَكُلًّا﴾ من هذه القصص من أخبار الرسل يتابع بعضها بعضاً ويأتي بعضها أثر بعض ليكون ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ونقوّي به قلبك ونزيدك به ثباتاً على ما أنت عليه.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ قيل: في هذه السورة. وقيل: في هذه الدنيا وقيل: في هذه الأنباء، والمراد بالحقّ الصدق من الأنباء والوعد. وقيل: معناه: وجاءك في ذكر هذه الآيات الحقّ والموعظة وليس المراد إذا قيل: قد جاءك في هذه الحقّ أن يكون لم يأتك الحقّ إلّا فيه ولكنّ بعض الحقّ أوكد من بعض ﴿وَذِكْرَى﴾ وتذكّر ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَقُلْ﴾ يا محمّد صلى اللّه عليك ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بآياتنا: ﴿اعْمَلُوا﴾ على طريقتكم على الكفر ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ على طريقتنا على الإيمان ﴿وَانْتَظِرُوا﴾ ما يعدكم اللّه على الكفر من العقاب ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ ما يعدنا اللّه على الإيمان من الثواب.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: علم ما غاب في السماوات ﴿وَالْأَرْضِ﴾ لا

١ـ سورة السجده: ١٣.

يخفى عليه شيء منه وقيل: معناه ولله خزائن السماوات والأرض المستورات ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ أي: إلى حكمه يرجع في المعاد كلّ الأمور لأنّ في الدنيا قد يكون يملك غيره سبحانه بعض الأمر والنهي والنفع والضرّ ولكنّ هناك كلّ الأمور راجعة إليه فإذا كان الأمر كذلك فلابدّ أنّه يعبد ويتوكّل عليه ويوثق به وليس هو سبحانه غافلاً عن أعمال عباده من ثواب وموجب عقاب.

قال الطبرسيّ في المجمع: وجدت بعض المشايخ ممّن يتّسم بالعدوان والتشنيع قد ظلم الشيعة الإماميّة في هذا الموضع من تفسيره فقال: هذا يدلّ على أنّ الله يختصّ بعلم الغيب خلافاً لما تقول الرافضة: إنّ الأئمّة يعلمون الغيب ولا شكّ أنّه عنى بذلك من يقول بإمامة الاثني عشر ويدين ويعتقد بأنّهم أفضل الأنام بعد النبيّ وينسب الفضائح والقبائح إلى هذه الطائفة.[1] قال الطبرسيّ: ولا نعلم أحداً منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق حتّى النبيّ وإنّما يستحقّ الوصف بذلك من يعلم جميع المعلومات لا يعلم مستفاد، وهذه صفة القديم سبحانه العالم لذاته لا يشركه أحد من المخلوقين ومن اعتقد أنّ غير الله يشركه في هذه الصفة فهو خارج عن ملّة الإسلام.[2]

فأمّا ما نقل عن أمير المؤمنين ورواه عنه الخاصّ والعامّ من الإخبار بالغائبات في خطب الملاحم وغيرها مثل قوله إلى صاحب الزنج: **«كأنّي به يا أحنف وقد سار بالجيش الّذي ليس له غبار ولا لجب ولا قعقعة لجم[3] ولا صهيل خيل يثيرون الأرض بأقدامهم كأنّه أقدام النعام»** وقوله ـ يشير إلى مروان ـ: **«أما إنّ له امرة كلعقة الكلب أنفه وهو أبو الأكبش الأربعة وسيلقى الامّة منه ومن ولده موتاً أحمر».**[4]

١ـ مجمع البيان، ج ٥، ص ٣٥٢؛ وبحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٠٠.

٢ـ مجمع البيان، ج ٥؛ص ٣٥٣.

٣ـ اللجب: صوت الابطال، والقعقعه: صوت اصلاة؟؟؟؟.

٤ـ مجمع البيان، ج ٥ ص ٣٥٣.

وما نقل من هذا القبيل عن أئمة الهدى مثل ما قال أبو عبد الله عليه السلام لعبد الله بن الحسن ـ وقد اجتمع هو وجماعة من العلويّة والعبّاسيّة ليبايعوا ابنه محمّد ـ: «**والله ما هي لابنك ولا لك ولكنّها لهم وأشار إلى العبّاسيّة وإنّ ابنيك لمقتولان. ثمّ نهض وتوكّأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهريّ فقال له: أ رأيت صاحب الرداء الأصفر يعني أبا جعفر المنصور قال: نعم فقال: إنّا والله نجده يقتله فكان كما قال. فقتله المنصور**».[1] ومثل قول الرضا عليه السلام: «**بورك قبر بطوس وقبران ببغداد**» فقيل له. قد عرفنا واحداً فما الآخر فقال عليه السلام: «**ستعرفونه ثمّ قال: قبري وقبر هارون هكذا وضمّ إصبعيه**»[2] وقوله في حديث عليّ بن الوشّاء حين قدم مرو من الكوفة قال له الرضا عليه السلام: «**معك حلّة في السفط الفلانيّ دفعتها إليك ابنتك وقالت اشتر لي بثمنها فيروزجاً**». الحديث.[3] إلى غير ذلك ممّا روي عنهم.

فإنّ جميع ذلك متلقّى عن النّبي صلى الله عليه وآله بما أطلع الله نبيّه والنبيّ أخبرهم فهذا علم مستفاد وليس بعلم الغيب وأنّهم ما ادّعوا علم الغيب بل نفوا عن أنفسهم كما قال أمير المؤمنين في خطبة الملاحم لمّا قالوا بعض أصحابه حين أنشأ تلك الخطبة: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب فضحك عليه السلام وقال للرجل ـ وكان كلبيّاً ـ: يا أخا كليب ليس هو بعلم الغيب، وإنما هو تعلّم من ذي علم وإنّما علم الغيب علم الساعة وما عدّده الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ... وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ من ذكر وأنثى وقبيح وجميل وسخيّ وبخيل وشقيّ وسعيد، ومن يكون في النار حطباً أو في الجنان وأمثاله فهذا علم الغيب الّذي لا يعلمه أحد إلّا الله وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيّه فعلّمنيه.[4]

١ـ المصدر السابق نفسه.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ الثاقب في المناقب، ابن حزم الطوسي، ص ٤٨٠؛ مناقب آل ابي طالب، ج ٣، ص ٤٥٣؛ ومدينه المعاجز، ج ٧، ص ١١٦.

٤ـ نهج البلاغه، ج ٢، ص ١٠.

وفي «شرح النهج» أنّ صاحب الزنج[١] اسمه عليّ وكان يدّعي أنّه عليّ بن محمّد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وأرباب السير قدحوا في نسبه وأنكروا ذلك واتّفقوا على أنّه من بني عبد القيس الأسديّ أحد الخارجين مع زيد بن عليّ عليه السلام، وبعض الناس يرمونه بالزندقة والإلحاد وفي بعض الأخبار أنّ ارتفاع أمره كان قريباً من وفات سيّدنا العسكريّ عليه السلام، وكان يقتل الرجال والنساء والأطفال والشيخ الفاني والمريض ولا يبقي، وأكثر أتباعه الدهاقين بالبصرة أوّل أمره، وكانوا مشاة عراة أقدامهم عراض غلاظ وقد أشار إلى هذا المعنى بقوله عليه السلام: **«يثيرون الأرض بأقدامهم»**[٢] وكناية عن شدّة وطئهم الأرض بأقدامهم الغليظة.

قد ختم سبحانه هذه السورة بخاتمة شريفة جامعة لكلّ المطالب العالية حيث خصّ ذاته الشريفة بعلم الغيب حيث لا يشاركه موجود، وحقيقة ذات الإله وكنه ربوبيّته غير معلومة للبشر البتّة، وإنّما المعلوم للبشر والأمر القابل لعلم البشر صفاته سبحانه وصفاته قسمان: صفات الجلال وصفات الإكرام. أمّا صفات الجلال فهي سلوب كقولك: ليس بجوهر ولا جسم ولا مرئيّ ولا متحيّز وأمثاله وهذه السلوب في الحقيقة ليست صفات الكمال لأنّ السلوب عدم والعدم المحض والنفي الصرف لا كمال فيه فقولنا: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[٣] أفاد الكمال

١ـ من كبار أصحاب الفتن في العهد العباسي وفتنته معروفة وبفتنة الزنج لأن اكثر أنصاره منهم ظهر في أيام المهتدي العباسي سنة ٢٥٥هـ والتف حوله سودان أهل البصرة فامتلك البصرة والابلة وتتابعت لقتاله الجويش فكان يظهر عليها ويشتها. ونزل البطائح وامتلك الأهواز وعلى غار واسط وعجز عن قتاله الخلفاء حتى ظفر به الموفق بالله في أيام المعتمد، فقتله وبعث براسه إلى بغداد سنة ٢٧٠ هـ.
وكان يري راي الازارقة من الخوارج. وفي نسبه طعن كما ذكره المصنف قدس سره والمشهور في اسمه: علي بن محمد العلوي فوات الوفيات ج ٢: ٨٣.

٢ـ نهج البلاغه، ج ٢، ص ٩.

٣ـ سورة البقرة: ٢٥٥.

لدلالته على العلم المحيط الدائم المبرأ عن التغيير، ولولا ذلك كان عدم النوم ليس يدلّ على كمال أصلاً ألا ترى أنّ الميّت والجماد لا يأخذه سنة ولا نوم؟ ولكن قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[1] يفيد الجلال والكبرياء لكونه يفيد أنّه واجب الوجود غنيّ لذاته عن احتياج الطعام.

فتحقّق أنّ صفات العزّ والكمال والعلوّ هي الصفات الثبوتيّة، وأشرفها وأسناها العلم والقدرة فوصف سبحانه ذاته بهما في معرض التعظيم والثناء.

أمّا العلم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: إنّ علمه نافذ في جميع الكلّيّات والجزئيات والحاضرات والغائبات.

وأمّا صفة القدرة بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ وإنّما يكون كذلك لو كان مصدر الكلّ ومبدأ الكلّ هو هو والّذي مبدأ الكلّ إليه مرجع الكلّ، وليس هذا إلّا من عظيم القدرة فحينئذ لا تنبغي العبادة إلّا له وتفويض الأمور إلّا إليه.

فأوّل درجات السير إلى الله هو عبوديّة الله وآخرها التفويض إليه والتسليم له فلهذا السبب قال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وهو لا يضيع طاعات المطيعين ولا يهمل أحوال المتمرّدين الجاحدين فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وذلك بأن يحضروا في موقف القيامة ويحاسبوا على النقير والقطمير ويعاتبوا في الصغير والكبير، ثمّ يحصل عاقبة الأمر فريق في الجنّة وفريق في السعير، فظهر لك أنّ هذه الآية وافية بالإرشاد إلى جميع المطالب العلويّة، وروي عن كعب الأحبار أنه قال: خاتمة التوراة خاتمة سورة هود.

تمّت السورة بحمد الله. إلى هنا تمّ الجزء الخامس من الكتاب وهو مشتمل على (١٠٤) آية من سورة الأعراف وتمام سورة الأنفال والتوبة ويونس وهود. ولله الحمد.

١ـ سورة الأنعام: ١٤.

فهرس الأحاديث

(أ)

إذا رأيتم الربيع فأكثروا ذكر النشور ٢٦٨

إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان ١٥١

إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول ٨١

إذا كان يوم القيامة يدعى برجل جمع القرآن فيقال له ٣٧٥

إذا نزلت بكم شدّة فاستعينوا بنا ٦٤

أسرع الخير ثواباً صلة الرحم، وأعجل الشرّ عقاباً البغي واليمين الفاجرة ٢٩٦

أشترط لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ٢٣٩

أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة من يرى الناس أنّ فيه خيراً ولا خير فيه ٣٧٥

أصابت الناس فتنة بعدما قبض رسول الله حتّى تركوا علياً ١٠٦

أعطني قبضة من التراب من حصاة الوادي ١٠١

أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد قبلي ٤٤

آمن مع نوح ثمانية نفر ٣٨٩

إنّ الخالق لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه ٦٤

إنّ الكرّوبين قوم من شيعتنا من الخلق الأوّل جعلهم خلف العرش ٢٣

إنّ الله بعثني أن أقاتل من يعبد غيره ١١١

إنّ الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلّا بقيّة من أهل الكتاب ٢٩١

إنّ الله قد عفى عن أمّتي ما حدثت به نفوسها ولم يتلفّظوا به ٢١٠

إنّ الله يقبل الصدقة ولا يقبل منها إلّا الطيّب ٢٣١
إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة ٢٧٩
إنّ النبيّ ﷺ لم يشك ولم يسأل ٣٥٣
إنّ صخرة باليمن التقمت ممّا ذهبت وتكسّرت من التوراة حين ألقاها موسى ٣٢
أنّ في الجنّة نهراً يقال له رجب ١٧٤
إنّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها ٣٣٠
إنّ ناساً من المنافقين قالوا كيت وكيت وناقتي في هذا الشعب قد تعلّق زمامها بشجرة ٦٩
إنّ هذا في كتاب الله ٣٣٥
أنا كنت أوّل الأمر أطيب نفساً بالشفاعة والله كان أسرع في الإجابة ١٩٨
أنت أوّل شهيد من أهل بيتي ٩٥
أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل تتّبعون عملهم حذو القذّة بالقذّة ٢٠٣
الأنفال كلّ ما أخذ من دار الحرب بغير قتال ٨٤
الأنفال ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب أو قوم صالحوا أو أعطوا بيدهم ٨٤
إنّما مثلي ومثلكم مثل سيّد بنى داراً ووضع مائدة ٢٩٨
إنّي سألت الله أن يؤاخي بيني وبينك ففعل ٣٧٢
الإيمان نصفان صبر وشكر ١٩٥

(ب)

بورك قبر بطوس وقبران ببغداد ٤٣٨

(ت)

تعصّوا فإنّها من سنن إخواني المسلمين ٧
تعوّذوا بالله من جبّ الحزن ٣٧٥
تفكّروا في الخلق ولا تتفكّروا في الخالق ٣٦٠

تقبلوا لي ستاً أتقبل لكم الجنة ٢١٠

(ث)

ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صلّى وصام وزعم أنّه مؤمن ٢١٠
ثلاثة أصناف نجى منهم صنف وهو الصنف الناهية ٥٢
ثنتان يعجّلهما الله في الدنيا ٢٩٦

(ج)

جاءت الملائكة لوطاً وهو في زرعه قرب القرية فسلّموا عليه ٤١١
جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ١٩٤
جرت السنّة أنّه لا يؤخذ الجزية من المعتوه ولا من المغلوب على عقله ١٦٣

(ح)

الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش ١٥١
حصّنوا أموالكم بالزكاة ١٩٤

(خ)

خصّ هذه الامّة بآيتين في القرآن أن لا يقولوا إلّا ما يعلمون ٣١٢

(د)

الدنيا سجن المؤمن ٣٢٤

(ذ)

ذهبت النبوّات وبقيت المبشّرات ٣٣٥

(ر)

الرؤيا الصالحة جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة ٣٣٥

الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان ٣٣٥

(س)

سمّي شعبان لأنه يتشعّب فيه خير كثير ١٧٤
سياحة أمّتي الصيام ٢٤٣

(ش)

الشقيّ من شقي في بطن أمّه والسعيد سعيد في بطن امه ٤٢٤
شيّبتني هود وأخواتها ٤٢٩.٣٦٥

(ع)

علماء أمّتي كأنبياء بني إسرائيل ٣٢٩
عليكم بالصدق فإنّه يقرّب إلى البرّ والبرّ يقرّب إلى الجنّة ٢٥٢

(ق)

قصر في الجنّة من اللؤلؤ فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء ٢٠٤
قيمة كلّ امرى ما يحسنه ٣١٢

(ك)

كان في الأرض أمانان من عذاب الله ١١٣
كان نوح لبث في السفينة ما شاء الله ٣٩٤
كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه ٢٩٢

(ل)

لا أجد ما أحملكم عليه فتولّوا وهم يبكون ٢٢١
لا هجرة بعد الفتح ١٣٧

لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلّا أدخله اللّه كلمة الإسلام ١٦٩
لا يسمع بي يهوديّ ولا نصرانيّ فلا يؤمن بي إلّا كان من أهل النار ٣٧٨
لتأخذنّ كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر ٢٠٢
لتقومنّ الساعة والرجل ليرفع اللقمة إلى فيه حتى تحول الساعة بينه وبين ذلك ٦٩
لما نصب النبيّ عليّاً يوم الغدير شاع ذلك في البلاد ١١٢
لو أنّ رجلاً عمل عملاً في صخرة لا باب لها ٢٣٢
لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ٢١٤
لو شئتم لقلتم وصدقتم جئتنا طريداً فآويناك ١٥٩
ليس المسكين الّذي يرده الأكلة والأكلتان والتمرة والتمرتان ١٩١
ليس لأبدانكم ثمن إلّا الجنّة فلا تبيعوها إلّا بها ٢٤٠
ليفترقنّ هذه الامّة على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النار إلّا فرقة واحدة ٦٥

(م)

مامن عبد له مال لا يؤدّي زكاته إلّا جمع يوم القيامة صفائح ١٧١
مامن عبد مسلم يتصدّق بصدقة فتصل إلى الّذي يتصدّق بها عليه ٢٣٢
المغرب والعشاء زلفتا الليل ٤٣١
من أسرج في مسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ١٥١
من ألف المسجد ألفه اللّه ١٥١
من ترك كنزاً مثّل له شجاعاً أقرع له زبيبتان ١٧١
من سرّه أن يستجاب له دعوة عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء ٢٨٣
من شرطه أن يكون إمام عادل يتألّفهم على ذلك ١٩٢
من ظلم عليّاً بعد وفاتي فكأنّما جحد نبوّتي ونبوّة الأنبياء قبلي ١٠٦
من قرأ الأنفال وسورة براءة في كلّ شهر ٨٣

من قرأ سورة الأعراف في كلّ شهر ٨١

من قرأ سورة الأنفال وبراءة فأنا شفيع له ٨٣

من قرأ سورة هود في كلّ جمعة بعثه الله يوم القيامة في زمرة النبيّين ٣٦٥

من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق ٣٦٥

من كثر ماله اشتدّ حسابه، ومن ازداد من السلطان قرباً ازداد من الله بعداً ١٨٨

من مات وليس له وارث فماله من الأنفال ٨٤

من هداه الله للإسلام وعلّمه القرآن ثمّ شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم القيامة .. ٣٢٨

(ن)

نحن قوم فرض الله طاعتنا لنا الأنفال ولنا صفو المال ٨٤

نحن والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ٦٤

(و)

وأنا اقسم أنّي لا أحلّهم حقّ أو مر فيهم ٢٢٩

(ي)

يأتي في آخر الزمان أناس من أمّتي ١٥١

المصادر

١ـ القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

٢ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام (السجاد) (ت ٩٤ هـ ق)

٣ـ الاحتجاج، الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٨٨ هـ ق).

٤ـ أحكام القرآن، الجصاص، أبي بكر أحمد بن علي الرازي.

٥ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ ق).

٦ـ أسباب النزول، الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد بن محمّد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ ق).

٧ـ الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

٨ـ الإستبصار في نسب الصحابة الأنصار، عبدالله بن أحمد بن موفق الدين ابن قدامة (ت: ٦٢٠ هـ ق).

٩ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، إبن الأثير الجزري، عزالدين علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ ق).

١٠ـ إعانه الطالبين علي حل الفاظ فتح المعين، بكري المكي ابن السيد محمد شطا عمر الله الدمياطي.

١١ـ الألفية والنفلية، الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.

١٢ـ الأمالي الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

١٣ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.

١٤ـ بحار الأنوار، المجلسي، محمّد باقر محمّد تقي (ت ١١١٠ هـ ق).

١٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).

١٦ـ بصائر الدرجات في فضائل آل محمد عليهم السلام، الصفار، محمد بن حسن (ت ٢٩٠ هـ ق).

١٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ ق).

١٨ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ ق).

١٩ـ تاريخ (الرسل والأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ق).

٢٠ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت ٥٧١ هـ ق).

٢١ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

٢٢ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).

٢٣ـ التحصين في صفات العارفين، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).

٢٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين الحرّاني الحلبي (ت ٣٨١ هـ ق).

٢٥ـ تحفة الأحوذي (شرح جامع الترمذي)، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري الهندي.

٢٦ـ تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـ ق).

٢٧ـ تذكرة الموضوعات، أبو الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي.

٢٨ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي أبو السعود.

٢٩ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل فى تفسير القرآن)، حسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ ق).

٣٠ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل و أسرار التأويل)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت ٦٩١ هـ ق).

٣١ـ تفسير الثعلبي (الكشف و البيان عن تفسير القرآن)، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبى النيشابوري (ت ٤٣٧ هـ ق).

٣٢ـ تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.

٣٣ـ تفسير روح المعانى، ابو الفضل، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ ق).

٣٤ـ تفسير الرازي (روض الجنان و روح الجنان فى تفسيرالقرآن)، ابوالفتوح حسين بن على الرازي.

٣٥ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، نصر بن محمد بن احمد السمرقندي.

٣٦ـ التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).

٣٧ـ تفسير العياشي، ابن عياش، أبو النصر محمّد بن المسعود بن محمّد التميمي الكوفي السلمي السمرقندي (من أعلام القرن الثالث الهجري).

٣٨ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).

٣٩ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، أبو عبدالله محمّد أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ ق).

٤٠ـ تفسير القمي، القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧ هـ ق).

٤١ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ ق).

٤٢ـ التفسير المنسوب الي الإمام العسكري عليه السلام.

٤٣ـ تفسير جوامع الجامع، فضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ ق).

٤٤ـ تفسير كنز الدقائق و بحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي.

٤٥ـ تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ ق).

٤٦ـ تنبيه الخواطر و نزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥ هـ ق).

٤٧ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الاسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت ٤٩٤ هـ ق).

٤٨ـ تنزية الأنبياء، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).

٤٩ـ تهذيب الأحكام، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

٥٠ـ ثمار القلوب في المضاف و المنسوب، ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ ق)

٥١ـ ثواب الأعمال و عقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق)

٥٢ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي، (ت ١٣٨٠ هـ ق)

٥٣ـ جامع الأخبار، محمد بن محمد الشعيري (من اعلام القرن السادس الهجري).

٥٤ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ق).

٥٥ـ جامع السعادات، العلامة النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر (ت ١٢٠٩ هـ ق).

٥٦ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري الدوسي (ت ٣٢١ هـ ق).

٥٧ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن حسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

٥٨ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن بن باقر النجفي (ت ١٢٦٦ هـ ق).

٥٩ـ الحبل المتين في أحكام الدين، الشيخ البهائي، الشيخ محمد بن حسين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ ق).

٦٠ـ الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ ق).

٦١ـ حلية الأبرار في أحوال محمّد و آله الأطهار عليهم السلام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ ق).

٦٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٦٣ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ ق).

٦٤ـ الدعوات (سلوة الحزين)، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٦٥ـ رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).

٦٦ـ روضة الواعظين و بصيرة المتعظين، محمد بن احمد الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ ق).

٦٧ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ ق).

٦٨ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المقدس الأردبيلي، احمد بن محمد (ت ٩٩٣ هـ ق).

٦٩ـ سعد السعود، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٧٠ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ ق).

٧١ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن سداد الأزدي (ت ٢٧٥ هـ ق).

٧٢ـ السنن الكبرى، البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ ق).

٧٣ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ ق).

٧٤ـ السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، الحلبي، علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي.

٧٥ـ شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري.

٧٦ـ شرح احقاق الحق، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١ هـ ق).

٧٧ـ شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ ق).

٧٨ـ شرح الأزهار (المنتزع المختار من الغيث المدرار)، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ ق).

٧٩ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن الحسين المدائني المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ ق).

٨٠ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحذاء الحنفي النيسابوري (من أعلام القرن الخامس الهجري) (المتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ ق).

٨١ـ صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن مغيرة بن بودزيه الجعفي (ت ٢٥٦ هـ ق).

٨٢ـ صحيح مسلم، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ ق).

٨٣ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد الواقدي، محمّد بن سعد بن منيع الزهري الكاتب (ت ٢٣٠ هـ ق).

٨٤ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق)

٨٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٦ـ عوالي اللآلي العزيزيّة، ابن أبي جمهور، محمّد بن علي بن ابراهيم الاحسائي (من أعلام القرن التاسع الهجري).

٨٧ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٨ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس الهجري).

٨٩ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمدبن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ ق).

٩٠ـ الفتوحات المكية، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت ١٢٤٠ هـ ق).

٩١ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٢ـ الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، ابن الصباغ، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي (ت ٨٥٥ هـ ق).

٩٣ـ فقه القرآن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٩٤ـ فلاح السائل و نجاح المسائل، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٥ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، المناوي، أبو زكريّا يحيى بن محمّد عبدالرؤوف (ت ١٠٣١ هـ ق).

٩٦ـ قواعد المرام في علم الكلام، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٩٩ هـ ق).

٩٧ـ الكافي، الكليني أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ ق).

٩٨ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، اسماعيل بن محمد (ت ١١١٩ هـ ق).

٩٩ـ كشف الغطاء عن مبهمات شريعة الغراء، كاشف الغطاء، جعفر بن خضر (ت ١٢٢٧ هـ ق).

١٠٠ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥ هـ ق).

١٠١ـ كنز الفوائد، محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ ق).

١٠٢ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، عبدالرؤف بن تاج العارفين المناوي الحدادي (ت ١٠٣١ هـ ق).

١٠٣ـ لسان العرب، ابو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ ق).

١٠٤ـ لسان الميزان، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ ق).

١٠٥ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨ هـ ق).

١٠٦ـ المجموع في شرح المهذب، يحيي بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ ق).
١٠٧ـ المحاسن، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٨٠ هـ ق).
١٠٨ـ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
١٠٩ـ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦ هـ ق).
١١٠ـ المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ ق).
١١١ـ مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ ق).
١١٢ـ مصباح المتهجد، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٣ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن ابي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمّد بن ابراهيم بن عثمان العنبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ ق).
١١٤ـ مكارم الأخلاق، ابو نصر رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري).
١١٥ـ الملاحم والفتن، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٦ـ من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
١١٧ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ابو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ ق).
١١٨ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ ق).
١١٩ـ النصائح الكافية، السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي (ت ١٣٥٠ هـ ق).
١٢٠ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

المحتويات

تتمة سورة الأعراف ٥

سورة الأنفال ٨٣

سورة التوبة ١٣٩

سورة يونس ٢٦١

سورة هود ٣٦٥

فهرس الأحاديث ٤٤١

المصادر ٤٤٧

المحتويات ٤٥٥